سورة إبراهيم

مكية إلا آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وآياتها ٥٢ نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾

اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد. ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ معناه أن السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه إليك لغرض كذا وكذا فقوله: ﴿الٓر﴾ مبتدأ وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره وقوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ صفة لذلك الخبر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى. قالت المعتزلة: النازل والمنزل لا يكون قديمًا.

وجوابنا: أن الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهي محدثة بلا نزاع.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: اللام في قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لام الغرض والحكمة، وهذا يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض، وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح.

أجاب أصحابنا بأن من فعل فعلاً لأجل شيء آخر فهذا إنما يفعله لو كان عاجزًا عن تحصيل هذا المقصود إلا بهذه الواسطة وذلك في حق الله تعالى محال، وإذا ثبت بالدليل أنه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت أن كل ظاهر أشعر به فإنه مؤول محمول على معنى آخر.

المسألة الثالثة: إنما شبه الكفر بالظلمات لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الإيمان بالنور لأنه ما ينجلي به طريق هدايته.

المسألة الرابعة: قال القاضي: هذه الآية فيها دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات: أحدها: أنه تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب. وثانيها: أنه تعالى أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ فإن كان خالق ذلك الكفر هو الله

تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام إخراجهم منه وكان للكافر أن يقول : إن الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فإن قال لهم : أنا أخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع ، فلهم أن يقولوا : إن كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الإخراج وإن لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا إخراج . وثالثها : أنه ﷺ إنما يخرجهم من الكفر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالمًا قادرًا حكيمًا ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع ، وذلك لا يصح إلا إذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم ، ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه .

والجواب عن الكل أن نقول: الفعل الصادر من العبد إما أن يصدر عنه حال استواء الداعي إلى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر .

والأول: باطل ، لأن صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم ، وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال .

والثاني: عين قولنا لأنه يمتنع صدور الفعل عنه إلا بعد حصول الرجحان ، فإن كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال ، وإن لم يكن منه بل من الله تعالى ، فحينئذ يكون المؤثر الأول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم .

المسألة الخامسة : احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى الآية أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بإذن ربهم ، والمراد بهذا الإذن إما الأمر ، وإما العلم ، وإما المشيئة والخلق . وحمل الإذن على الأمر محال ، لأن الإخراج من الجهل إلى العلم لا يتوقف على الأمر ، فإنه سواء حصل الأمر أو لم يحصل ، فإن الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق ، وأيضًا حمل الإذن على العلم محال ، لأن العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات إلى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال إن حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق إلا أن يكون المراد من الإذن المشيئة والتخليق ، وذلك يدل على أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمشيئة الله وتخليقه .

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الإذن الإلطاف .

قلنا: لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول : المراد بالإذن إما أن يكون أمرًا يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضي ذلك ، فإن كان الثاني لم يكن فيه أمر ألبتة ، فامتنع أن يقال : إنه مما حصل بسببه ولأجله فبقي الأول وهو أن المراد من الإذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم . وقد دللنا في (الكتب العقلية) على أنه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك إلا الداعية الموجبة وهو عين قولنا ، والله أعلم .

المسألة السادسة: القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول ﷺ والإمام، احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا: إنه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم.

وجوابنا: أن الرسول ﷺ يكون كالمنبه، وأما المعرفة فهي إنما تحصل بالدليل، والله أعلم.

المسألة السابعة: الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وأن طريق الخير ليس إلا الواحد، لأنه تعالى قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا الواحد.

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وجهان:

الأول: أنه بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥].

الثاني: يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

المسألة التاسعة: قالت المعتزلة: الفاعل إنما يكون آتيًا بالصواب والصلاح، تاركًا للقبيح والعبث إذا كان قادرًا على كل المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن كل الحاجات، فإنه إن لم يكن قادرًا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز، وإن لم يكن عالمًا بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل، وإن لم يكن غنيًا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة، أما إذا كان قادرًا على الكل عالمًا الكل غنيًا عن الكل امتنع منه الإقدام على فعل القبيح، فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إشارة إلى كونه مستحقًا للحمد في كل أفعاله، وذلك إنما يحصل إذا كان عالمًا بالكل غنيًا عن الكل فثبت بما ذكرنا أن صراط الله إنما كان موصوفًا بكونه شريفًا رفيعًا عاليًا لكونه صراطًا مستقيمًا للإله الموصوف بكونه عزيزًا حميدًا، فلهذا المعنى: وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام.

المسألة العاشرة: إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد، لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالمًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيًا عن الحاجات، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني، فلما كان العلم بكونه تعالى قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا بالكل غنيًا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (اللَّهُ) مرفوعًا بالابتداء وخبره ما بعده، وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفًا على قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهاهنا بحث، وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا إلى أن قولنا: الله جار مجرى الإسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق والحق عندنا هو الأول. ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الاسم المشتق عبارة عن شيء ما حصل له المشتق منه، فالأسود مفهومه شيء ما حصل له السواد، والناطق مفهومه شيء ما حصل له النطق، فلو كان قولنا الله اسمًا مشتقًا من معنى لكان المفهوم منه أنه شيء ما حصل له ذلك المشتق منه، وهذا المفهوم كلي لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه، فلو كان قولنا الله لفظًا مشتقًا لكان مفهومه صالحًا لوقوع الشركة فيه، ولو كان الأمر كذلك لما كان قولنا لا إله إلا الله موجبًا للتوحيد، لأن المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما اجتمعت الأمة على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جارٍ مجرى الاسم العلم.

الثاني: أنه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والأسماء ذكرنا أولاً قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الأمر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الألفاظ دالة على الصفات والنعوت.

الثالث: أن ما سوى قولنا الله كلها دالة، إما على الصفات السلبية، كقولنا: القدوس السلام، أو على الصفات الإضافية، كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا: العالم القادر، أو على ما يتركب من هذه الثلاثة، فلو لم يكن قولنا: الله اسمًا للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظًا دالة على صفاته، ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد، لأنه يبعد أن لا يكون له من حيث إنه هو اسم مخصوص. والرابع: قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله، وذلك يدل على أن قولنا: الله اسم لذاته المخصوصة، وإذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] فأما أن يعكس فيقال: هو الخالق المصور البارىء الله، فذلك غير جائز.

وإذا ثبت هذا فنقول: الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالرفع أرادوا أن يجعلوا

قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبرًا عنه وهذا هو الحق الصحيح، فأما الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر عطفًا على: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال: الله الخالق. وإما أن يقال: الخالق الله فهذا لا يحسن، وعند هذا اختلفوا في الجواب على وجوه: الأول: قال أبو عمرو بن العلاء: القراءة بالخفض على التقديم والتأخير، والتقدير: صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات. والثاني: أنه لا يبعد أن يذكر الصفة أولاً ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال: مررت بالإمام الأجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتحقيق القول فيه: أنا بينا أن الصراط إنما يكون ممدوحًا محمودًا إذا كان صراطًا للعالم القادر الغني، والله تعالى عبر عن هذه الأمور الثلاثة بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة في أن ذلك العزيز من هو؟ فعطف عليها قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إزالة لتلك الشبهة. الثالث: قال صاحب (الكشاف): الله عطف بيان للعزيز الحميد، وتحقيق هذا القول ما قررناه فيما تقدم. الرابع: قد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن قولنا الله في أصل الوضع مشتق إلا أنه بالعرف صار جاريًا مجرى الإسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لأجل أنه جعل اسم علم، وأما في هذه الآية حيث جعل وصفًا للعزيز الحميد، فذاك لأجل أنه حمل على كونه لفظًا مشتقًا فلا جرم بقي صفة. الخامس: أن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزًا حميدًا فلما قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بقي في خاطر عبدة الأوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن، فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو ألبتة، وذلك لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء، فلو حصل ذات الله تعالى في جهة فوق، لكان حاصلاً في السماء، وهذه الآية دالة على أن كل ما في السموات فهو ملكه، فلزم كونه ملكًا لنفسه وهو محال، فدلت هذه الآية على أنه منزه عن الحصول في جهة فوق.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق لأعمال العباد لأنه قال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأعمال العباد حاصلة في السموات والأرض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له، والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت أنها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره وذلك محال.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يفيد الحصر والمعنى أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله ثم إنه تعالى لما

ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والمعنى: أنهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل ما فيهما إلى عبادة ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا ويُخلق ولا يَخلُق، ولا إدراك لها ولا فعل، فالويل ثم الويل لمن كان كذلك، وإنما خص هؤلاء بالويل، لأن المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون يا ويلاه. ونظيره قوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[الفرقان: ١٣] ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذي يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع: الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن شئت جعلت (الذين) صفة الكافرين في الآية المتقدمة وإن شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وإن شئت نصبته على الذم.

المسألة الثانية: الاستحباب طلب محبة الشيء، وأقول إن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محبًا لذلك الشيء، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبًا لهما، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محبًا له، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب. فأحدها: أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان. وثانيها: أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات. وثالثها: أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والإنقراض والانقضاء. ورابعها: أنها حقيرة قليلة، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٧] فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن فيه إضمارًا، والتقدير: يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذمومًا إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذمومًا حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

النوع الثاني: من الصفات التي وصف الله الكفار بها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

واعلم أن من كان موصوفًا باستحباب الدنيا فهو ضال، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين، وهذه المرتبة الثانية وهي

كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين.

والنوع الثالث: من تلك الصفات قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، واعلم أن الإضلال على مرتبتين:

المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم.

والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قال صاحب (الكشاف) الأصل في الكلام أن يقال: ويبغون لها عوجًا، فحذف الجار وأوصل الفعل، ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لأحوال هؤلاء الكفار قال في صفتهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ وإنما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه:

الوجه الأول: أنا بينا أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد، مثل السواد والبياض، فكذا هاهنا الضلال الذي يكون واقعًا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال.

والوجه الثاني: أن يكون المراد أن يبعد ردهم عن طريقة الضلال إلى الهدى، لأنه قد تمكن ذلك في نفوسهم.

والوجه الثالث: أن يكون المراد من الضلال الهلاك، والتقدير: أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع، وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] كان هذا إنعامًا على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم، وإنعامًا أيضًا على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين. أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم، فإنه متى كان الأمر كذلك، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل، وعن الغلط والخطأ أبعد. فهذا هو وجه النظم.

المسألة الثانية: احتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توفيقية. قال لأن التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم، وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف، فوجب حصولها بالإصطلاح.

المسألة الثالثة: زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمدًا رسول الله لكن إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين:

الأول: أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربيًا لم يكن القرآن حجة عليه.

الثاني: قالوا: إن قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط.

والجواب: لم لا يجوز أن يكون المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل بلده، وليس المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل دعوته. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

المسألة الرابعة: تمسك أصحابنا بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على أن الضلال والهداية من الله تعالى، والآية صريحة في هذا المعنى. قال الأصحاب: ومما يؤكد هذا المعنى ما روي: أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما، فقال عليه السلام «مَا هَذَا» فقال بعضهم: يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا، ويقول: عمر كلاهما من الله، وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه، ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه ثم قال: «**أَقْضِي بَيْنَكُمَا كَمَا قَضَى بِهِ إِسْرَافِيلُ بَيْنَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، قَالَ جِبْرِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا عُمَرُ وَقَالَ مِيكَائِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَضَاءُ إِسْرَافِيلَ أَنَّ الْقَدَرَ كُلَّهُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا قَضَائِي بَيْنَكُمَا**»[1] قالت المعتزلة: هذه الآية لا يمكن اجراؤها على

---

(١) **صحيح لغيره**: أورده الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١١٣) حديث رقم/ ٢٦٤٨، من طريق مقاتل بن حيان عن عمرو بن شعيب... به، والبزار في مسنده (٦/ ٤٥٥) حديث رقم/ ٢٤٩٦، من طريق مقاتل بن حماد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٩٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط واللفظ له والبزار بنحوه وفي إسناد الطبراني عمر بن الصبح وهو ضعيف جدا وشيخ البزار الموطأ بن سعيد=

ظاهرها وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ والمعنى: أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل، وهذا الكلام إنما يصح لو كان مقصود الله تعالى من إرسال الرسل حصول الإيمان للمكلفين، فأما لو كان مقصوده الإضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائمًا لهذا المقصود.

والثاني: أنه عليه السلام إذا قال لهم إن الله يخلق الكفر والضلال فيكم، فلهم أن يقولوا له فما الفائدة في بيانك، وما المقصود من إرسالك، وهل يمكننا أن نزيل كفرًا خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحيئنذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل.

الثالث: أنه إذا كان الكفر حاصلاً بتخليق الله تعالى ومشيئته، وجب أن يكون الرضا به واجبًا لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وذلك لا يقوله عاقل.

والرابع: أنا قد دللنا على أن مقدمة هذه الآية وهو قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على مذهب العدل، وأيضًا مؤخرة الآية يدل عليه، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فكيف يكون حكيمًا من كان خالقًا للكفر والقبائح ومريدًا لها، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد، فوجب المصير إلى التأويل، وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦] ولا بأس بإعادة بعضها، فالأول: أن المراد بالإضلال: هو الحكم بكونه كافرًا ضالاً كما يقال: فلان يكفر فلانًا ويضلله، أي يحكم بكونه كافرًا ضالاً، والثاني: أن يكون الإضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار، والهداية عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة. والثالث: أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله، والمهتدي لما أعانه بالألطاف صار كأنه هو الذي هداه. قال صاحب (الكشاف): المراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف.

والجواب عن قولهم أولاً أن قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ لا يليق به أن يضلهم.

قلنا: قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر، فإن كان الفعل الثاني مشاكلاً للأول نسقته عليه، وإن لم يكن مشاكلاً له استأنفته ورفعته. ونظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] فقوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك، لأنه لا يحسن أن يقال: يريدون أن يأبى الله، فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الأول بطل العطف، ونظيره أيضًا قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [الحج: ٥] ومن ذلك

=ولم أعرفه وبقية رجال البزار ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٣٨٦) حديث (رقم/ ١٦٤٢).

قولهم: أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه، ومثله قول الشاعر:

يُـريـدُ أنْ يُـعْـرِبَـهُ فـيـعـجـمـه[1]

إذا عرفت هذا فنقول: هاهنا قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ذكر فيضل بالرفع فدل على أنه مذكور على سبيل الاستئناف وأنه غير معطوف على ما قبله، وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى، كأنه تعالى قال: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، ثم قال ومع أن الأمر كذلك فإنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والغرض منه التنبيه على أن تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية، وإنما كان الأمر كذلك لأجل أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى. أما قوله ثانيًا: لو كان الضلال حاصلاً بخلق الله تعالى لكان للكافر أن يقول له: ما الفائدة في بيانك ودعوتك؟ فنقول: يعارضه أن الخصم يسلم أن هذه الآيات إخبار عن كونه ضالاً فيقول له الكافر: لما أخبر إلهك عن كوني كافرًا فإن آمنت صار إلهك كاذبًا فهل أقدر على جعل إلهك كاذبًا، وهل أقدر على جعل علمه جهلاً. وإذا لم أقدر عليه فكيف يأمرني بهذا الإيمان، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الخصم علينا هو أيضًا وارد عليه. وأما قوله ثالثًا: يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجبًا، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قلنا: ويلزمك أيضًا على مذهبك أنه يجب على العبد السعي في تكذيب الله وفي تجهيله، وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا، لأنه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فإزالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذبًا. وأما قوله رابعًا: إن مقدمة الآية وهي قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة الاعتزال فنقول: قد ذكرنا أن قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة مذهب أهل السنة. وأما قوله خامسًا: أنه تعالى وصف نفسه في آخر الآية بكونه حكيمًا وذلك ينافي كونه تعالى خالقًا للكفر مريدًا له. فنقول: وقد وصف نفسه بكونه عزيزًا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع أنه لا يحصل أو أراد عمل الكفر منهم، وقد حصل لما بقي عزيزًا غالبًا. فثبت أن الوجوه التي ذكروها ضعيفة، وأما التأويلات الثلاثة التي ذكروها فقد مر إبطالها في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة.

---

(١) هذا البيت من الرجز للشاعر الحطيئة وهو الحُطَيْئَة وهو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو ملكية، ؟- ٤٥ هـ/ ؟- ٦٦٥ م، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أرسل محمدًا ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيرًا للرسول عليه السلام على أذى قومه وإرشادًا له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم السلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ قال الأصم: آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى. وقال الجبائي: أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه، وأمره أن يبين لهم الدين. وقال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ والمقصود: بيان أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء عليهم السلام، وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

المسألة الثانية: قال الزجاج: قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أخرج قومك. ثم قال: ﴿أَنْ﴾ هاهنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، ويكون المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك، كأن المعنى قلنا له: أخرج قومك. ومثله قوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] أي أمشوا، والتأويل قيل لهم: امشوا، وتصلح أيضًا أن تكون المخففة التي هي للخبر، والمعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه إلا أن الجار حذف ووصلت (أن) بلفظ الأمر، ونظيره قولك: كتبت إليه أن قم وأمرته أن قم، ثم إن الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه.

أما قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ فاعلم أنه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين: أحدهما: أن يخرجهم من ظلمات الكفر، والثاني: أن يذكرهم بأيام الله.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: أيام جمع يوم، واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس إلى غروبها، وكانت الأيام في الأصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون، فأدغمت إحداهما في الأخرى وغلبت الياء.

المسألة الثانية: أنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها. يقال: فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل (مَنْ يُرَ يَوْمًا يُرَ لَهُ) معناه: من رؤي في يوم مسرورًا بمصرع غيره ير في يوم آخر حزينًا بمصرع نفسه وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إذا عرفت هذا، فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام، والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارًا شكورًا، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فإن كان الأول، كان المؤمن صبارًا، وإن كان الثاني كان شكورًا. وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر.

فإن قيل: إن ذلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها؟

قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].
والثاني: لا يبعد أن يقال: الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا، أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى، حكى عن موسى عليه السلام أنه ذكرهم بها فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فقوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الأنعام، أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت. بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ذكر في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾[الأعراف: ١٤١] وهاهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو فما الفرق؟

والجواب: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو لأنه تفسير لقوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول: أتاني القوم زيد وعمرو. لأنك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾[الفرقان: ٦٨، ٦٩] فالآثام لما صار مفسرًا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو، أما في هذه السورة فقد أدخل الواو فيه، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضًا فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله.

السؤال الثاني: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن تمكين الله إياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله. والثاني: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء، وهو بلاء عظيم، والبلاء هو الابتلاء، وذلك قد يكون بالنعمة تارة، وبالمحنة أخرى، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥] وهذا الوجه أولى لأنه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

السؤال الثالث: هب أن تذبيح الأبناء كان بلاء، أما استحياء النساء كيف يكون بلاء.

الجواب: كانوا يستخدمونهن بالاستحياء في الخلاص منه نعمة، وأيضًا إبقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أذن ربكم. ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذانًا بليغًا ينتفي عنده الشكوك، وتنزاح الشبهة، والمعنى: وإذ تأذن ربكم. فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فأجرى ﴿تَأَذَّنَ﴾ مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ).

واعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه، ولا بد هاهنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عن الاشتغال بالشكر، أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة، وأما الزيادة في النعم فهي أقسام: منها النعم الروحانية، ومنها النعم الجسمانية، أما النعم

الروحانية فهي أن الشاكر يكون أبدًا في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، ومن كثر إحسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية، وأما مزيد النعم الجسمانية، فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه، لأنه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور إلى عالم القدس، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا.

وأما قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فالمراد منه الكفران، لا الكفر، لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلا الكفران، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله، والجاهل بها جاهل بالله، والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضًا فهاهنا دقيقة أخرى وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده إنما يحصل بإيجاد الواجب لذاته، وعدمه إنما يحصل بإعدام الواجب لذاته، وإذا كان كذلك فكل ما سوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له، وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله، انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه، لأن حضور ذلك النور في قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع، وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسًا فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقي يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات في الدنيا والآخرة، وأما الإعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما

المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران، فلا جرم قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته، فإنه لو لم يكن واجب الوجود لذاته، لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح فلم يكن غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن كونه غنيًا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته، وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته، كان أيضًا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال، لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل، فحينئذ لا يكون غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كمالاته، وإذا كان الأمر كذلك كان حميدًا لذاته، لأنه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد، فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنيًا حميدًا يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين، ولا ينتقص بكفران الكافرين، فلهذا المعنى قال: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذه المعاني من لطائف الأسرار.

واعلم أن قولنا: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ سواء حمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر، فالمعنى لا يتفاوت ألبتة، فإنه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله.

ثم إنه تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطابًا من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم، ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ.

واعلم أنه تعالى ذكر أقوامًا ثلاثة، وهم: قوم نوح وعاد وثمود.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذكر صاحب (الكشاف) فيه احتمالين: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا. والثاني: أن يقال قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه قولان:

القول الأول: أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله، لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل.

والقول الثاني: أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً، ولا

يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد، وعن ابن عباس: بين عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]وعن النبي ﷺ: أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد. وقال: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا تَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ» (١)قال القاضي: وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت، لأنه إن أمكن ذلك لم يبعد أيضًا تحصيل العلم بالأنساب الموصولة.

فإن قيل: أي القولين أولى؟

قلنا: القول الثاني عندي أقرب، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة، وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم، ولما كان ظاهر الآية دليلاً على نفي العلم بذواتهم لا جرم كان الأقرب هو القول الثاني، ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمور: أولها: قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وفي معناه قولان:

الأول: أن المراد باليد والفم الجارحتان المعلومتان.

والثاني: أن المراد بهما شيء غير هاتين الجارحتين وإنما ذكرهما مجازًا وتوسعًا. أما من قال بالقول الأول ففيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون الضمير في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و ﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ عائدًا إلى الكفار، وعلى هذا ففيه احتمالات: الأول: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٣٥١) حديث رقم/ ١٩٧٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧٤) حديث رقم/ ٨٨٥٥، كلاهما من طريق عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولي المنبعث عن أبي هريرة... به، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٩) حديث (رقم/ ٧١).

من طريق عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر... به، ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٥/ ٤٠٧) حديث رقم/ ٤٩٣٣، من طريق مسلم بن إبراهيم حدثنا وهيب عن عبد الرحمن بن حرملة عن عبد الملك بن يعلي عن العلاء بن حارجة... به، ورواه البغوي في (شرح السنة) (٦/ ٢٦٦)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٧٨) حديث رقم/ ٧٢٨٤، وقال: هذا حديث غريب، كلاهما من طريق عبد الملك بن عيسي الثقفي عن عبد الله بن يزيد مولي المنبعث عن أبي هريرة... به، ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٦٩) حديث رقم/ ١٧٢٣، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٩٣)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى، وهو اختيار القاضي. والثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه، والثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث، وهذا مروي عن الكلبي. والرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به، أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه، وليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ .

الوجه الثاني: أن يكون الضميران راجعين إلى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان:

الأول: أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم.

الثاني: أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فإن من ذكر كلامًا عند قوم وأنكروه وخافهم، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكرم ألبتة.

الوجه الثالث: أن يكون الضمير في أيديهم يرجع إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل وفيه وجهان: الأول: أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبًا لهم وردًا عليهم. والثاني: أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السلام منعًا لهم من الكلام، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك. أما على القول الثاني: وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه:

الوجه الأول: قال أبو مسلم الأصفهاني: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لأن إسماع الحجة انعام عظيم والإنعام يسمى يدًا. يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفًا، وقد يذكر اليد. المراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد، وأيضًا العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادي وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي وفي العدد الكثير هو الأيادي، فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي، وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥] فلما كان القبول تلقيًا بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًا في الأفواه، فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه.

الوجه الثاني: نقل محمد بن جرير عن بعضهم أن معنى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أنهم

سكتوا عن الجواب يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب، رد يده في فيه وتقول العرب كلمت فلانًا في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه فلم يجب، ثم إنه زيف هذا الوجه وقال: إنهم أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

الوجه الثالث: المراد من الأيدي نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للإزالة والإبطال فقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التي صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل (في) على معنى الباء لأن حروف الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض.

النوع الثاني: من الأشياء التي حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ والمعنى: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم فيه لأنهم ما أقروا بأنهم أرسلوا.

واعلم أن المرتبة الأولى هو أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى، وهذه المرتبة الثانية أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والنوع الثالث: قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): وقرىء (تَدْعُونَّا) بادغام النون ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة من أرابه، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

فإن قيل: لما ذكروا في المرتبة الثانية أنهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين في صحة قولهم؟

قلنا: كأنهم قالوا إما أن نكون كافرين برسالتكم أو إن لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن أولئك الكفار لما قالوا للرسل ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. قالت رسلهم: وهل تشكون في الله، وفي كونه فاطر السموات والأرض وفاطرًا لأنفسنا وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وإنا لا ندعوكم إلا إلى عبادة هذا الإله المنعم ولا نمنعكم إلا عن عبادة غيره وهذه المعاني يشهد صريح العقل بصحتها، فكيف قلتم: وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب؟ وهذا النظم في غاية الحسن. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار، وهو قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد ذكرنا

في هذا الكتاب أن وجود السموات والأرض كيف يدل على احتياجه إلى الصانع المختار الحكيم مرارًا وأطوارًا فلا نعيدها هاهنا.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار، ويدل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك وجوه:

الوجه الأول: قال بعض العقلاء: إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجوب الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجوب النبي، أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها، ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى، وأما دلالتها على وجوب التكليف، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول: لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي فعل شاء واشتهى، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الأحكام، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة.

الوجه الثاني: في التنبيه على أن الإقرار بوجود الصانع بديهي هو أن الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم، وبان حكيم، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش، والبناء إلى الباني، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى.

الوجه الثالث: أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالإفتقار إلى الصانع المدبر.

الوجه الرابع: أن الموجود إما أن يكون غنيًا عن المؤثر أو لا يكون، فإن كان غنيًا عن المؤثر

فهو الموجود الواجب لذاته، فإنه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذي لا حاجة به إلى غيره. وإن لم يكن غنيًا عن المؤثر فهو محتاج، والمحتاج لا بد له من المحتاج إليه وذلك هو الصانع المختار.

الوجه الخامس: أن الاعتراف بوجود الإله المختار المكلف، وبوجود المعاد أحوط، فوجب المصير إليه فهذه مراتب أربعة: أولها: أن الإقرار بوجود الإله أحوط، لأنه لو لم يكن موجودًا فلا ضرر في الإقرار بوجوده وإن كان موجودًا ففي إنكاره أعظم المضار. وثانيها: الإقرار بكونه فاعلاً مختارًا لأنه لو كان موجبًا فلا ضرر في الإقرار بكونه مختارًا. أما لو كان مختارًا ففي إنكار كونه مختارًا أعظم المضار. وثالثها: الإقرار بأنه كلف عباده، لأنه لو لم يكلف أحدًا من عبيده شيئًا فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار. ورابعها: الإقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الإقرار بوجوده، لأنه لا يفوت إلا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وإن كان الحق هو وجوب المعاد ففي إنكاره أعظم المضار فظهر أن الإقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير إليه، لأن بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان.

المسألة الثالثة: لما أقام الدلالة على وجود الإله بدليل كونه فاطر السموات والأرض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين، الأول: قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): لو قال قائل ما معنى التبعيض في قوله من ذنوبكم، ثم أجاب فقال: ما جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[نوح: ٣، ٤]. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[الأحقاف: ٣١] وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: ١٠] إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١] والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه، ثم قال: وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في المعاد، وقيل: إنه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم. هذا كلام هذا الرجل، وقال الواحدي في (البسيط)، قال أبو عبيدة (من) زائدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب، وإذا قلنا إنها ليست زائدة فهاهنا وجهان: أحدهما: أنه ذكر البعض هاهنا وأريد به الجميع توسعًا. والثاني: أن (من) هاهنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة، وقال القاضي: ذكر الأصم أن كلمة (من) هاهنا تفيد التبعيض، والمعنى أنكم إذا تبتم فإنه يغفر لكم الذنوب التي هي من الكبائر، فأما التي تكون من باب الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في أنفسها مغفورة، قال القاضي: وقد أبعد في هذا التأويل، لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنها لا تغفر إلا بالتوبة وإنما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلاً فلا يكون شيء من ذنوبه صغيرًا ولا يكون

شيء منها مغفورًا. ثم قال وفيه وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإنابته فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة.

المسألة الرابعة: أقول هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق أهل الإيمان والدليل عليه أنه قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وعد بغفران بعض الذنوب مطلقًا من غير اشتراط التوبة، فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقًا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لإنعقاد الإجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان فوجب أن يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ما عد الكفر من الذنوب.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال كلمة (من) صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول: المراد من البعض هاهنا هو الكل على ما قاله الواحدي. أو نقول: المراد منها إبدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدي أيضًا أو نقول: المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب (الكشاف) أو نقول: المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الأصم. أو نقول: المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الإيمان على ما قاله القاضي، فنقول: هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله: إنها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد، والعاقل لا يجوز المصير إليه من غير ضرورة، فأما قول الواحدي: المراد من كلمة (من) هاهنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لأن حاصله أن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبي عبيدة، وحكي عن سيبويه إنكاره، وأما قوله: المراد منه إبدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة أن كلمة من تفيد الإبدال، وأما قول صاحب (الكشاف): المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات، لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب، وإن لم يحصل كان هذا الجواب فاسدًا، وأما قول الأصم فقد سبق إبطاله، وأما قول القاضي فجوابه: أن الكافر إذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ» فثبت أن جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر، وأما الكفر فهو أيضًا من الذنوب وأنه تعالى لا يغفره إلا بالتوبة، وإذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتي بالإيمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى، هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم بحقيقة الحال.

النوع الثاني: مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه وجهان:

الأول: المعنى أنكم إن آمنتم أخر الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال.

الثاني: قال ابن عباس: المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت.

فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فكيف قال هاهنا: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قلنا: قد تكلمنا في هذه المسألة في سورة الأنعام في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] ثم حكى تعالى أن الرسل لما ذكروا هذه الأشياء لأولئك الكفار قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنوع من الشبه:

فالشبهة الأولى: أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد، وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعًا على الغيب مخالطًا لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضًا كانوا يقولون: إن كنت قد فارقتنا في هذه الأحوال العالية الإلهية الشريفة، وجب أن تفارقنا في الأحوال الخسيسة، وفي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع، وهذه الشبهة هي المراد من قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

والشبهة الثانية: التمسك بطريقة التقليد، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الأوثان. قالوا ويبعد أن يقال: إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه، والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلامًا آخر، وذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين، أما المناظرة مع الميت فسهلة، فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضًا ذكروه، وهذه الشبهة هي المراد من قوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

والشبهة الثالثة: أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلاً، وإن كانوا سلموا على أن المعجز يدل على الصدق، إلا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا أنها أمور معتادة، وأنها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، وإلى هذا النوع من الشبهة الإشارة بقوله: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة، حكى عن الأنبياء عليهم السلام جوابهم عنها.

أما الشبهة الأولى: وهي قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فجوابه: أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة.

واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق، وهو أن جماعة من حكماء الإسلام قالوا: إن الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصًا بخواص شريفة علوية قدسية، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له. وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة، فقد زعموا أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده، ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية، فإنه تعالى بين أن حصول النبوة ليس إلا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه، والكلام من هذا الباب غامض غائص دقيق، والأولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة، لأنه قد علم أنه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات إلا وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأما الشبهة الثانية: وهي قولهم: إطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقًا، لأنه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم، فجوابه: عين الجواب المذكور عن الشبهة الأولى، لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة: وهي قولهم: إنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية.

فالجواب عنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وشرح هذا الجواب أن المعجزة التي جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام، فأما الأشياء التي طلبتموها فهي أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فإن خلقها وأظهرها فله الفضل وإن لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية. ثم إنه تعالى حكى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد، وعند هذا قالت الأنبياء عليهم السلام: لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت إلى تهديدكم فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى إليهم أن أولئك الكفرة لا يقدرون على إيصال الشر والآفة إليهم وإن لم يكن حصل هذا الوحي، فلا يبعد منهم أن لا يلتفتوا إلى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الإلهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت

موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالي بالأحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنًا في حالتي السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء، فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ يعني أنه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية، والمعارف الإلهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله، بل اللائق بنا أن لا نتوكل إلا عليه ولا نعول في تحصيل المهمات إلا عليه، فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مكان الإخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع في أمر من الأمور إلى غير الحق سواء كان ملكًا له أو ملكًا أو روحًا أو جسمًا، وهذه الآية دالة على أنه تعالى يعصم أولياءه المخلصين في عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم، ثم قالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والحق لا بد وأن يصير غالبًا قاهرًا، والباطل لا بد وأن يصير مغلوبًا مقهورًا، ثم أعادوا قولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً، ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله فصلاً حسنًا وحاصله: أن الإنسان إما أن يكون ناقصًا أو كاملاً أو خاليًا عن الوصفين، أما الناقص فإما أن يكون ناقصًا في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره، وإما أن يكون ناقصًا ويكون مع ذلك ساعيًا في تنقيص حال الغير، فالأول: هو الضال، والثاني: هو الضال المضل، وأما الكامل فإما أن يكون كاملاً ولا يقدر على تكميل الغير وهم الأولياء، وإما أن يكون كاملاً ويقدر على تكميل الناقصين وهم الأنبياء ولذلك قال عليه السلام: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[1] ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الإكمال والإضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية، لا جرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان، فالولي هو الإنسان الكامل الذي لا يقوى على التكميل، والنبي هو الإنسان الكامل المكمل، ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل إنسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل إلى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا إلى طلب الآخرة، وذلك مثل روح محمد ﷺ، فإن وقت ظهوره كان العالم مملوءًا من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الأوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج إلى بيان فلما ظهرت دعوة

(١) **لا أصل له**: أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٢٠)، وقال: قال شيخنا الزركشي: لا أصل له ولا يعرف في كتاب معتبر وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٦٤)، وقال: قال السيوطي في الدرر لا أصل له، وقال في المقاصد قال شيخنا يعني ابن حجر لا أصل له، وقبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر.

محمد ﷺ سرت قوة روحه في الأرواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد، ومن التجسيم إلى التنزيه، ومن الاستغراق في طلب الدنيا إلى التوجه إلى عالم الآخرة، فمن هذا المقام ينكشف للإنسان مقام النبوة والرسالة.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم، وقولهم في آخر الأمر، وعلى الله فليتوكل المتوكلون، إشارة إلى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الأرواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن، فمن نظر في علم القرآن وكان غافلاً عنها كان محرومًا من أسرار علوم القرآن والله أعلم، وفي الآية وجه آخر وهو أن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

وأما قوله في آخر الآية: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المراد منه الأمر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم، وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لأن قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين، وقيل أيضًا: الأول: ذكر لاستحداث التوكل. والثاني: للسعي في إبقائه وإدامته، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام، أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ والمعنى: ليكونن أحد الأمرين لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا. والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة.

فإن قيل: هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها.

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشأوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل

وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

الوجه الثاني: أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه.

الوجه الثالث: لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال: إنهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار.

الوجه الرابع: قال صاحب (الكشاف): العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب.

الوجه الخامس: لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة.

الوجه السادس: لا يبعد أن يكون المعنى: أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل إدعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل، والله أعلم.

واعلم أن الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: (لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ) بالياء اعتبارًا لأوحى فإن هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض (أَرْضُ الظَّالِمِينَ وَدِيَارُهُمْ) ونظيره قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَى جَارَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ دَارَهُ»[1] واعلم أن هذه الآية تدل على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاهالله أمر عدوه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فقوله ذلك إشارة إلى أن ما قضى الله تعالى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم إثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي وفيه

---

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢١٩)، وقال: كذا رأيته في كلام بعض من جمع في الحديث ممن لا يعرف، لكن بلفظ ورثه بتشديد الراء فلينظر حاله، ثم رأيت النجم قال أورده في الكشاف، ولعله مثل سائر وليس بحديث ومأخذه في كتاب الله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] ومن أمثلة العوام اصبر على جارك المشؤوم إما يموت وإما يرحل انتهى.

وجوه: الأول: موقفي وهو موقف الحساب، لأن ذلك الموقف موقف الله تعالى الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، ونظيره قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾[النازعات: ٤٠] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] الثاني: أن المقام مصدر كالقيامة، يقال: قام قيامًا ومقامًا، قال الفراء: ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إياه كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد: ٣٣]. الثالث: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي إقامتي على العدل والصواب فإنه تعالى لا يقضي إلا بالحق ولا حكم إلا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف ألبتة. الرابع: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول، الخامس: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي لم خافني، وذكر المقام ههنا مثل ما يقال: سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد: سلام الله على فلان فكذا ههنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحدي: الوعيد اسم من أوعد إيعادًا وهو التهديد. قال ابن عباس: خاف ما أوعدت من العذاب.

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرًا للخوف من وعيد الله، ونظيره: أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله، وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق.

ثم قال: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: للاستفتاح ههنا معنيان: أحدهما: طلب الفتح بالنصرة، فقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾ أي واستنصروا الله على أعدائهم، فهو كقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[الأنفال: ١٩]. والثاني: الفتح الحكم والقضاء، فقول ربنا: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾ أي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم، وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف: ٨٩].

إذا عرفت هذا فنقول: كلا القولين ذكره المفسرون. أما على القول الأول فالمستفتحون هم الرسل، وذلك لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾[يونس: ٨٨] الآية. وقال لوط: ﴿رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠] وأما على القول الثاني: وهو طلب الحكمة والقضاء فالأولى أن يكون المستفتحون هم الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، ومنه قول كفار قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾[الأنفال: ٣٢]. وكقول آخرين ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[العنكبوت: ٢٩].

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ

إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ أي أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ وقال لهم ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إن قلنا: المستفتحون هم الرسل، كان المعنى أن الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم قومهم؛ وإن قلنا: المستفتحون هم الكفرة، فكان المعنى: أن الكفار استفتحوا على الرسل ظنًا منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل.

المسألة الثانية: الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله وعبادته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] قال أبو عبيدة عن الأحمر: يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة، وحكى الزجاج: الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والنجبار والجبرياء. قال الواحدي: فهي ثمان لغات في مصدر الجبار، وفي الحديث أن امرأة حضرت النبي ﷺ فأمرها أمرًا فأبت عليه فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ» أي مستكبرة، وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقه، قال النضر بن شميل: العنود الخلاف والتباعد والترك، وقال غيره: أصله من العند وهو الناحية يقال: فلان يمشي عندًا، أي ناحية، فمعنى عاند وعند. أخذ في ناحية معرضًا، وعاند فلان فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية.

إذا عرفت هذا فنقول: كونه جبارًا متكبرًا إشارة إلى الخلق النفساني وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق، وهو كونه مجانبًا عن الحق منحرفًا عنه، ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق، كان خائبًا عن كل الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السعادات.

واعلم أنه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارًا عنيدًا، وصف كيفية عذابه بأمور: الأول: قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ وفيه إشكال وهو أن المراد: أمامه جهنم، فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والأمام؟

واجابوا عنه من وجوه: الأول: أن لفظ (وراء) اسم لما يوارى عنك، وقدام وخلف متوار عنك، فصح إطلاق لفظ (وراء) على كل واحد منهما. قال الشاعر:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ   يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ(١)

(١) هذا البيت من البحر الوافر للشاعر عبد الكريم البسطي وهو عبد الكريم القيسي البَسطي. ؟- ٨٩٧ هـ/ ؟- ١٤٩١ م، من شعراء الأندلس في القرن الأخير من حياة العرب المسلمين في تلك الديار، وقد وصل إلينا ديوان شعره كاملاً تقريباً، ولعله آخر ديوان أندلسي يصل إلينا من خلال الأحداث القاسية التى عانى منها الأندلسيون في آخر التاريخ الإسلامي هناك ولم تحفظ لنا الوثائق الباقية سنة ولادة القيسي البسطي ولا سنة وفاته، لكن ديوانه يشير إلى=

ويقال أيضا: الموت وراء كل أحد. الثاني: قال أبو عبيدة وابن السكيت: الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام، والسبب فيه أن كل ما كان خلفًا فإنه يجوز أن ينقلب قدامًا وبالعكس، فلا جرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم، ويقال: الموت من وراء الإنسان. الثاني: قال ابن الأنباري (وراء) بمعنى بعد. قال الشاعر:

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ (١)

أي وليس بعد الله مذهب.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ثم قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي ومن بعده الخيبة يدخل جهنم.

النوع الثاني: مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: علام عطف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾.

الجواب: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد.

السؤال الثاني: عذاب أهل النار من وجوه كثيرة، فلم خص هذه الحالة بالذكر؟

الجواب: يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

السؤال الثالث: ما وجه قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

الجواب: أنه عطف بيان والتقدير: أنه لما قال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ فكأنه قيل: وما ذلك الماء فقال: ﴿صَدِيدٍ﴾ والصديد ما يسيل من جلود أهل النار. وقيل: التقدير ويسقى من ماء كالصديد. وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة، وهو أيضًا يكون في نفسه صديدًا، لأن كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

السؤال الرابع: ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه.

الجواب: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار، ويقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا وأساغه إساغة. واعلم أن (يكاد).

=أنه من رجال القرن التاسع، وأنه لم يدرك سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ.

(١) هذا عجز بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر النابغة الذبياني وهو النابغة الذُّبياني هو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. ؟- ١٨ ق. هـ/ ؟- ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة، والبيت كاملاً هكذا:

حَلَفتُ فَلَم أَترُكَ لِنَفسِكَ رِيبَةً ... وَلَيسَ وَراءَ اللَهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ

فيه قولان:

القول الأول: أن نفيه إثبات، وإثباته نفي، فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي ويسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول: ما كدت أقوم، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] يعني فعلوا بعد إبطاء، والدليل على حصول الإساغة قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠] ولا يحصل الصهر إلا بعد الإساغة، وأيضًا فإن قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يدل على أنهم أساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح أن يقال بعده إنه يسيغه ألبتة.

والقول الثاني: أن كاد للمقاربة فقول: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة يعني: ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الإساغة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها.

فإن قيل: فقد ذكرتم الدليل على حصول الإساغة، فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه.

قلنا عنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع.

الثاني: أن الدليل الذي ذكرتم إنما دل على وصول بعض ذلك الشراب إلى جوف الكافر، إلا أن ذلك ليس بإساغة، لأن الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه، أي لا يستطيبه ولا يشربه شربًا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصبح حمل لا يكاد على نفي المقاربة، والله أعلم.

النوع الثالث: مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] والمعنى: أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات، ومع ذلك فإنه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أن المراد من العذاب الغليظ كونه دائمًا غير منقطع.

الثاني: أنه في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشد مما قبله. قال المفضل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية أن أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشيء منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون في

القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعًا باطلاً، وذلك هو الخسران الشديد. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في ارتفاع قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ وجوه:

الأول: قال سيبويه: التقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم، وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم فقيل: أعمالهم كرماد. **الثاني:** قال الفراء: التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادًا على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] أي خلق كل شيء، وكذا قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة. **الثالث:** أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون، وماله مبذول. الرابع: أن تكون أعمالهم بدلاً من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والتقدير: مثل أعمالهم وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ هو الخبر. الخامس: أن يكون المثل صلة وتقديره: الذين كفروا أعمالهم.

المسألة الثانية: اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال، هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر، ثم اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه:

الوجه الأول: أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم، ولولا كفرهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذي ظنوه إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجه في خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم.

والوجه الثالث: أن المراد من هذه الأعمال كلا القسمين، لأنهم إذا رأوا الأعمال التي كانت في أنفسها خيرات قد بطلت، والأعمال التي ظنوها خيرات وأفنوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضًا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك أنه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

المسألة الثالثة: قرىء الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم، وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها قال الفراء: وإن شئت قلت في يوم ذي عصوف، وإن شئت قلت: في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورًا قبل ذلك، وقرىء في يوم عاصف بالإضافة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي لا يقدرون مما كسبوا على شيء

منتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة وذلك لأنه ضاع بالكلية وفسد، وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبًا لأفعاله.

واعلم أنه تعالى لما تمم هذا المثال قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة، بين أن ذلك البطلان والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لداعية الحكمة والصواب.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي: (خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) على اسم الفاعل على أنه خبر أن والسموات والأرض على الإضافة كقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠] . ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾[الأنعام: ٩٥] . و﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾[الأنعام: ٩٦] والباقون خلق على فعل الماضي: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بالنصب لأنه مفعول.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ نظير لقوله في سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] ولقوله في آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾[آل عمران: ١٩١] ولقوله في ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[ص: ٢٧] أما أهل السنة فيقولون إلا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأما المعتزلة فيقولون: إلا بالحق، أي لم يخلق ذلك عبثًا بل لغرض صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض بالحق، فبأن يقدر على إفناء قوم وإماتتهم وعلى إيجاد آخرين وإحيائهم كان أولى، لأن القادر على الأصعب الأعظم بأن يكون قادرًا على الأسهل الأضعف أولى. قال ابن عباس: هذا الخطاب مع كفار مكة، يريد أميتكم يا معشر الكفار، وأخلق قومًا خيرًا منكم وأطوع منكم.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ممتنع لما ذكرنا أن القادر على إفناء كل العالم وإيجاده بأن يكون قادرًا على إفناء أشخاص مخصوصين وإيجاده أمثالهم أولى وأحرى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة

باطلة، ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم. وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء. ومنه يقال للمكان الواسع: البراز لظهوره، وقيل في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]أي ظاهرة لا يسترها شيء، وامرأة برزة إذا كانت تظهر للناس. ويقال: برز فلان على أقرانه إذا فاقهم وسبقهم، وأصله في الخيل إذا سبق أحدها. قيل: برز عليها كأنه خرج من غمارها فظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: ههنا أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

البحث الثاني: قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

الأول: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية.

الثاني: أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

الثالث: وهو تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله.

البحث الثالث: قال أبو بكر الأصم قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ هو المراد من قوله في الآية السابقة: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

واعلم أن قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ قريب من قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم والأحوال الكامنة تنكشف فإن كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية، وأحوالهم العلوية، ووجوههم المشرقة، وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال؛ ويعظم فيها إشراق عالم القدس، فما أجل تلك الأحوال وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة، ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة، ومذلة الفضيحة، وموقف المهانة والفزع، نعوذ بالله منها.

ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء: هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا؟ والمعنى: أنه إنما اتبعناكم لهذا اليوم، ثم إن الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل. قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام،

فكان المقصود من ذكر هذه الآية: استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها، والله أعلم.

المسألة الثانية: كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف، والسبب فيه أنه كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره علماء بني إسرائيل.

المسألة الثالثة: الضعفاء الأتباع والعوام، والذين استكبروا هم السادة والكبراء. قال ابن عباس: المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي في الدنيا. قال الفراء وأكثر أهل اللغة: التبع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج: وجائز أن يكون مصدرًا سمي به، أي كنا ذوي تبع.

واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال: المراد منها التبعية في الكفر، ويحتمل أن يكون المراد منها التبعية في أحوال الدنيا: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا.

فإن قيل: ما الفرق بين من في قوله: ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وبينه في قوله: ﴿ مِن شَىْءٍ﴾ .

قلنا: كلاهما للتبعيض بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ وفيه وجوه الأول: قال ابن عباس: معناه لو أرشدنا الله لأرشدناكم، قال الواحدي: معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال، لأن الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم إلى الضلال ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى قال صاحب (الكشاف): لعلهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفًا لأصول مشايخه فلا يقبل منه، الثاني: قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأن قال: لا يجوز حمل هذا على اللطف، لأن ذلك قد فعله الله تعالى. والثالث: أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم، والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذي ذكرناه أن هذا هو الذي التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى.

ثم قال: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] ثم قالوا: ما لنا من محيص، أي منجي ومهرب، والمحيص قد يكون مصدرًا كالمغيب والمشيب، ومكانًا كالمبيت والمضيق، ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وفي المراد بقوله: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وجوه:

القول الأول: قال المفسرون: إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم في النار فيما بينهم خطيبًا ويقول ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لما انقضت المحاسبة، والقول الأول أولى، لأن آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار، ثم يدوم الأمر بعد ذلك.

والقول الثالث: وهو أن مذهبنا أن الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ذلك الوقت، لأن في ذلك الوقت تنقطع الأحوال المعتبرة، ولا يحصل بعده إلا دوام ما حصل قبل ذلك، وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم، فحمل اللفظ عليه أولى، لا سيما وقد قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَقَضَى بَيْنَهُمْ يَقُولُ الْكَافِرُ قَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا مَا هُوَ إِلاَّ إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ»**[١].

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم، وتقرير الكلام أن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٧].

---

(١) لم أجده إلا في التفسير وعند النيسابوري.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومسجد الجامع على قول الكوفيين، والمعنى: وعدكم الوعد الحق، وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الأمر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق. ثم ذكر المصدر تأكيدًا.

البحث الثالث: في الآية إضمار من وجهين:

الأول: أن التقدير إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد، لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولأنه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى.

الثاني: أن في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الوعد يقتضي مفعولاً ثانيًا وحذف ههنا للعلم به، والتقدير: ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، إلا أن دعوتكم أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني قال النحويون: ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ من جنس قولهم ما تحيتهم إلا الضرب، وقال الواحدي: إنه استثناء منقطع، أي لكن دعوتكم وعندي أنه يمكن أن يقال كلمة (إلا) ههنا استثناء حقيقي، لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلط، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية، ثم قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء والوسوسة، وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا إلي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء: الأول: أنه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. الثاني: ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام. الثالث: أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير، وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم.

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به.

وأجاب الخصم عنه: بأنه لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، وأيضًا فلا

فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد. ألا ترى أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كلام حق وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قول حق بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس.

فإن قال قائل: بينوا لنا حقيقة الوسوسة.

قلنا: الفعل إنما يصدر عن الإنسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبًا لازمًا طبيعيًا وبيانه أن أعضاء الإنسان بحكم السلامة الأصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك، والإقدام والإحجام، فما لم يحصل في القلب ميل إلى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فإنه يمتنع صدور الفعل، وذلك الميل هو الإرادة الجازمة، والقصد الجازم. ثم إن تلك الإرادة الجازمة لا تحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فإن لم يحصل فيه هذا الإعتقاد لم يحصل الميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك، فالحاصل أن الإنسان إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائمًا له أو بكونه منافرًا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر، فإن حصل الشعور بكونه ملائمًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الفعل وإن حصل الشعور بكونه منافرًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الترك، وإن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشيء ولا إلى ضده، بل بقي الإنسان كما كان، وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل.

إذا عرفت هذا فنقول: صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيرًا أو تصور كونه شرًا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول كونه خيرًا أو تصورًا كونه شرًا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلا في أن يذكره شيئًا بأن يلقي إليه حديثه مثل أن الإنسان كان غافلاً عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له إلا في هذا المقام، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى﴾ يعني ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر ألبتة. بقي في هذا المقام سؤالان:

السؤال الأول: كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه.

والجواب: للناس في الملائكة والشياطين قولان:

القول الأول: أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة: المتحيز، والحال في

المتحيز، والذي لا يكون متحيزًا ولا حالاً فيه، وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل ألبتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به، وهذا هو المسمى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين.

إذا عرفت هذا فنقول: فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسمًا يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر، والنفس الإنسانية أيضًا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في أن يلقى شيء من تلك الأرواح أنواعًا من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الإنسانية، وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالاً ثانيًا، وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع، فهي طوائف، وكل طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماوية بعينها، فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الأمر، وهي تكون منتسبة إلى روح معين من الأرواح السماوية، وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة، وعدم المبالاة بأمر من الأمور، وهي تكون منتسبة إلى روح آخر من الأرواح السماوية وهذه الأرواح البشرية كالأولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة، وكالفروع المتفرعة عليها، وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى إرشادها إلى مصالحها، وهو الذي يخصها بالإلهامات حالتي النوم واليقظة. والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولا شك أن لذلك الروح السماوي الذي هو الأصل والينبوع شعبًا كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الإنسان وهي لأجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضًا على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها، ثم إنها إن كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الإعانة مسماة بالإلهام. وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الإعانة مسماة بالوسوسة، وذكر بعض العلماء أيضًا فيه احتمالاً ثالثًا، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنًا لتلك النفس المفارقة، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن، ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهامًا وإن كان في باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعًا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

وأما القول الثاني: وهو أن الملائكة والشياطين لا بد وأن تكون أجسامًا فنقول: إن على هذا التقدير يمتنع أن يقال إنها أجسام كثيفة، بل لا بد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبًا عجيبًا وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الإنسانية جسم لطيف، ثم إنه نفذ في داخل عمق البدن فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن، أليس أن جرم النار يسري في جرم الفحم، وماء الورد يسري في ورق الورد، ودهن السمسم يجري في جسم السمسم فكذا ههنا، فظهر بما قررنا أن القول بإثبات الجن والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل، وأن الإصرار على الإنكار ليس إلا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة، ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن في الجملة فنقول: الأحق والأولى أن يقال: الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور، والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة، فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

السؤال الثاني: لم قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ وهو أيضًا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة.

والجواب: أراد بذلك فلا تلوموني على ما فعلتم ولوموا أنفسكم عليه، لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم. ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: بمغيثكم ولا منقذكم، قال ابن الأعرابي: الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث. يقال: صرخ فلان إذا استغاث وقال: واغوثاه أصرخته أغثته.

المسألة الثانية: قرأ حمزة: بمصرخي بكسر الياء. قال الواحدي: وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب. قال الفراء: ولعلها من وهم القراء فإنه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء في قوله ﴿بِمُصْرِخِىَّ﴾ خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لأن الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال، ومما نرى أنهم وهموا فيه قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] بجزم الهاء ظنوا والله أعلم أن الجزم في الهاء وهو خطأ، لأن الهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه، ومن النحويين من تكلف في ذكر وجه لصحته إلا أن الأكثرين قالوا إنه لحن، والله أعلم.

ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (ما) في قوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

فيه قولان:

الأول: إنها مصدرية والمعنى: كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة، والمعنى: أنه جحد ما كان يعتقده أولئك الأتباع من كون إبليس شريكًا لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالإشراك.

والثاني: وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال: إني كفرت بالله الذي أشركتموني به من قبل كفركم، والمعنى: أنه كان كفره قبل كفر أولئك الأتباع ويكون المراد بقوله: (ما) في هذا الموضع (من) والقول هو الأول، لأن الكلام إنما ينتظم بالتفسير الأول، ويمكن أن يقال أيضًا الكلام منتظم على التفسير الثاني، والتقدير كأنه يقول: لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر وما كان كفري بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة، وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فالأظهر أنه كلام الله عز وجل وأن كلام إبليس تم قبل هذا الكلام، ولا يبعد أيضًا أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعًا لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة، شرح أحوال السعداء، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وكونها دائمة أشير إليه بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والتعظيم حصل من وجهين: أحدهما: أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره. والثاني: قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لأن بعضهم يحيي بعضًا بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها كما قال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] والرب الرحيم يحييهم أيضًا بهذه الكلمة كما قال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

واعلم أن السلام مشتق من السلامة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على معنى وأدخلهم أنا، وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بما بعده، أي تحيتهم فيها سلام بإذن ربهم. يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ذكر مثالاً يبين الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى: لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أمورًا.

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها، ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين: الأول: أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ والمراد: أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضرًا في بعض الأوقات دون بعض، فهذا شرح هذه الشجرة

التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لايجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها.

إذا عرفت هذا فنقول: معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع.

أما الصفة الأولى: وهي كونها طيبة فهي حاصلة، بل نقول: لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جدًا، بل نقول: اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالاً من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه:

الوجه الأول: أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك، لأن الأجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الإشراق صار ساريًا في جوهر النفس متحدًا به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق فهذا فرق عظيم بين البابين.

والوجه الثاني: في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله، وصفات جلاله وإكرامه، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر.

الوجه الثالث: في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير، أما كمال الحق وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضًا ممتنع التغير، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه.

واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيهًا للعقل السليم على سائرها. وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء، وأيضًا مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه

في ذاته نور النور ومبدأ الظهور، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته، وواجب الوجود في جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة.

الصفة الثالثة:لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء.

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني.

وأما النوع الأول:فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ» ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح، وفي عالم الأجسام، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب، وفي أحوال العالم السفلي، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموع فيه لأنها أحوال غير متناهية.

وأما النوع الثاني:فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ» ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان. وهذه الأقسام أيضًا غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

وأما الصفة الرابعة:فهي قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨]ونطقه بالصدق والصواب كما قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]وقال عليه السلام: «قُولُوا الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» وهذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئًا لاحظ الحق فيه، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئًا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله. فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ وأيضًا فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل، كثمرة هذه الشجرة.

وأما قوله:﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ ففيه دقيقة عجيبة، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية،

والدرجات العالية، قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال، ولذلك قال بعض المحققين: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول، فقد ظهر بهذا التقرير الذي شرحناه والبيان الذي فصلناه أن هذا المثال الذي ذكره الله تعالى في هذا الكتاب مثال هادٍ إلى عالم القدس، وحضرة الجلال، وسرادقات الكبرياء، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة إنه سميع مجيب، وذكر بعضهم في تقرير هذا المثال كلامًا لا بأس به، فقال: إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة، إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: في نصب قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وجهان:

الأول: أنه منصوب بمضمر والتقدير: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾.

الثاني: قال ويجوز أن ينتصب مثلاً. وكلمة بضرب، أي ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى جعلها مثلاً، وقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هي كشجرة طيبة. الثالث: قال صاحب (حل العقد) أظن أن الأوجه أن يجعل قوله: ﴿كَلِمَةٍ﴾ عطف بيان، والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الأكثرين. وقال صاحب (الكشاف): إنها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان، وأراد بشجرة طيبة الثمرة، إلا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها، أي أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت، وفرعها أي أعلاها في السماء، والمراد الهواء لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ﴿تُؤْتِي﴾ أي هذه الشجرة ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها وما يؤكل منها كل حين، واختلفوا في تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر، لأن بين حملها إلى صرامها ستة أشهر، جاء رجل إلى ابن عباس فقال: نذرت أن لا أكلم أخي حتى حين، فقال: الحين ستة أشهر، وتلا قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وقال مجاهد وابن زيد: سنة، لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة. وقال سعيد بن المسيب: شهران، لأن مدة إطعام النخلة شهران. وقال الزجاج: جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت، والمراد من قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أنه ينتفع بها في كل وقت وفي كل ساعة ليلاً أو نهارًا أو شتاء أو صيفًا. قالوا: والسبب فيه أن النخلة إذا تركوا عليها الثمر من السنة إلى السنة انتفعوا بها في جميع أوقات السنة. وأقول: هؤلاء وإن أصابوا في

البحث عن مفردات ألفاظ الآية، إلا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود، لأنه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة، ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها، فإنا نعلم بالضرورة أن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه، سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن، لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل، واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله أعلم بالأمور.

ثم قال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: أنها تكون خبيثة فمنهم من قال إنها الثوم، لأنه ﷺ وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة[1]، وقيل: إنها الكراث. وقيل: إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل: إنها شجرة الشوك.

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة إليه، فإن الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعًا في المطلوب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الصفة في مقابلة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الإجتثاث أخذ الجثة كلها، وقوله: ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: ليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

والصفة الثالثة: قوله ما لها من قرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية، والمعنى أنه ليس لها استقرار. يقال: قر الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت.

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (ما جاء في الثوم النيىء والبصل) (٢/ ٣٩٤) حديث رقم/ ٨٥٣، ومسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) باب (نهي من أكل ثوماً أو بصلاً) (١/ ٦٨/ ٣٩٣) كلاهما من طريق يحي . . . به.

بقوله: ﴿خَبِيثَةٍ﴾ وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتًا، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم، وثبات ثوابه عليهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أي على الثواب والكرامة، وقوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق. وعن النبي ﷺ أنه قال في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: «حِينَ يُقَالُ لَهُ فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمِنْ نَبِيُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينَيَ الْإِسْلَامُ ونبي محمد ﷺ»(١) والمراد من الباء في قوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل. قال ابن عباس: من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها وإنما فسر الآخرة ههنا بالقبر، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري وإنما قال ذلك لأن الله أضله وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني إن شاء هدى وإن شاء أضل ولا اعتراض عليه في فعله ألبتة.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في المسألة في القبر وعذاب القبر) (٤/ ٢٠٣٠) حديث رقم/ ٤٧٥٣، وابن ماجه في كتاب (الجنائز) باب (ما جاء في الجلوس علي المقابر) (١/ ٤٩٤) حديث رقم/ ١٥٤٨، والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (الوقوف للجنائز) (٤/ ٣٨١) حديث رقم/ ٢٠٠٠، والإمام أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٨٧)، من طريق المنهال بن عمرو... به.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۞جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۞وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۞﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نزل في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمدًا ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنواعًا من الأعمال القبيحة.

النوع الأول: قوله: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.

وفيه وجوه:

الأول: يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفرًا، لأنه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعمة أتوا بالكفر، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً.

والثاني: أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفرًا لأنهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقي الكفر معهم بدلاً من النعمة. الثالث: أنه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الإيمان.

والنوع الثاني: ما حكى الله تعالى عنهم قوله: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[الفتح: ١٢] وأراد بدار البوار جهنم بدليل أنه فسرها بجهنم فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي المقر وهو مصدر سمي به.

النوع الثالث: من أعمالهم القبيحة قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا ذكر أنهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أندادًا، والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول، والمراد من الأنداد الأشباه والشركاء، وهذا الشريك يحتمل وجوهًا: أحدها: أنهم جعلوا للأصنام حظًا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا. وثانيها: أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم في العبودية. وثالثها: أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لِيَضِلُّوا۟﴾ بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل.

المسألة الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لام العاقبة لأن عبادة الأوثان سبب

يؤدي إلى الضلال ويحتمل أن تكون لام كي، أي الذين اتخذوا الوثن كي يضلوا غيرهم هذا إذا قرىء بالضم فإنه يحتمل الوجهين، وإذا قرىء بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم. وتحقيق القول في لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل. وكل ما حصل في العاقبة كان شبيهًا بالأمر المقصود في هذا المعنى، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز، فلهذا السبب حسن ذكر اللام في العاقبة، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ والمراد أن حال الكافر في الدنيا كيف كانت، فإنها بالنسبة إلى ما سيصل إليه من العقاب في الآخرة تمتع ونعيم، فلهذا المعنى قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وأيضًا إن هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، فأولئك كانوا في الدنيا في نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهذا الأمر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]وكقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا، أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِعِبَادِىْ﴾ بسكون الياء، والباقون: بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك إلى النصب.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿ يُقِيمُوا۟﴾ وجهان: الأول: يجوز أن يكون جوابًا لأمر محذوف هو المقول تقديره: قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا. الثاني: يجوز أن يكون هو أمرًا مقولاً محذوفًا منه لام الأمر، أي ليقيموا كقولك: قل لزيد ليضرب عمرًا وإنما جاز حذف اللام، لأن قوله: ﴿ قُلْ﴾ عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز.

المسألة الثالثة: أن الإنسان بعد الفراغ من الإيمان لا قدرة له على التصرف في شيء إلا في نفسه أو في ماله. أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة وأما المال فيجب صرفه إلى البذل في طاعة الله تعالى. فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة، وهي الإيمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب أن يقال في هذه الأمور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الرزق لا يكون حرامًا، لأن الآية دلت

على أن الانفاق من الرزق ممدوح، ولا شيء من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج أن الرزق ليس بحرام. وقد مر تقرير هذا الكلام مرارًا.

المسألة الخامسة: في انتصاب قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وجوه:

أحدها: أن يكون على الحال أي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين.

وثانيها: على الظرف أي وقت سر وعلانية.

وثالثها: على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمراد إخفاء التطوع وإعلان الواجب.

واعلم أنه تعالى لما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ههنا الفداء والخلال المخالة، وهو مصدر من خاللت خلالاً ومخالة، وهي المصادقة. قال مقاتل: إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة، فكأنه تعالى يقول: أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في مثل هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤].

فإن قيل: كيف نفى المخالة في هاتين الآيتين، مع أنه تعالى أثبتها في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

قلنا: الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس، والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته، وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة، لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل.

أولها: خلق السموات.

وثانيها: خلق الأرض، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وثالثها: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ .

ورابعها: قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾ .

وخامسها: قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ .

وسادسها وسابعها: قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ .

وثامنها وتاسعها: قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ .

وعاشرها: قوله : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارًا وأطوارًا ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد . فاعلم أن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وقوله : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ خبره . ثم إنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض، وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم، وإنما بدأ بذكرهما ههنا لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فإنه قال بعده : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ .

وفيه مباحث:

البحث الأول: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب .

البحث الثاني: قوله : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفيه قولان :

الأول: أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقًا من السمو، وهو الارتفاع .

والثاني: أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفًا على قمة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرًا عليهم وإذا كان هذا أمرًا مشاهدًا بالبصر كان النزاع فيه باطلاً .

البحث الثالث: قال قوم : إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين، لأنهم إذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب، فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها، وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلبًا لهذه الخيرات الحقيرة، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى . ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب، هذا قول المتكلمين . وقال قوم آخرون : إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء، والمسألة كلامية محضة، وقد ذكرناه في سورة البقرة .

البحث الرابع: قال أبو مسلم : لفظ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يقع في الأغلب على ما يحصل على الأشجار، ويقع أيضًا على الزروع والنبات، كقوله تعالى : ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾[الأنعام : ١٤١] .

البحث الخامس: قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقًا لنا، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين، لأن الإحسان لا يكون إحسانًا إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه.

البحث السادس: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ بيان للرزق، أي أخرج به رزقًا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقًا حال من المفعول أو نصبًا على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق، والتقدير: ورزق من الثمرات رزقًا لكم.

فأما الحجة الرابعة: وهي قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

ففيها مباحث:

البحث الأول: أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هذه الآية.

فإن قيل: ما معنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد؟

قلنا: أما على قولنا إن فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال، وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضي عنه فقال: لولا أنه تعالى خلق الأشجار الصلبة التي منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التي باعتبارها يصح جري السفينة، ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا أنه وسع الأنهار وجعل فيها من العمق ما يجوز جري السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لأجل أنه تعالى هو الخالق لهذه الأحوال، وهو المدبر لهذه الأمور والمسخر لها حسنت إضافة السفن إليه.

البحث الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيمًا لشأنه، ومنهم من حمله على ظاهر قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وتحقيق هذا الوجه راجع إلى ما ذكرناه.

البحث الثالث: الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز، والمعنى أنه لما كان يجري على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار.

الحجة السادسة والسابعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦] ومنها قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥] ومنها قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١] ومنها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥] وقوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبًا ودؤبًا وقد ذكرنا هذا في قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧] قال المفسرون: قوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب.

الحجة الثامنة والتاسعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

واعلم أن منافعهما مذكورة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[النبأ: ١٠، ١١] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[يونس: ٦٧] قال المتكلمون: تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان، والأعراض لا تسخر.

والحجة العاشرة: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء فقال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤول شيئًا، وقرىء: ﴿مِّن كُلٍّ﴾ بالتنوين و ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ نفي ومحله نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون (ما) موصولة والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ قال الواحدي: النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال: أنعم الله عليه، ينعم إنعامًا ونعمة أقيم الاسم مقام الإنعام كقوله: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقة بمعنى واحد، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر، ومعنى قوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها.

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين.

المثال الأول: أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان، منها دماغية ومنها نخاعية. أما الدماغية فإنها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضًا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة

واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدًا، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعًا أنه لا سبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والإنفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرًا لا ساحل له، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه، فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلاً واحدًا ثم بذلك العقل يتأمل الإنسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل، فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين.

المثال الثاني: أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها: فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائمًا على الوجه الأصوب، لأن الحنطة لا بد منها، وأنها لا تنبت إلا معونة الفصول الأربعة، وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات، فتأمل أنها كيف تكونت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق. فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة. وأما النظر فيما بعد حصولها: فتأمل في تركيب بدن الحيوان، وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور، والعقول قاصرة على إدراك ذرة من هذه المباحث، فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد

الكفران لها. وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والمراد من الإنسان هاهنا: الجنس، يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه، وههنا بحثان:

البحث الأول: أن الإنسان مجبول على النسيان وعلى الملالة، فإذا وجد نعمة نسيها في الحال وظلمها بترك شكرها، وإن لم ينسها فإنه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة، وأيضًا أن نعم الله كثيرة فمتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي.

البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى ألبتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغته في إنكار عبادة الأوثان.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أشياء: أحدها: قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ والمراد: مكة آمنًا ذا أمن.

فإن قيل: أي فرق بين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

قلنا: سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون، وفي الثاني: أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنًا، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة. وثانيها: قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (واجنبني) وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه. قال الفراء: أهل الحجاز يقول جنبني يجنبني بالتخفيف. وأهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره، وأصله جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: الإشكال على هذه الآية من وجوه: أحدها: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنًا، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة. وثانيها: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن ألبتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله أجنبني عن عبادة الأصنام. وثالثها: أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، لأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فإن قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء.

والجواب عن السؤال الأول من وجهين: الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب. والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهذا الوجه اتفق عليه أكثر المفسرين، وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ إلى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضًا، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي بالأمر والحكم يجعله آمنًا وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

والجواب: عن السؤال الثاني قال الزجاج: معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] أي ثبتنا على الإسلام.

ولقائل أن يقول السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان:

الأول: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضمًا للنفس وإظهارًا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

والثاني: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفًا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله:

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده.

والجواب عن السؤال الثالث من وجوه:

الأول: قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾.

والثاني: قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

الثالث: قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن. وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجارًا مخصوصة وأشجارًا مخصوصة، وهذا الجواب ليس بقوي، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك.

الرابع: أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه، ونظيره قوله تعالى لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[هود: ٤٦].

والخامس: لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض، وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ على أن الكفر والإيمان من الله تعالى، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد، لأنه عدول عن الظاهر، ولأنا قد ذكرنا وجوهًا كثيرة في إفساد هذا التأويل.

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ واتفق كل الفرق على أن قوله: ﴿أَضۡلَلۡنَ﴾ مجاز لأنها جمادات، والجماد لا يفعل شيئًا ألبتة، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها.

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ يعني في ديني واعتقادي فإنه مني، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني في غير الدين فإنك غفور رحيم، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته، والدليل عليه أن قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول: أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك،

والأول باطل من وجهين: الأول: أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ وأيضًا قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته. والثاني: أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، ولما بطل هذا ثبت أن قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار.

وإذا ثبت هذا فنقول: تلك المعصية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة، والأول والثاني باطلان لأن قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي﴾ اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر، وأيضًا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه، فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد ﷺ لوجوه: الأول: أنه لا قائل بالفرق. والثاني: وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لإبراهيم عليه السلام مع أنه غير حاصل لمحمد ﷺ لكان ذلك نقصانًا في حق محمد عليه السلام. والثالث: أن محمدًا ﷺ مأمور بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] فهذا وجه قريب في إثبات الشفاعة لمحمد ﷺ وفي إسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر، والله أعلم.

إذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين: قال السدي معناه: ومن عصاني ثم تاب، وقيل: إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك، وقيل من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام، وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة. واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة.

أما الأول: وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه.

وأما الثاني: وهو قوله إن هذه الشفاعة إنما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول: هذا أيضًا بعيد، لأنا بينا أن مقدمة هذه الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون مراد إبراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر.

وأما الثالث وهو قوله المراد من كونه: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أن ينقله من الكفر إلى الإيمان فهو أيضًا بعيد، لأن المغفرة والرحمة مشعرة بإسقاط العقاب ولا إشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر إلى صفة الإيمان، والله أعلم.

وأما الرابع وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الإماتة فنقول هذا باطل، لأن كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن

أهل الإسلام متفقون على أنهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب في دعائه أمورًا سبعة.

المطلوب الأول: طلب من الله نعمة الأمان وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: ٣٥] والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد.

والمطلوب الثاني: أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه عن الشرك، وهو قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والمطلوب الثالث: قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ فقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي وهو إسمعيل ومن ولد منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ أي ليس فيه شيء من زرع، كقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨] بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم، وذكروا في تسمية المحرم وجوها:

الأول: أن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرمًا لمكانه.

الثاني: أنه كان لم يزل ممتنعًا عزيزًا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب.

الثالث: سمي محرمًا لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه.

الرابع: أنه حرم على الطوفان أي امتنع منه كما سمي عتيقًا لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه.

الخامس: أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل.

السادس: حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض وحفه بسبعة من الملائكة، وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم، فرفع إلى السماء السابعة.

السابع: حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها: روي أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام، فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله لي ولدًا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي، وقالت لإبراهيم: بعِّدهما مني فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع، ثم رجع فقالت هاجر: إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله. ثم دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ إلى آخر الآية ثم إنها عطشت وعطش الصبي فانتهت بالصبي إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينًا، فقال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلاَ أَنَّهَا عَجِلَتْ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»(١) ثم إن إبراهيم عليه السلام عاد بعد كبر إسماعيل واشتغل هو مع إسماعيل برفع قواعد البيت. قال القاضي: أكثر الأمور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لأنه لا يجوز لإبراهيم عليه السلام أن ينقل ولده إلى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما إلى بلدة أخرى من بلاد الشام لأجل قول سارة إلا إذا قلنا: إن الله أعلمه أنه يحصل هناك ماء وطعام، وأقول: أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون إرهاصًا لإسماعيل عليه السلام، لأن ذلك عندنا جائز خلافًا للمعتزلة وعند المعتزلة أنه معجزة لإبراهيم عليه السلام.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ واللام متعلقة بأسكنت أي أسكنت قومًا من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة.

ثم قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال الأصمعي هوى يهوي هويًا بالفتح إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تريدهم، وقيل: تسرع إليهم. وقيل: تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل، يقال: هوى الحجر من رأس الجبل يهوي إذا انحدر وانصب، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل.

البحث الثاني: أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم.

البحث الثالث: كلمة ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تفيد التبعيض،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٢٦) حديث رقم/ ٣١٨٣، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٧) حديث رقم/ ٣٢٥٠، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

والمعنى: فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم. قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى المجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون.

ثم قال: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه لم يقل: وارزقهم الثمرات، بل قال: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد: عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها.

ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾.

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا، قيل: ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل، وما نعلن من البكاء، وقيل: ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله أكلكم، قالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت إذن لا نخشى(١).

ثم قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وفيه قولان: **أحدهما:** أنه كلام الله عز وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٤]. **والثاني:** أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ولفظ (من) يفيد الاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٣٠) حديث رقم/ ٣١٨٥، والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ١٠١) حديث رقم/ ٨٣٨٠، كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

أعني إسمعيل وإسحق على الكبر والشيخوخة، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعًا وتسعين سنة، ولما ولد إسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له إسمعيل لأربع وستين سنة وولد إسحق لتسعين سنة، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم.

فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن إسمعيل وهاجر أمه في ذلك الوادي، وفي ذلك الوقت ما ولد له إسحق فكيف يمكنه أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾.

قلنا قال القاضي: هذا الدليل يقتضي أن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام في زمان آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء. ويمكن أيضًا أن يقال: إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسمعيل وظهور إسحق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه.

البحث الثاني: على في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ بمعنى مع كقول الشاعر:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ يُؤْكَلُ الْكَتِفُ(١)

وهو في موضع الحال ومعناه: وهب لي في حال الكبر.

البحث الثالث: في المناسبة بين قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي إنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ وذلك يدل ظاهرًا على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيًا عن ربه أنه قال: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»(٢) ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر المنسرح وهو للشاعر قيس بن الخطيم وهو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد. ؟- ٢ ق. هـ/ ؟- ٦٢٠ م، شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة، أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه.

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) باب (٢٥) (٥/ ١٦٩) حديث رقم/ ٢٩٢٦، وقال أبو عيسي: هذا حديث حسن غريب، من طريق شهاب... به، وعبد الله بن أحمد في (المسند) حديث=

واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله: سميع الدعاء. من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده.

المطلوب الخامس: قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذا الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا إن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يدل على أن فعل المأمورات لا يحصل إلا من الله، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصرًا على أن الكل من الله.

المسألة الثانية: تقدير الآية: رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي: أي واجعل بعض ذريتي كذلك لأن كلمة (من) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض، وإنما ذكر هذا التبعيض لأنه علم باعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

المطلوب السادس: أنه عليه السلام لما دعا الله في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ وقال ابن عباس: يريد عبادتي بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

المطلوب السابع: قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعًا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعًا بحصوله؟

والجواب: المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته.

المسألة الثانية: إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن المنع منه لا يعلم إلا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعًا فظن كونه جائزًا. الثاني: أراد بوالديه آدم وحواء. الثالث: كان ذلك بشرط الإسلام.

ولقائل أن يقول: لو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلاً ولو لم يكن لبطل قوله

=رقم/ ١٢٥، من طريق حماد... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل كلام الله على سائر الكلام) (٢/ ٣١٣) حديث رقم/ ٣٣٥٦، من طريق إسماعيل بن إبراهيم الترجماني... به، ثلاثتهم (حماد، شهاب، إسماعيل الترجماني) قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد عن عمرو بن قيس عن عطية... فذكره وفي إسناد عطية: وهو ضعيف.

تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال بعضهم: كانت أمه مؤمنة، ولهذا السبب خص أباه بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، والله أعلم وفي قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ قولان: الأول: يقوم أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونظيره قوله ترجلت الشمس، أي أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل. الثاني: أن يسند إلى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة، وما يدل على صفة يوم القيامة، أما الذي يدل على وجود القيامة فهو قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزًا عن الإنتقام، أو كان راضيًا بذلك الظلم، ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالاً على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم.

فإن قيل: كيف يليق بالرسول ﷺ أن يحسب الله موصوفًا بالغفلة؟

والجواب من وجوه:

الأول: المراد به التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٩]. **والثاني:** أن المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الإنتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم، ولما كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالاً. **والثالث:** أن المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير. **الرابع:** أن يكون هذا الكلام وإن كان خطابًا مع النبي ﷺ في الظاهر، إلا أنه يكون في الحقيقة خطابًا مع الأمة، وعن سفيان بن عيينة: أنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ثم بين تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات.

الصفة الأولى: أنه تشخص فيه الأبصار. يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ وفي تفسير الإهطاع أقوال أربعة:

القول الأول: قال أبو عبيدة هو الإسراع. يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع وعلى هذا الوجه، فالمعنى: أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصًا من شدة الخوف أن يبقى واقفًا، فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين، أي مسرعين نحو ذلك البلاء. **القول الثاني:** في الإهطاع قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع. **والقول الثالث:** المهطع الساكت. **والقول الرابع:** قال الليث: يقال للرجل إذا قر وذل أهطع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ والإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع، فقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص، فقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ لا يفيد كون هذا الشخوص دائمًا وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يفيد دوام هذا الشخوص، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ثم جعل وصفًا فقيل: قلب فلان هواء إذا كان خاليًا لا قوة فيه، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور، لكثرة ما فيه من الحزن، إذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا في وقت حصولها فقيل: إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب، وقيل: إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق، والسعداء يذهبون إلى الجنة، والأشقياء إلى النار. وقيل: بل يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور، والأول أولى للدليل الذي ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿وَأَنذِرِ﴾ وهو يوم القيامة.

البحث الثاني: الألف واللام في لفظ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ للمعهود السابق، يعني: وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذي تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم، وكونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم.

البحث الثالث: الإنذار هو التخويف بذكر المضار، والمفسرون مجمعون على أن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة، وحمله أبو مسلم على أنه حال المعاينة، والظاهر يشهد بخلافه، لأنه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتي فيه وأنهم يسألون الرجعة، ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ولا يليق ذلك إلا بيوم القيامة. وحجة أبي مسلم: أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠] ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار في ذلك اليوم، فقال: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ واختلفوا في المراد بقوله: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فقال بعضهم: طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه، وقال: بل طلبوا الرجوع إلى حال التكليف بدليل قولهم: نجب دعوتك ونتبع الرسل، وأما على قول أبي مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ومعناه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] إلى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من إنكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لأن التقريع بهذا الجنس أقوى، ومعنى: ما لكم من زوال، لا شبهة في أنهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت أو عن شباب إلى هرم أو عن فقر إلى غنى، ثم إنه تعالى زادهم تقريعًا آخر بقوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني سكنتم في مساكن الذين كفروا قبلكم، وهم قوم نوح وعاد وثمود، وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، لأن من شاهد هذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر، فإذا لم يعتبر كان مستوجبًا للذم والتقريع.

ثم قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وظهر لكم أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال.

فإن قيل: ولماذا قيل: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لأجل تكذيبهم؟

قلنا: إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفًا وجلاً فيكون ذلك زجرًا له هذا إذا قرىء بالتاء أما إذا قرىء بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال: أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم، وليس كل ما بين لهم تبينوه.

أما قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالمراد ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على

الإعادة كما قدر على الإبتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟﴾ إلى ماذا يعود؟ على وجوه:

الأول: أن يكون الضمير عائدًا إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات. **والثاني:** أن يكون المراد به قوم محمد ﷺ والدليل عليه قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم. **الثالث:** أن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمروذ حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتًا وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصيًا أربعًا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض، فهذا هو المراد من مكرهم. قال القاضي: وهذا بعيد جدًا لأن الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية ألبتة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

فيه وجهان:

الأول: أن يكون المكر مضافًا إلى الفاعل كالأول. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه.

والثاني: أن يكون المكر مضافًا إلى المفعول، والمعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فاعلم أنه قرأ الكسائي وحده ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى منه، والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية.

أما القراءة الأولى: فمعناها أن مكرهم كان معدًا لأن تزول منه الجبال، وليس المقصود من هذا

الكلام الإخبار عن وقوعه، بل التعظيم والتهويل وهو كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

وأما القراءة الثانية: فالمعنى: أن لفظ (إن) في قوله؛ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى (ما) واللام المكسورة بعدها يعني بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل. والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩]. ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٩] والجبال ههنا مثل لأمر النبي ﷺ ولأمر دين الإسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان. ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[إبراهيم: ٤٧] أي قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم. والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ، ودلائل شريعته، وقرأ علي وعمرو: (أن كانَ مَكْرُهُمْ).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢] وقال في هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين، لزم إما كونه غافلاً وإما كونه مخلفًا في الوعد، ولما تقرر في العقول السليمة أن كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلاً وقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[غافر: ٥١] وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[المجادلة: ٢١].

فإن قيل: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟

قلنا: ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، إن الله لا يخلف الميعاد، ثم قال: ﴿رُسُلِهِۦٓ﴾ ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدًا وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرىء: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بجر الرسل ونصب الوعد، والتقدير: مخلف رسله وعده، وهذه القراءة في الضعف، كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه.

اعلم أن الله تعالى لما قال: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ بين وقت انتقامه فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ وعظم من حال ذلك اليوم، لأنه لا أمر أعظم من العقول والنفوس من تغيير السموات والأرض وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين، إما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

المسألة الثانية: اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى. والثاني: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز، أنه يقال بدلت الحلقة خاتمًا إذا أذبتها وسويتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] ويقال: بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى، ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه قوله: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] إذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان:

القول الأول: أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبَدِّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فَلاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا**»(١) وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تبدل السموات غير السموات، وهو كقوله عليه السلام: «**لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ**»(٢) والمعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر، وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبوابًا، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان.

والقول الثاني: أن المراد تبديل الذات. قال ابن مسعود: تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة، فهذا شرح هذين القولين، ومن الناس من رجح القول الأول قال لأن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ المراد هذه الأرض، والتبدل صفة مضافة إليها، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجودًا، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٩)، وابن راهوية في (مسنده) (١/ ٨٤/ ١٠)، كلاهما من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة... به، وفي إسناد مجهولين.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (أيقاد المسلم بالكافر) (٤/ ١٩٤٢) حديث رقم/ ٤٥٣٠، والنسائي في كتاب (القسامة) باب (القود بين الأحرار والمماليك) (٨/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٤٧٤٨، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٩٩٣، جميعا من طريق يحي بن سعيد... به.

وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل، وإلا لامتنع حصول التبدل، فوجب أن يكون الباقي هو الذات. فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون: إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها.

واعلم أنه لا يبعد أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم، ويجعل السموات الجنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[المطففين: ٧]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[إبراهيم: ٢١] وإنما ذكر الواحد القهار ههنا، لأن الملك إذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لأحد إلى غيره فكان الأمر في غاية الصعوبة، ونظيره قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦] ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارًا بين عجزهم وذلتهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورًا:

فالصفة الأولى: كونهم مقرنين في الأصفاد. قرنت الشيء بالشيء إذا شددته به ووصلته. والقرآن اسم للحبل الذي يشد به شيئان. وجاء هاهنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والأصفاد جمع صفد وهو القيد.

إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: قال الكلبي: مقرنين كل كافر مع شيطان في غل، وقال عطاء: هو معنى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[التكوير: ٧٠] أي قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الإنسان إذا فارق الدنيا، فإما أن يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها إلى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته، أو ما فعل ذلك، بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية، فإن كان الأول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الإلهية، والسعادة بالعناية الصمدانية، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد، بسبب الميل إلى عالم الجسم، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[التكوير: ٧٠] وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة، والحوادث الفاسدة، وهو المراد من قول عطاء: إن كل كافر مع شيطانه يكون مقرونًا في الأصفاد.

والقول الثاني: في تفسير قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ هو قرن بعض الكفار ببعض، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها إلى بعض، وتنادي ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى، فانحدار كل واحدة منها إلى الأخرى في تلك الظلمات، والخسارات هي المراد بقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

والقول الثالث: قال زيد بن أرقم: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها. وأما قوله: ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

فيه وجهان:

أحدها: أن يكون ذلك متعلقًا بمقرنين، والمعنى: يقرنون بالأصفاد.

والثاني: أن لا يكون متعلقًا به، والمعنى: أنهم مقرنون مقيدون، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة إليه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ السرابيل جمع سربال وهو القميص، والقطران فيه ثلاث لغات: قَطْران وقِطْران وقَطِرن، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء، وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلي كالسرابيل، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب، لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح، وأيضًا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، وأقول حظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال، وهذا البدن جارٍ مجرى السربال والقميص له، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم، فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس، لأن الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفي لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة، فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر، وقرأ بعضهم (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره. قال أبو بكر بن الأنباري: وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال التي كانت عليهم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤] وقوله: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: ٤٨].

واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس. وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] وقال في الوجه: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بمعنى تتغشى، ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ قال الواحدي: المراد منه أنفس الكفار

لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، وأقول يمكن إجراء اللفظ على عمومه، لأن لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزي كل شخص بما يليق بعلمه وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية، كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور، ولما كان كسب المؤمنين الإيمان والطاعة، كان اللائق بهم هو الثواب وأيضًا أنه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذي يستحقونه. وحظ العقل منه أن الأخلاق الظلمانية هي المبادي لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الأخلاق في النفس على قدر صدور تلك الأعمال منهم في الحياة الدنيا، فإن الملكات النفسانية إنما تحصل في جوهر النفس بسبب الأفعال المتكررة، وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الأفعال في كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة ثم اختلفوا فقيل: إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن، وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة، وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وأما قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بهذا البلاغ.

ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في هذا الكتاب مرارًا أن النفس الإنسانية لها شعبتان: القوة النظرية وكمال حالها في معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء، معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وأفعاله.

والشعبة الثانية: القوة العملية وسعادتها في أن تصير موصوفة بالأخلاق الفاضلة التي تصير مبادي لصدور الأفعال الكاملة عنها، ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فإن الفائدة في هذا التذكر، إنما هو الإعراض عن الأعمال الباطلة والإقبال على الأعمال الصالحة، وهذه الخاتمة كالدليل القاطع في أنه لا سعادة للإنسان إلا من هاتين الجهتين.

المسألة الثانية: هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات

عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة.

المسألة الثالثة: قال القاضي: أول هذه السورة وآخرها يدل على أن العبد مستقل بفعله، إن شاء أطاع وإن شاء عصى، أما أول هذه السورة فهو قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] فإنا قد ذكرنا هناك أن هذا يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية، وأما آخر السورة فلأن قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذه السورة، وإنما ذكر هذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية، فظهر أن أول هذه السورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنى. واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور في أول السورة فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله، لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب، فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الألباب لما كان الأمر كذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى ورضي عنه: تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد، ونسأل الله الخلاص من الغموم والأحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران، إنه الملك المنان، الرحيم الديان، بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى الله على محمدٍ وآلِه وسلَّمَ تسليماً

تفسير سورة إبراهيم

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنية[1]. وقيل: ثلاث؛ نزلت في الذين حاربوا اللهَ ورسولَه، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ تقدَّم معناه[2].

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل؛ لأنَّ الكفرَ بمنزلة الظُّلْمة، والإسلامَ بمنزلة النور[3]. وقيل: من البدعة إلى السُّنَّة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين. والمعنى متقارب.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقِه إيَّاهم ولُطفِه بهم، والباءُ في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تُخرج»[4]، وأُضيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه الداعي والمنذرُ الهادي.

---

(١) من (ظ)، وفي غيرها: مدنيتين، والكلام في النكت والعيون ٣/ ١٢٠ .

(٢) ١/ ٢٣٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١٣ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٣ .

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو كقولك: خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضل؛ من غير واو[١]؛ لأنهما شيءٌ واحد، واللهُ هو العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه. وقيل: «العزيز»: الذي لا يَغلِبُه غالب. وقيل: «العزيز»: المَنيعُ في مُلْكِه وسُلْطانِه. «الحميد» أي: المحمودُ بكلِّ لسان، والمُمَجَّدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حال.

وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال: كان قومٌ آمنوا بعيسى ابنِ مريم، وقومٌ كفروا به، فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ؛ آمنَ به الذين كفروا بعيسى، وكفرَ الذين آمنوا بعيسى، فنزلت هذه الآية، ذكره الماورديُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: مِلْكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرُهما: «اللهُ» بالرفع على الابتداء[٣]، «الَّذي» خبرُه. وقيل: «الَّذي» صفة، والخبر مُضمَرٌ[٤]، أي: اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على كلِّ شيء. الباقون: بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، فقدَّمَ النَّعتَ على المنعوت، كقولِكَ: مررتُ بالظريفِ زيدٍ[٥]. وقيل: على

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن ابن الأنباري قوله: هذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تُعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٢١ ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١١٤)، قال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٣٢٣ ، وفيه أبو بلال الأشعري، وهو ضعيف.

(٣) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ ، وقرأ بالرفع أيضاً أبو جعفر، كما في النشر ٢/ ٢٩٨ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٥ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ - ٥٩٠ ، وردَّ ابن زنجلة هذا القول في «حجة القراءات» ص٣٧٦ فقال: ولا يجوز أن يقول: نعتٌ للحميد، وإنما هو كقولك: «مررتُ بزيدٍ الظريف»، فإن قلت: «بالظريف زيدٍ» عاد بدلاً، ولم يكن نعتاً.

البدل من «الحميد» وليس صفة؛ لأنَّ اسمَ اللهِ صارَ كالعَلَمِ فلا يُوصَفُ به[١]؛ كما لا يُوصَفُ بزيدٍ وعَمرٍو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المنفردُ بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض[٢]. وكان يعقوب[٣] إذا وقف على «الحميد» رفَعَ، وإذا وصلَ خفَضَ على النعت. قال ابنُ الأنباري[٤]: من خفَضَ وقَفَ على: «وما في الأرض».

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدَّم معنى الويل في «البقرة»[٥] وقال الزجَّاج[٦]: هي كلمةٌ تُقال للعذاب والهَلَكة. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في جهنم.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ«الذينَ» في موضع خفضٍ صفةٌ لهم. وقيل: في موضع رفع خبرُ ابتداءٍ مُضمَر؛ أي: هم الذين. وقيل: «الذين يَسْتَحِبُّون» مبتدأ، وخبره: «أُولَئِكَ»، وكلُّ مَنْ آثرَ الدنيا وزَهْرَتَها، واستحبَّ البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدَّ عن سبيل الله - أي: صرفَ الناس عنه، وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على أمتي الأئمةُ المُضِلُّون»[٧] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان! والله المستعان.

---

(١) لفظة «به» من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩، وأبو عمرو: هو ابن العلاء.

(٣) في رواية رُويس، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٣٩.

(٥) ٢/ ٢١٩ - ٢٢٢.

(٦) في معاني القرآن ١/ ١٦٠.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٥) من حديث أبي الدرداء.

وقيل: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنَّ نعمة الله لا تُلتَمسُ إلا بطاعته دون معصيته ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تُذكَّر وتُؤنَّث[(١)]. والعِوَجُ؛ بِكسر العينِ: في الدِّين والأمر والأرض، وفي كلِّ ما لم يكن قائماً. وبفتح العين: في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران»[(٢)] وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: ذهابٍ عن الحقِّ، بعيدٍ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: قبلَك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: بِلُغتهم؛ ليبيِّنوا لهم أمر دينهم[(٣)]، ووحَّد اللسان ـ وإن أضافه إلى القوم ـ لأن المراد اللغة، فهي اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّةَ للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأنَّ كلَّ من تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يفهمها لزِمَتْه الحجَّة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال ﷺ: «أُرسِلَ كلُّ نبيٍّ إلى أمته بلسانها، وأرسلني اللهُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقِه»[(٤)]. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار». خرَّجه مسلم، وقد تقدَّم[(٥)].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة في نفوذ المشيئة، وهو

(١) الصحاح (سبل).

(٢) ٥/ ٢٣٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٠ .

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٩٤٢).

(٥) صحيح مسلم (١٥٣)، وسلف ٢/ ١٦٠ .

مستأنَفٌ، وليس بمعطوفٍ على «لِيُبَيِّنَ»؛ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصبُ في «يضلُّ»؛ لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال؛ لأنهم كفروا به لمَّا جاءهم، فصار كأنه سببٌ لكفرهم[١]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحجَّتنا وبراهيننا، أي: بالمعجزات الدالَّة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات[٣].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيرُه قولُه تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام أول السورة: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى: أي، كقوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦]: أي امشوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً يتذكَّرون به أيامَ الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم[٥]. وقاله أبيّ بن كعب، ورواه مرفوعاً[٦]، أي: بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه إلى سائر النِّعم.

---

(١) استبعد الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٤ النصب وقال: الرفع هو الوجه، وهو الكلام، وعليه القراءة.

(٢) معنى «العزيز» سلف ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٩٣ و ٥٩٤ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤ - ١٥٥ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤١ والطبري ١٣/ ٥٩٦ و ٥٩٧ من قول مجاهد، و١٣/ ٥٩٧ من قول قتادة، ولم نقف على من أخرجه من قول ابن عباس.

(٦) أخرجه من قول أبي بن كعب: عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٩)، وأخرجه أيضاً عنه مرفوعاً (٢١١٢٨).

وقد تُسمَّى النِّعم: الأيام، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيـــامٍ لـــنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ[١]

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يُقال: فلانٌ عالم بأيَّام العرب، أي: بوقائعها[٢]. قال ابن زيد: يعني: الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية[٣] وكذلك روى ابنُ وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبريّ: وعِظْهُمْ بما سلف في الأيام الماضية لهم[٤]، أي: بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذَلِّين. واكتفى بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومةً عندهم.

وروى سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيَّامِ الله، وأيَّامُ الله بَلاؤه ونَعماؤه» وذكر حديث الخضر[٥]. ودلَّ هذا على جواز الوعظِ المرقِّقِ للقلوب، المقوِّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزَّه عن كلِّ ضلالةٍ وشُبهة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: دلالات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطِيَ شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر[٦]. ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٧]. ونحوه عن الشَّعبيِّ موقوفاً[٨]. وتَوارى الحسن

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٣٨٨، وعجزه: عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا، وسلف ١/ ٢١٦.
(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٢٦.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٧.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٤.
(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٠).
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٩٨.
(٧) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك، لكن في إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و ٤/ ٤١٨.
(٨) بلفظ: الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٨).

البصريُّ عن الحجَّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موتُه قال: اللهمَّ قد أمتَّه فأمِتْ سُنَّته. وسجد شكراً وقرأ: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»[١].

وإنما خصَّ بالآيات كلَّ صبَّارٍ شكور؛ لأنه يَعتبِرُ بها ولا يغفُل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وإن كان منذِراً للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» مستوفًى والحمد لله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله، أي: واذكُرْ يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تَأَذَّنَ» وآذنَ بمعنى: أَعْلَمَ؛ مثل: أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ[٣]؛ رُوي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان؛ لأنه إعلام، قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصُّبحِ حتَّى ... سمِعْنا في مجالِسِنا الأَذِينا[٤]

وكان ابن مسعود يقرأ: «وإذْ قالَ ربُّكُمْ»[٥]. والمعنى واحد.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن وحَّدتم وأطعتم لأزيدنَّكم مما يجب الشكر

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٩ دون قراءة الآية.

(٢) ٢/ ٨٠ - ٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠٠.

(٤) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٧٦، وفيه: «مساجدنا» بدل: «مجالسنا».

(٥) وهي قراءة شاذة، ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٠٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠١.

عليه، وهي نعمي[١]. وقال الربيع: المعنى[٢]: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتُم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي[٣]. ابن عباس: لئن وَحَّدْتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم من الثواب[٤]. والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية نصٌّ في أنَّ الشكر سببُ المزيد، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] ما للعلماء في معنى الشكر.

وسُئِلَ بعضُ الصُّلحاء عن الشكر لله، فقال: ألَّا تتقوَّى بنعمه على معاصيه[٦].

وحُكيَ عن داود عليه السلام أنه قال: أيْ ربِّ، كيف أشكرُك، وشكري لك نعمةٌ مجدَّدةٌ منك عليَّ. قال: يا داود، الآن شكرتَني[٧].

قلت: فحقيقةُ الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، وألّا يصرفَها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي[٨] وهو يأكل:

أنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقِّهْ
فلم تشكُرْ لِنعمتِهِ ولكنْ قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقِهْ[٩]

فغَصَّ باللُّقمة، وخنقته العَبْرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤.

(٢) من قوله: «وحَّدتم» إلى هذا الموضع من (ظ). وكلام الربيع في زاد المسير ٤/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٢.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٧.

(٥) ٢/ ١٠٤.

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٥٠)، والخطيب في «تاريخه» ٧/ ٢٤٤ من كلام الجنيد بن محمد البغدادي ﷺ.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ إلى ابن أبي حاتم.

(٨) هو الخليفة موسى بن المهدي محمد بن المنصور، وليَ الخلافة بعد أبيه المهدي، مات سنة ١٧٠هـ، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته سنة وشهر، وولي الخلافة من بعده أخوه الرشيد. السير ٧/ ٤٤١ - ٤٤٣.

(٩) ذكرهما بنحوهما المبرِّد في الكامل ٢٠/ ٦٦٤ في ثلاثة أبيات، نسبت في بعض نسخه لمحمود الوراق (كما ذكر محققه).

وقال جعفر الصادق: إذا سمعتَ النعمةَ نعمةَ الشكر؛ فتأهَّبْ للمزيد.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتُم حقِّي، وقيل: نِعَمي[١]؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر[٢]، وحُذفتِ الفاءُ التي في جواب الشرط من «إنْ» للشهرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: لا يَلحقُه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحميدُ» أي: المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ: الخبر، والجمع: الأنباء؛ قال:

أَلَـمْ يَـأْتِـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمـي[٤]

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله، أي: واذكُر يا محمد إذ قال ربُّك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهورٌ، قصَّه الله في كتابه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُحصي عددَهم إلا الله،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٣ .

(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٩٦ : اللام في «لئن شكرتم» هي الموطئة للقسم، وقوله: «لأزيدنَّكم» سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في «ولئن كفرتم»، وقوله: «إنَّ عذابي لشديد» سادٌّ مسدَّ الجوابين أيضاً.

(٤) هو صدر بيت لقيس بن زهير، وسلف عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.

ولا يعرف نسبَهم إلا الله[١]؛ والنَّسَّابون وإن نَسَبُوا إلى آدم؛ فلا يدَّعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويُمسِكون عن نسب البعض، وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا سمع النَّسَّابين ينسبون إلى مَعَدِّ بنِ عدنان، ثم زادوا، فقال: «كذَبَ النسَّابون، إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾»[٢].

وقد رُوِيَ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرفُ ما بين عدنان وإسماعيل[٣].

وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون[٤]. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كذب النَّسَّابون[٥]. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحُجج والدَّلالات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: جعل أولئك القومُ أيديَ أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسفيهُ أحلامهم، وشتمُ أصنامهم؛ قاله ابن مسعود[٦]، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[٧] [آل عمران: ١١٩]. وقال ابن عباس: لمَّا سمعوا كتاب الله؛ عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[٨]. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيُّهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أَنِ اسكُتْ؛

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٣ ، والوسيط ٣/ ٢٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ عن ابن عباس، وفيه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] بدلاً من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبوه محمد بن السائب متهم بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٥٥٦ - ٥٥٧ و ٤/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٣) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٨ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٢ .

(٤) أخرجه خليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ .

(٦) ذكره المصنف عنه بالمعنى، وسيذكر لفظه قريباً.

(٧) الدر المنثور ٤/ ٧٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٧ .

تكذيباً له، وردًّا لقوله. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار، والقول الأول أصحُّها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً[١]. وقال الشاعر:

لـو أنَّ سَـلْـمـى أبْـصَـرَتْ تَـخَـدُّدي ودِقَّـةً فـي عَـظْـمِ سـاقـي ويـدي
وبُـعْـدَ أهـلـي وجَـفـاءَ عُـوَّدي عَـضَّـتْ من الـوَجْـدِ بأطـرافِ الـيـدِ[٢]

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوَّداً، والحمد لله[٣].

وقال مجاهد وقَتادة: رَدُّوا على الرسل قولَهم، وكذَّبوهم بأفواههم. فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديَهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم[٤]. فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل: معناه: أوْمؤوا للرسل أن يسكتوا[٥]. وقال مقاتل: أخذوا أيديَ الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم[٦]. وقيل: ردَّ الرسل أيديَ القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيديَ هنا النِّعم، أي: ردُّوا نِعَمَ الرسلِ بأفواههم، أي: بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ، والمعنى: كذَّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلستُ في البيت وبالبيت[٧]، وحروف الصفات

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١ ، والطبري ١٣/ ٦٠٥ ، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١١٩)، والحاكم ٢/ ٣٥١ من طريق سفيان الثوري، به. وعبد الله: هو ابن مسعود، ﷺ.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٤ ، والكامل ١/ ٢٦٣ .

(٣) ٥/ ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٤٩ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ ، والوسيط ٣/ ٢٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ .

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩ - ٧٠ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦ .

يُقام بعضُها مقامَ بعض. وقال أبو عبيدة[١]: هو ضرب مَثَل، أي: لم يُؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه. وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَبيُّ[٢]: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردَّ يدَه في فيه إذا ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حَنَقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

يَرُدُّونَ في فِيهِ عَشْرَ[٣] الحسو ... دِ حتى يَعَضَّ عليَّ الأكُفّا[٤]

يعني أنهم يَغيظون الحسود حتى يَعَضَّ على أصابعه وكفَّيه. وقال آخر:

قَدَ افْنَى أنامِلَهُ أزْمُهُ ... فأضحى يَعَضُّ عليَّ الوَظِيفا[٥]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: يعني الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرُّوا أنهم أُرسِلوا[٦]. ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أي: في ريبٍ ومِرْيةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مُوجِبٍ للرِّيبة؛ يُقال: أرَبْتُه: إذا فعلتَ أمراً أوجبَ رِيبةً وشكًّا[٧]، أي: نظنُّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهامٌ معناه الإنكار، أي: لا شكَّ

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٢) في غريب القرآن ص٢٣٠ - ٢٣١، وينظر المعاني الكبير له ٢/ ٨٣٤.

(٣) في (م): غِشّ.

(٤) أورد شطره الأول ابن قتيبة في المصدرين السالفين، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٥) قائله صخر الغي كما في ديوان الهذليين ٢/ ٧٣ وأورد البيت ابن قتيبة وابن الجوزي (في المصادر السالفة). قوله: الأزم: شدة العَضّ بالفم كلّه، وقيل: بالأنياب. والوَظيف: مُستدَقّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. اللسان (أزم) و(وظف).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

في الله، أي: في توحيده. قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويَحتَمِلُ وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شكٌّ؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها[١]، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقِها ومخترعِها ومنشِئِها ومُوجدِها بعد العدم؛ لينبِّه على قدرته، فلا تجوز العبادةُ إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة[٢]: «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض. ويجوز أن يُذكر البعضُ والمرادُ منه الجميع. وقيل: «مِن» للبدل، وليست بزائدةٍ ولا مُبعِّضَة، أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب[٣]. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستُم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّةٍ ظاهرة؛ وكان هذا مِحالاً منهم؛ فإنَّ الرسلَ ما دَعوا إلا ومعهم المعجزات[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلُ عليه بالنبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٥، وقول قتادة في الوسيط ٣/ ٢٥، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه(١).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد خرَّجَ الطبريُّ من حديث ابن عمر قال: قلتُ لأبي ذرٍّ: يا عَمٍّ أوصِني. قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فقال: «ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا ساعةٍ إلا ولله فيه صدقةٌ يمُنُّ بها على من يشاء من عباده، وما مَنَّ اللهُ تعالى على عباده بمثل أن يُلهِمَهم ذِكْرَه»(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحُجَّةٍ وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي: لا نستطيع أن نأتيَ بحُجَّةٍ كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظُه لفظُ الخبر، ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَّرُ على أحدٍ ما لا يقدِرُ عليه(٣).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدّم معناه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفعٍ بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال(٥)؛ التقدير: أيُّ شيءٍ لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، ويُنجي من سَخَطِهِ ونِقْمَتِه. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازه: واللهِ لَنَصْبِرَنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ به، أي: من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثِقةً بالله أنه يكفينا ويُثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٦ .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٨٧)، والبزار في «مسنده» (٣٨٩٠)، وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٤٤ ، في ترجمة حسين بن عطاء راوي الحديث، وقال: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد لمخالفته الأثبات في الروايات، وذكره أيضاً في الثقات ٦/ ٢٠٩ ، وقال: يخطئ ويدلس.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩ ، وفي مطبوعه «الحظر» بدلاً من «الخبر».

(٤) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام لام قسم، أي: واللهِ لَنخرجنَّكم. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي: حتى تعودوا، أو: إلا أن تعودوا. قاله الطبريُّ وغيره[١]. قال ابن العربي: وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير؛ فإنَّ «أوْ» على بابها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا في مِلَّتهم أو يُخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾[٢] [الإسراء: ٧٦-٧٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿فِى مِلَّتِنَاۖ﴾ أي: إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مقامَه بين يديَّ يوم القيامة، فأُضيف المصدر إلى الفاعل[٤]. والمَقام مصدرٌ كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومَقاماً، وأضاف ذلك إليه؛ لاختصاصه به. والمَقام بفتح الميم: مكان الإقامة، وبالضَّمِّ: فِعْلُ الإقامة[٥]. و﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقال الأخفش:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦١٢ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٤ - ١١٠٥ .

(٣) ٩/ ٢٨٤ .

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢٦ ، وينظر قول المصنف عند تفسير الآية ٧٣ من سورة مريم.

«ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي: عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي: القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: واستنصروا، أي: أُذِنَ للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم. قاله ابن عباس وغيره[(١)]، وقد مضى في «البقرة»[(٢)]. ومنه الحديث: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يستفتِحُ بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية[(٣)] [الأنفال: ٣٢]. ورُوِيَ عن ابن عباس[(٤)]. وقيل: قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتَحْ بيني وبينهم فتحاً». وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذِّبنا. عن ابن عباس أيضاً[(٥)]، نظيره: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبَّار: المتكبِّر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا. هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس[(٦)]. والعنيد: المعاندُ للحقِّ والمُجانِبُ له. عن ابن عباس وغيره[(٧)]، يُقال: عَنَدَ عن قومه، أي: تباعد عنهم[(٨)]. وقيل: هو من العَنَد،

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ أن فرقةً قرأت: «واستفتِحوا» بكسر التاء، على معنى الأمر للرسل. ثم قال: قرأها ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن.

(٢) ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، وسلف هناك أيضاً الحديث الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٧، وزاد المسير ٤/ ٣٥١.

(٤) لم نقف عليه عن ابن عباس.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٥٢١.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٥ عن مجاهد، وكذلك نقله عنه البغوي ٣/ ٢٩، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢١.

وهو الناحية[١]. وعاندَ فلانٌ، أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نزلتُ فاجعلوني وَسَطا إنِّي كبيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّدا[٢]

وقال الهَرَويُّ[٣]: قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: جائرٍ عن القصد، وهو العَنُود والعَنيد والعانِد[٤]. وفي حديث ابن عباس وسئِل عن المستحاضة، فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ[٥]. قال أبو عبيد[٦]: هو الذي عَنَد وبَغى؛ كالإنسان يعانِد، فهذا العِرقُ في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العانِدُ: الذي لا يرقأ[٧]. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العَنُود من الإبل: الذي لا يُخالطها، إنما هو في ناحيةٍ أبداً[٨]؛ أراد مَنْ هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنيد: المتكبر[٩]. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنيد: الذي يتكبَّر على الرسل ويذهب عن طريق الحقّ فلا يسلكها؛ تقول العرب: شرُّ الإبل العَنُود الذي يخرج عن الطريق[١٠]. وقيل: العنيد: العاصي. وقال قتادة: العنيد: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[١١].

---

(١) ينظر الصحاح (عند).

(٢) الرجز في أدب الكاتب ص٤٩١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٢، وخزانة الأدب ١١/ ٣٢٣ وفيه وفي (د) و(ظ): فاجعلاني بدل: فاجعلوني.

(٣) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥.

(٤) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠.

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٥٩، وقد روي من حديث عائشة كما في مسند أحمد (٢٥٣٩١)، وسنن النسائي ١/ ١٢٢.

(٦) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥.

(٧) ينظر اللسان (عند).

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٢، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٣٠.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(١٠) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦١٦.

(١١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١، والطبري ١٣/ ٦١٦، وهو في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنًى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكلُّ متباعدٍ عن الحقِّ جبَّارٌ وعنيدٌ، أي: متكبِّر. وقيل: إنَّ المُرادَ به في الآية أبو جهل؛ ذكره المَهدويّ(١). وحكى الماورديُّ في كتاب «أدب الدنيا والدين»(٢) أنَّ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك تفاءَل يوماً في المصحف، فخرج له قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فمزَّقَ المصحفَ، وأنشأ يقول:

أتُـوعِـدُ كـلَّ جَـبَّـارٍ عَـنـيـدِ　　فـهـا أنـا ذاكَ جـبَّـارٌ عَـنـيـدُ

إذا مـا جِـئـتَ ربَّـكَ يـوم حَـشْـرٍ　　فَـقُـلْ يـا رَبِّ مَـزَّقـنـي الـولِـيـدُ

فلم يلبَثْ إلا أياماً حتى قُتِلَ شرَّ قِتلةٍ، وصُلِبَ رأسُه على قصره، ثم على سُورِ بلده.

قوله تعالى: ﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ذلك الكافر جهنم، أي: من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بَعْد(٣)؛ قال النابغة(٤):

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـرِكْ لِـنـفـسِـكَ رِيـبـةً　　ولـيـس وراءَ الـلـهِ لِـلـمـرءِ مَـذهَـبُ

أي: بعد الله، جلَّ جلالُه، وكذلك قوله تعالى [في الآية التالية]: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي: بما سواه. قاله الفراء(٥). وقال أبو عبيد(٦): بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي: من أمامه، ومنه قول الشاعر:

ومِـن ورائِـكَ يـومٌ أنـتَ بـالِـغُـهُ　　لا حـاضـرٌ مُـعـجِـزٌ عـنـه ولا بـادِي(٧)

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٣ .

(٢) ص٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٨ .

(٤) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٧ ، وسلف ١٠/ ٣٨٨ .

(٥) في معاني القرآن ١/ ٦٠ .

(٦) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦ .

(٧) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٢٧ .

وقال آخر:

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائِيا[١]

وقال لبيد[٢]:

أليسَ ورائي إنْ تراخَتْ منيَّتي لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم. وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطرب وغيرهما[٣]. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان، أي: في طلبه، وسأصل إليه[٤]. وقال النحاس[٥] في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى، أي: استتَر. وقال الأزهري[٦]: إنَّ «وراء» تكون بمعنى «خلف وأمام»، فهو من الأضداد. وقاله أبو عبيدة أيضاً[٧]. واشتقاقها[٨] مما توارى واستتر، فجهنم تَوارى ولا تظهر، فصارت من وراء؛ لأنها لا تُرى. حكاه ابن الأنباري[٩]، وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماءٍ مثل الصديد، كما يُقال للرجل الشجاع: أسد، أي: مثلُ الأسد، وهو تمثيلٌ وتشبيه[١٠]. وقيل: هو ما يسيل من

---

(١) البيت لسوار بن المُضرَّب، كما في الكامل للمبرِّد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦، والأضداد للأصمعي ص٢٠، والأضداد لابن الأنباري ص٦٨. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمثان.

(٢) ديوانه ص١٧٠.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٧، وسلف هذا المعنى قريباً.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٢.

(٦) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

(٧) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.

(٨) في (ظ): واشتقاقه، وفي (م): واشتقاقهما.

(٩) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(١٠) المصدر السابق.

أجسام أهل النار من القيح والدم[(١)]. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنس: هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماءٌ يسيل من فروج الزُّناة والزواني[(٢)]. وقيل: هو من ماءٍ كراهتُه[(٣)] تَصدُّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصَّدِّ.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسْر، عن أبي أمامة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يُقرَّبُ إلى فِيهِ فيكرهه، فإذا أُدنيَ منه شَوَى وجهَه، ووقعتْ فَرْوةُ رأسِه، فإذا شرِبَه قَطَّعَ أمعاءَه حتى تخرجَ من دُبُرِه، يقول الله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول الله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» خرَّجه التِّرمذي، وقال: حديث غريب[(٤)]. وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديثَ أبي أُمامة لعلَّه أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يَتَحسَّاه جُرَعاً لا مرَّةً واحدةً؛ لمرارته وحرارته[(٥)]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرَّعه بمعنى[(٦)]. وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً: إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللهُ إساغةً[(٧)]. و«يَكَادُ» صلة، أي: يُسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٩ عن الضحاك. وأخرجه أيضاً عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٥٧، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٥٣.

(٣) في (د) و(م) والنكت والعيون (والكلام منه): كرهته.

(٤) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣١٤)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، وأخرجه من طريق ابن المبارك أيضاً أحمد (٢٢٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وغيرهما، ونقل الترمذي بإثر الحديث عن البخاري قوله: لا نعرف عبيد الله بن بُسر إلا في هذا الحديث.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٥٣.

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٣٦١.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧.

فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. فهذا يدلُّ على الإساغة. وقال ابن عباس: يُجيزه ولا يمرُّ به[١].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة: عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، ومن قُدَّامه وخلفه[٢]، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كلِّ مكانٍ من جسده، حتى من أطراف شعره[٣]؛ للآلام التي في كلِّ مكانٍ من جسده[٤]. وقال الضحَّاك: إنه لَيأتيه الموت من كلِّ ناحيةٍ ومكان، حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمَّاها موتاً، وهي من أعظم الموت[٥]. وقيل: إنه لا يبقى عضوٌ من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوعٌ من العذاب؛ لو مات سبعين مرةً لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها في فردٍ لحظة؛ إما حيةٌ تَنهشُه، أو عقربٌ تَلسِبُه[٦]، أو نارٌ تَسفعُه، أو قيدٌ برجليه، أو غُلٌّ في عنقِه، أو سلسلةٌ يُقرَّنُ بها، أو تابوتٌ يكون فيه، أو زَقُّومٌ، أو حميمٌ، أو غيرُ ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافرُ في جهنم بالشراب فرآه، مات موتاتٍ، فإذا دنا منه؛ مات موتاتٍ، فإذا شرب منه؛ مات موتاتٍ، فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحَّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جُرَيج: تَعلَقُ رُوحُه في حَنْجَرتِه فلا تخرج من فِيه فيموتَ، ولا تَرجِعُ إلى مكانها من جوفه فتنفعَه الحياة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٢، والطبري ١٣/ ٦٢١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢١٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٦) في (ظ): «تلسَعُه»، وكلاهما بمعنى.

(٧) كذا نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٣ لابن جريج، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢١ عن ابن جريج، عن مجاهد.

ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً، كلُّ واحدٍ منها كألم الموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وبذلك وردت السنة[1]؛ فأحوالُ الكفار أحوالُ مَنِ استولى عليه سكراتُ الموت دائماً، والله أعلم.

﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: شديدٌ متواصلُ الآلامِ من غير فُتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] أي: شدَّةً وقوة. وقال فُضَيل بن عِياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس[2].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النَّحْويُّون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء، والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصُّ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي: كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾[3]. وقال الزَّجَّاج[4]: أي: مَثَلُ الذين كفروا فيما يُتلى عليكم أعمالُهم كرماد. وهو عند الفرَّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم

(١) سلف من حديث أبي سعيد الخدري ١/ ٣٧٥ .

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٢٣ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥٥ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٧ .

أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثلُ أعمالِ الذين كفروا بربهم كرماد. وذكر الأول عنه المهدويّ(١)، والثاني القُشَيريُّ والثَّعلبيُّ(٢). ويجوز أن يكون مبتدأ، كما يقال: صفةُ فلانٍ أسمر، فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة(٣). ويجوز في الكلام جرُّ «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ»(٤)، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

والمعنى: أعمالُهم مُحْبَطة غير مقبولة. والرَّماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، فضربَ اللهُ هذه الآية مثلاً لأعمال الكفَّار في أنَّه يَمحقُها كما تَمحقُ الرِّيحُ الشديدةُ الرَّمادَ في يومٍ عاصف. والعَصْفُ: شدة الريح(٥)، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غيرَ اللهِ تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثةُ أقاويل: أحدها: أنَّ العُصُوفَ وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصَفُ به؛ لأنَّ الرِّيحَ تكون فيه، فجاز أن يُقال: يومٌ عاصف، كما يقال: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبرد والحرُّ فيهما. والثاني: أن يُريدَ: في يومٍ عاصِفِ الرِّيحِ؛ لأنها ذُكِرتْ في أول الكلام(٦)، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ(٧)

يريد: كاسفِ الشمسِ، فحذف؛ لأنه قد مرَّ ذِكْرُه؛ ذكرهما الهَرَويُّ(٨). والثالث أنه من نعت الريح، غير أنه لمَّا جاء بعد اليوم أُتبِعَ إعرابَه، كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خرِبٍ. ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ(٩).

---

(١) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١ .

(٢) وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٢ ، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٢ .

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في النسخ: الكلمة، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٧) عجز بيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣ ، وصدره: وتضحك عرفان الدروع جلودنا.

(٨) وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٤ .

(٩) في النكت والعيون ٣/ ١٢٩ ، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٤ ، قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٧ : =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر: «في يومِ عاصفٍ»[(١)]. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد: في الآخرة، أي: من ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير، وإنما جعله كبيراً بعيداً؛ لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا: رؤية القلب[(٢)]؛ لأن المعنى: ألم ينتهِ عِلمُك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي[(٣)]: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ»: ليستدلَّ بها على قدرته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس، أي: هو قادرٌ على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثلَ الأولين فلا فائدةَ في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنعٍ[(٤)] مُتعذِّر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة.

= هذا مما لا ينبغي أن يُحمل كتابُ الله جلَّ وعزَّ عليه، وقد ذكر سيبويه أن هذا من العرب غلط، واستدلَّ بأنهم إذا ثنَّوْا قالوا: هذان جحرا ضبٍّ خربان لأنه قد استبان بالتثنية والتوحيد.

(١) بإضافة «يوم» إلى «عاصف». وينظر المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٢) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.

(٤) في غير (ظ): منيع، وفي (ظ): ممتنع، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٥.

والبُرُوز: الظُّهور. والبَرَاز: المكان الواسع؛ لظهوره، ومنه امرأة بَرْزة، أي: تظهر للناس[١]. فمعنى «بَرَزُوا»: ظهروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال[٢]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وقاربوا لمَّا استفتحوا فأهلكوا، ثم بُعِثوا للحساب، فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدراً، التقدير: ذوي تَبَعٍ. ويجوز أن يكون جمعَ تابِع، مثل: حارِس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وراصِد ورَصَد، وباقِر وبَقَر[٣]. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة؛ يُقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه الأذى، وأغناه: إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نجَّانا الله من العذاب لنجيناكم منه[٤].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداء؛ خبره: «أَجَزِعْنا» أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مَهربٍ وملجأ[٥]. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حَاصَ فلانٌ عن كذا ـ أي: فرَّ وراغ ـ يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً وحَيَصاناً[٦]، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ به عن النار.

---

(١) ينظر اللسان (برز).

(٢) زاد المسير ٤/٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٦٨، وتفسير الطبري ٣/٦٢٦، والوسيط ٣/٢٨، وتفسير البغوي ٣/٣٠، والمحرر الوجيز ٣/٣٣٢.

(٤) النكت والعيون ٣/١٢٩ - ١٣٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر اللسان (حيص).

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقولُ أهلُ النار إذا اشتدَّ بهم العذاب: تعالَوا نصبِرْ، فيصبرون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمَّ فلنجزَعْ، فيجزعون ويصيحون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾»[١].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ذُكِرَ لنا أنَّ أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء، قد نزلَ بكم من البلاء والعذاب ما قد تَرَون، فهلُمَّ فلنصبِرْ؛ فلعلَّ الصَّبرَ ينفعُنا كما صبرَ أهلُ الطَّاعةِ على طاعة الله، فنفعهُم الصَّبرُ إذْ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصَّبر، فصبروا، فطالَ صبرُهم، فجزعوا، فنادَوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنجًى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ يقول: لستُ بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً[٣]. ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» أي: حَصَل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[٤]، على ما يأتي بيانُه في «مريم» عليها السلام[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ يعني: البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدَقكم وعدَه، ووعدتُكم أن لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ،

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

(٢) التذكرة ص٤١٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٢٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨.

(٥) عند تفسير الآية (٣٤) منها.

ولا ثوابَ ولا عقابَ، فأخلفتُكم[١].

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبةَ بنِ عامر، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيقولُ عيسى: أدلُّكم على النبيِّ الأُمِّيِّ، فيأتوني، فيأذَنُ اللهُ لي أن أقومَ، فَيثُورُ مجلسي من أطيبِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، حتى آتيَ ربي فيُشفِّعني، ويجعلُ لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجدَ المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فمن يشفَعُ لنا؟ فيقولون: ما هو غيرَ إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فاشفَعْ لنا فإنَّكَ أضلَلْتنا، فَيثُور مجلسُه من أنتنِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، ثم يَعظُم نَحِيبُهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية[٢].

«وَعْدَ الْحَقِّ»: هو إضافةُ الشيء إلى نفسه[٣]، كقولهم: مسجد الجامع. قاله الفرَّاء[٤]. وقال البصريون: وعدكم وعدَ اليومِ الحقِّ، أو: وعدكم وعدَ الوعدِ الحقِّ فصدَقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّةٍ وبيان، أي: ما أظهرتُ لكم حجَّةً على ما وعدتُكم وزيَّنْتُه لكم في الدنيا، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناءٌ منقطع، أي: لكن دعوتُكم بالوَسواس فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[٥]. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٢) «المسند» (١١١) لابن المبارك، وفي «الزهد» (٣٧٤) له - زوائد نعيم بن حماد - وأخرجه من طريقه الطبري ١٣/ ٦٣٠ - ٦٣١، وفي إسناده رشدين بن سعد وعبد الرحمن بن زياد بن أنعُم الإفريقي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: «إلى نعته».

(٤) ينظر اللسان (جمع).

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، والوسيط ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٧.

أي: على قلوبكم وموضع إيمانكم، لكن دعوتُكم فاستجبتُم لي. وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَب الكفَّارَ دون العاصين الموحِّدين، والله أعلم.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾: إذْ أجبتُموني[١] من غير حُجَّة. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بمُغيثيَّ. والصَّارخُ والمستصرخ: هو الذي يطلب النُّصرةَ والمعاونة، والمُصرِخُ: هو المغيث[٢]. قال سَلَامة بن جَنْدَل:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فَـزِعٌ كـان الـصُّـراخُ لـه قَـرْعَ الـظَّـنـابـيـبِ[٣]

وقال أُميّة بن أبي الصَّلْت:

ولا تَـجـزَعـوا إنّـي لـكـم غـيـرُ مُـصْـرِخٍ ولـيـس لـكـم عـنـدي غَـنَـاءٌ ولا نَـصْـرُ[٤]

يقال: صَرَخ فلانٌ، أي: استغاث، يَصرُخُ صَرخاً وصُرَاخاً وصرخة[٥]. واصطَرخَ بمعنى صَرَخَ. والتَّصرُّخ: تَكلُّف الصُّراخ، والمُصْرِخُ: المُغِيث، والمستصرِخ: المستغيث؛ تقول منه: استصرخَني فأصرَخْتُه. والصَّرِيخ: صوت المستصْرِخ. والصَّريخُ أيضاً: الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد. قاله الجوهري[٦]. وقراءة العامَّة: «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

---

(١) في (م): إذا جئتموني، وهو تصحيف.

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ١٣٦ .

(٣) ديوان سلامة ص١٢٥ ، والمفضليات ص١٢٤ ، والظنابيب جمع ظُنبوب: وهو حرف الساق اليابس من قُدُم، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيَّأ له. اللسان (ظنب).

(٤) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٣١ ، ولم نقف عليه في ديوان أمية.

(٥) في معاجم اللغة: صرخ يصرخ صُراخاً وصَريخاً، ولم نقف على المصادر الأخرى التي ذكرها المصنف.

(٦) في الصحاح (صرخ).

(٧) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ .

«بِمُصْرِخِيِّ» بكسر الياء[١]. والأصل فيها: بمصرخيني[٢]، فذهبت النون للإضافة، وأُدغِمت ياءُ الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصبَ فلأجل التضعيف، ولأنَّ ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيَّن فيها الفتح، مثل: هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرَّكَ ما قبلها جازَ الفتحُ والإسكان، مثل: غلامِيَ وغلامَتي، ومن كسرَ فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة[٣]. وقال الفرّاء[٤]: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم عن خطأ. وقال الزجَّاج[٥]: هذه قراءةٌ رديئةٌ ولا وجهَ لها إلا وجهٌ ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء[٦]. القُشَيريُّ: والذي يُغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبيِّ ﷺ فلا يجوز أن يُقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعلَّ هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرتُ بإشراككم إيَّايَ مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ«ما» بمعنى المصدر[٧]. وقال ابنُ جريج: إني كفرتُ اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشِّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيتُ الله. الثوريُّ: كفرتُ بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردٌّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظُرْ إلى قول المتبوعين: «لو هدانا اللهُ لَهَدَيناكُمْ» وقول إبليس: «إنَّ اللهَ وعدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ»؛ كيف اعترفوا بالحقِّ في صفات الله تعالى وهم في دَرَكات النار، كما قال في

---

(١) قراءة حمزة من السبعة، أما قراءة الأعمش فقد نقلها عنه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٩، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣.

(٢) في (م): بمصرخيين، وهو تحريف وفي (ظ): بمصرخينني.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٧٥ بمعناه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٦) نقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٧.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

موضعٍ آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ٨-١١]. واعترافهم في دَرَكاتِ لَظى بالحقِّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه في الدنيا؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. و«عَسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾ أي: في جنَّاتٍ؛ لأن «دخلتُ» لا يتعدَّى، كما لا يتعدَّى نقيضُه، وهو خرجتُ، ولا يُقاس عليه. قاله المهدوي[1]. ولمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار؛ أخبر بحال أهل الجنة أيضاً.

وقراءة الجماعة: «أُدْخِلَ» على أنه فِعْلٌ مبني للمفعول. وقرأ الحسن: «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف[2].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني؛ تعظيماً وتفخيماً. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ تقدم في «يونس»[3]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لمَّا ذكر تعالى مَثَلَ أعمال

---

(١) قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ : الدليل على أن دخلت لا يتعدى، أن نقيضه لا يتعدى، وهو: خرجت، وكل فعل لا يتعدى نقيضه لا يتعدى هو.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦١ .

(٣) ١٠/ ٤٥٩ .

الكفار، وأنها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريح في يومٍ عاصف؛ ذكر مَثَلَ أقوالِ المؤمنين وغيرها، ثم فسَّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثَّمر، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن(١). وقال مجاهد وابنُ جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان(٢). عطية العَوْفيُّ والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه(٣). وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشَّجرة: النَّخلة(٤). فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبَّهه بالنخلة في المَنبِتْ، وشبَّه ارتفاعَ عملِه في السماء بارتفاع فروع النَّخلة، وثوابَ اللهِ له بالثَّمر(٥).

ورُوِيَ من حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ مَثَلَ الإيمان كمثَلِ شجرةٍ ثابتةٍ، الإيمانُ عُروقُها، والصلاةُ أصلُها، والزكاةُ فروعُها، والصيامُ أغصانُها، والتآخي(٦) في اللهِ نباتُها، وحُسنُ الخُلُقِ ورقُها، والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها»(٧).

ويجوز أن يكون المعنى: أصل النَّخلة ثابتٌ في الأرض، أي: عروقُها تشرب من الأرض، وتسقيها السماءُ من فوقها، فهي زاكيةٌ نامية.

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديث أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ فيه

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦).

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٦ عنهما، وذكره الماوردي ٣/ ١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، والطبري ١٣/ ٦٤١، والرامهرمزي ص١٠٩ عن عكرمة.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في «تنزيه الشريعة»، وفي بقية النسخ: «التأذي».

(٧) أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ وعزاه للحاكم، وذكر بأنه من مرسل حميد الطويل عن أنس، ثم قال: لم يُبيِّن ـ يعني الحاكم ـ علَّته مع إرساله، وهو من طريق محمد السلمي النيسابوري، وأظنه ابن أشرس، وهو متروك متهم، وشيخه حمزة بن شداد الجزري ما عرفتُه، والله أعلم.

رُطَبٌ، فقال: «مَثَلُ كلمةٍ طيِّبةٍ كشجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبِّها». قال: «هي: النَّخلة، ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأرضِ ما لها مِنْ قرار». قال: «هي الحنْظَل». ورُوي عن أنسٍ قولَه، وهو أصحُّ[1]. وخرَّجَ الدَّارقطنيُّ عن ابن عمر قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي؟» فوقعَ في نفسي أنها النَّخلة[2].

قال السُّهَيليُّ[3]: ولا يصِحُّ فيها ما رُويَ عن عليٍّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن عمر: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مَثَلُ المؤمن، خبِّروني ما هي؟ ثم قال: «هي النخلة». خرَّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، إلَّا يحيى؛ فإنه أسقطه من روايته، وخرَّجه أهل الصحيح[4]، وزاد فيه الحارث بن أسامة[5] زيادةً تساوي رِحلة، عن النبيِّ ﷺ قال: «وهي النخلة، لا تسقط لها أَنمَلة، وكذلك المؤمنُ لا تسقط له دعوة». فبيَّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزْنَويُّ عنه عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمن كالنَّخلة، إن صاحَبْتَه نفعَكَ، وإن جالَسْتَه[6] نفعَكَ، وإن شاوَرْتَه نفعَكَ، كالنخلة كلُّ شيءٍ منها

(١) سنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٨)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والطبري ١٣/٦٣٨، وابن حبان (٤٧٥) مرفوعاً. والقناع: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية (قنع). ثم أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١١٩)، والطبري ١٣/٦٣٨ موقوفاً.

(٢) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(٣) في التعريف والإعلام ص٨٥ .

(٤) الموطأ ص٣٣٩ ، رواية محمد بن الحسن الشيباني، وأخرجه أحمد (٥٢٧٤)، والبخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٦٧) من طريق مالك. وأخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) من غير طريق مالك.

(٥) كما في بغية الباحث (١٠٦٧)، وفي إسناده محمد بن ربيع، ولم نقف له على ترجمة.

(٦) في (ظ): جافيته.

يُنتفَعُ به»(١). وقال: «كُلُوا من عَمَّتكم ـ يعني النخلة ـ خُلِقَتْ من فَضْلَةِ طينة آدم عليه السلام»(٢).

وكذلك أنها برأسها تَبقى، وبقلبها تَحيا، وثمرها بامتزاج الذَّكر والأنثى. وقد قيل: إنَّها لمَّا كانت أشبهَ الأشجار بالإنسان شُبِّهت به؛ وذلك أنَّ كلَّ شجرةٍ إذا قُطِعَ رأسُها تشعَّبتِ الغصونُ من جوانبها، والنخلةُ إذا قُطِعَ رأسُها يبِستْ وذهبت أصلاً، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح؛ لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح(٣)؛ قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»(٤). والإِبارُ: اللَّقاح(٥)، وسيأتي في سورة «الحجر»(٦) بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم. ويُقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا صوَّرَ آدم من الطِّين فَضَلتْ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٤١)، والرامهرمزي في الأمثال (٣٠) عن ابن عمر مرفوعاً، وفي لفظ الطبراني: «كمثل العطار» وفي لفظ الرامهرمزي: «مثل النخلة أو النحلة» على الشك، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٣ : فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

لكن رواه الرامهرمزي (٣١) بإسناد آخر عنه ورجاله ثقات، بلفظ: «كمثل الشجرة...» وأخرجه الطبراني (١٣٥١٤) بإسنادٍ ثالث عنه أيضاً صححه ابن حجر في الفتح ١/ ١٤٧ ، ولفظه: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٥٦ ، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٤ ، والرامهرمزي (٣٥)، وابن عدي ٦/ ٢٤٢٤ من طريق مسرور بن سعيد، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي مرفوعاً، وعند الجميع: «أكرموا عمتكم» بدلاً من «كلوا من». قال ابن حبان: مسرور ابن سويد يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها. وقال ابن عدي: هذا حديث عن الأوزاعي منكر، وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل، ومسرور بن سعيد غير معروف، لم أسمع بذكره إلا بهذا الحديث. وأخرجه ابن عدي أيضاً ٢/ ٥٧٨ عن ابن عمر مرفوعاً، وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي. قال ابن عدي (وقد أخرج له حديثاً آخر بعده): لا أشك أن جعفراً وضعهما.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

(٥) والسِّكة: الطريقة المصطفة من النخل. ومُهرةٌ مأمورة: كثيرة النسل والنِّتاج. النهاية (أبر) و(أمر).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

قطعةُ طينٍ، فصوَّرها بيده، وغرسها في جنَّة عَدْن. قال النبيُّ ﷺ: «أكرموا عَمَّتكم» قالوا: ومن عمَّتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة»[١].

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ»: غُدوةً وعشِيةً، كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخرَه. وقاله ابن عباس[٢]. وعنه: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ» قال: هو شجر جوز الهند، لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر. شبَّه عمل المؤمن لله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقتٍ بالنخلة التي تُؤتي أُكُلَها في أوقاتٍ مختلفة. وقال الضحَّاك: كلَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، شتاءً وصيفاً، يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها[٣]. وقال النحاس[٤]: وهذه الأقوال متقاربةٌ غيرُ متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة ـ إلا من شذَّ منهم ـ بمعنى الوقت، يقعُ لقليلِ الزمان وكثيرِه، وأنشد الأصمعيُّ بيتَ النَّابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُه حِيناً وحِيناً تُراجِعُ[٥]

فهذا يُبيِّن لك أنَّ الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابتٌ في قلب المؤمن، وعملُه وقولُه وتسبيحُه عالٍ مرتفعٌ في السماء ارتفاعَ فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النَّخلة في أوقات السنة كلِّها، من الرُّطَب والبُسْر والبلح والزَّهْو والتَّمر والطَّلع[٦]. وفي روايةٍ عن ابن عباس: إن الشجرةَ الطيبةَ[٧] شجرةٌ في الجنة تُثمِرُ في كل وقت.

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٣٣ بهذا اللفظ، وقد تقدم آنفاً بغير هذا اللفظ، وذكرنا علته ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ و ٦٥١ عن الربيع، و١٣/ ٦٤٣ و ٦٤٤ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٨٠ ، وفيه: طوراً وطوراً، بدل: حيناً وحيناً.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ .

(٧) كلمة الطيبة ليست في (م).

و«مَثَلاً» مفعول بـ«ضَرَبَ»، و«كلمةً» بدلٌ منه، والكاف في قوله: «كشجرةٍ» في موضع نصبٍ على الحال من «كَلِمَة»؛ التقدير: كلمةً طيبةً مشبَّهةً بشجرةٍ طيبة(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ لمَّا كانتِ الأشجارُ تؤتي أُكُلَها كلَّ سنةٍ مرةً، كان في ذلك بيانُ حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألَّا يُكلِّم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً: إنَّ الحين سنة(٢). وقد ورد الحينُ في موضعٍ آخرَ يُرادُ به أكثر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عكرمةُ أنَّ رجلاً قال: إن فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامُه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلتُ: إنَّ من الحين حيناً لا يُدرَكُ، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] فأرى أن تُمسِكَ ما بين صِرام النَّخلة إلى حَمْلِها، فكأنه أعجبه(٣). وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره(٤). وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»(٥) مستوفًى والحمد لله.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر(٦).

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وذكر أبو حيان في البحر ٥/ ٤٢١، أنه على هذا الوجه يكون قوله: «كشجرة» نعتاً للكلمة.

(٢) سلف ١/ ٤٧٩، وقد عزاه المؤلف هناك إلى ابن خويزمنداد في أحكامه.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠، ولكن ذكر فيه الآية الآنفة الذكر من سورة الإنسان بدلاً من آية الأنبياء. وسيرد بسياق آخر عند تفسير الآية الأخيرة من سور ص.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٠٨.

(٥) ١/ ٤٧٧ - ٤٨٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

وقيل: الكافر نفسه[١]. والشجرة الخبيثة: شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرةٌ لم تُخلَقْ على الأرض[٣]. وقيل: هي شجرة الثُّوم عن ابن عباس أيضاً[٤]. وقيل: الكَمْأَةُ أو الطُّحلَبة. وقيل: الكَشُوث[٥]، وهي شجرةٌ لا ورقَ لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهُـمْ كَـشُـوثٌ فـلا أصـلٌ ولا ورقٌ[٦]

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: اُقتُلِعَتْ من أصلها. قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هـو الـجـلاءُ الـذي يَـجـتـثُّ أصـلَـكُـمُ فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا[٧]

وقال المؤرِّج: أُخِذَتْ جُثَّتُها وهي نفسُها، والجُثَّةُ: شخصُ الإنسان قاعداً أو نائماً[٨]. وَجَثَّه: قَلَعه، واجتثه: اقتلعه من فوق الأرض[٩]، أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من أصلٍ في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر؛ لا حُجَّةَ له ولا ثباتَ ولا خيرَ فيه، وما يصعَدُ له قولٌ طيِّبٌ ولا عملٌ صالح[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٨ - ٦٥٩ عن ابن عباس والربيع وعطية العوفي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٣ -٦٥٤ ، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، وسلف حديث أنس في المسألة الأولى في الآية قبلها.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٤ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٤ ، والوسيط ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٦) صدر بيت، وعجزه: ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤ ، والصفدي في تصحيح التصحيف ص١٢٣ . والجوهري في الصحاح (كشث). وقال فيه الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيت في ديوان لقيط بن يعمر ص٨٦ وفيه: «رأياً» بدل «يوماً».

(٨) المثبت من (ظ) والصحاح، وفي بقية النسخ: قائماً.

(٩) ينظر الصحاح (جثث).

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦١ .

وروى معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[(١)] في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا اله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: المشرك، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ليس للمشرك أصلٌ يعمل عليه[(٢)].

وقيل: يرجع المَثَلُ إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأنَّ الكلمةَ يُفهم منها القولُ والدعاءُ إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائيُّ عن البراء قال[(٣)]: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يُقال: مَنْ ربُّكَ؟ فيقول: ربِّيَ الله، وديني دينُ محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[(٤)].

قلتُ: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء[(٥)] قوله[(٦)]،

---

(١) قوله: «عن ابن عباس» من (ظ) وتفسير الطبري، وليس في باقي النسخ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥ و ٦٥٦ - ٦٥٧ .

(٣) كلمة «قال» مكررة في (ف) و(م).

(٤) أخرجه إلى قوله: نزلت في عذاب القبر، موقوفاً النسائي في المجتبى ٤/ ١٠١ ، وفي السنن الكبرى (١١٢٠٢). وأخرجه بتمامه موقوفاً ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧ ، والطبري ١٣/ ٦٥٨ ، والآجري في الشريعة ص٣٧١ من طريق آخر عن البراء.

(٥) بعدها في (م): «أنه».

(٦) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٤) بمثل رواية النسائي.

والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء، عن النبيِّ ﷺ[١]. وذكر البخاريُّ[٢]: حدثنا حفص بن عمر، قال: حدثنا شُعبة، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سعد بن عُبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أُقْعِدَ المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾». وقد بيَّنَّا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣]، وبيَّنا هناك من يُفتَنُ في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمَّله هناك.

قال سهل بن عمَّار: رأيتُ يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلتُ له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكانِ فظَّانِ غليظان، فقالا: ما دِينُكَ؟ ومن ربُّكَ؟ ومن نَبيُّكَ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلتُ: أَلِمِثلي يُقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنة؟! فذهبا وقالا: أكَتَبْتَ عن حَريز بن عثمان؟ قلتُ: نعم. فقالا: إنَّه كان يبغض علياً[٤] فأبْغَضَه الله.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾: يُديمهمُ الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله ابن رَواحة:

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ ... تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرا[٥]

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٣)، والمجتبى ٤/ ١٠١ - ١٠٢ ، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٠٠)، وسنن أبي داود (٤٧٥٠)، وسنن ابن ماجه (٤٢٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٨٥٧٥)، وصحيح البخاري بإثر الحديث (١٣٦٩) (ولم يسق لفظه) وسنن الترمذي (٣١٢٠).

(٢) في صحيحه (١٣٦٩)، وتصحف اسم شيخه في النسخ إلى جعفر بن عمر.

(٣) ص١٢٥ .

(٤) وقع في النسخ: عثمان، والمثبت من التذكرة، وشرف أصحاب الحديث ص١٠٨ ، وصفة الصفوة ٣/ ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٥ ، ومن غيرها من كتب التراجم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، والبيت في ديوان عبد الله بن رواحة ص٤٦ ، وفي مطبوعه: «فثبَّت» بدل «يثبت» و«نصروا» بدل «نصرا».

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاءً لهم على القول الثابت. وقال القَفَّال وجماعة: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب[1]. وحكاه الماورديُّ عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا: المُساءلة في القبر، وبالآخرة: المُساءلة في القيامة[2]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عن حُجَّتهم في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقِّنهم كلمةَ الحقِّ، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. فيقولان: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، وعند ذلك يُضرَب بالمقامع على ما ثبت في الأخبار[3]، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[4]. وقيل: يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من عذابِ قومٍ وإضلالِ قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما رُويَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا وصفَ مُساءلة مُنْكَرٍ ونكير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله، أيكونُ معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفيتُ إذاً. فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية[5].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: جعلوا بدلَ نعمة الله عليهم الكفرَ في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد

(١) ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٦ عن الربيع بن أنس.

(٢) نقله عن الماوردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ .

(٣) منها ما أخرجه أحمد (١١٠٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) ص١١٣ - ١١٥ .

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٠٣) دون ذكر سبب نزول الآية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مشركو قريش، وأنَّ الآية نزلت فيهم. عن ابن عباس وعليٍّ وغيرهما[١]. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر[٢]. قال أبو الطُّفَيل: سمعت عليًا ﷺ يقول: هُمْ قريشٌ الذين نُحِروا يوم بدر[٣]. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٤]. وقول رابع: أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لُطِم[٥]، فجعل له عمرُ القصاصَ بمثلها، فلم يرضَ، وأَنِفَ، فارتدَّ مُتنصِّراً، ولَحِقَ بالروم في جماعةٍ من قومه. عن ابن عباس وقتادة[٦]. ولمَّا صار إلى بلد الروم ندِمَ فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تَكنَّفني منها لَجَاجٌ وَنَخْوةٌ ... وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالْعَوَرْ

فيا ليتَني أرعى المَخاضَ ببلدةٍ ... ولم أُنكرِ القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن: إنها عامةٌ في جميع المشركين[٧]. ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر[٨]. «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أي: الذين اتبعوهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧١ - ٦٧٢ عن علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٢ عن علي ﷺ، و ١٣/ ٦٧٣ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي ٣/ ٣٥، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣) والطبري ١٣/ ٦٧١ بلفظ: هم كفار قريش يوم بدر.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٦٩ - ٦٧٠ عن عمر ﷺ، و١٣/ ٦٧٠، والحاكم ٢/ ٣٥٢ والواحدي في الوسيط ٣/ ٣١ عن علي ﷺ، وأورده في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): لطم رجلاً، وهي رواية أخرى في قصته أنه لطم رجلاً وفرَّ من القصاص، ينظر مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٣٦٨-٣٧٤، والبداية والنهاية ١١/ ٢٦٣-٢٦٩، ونهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣١١-٣١٥.

(٦) هو في النكت والعيون ٣/ ١٣٦، عن ابن عباس وحده، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ مختصراً، وقال: لم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٤٤.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٢، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ لقتادة، وهو أحد الأقوال في شرح قوله: الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٥ و ٦٧٦ وعن أبي مالك وقتادة.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم. قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر. قاله عليٌّ بن أبي طالب ومجاهد. والبوار: الهلاك[1]؛ ومنه قول الشاعر:

فـلـم أرَ مـثـلَـهـمْ أبـطـالَ حَـرْبٍ غـداةَ الـحـرب إذْ خِـيـفَ الـبَـوارُ[2]

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيَّن أنَّ دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ لأن جهنَّمَ منصوبةٌ على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعَها رافعٌ بإضمارٍ[3]، على معنى: هي جهنم، أو بما عادَ من الضمير في «يَصْلَونها»؛ لَحَسُنَ الوقف على «دار البَوار»[4]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: المستقرّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أصناماً عبدوها، وقد تقدَّم في «البقرة»[5]. ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾[6] [الآية:٩]، ومثله في «لقمان» [الآية:٦]، و«الزمر» [الآية:٨]، وضَمَّها الباقون على معنى: لِيُضِلُّوا الناسَ عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلُّون عن سبيل الله على اللزوم، أي: عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، فهذه لام العاقبة[7].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ وعيدٌ لهم، وهو إشارةٌ إلى تقليل ما هم فيه من ملاذِّ الدنيا؛ إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مَردَّكم ومرجِعَكم إلى عذاب جهنم.

---

(١) الصحاح (بور).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٦ - ١٣٧، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٧ - ٦٧٨.

(٣) في (ظ): بإضمار مبتدأ.

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٤١.

(٥) ١/ ٣٤٧.

(٦) السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ أنها لام العاقبة على القراءة بفتح الياء، وأنها لام «كي» على القراءة بضمها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٨٨) من «يونس».

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إنَّ أهل مكة بدَّلوا نعمةَ الله بالكفر، فقُلْ لمن آمنَ وحقَّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، أي: قُلْ لهم: أقيموا، والأمر معه شرطٌ مُقدَّر، تقول: أطِعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنة؛ أي: إن أطعته يُدخِلْكَ الجنة. هذا قول الفراء[١]. وقال الزجّاج[٢]: «يُقيموا» مجزومٌ بمعنى اللام، أي: ليقيموا، فأُسقِطَتِ اللامُ؛ لأنَّ الأمر دلَّ على الغائب بـ «قل». قال: ويَحتملُ أن يُقال: «يُقيموا» جوابُ أمرٍ محذوف؛ أي: قُلْ لهم: أقيموا الصلاةَ يُقيموا الصلاةَ[٣].

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: الزكاة. عن ابن عباس وغيره[٤]. وقال الجمهور: السِّرُّ ما خَفِيَ، والعلانيةُ ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إنَّ السِّرَّ التطوعُ، والعلانيةَ الفرض[٥]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً عند قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [الآية: ٢٧١][٦].

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» أيضاً[٧]. و«خِلالٌ» جمع خُلَّة، كقُلَّة وقِلال. قال:

فلستُ بمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ[٨].

(١) بمعناه في معاني القرآن له ٢/ ٧٧ . ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ عن سيبويه قوله: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ١٦٢ .

(٣) وهو أيضاً قول المبرد في المقتضب ٢/ ٨٤ ، ونقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٧ .

(٦) ٤/ ٣٥٩ .

(٧) ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٢ .

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، وهو في ديوانه ص٣٥ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدعها واخترعها على غير مثالٍ سبق. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»(١). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ يعني: البحار العذبة؛ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة؛ لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ أي: في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتُران. رُوي معناه عن ابن عباس(٢). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ أي: أعطاكم من كل مسؤولٍ سألتُموه شيئاً؛ فحذف عن الأخفش(٣). وقيل: المعنى: وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه، ومن كلٍّ ما لم تسألوه، فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١](٤)، على ما يأتي.

---

(١) ٢/ ٤٩٤.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٦٣، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٤.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٠٠.

(٤) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن ابن الأنباري.

وقيل: «مِن» زائدة، أي: آتاكم كلَّ ما سألتُموه(١).

وقرأ ابن عباس والضحَّاك وغيرُهما: «وآتاكُمْ مِنْ كُلٍّ» بالتنوين «ما سأَلْتُمُوه»(٢)، وقد رُوِيَتْ هذه القراءة عن الحسن والضحَّاك وقَتادة؛ هي على النفي، أي: من كلٍّ لم(٣) تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما(٤). وقيل: من كلِّ شيء ما سألتُموه، أي: الذي ما سألتموه(٥).

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا تطيقوا عَدَّها، ولا تقوموا بحصرها؛ لكثرتها(٦)، كالسَّمع والبصر وتقويم الصُّوَر، إلى غير ذلك من العافية والرزق، نِعَمٌ لا تحصى، وهذه النّعم من الله، فلِمَ تبدلون نِعَمَ الله بالكفر؟! وهلا استعنتُم بها على الطاعة؟!.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس، وأراد به الخصوص(٧). قال ابن عباس: أراد أبا جهل(٨). وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني: مكة. وقد مضى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٣) قبلها في (م) زيادة «ما».

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٦٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٥ عن الضحاك وقتادة.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٣.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٧) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٤: هذا اسم جنسٍ يقصد به الكافر خاصةً.

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

في «البقرة»[(١)]. ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني جانباً عن عبادتها[(٢)]. وأراد بقوله: «بنيّ» بنيه من صُلْبه[(٣)]، وكانوا ثمانية، فما عبدَ أحدٌ منهم صنماً[(٤)]. وقيل: هو دعاءٌ لمن أراد الله أن يدعوَ له.

وقرأ الجَحْدَريُّ وعيسى «وَأَجْنِبْني» بقطع الألف[(٥)]، والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنَبْته وجَنَّبْتُه إيَّاه، فتجانَبَه واجتَنَبه، أي: تركَه[(٦)]. وكان إبراهيم التَّيميُّ يقول في قصصه: مَنْ يأمنُ البلاءَ بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كما عبدَها أبي وقومي[(٧)]؟!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لمَّا كانت سبباً للإضلال أضافَ الفعل إليهنَّ مجازاً؛ فإنَّ الأصنام جماداتٌ لا تفعل[(٨)]. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: أصرَّ على الشِّرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يُعرِّفَه اللهُ أنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيَّان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك[(٩)].

---

(١) ٢/ ٣٨٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠، والوسيط ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦.

(٤) وقد أخرج الطبري ١٣/ ٦٨٧ عن مجاهد أن الله استجاب لإبراهيم دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، والصحاح (جنب).

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٦٨٧ - ٦٨٨ دون قوله: كما عبدها أبي وقومي.

(٨) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٨، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٥، وجاء في (ظ) و(ف): لا تعقل.

(٩) الأقوال الثلاثة في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، والقول الأول لمقاتل بن سليمان، والتعليل الذي أورده بعده لابن الأنباري، والقول الثاني للسدي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ عن ابن عباس: أولُ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ من قِبل أمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّيَ أَثَرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد - وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء - فوضعَهُما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تَمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، فتَبِعَتْه أمُّ إسماعيلَ، فقالت: يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفِتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَتْ، فانطلقَ إبْراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونه، استقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾. وجعلتْ أمُّ إسماعيل تُرضعُ إسماعيل وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء؛ عطِشتَ وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظر إليه يَتلوَّى - أو قال: يَتلَبَّط - فانطلقَتْ كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تنظرُ هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الواديَ، رفَعتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَتْ سعيَ الإنسانِ المجهود، حتى[1] جاوزتِ الوادي، ثم أتتِ المَرْوةَ فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبعَ مرات. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فذلِكَ سعيُ الناسِ بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهٍ - تريدُ

---

(١) المثبت من (ظ)، وصحيح البخاري، وفي غير (ظ): ثم.

نفسَها - ثم تسمَّعتْ، فسمِعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندكَ غَواث. فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزمَ، فبَحَث بعَقِبِهِ - أو قال: بجناحه - حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلَتْ تغرِفُ من الماء في سِقائها وهو يفورُ بعد ما تغرِفُ. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «يرحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيل، لو تركَتْ زمزَمَ - أو قال: لو لم تغرِفْ من الماء - لكانت زمزَمُ عيناً مَعِيناً». قال: فشرِبَتْ وأرضعَتْ ولدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيْعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ؛ يَبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يُضيِّعُ أهلَه. وذكر الحديث بطوله[١].

مسألة: لا يجوز لأحدٍ أن يتعلَّق بهذا في طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضْيَعَةٍ؛ اتِّكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاةُ الصُّوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعلَ ذلك بأمر الله؛ لقولها[٢] في الحديث: آللهُ أمركَ بهذا؟ قال: نعم. وقد رُوِيَ أنَّ سارة لمَّا غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل، خرجَ بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فرُوِي أنَّه ركبَ البراقَ هو وهاجرُ والطِّفلُ، فجاء في يومٍ واحدٍ من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنَه وأمَته هنالِكَ، وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كلُّه بِوحيٍ من الله تعالى، فلما ولَّى دعا بضمن هذه الآية[٣].

الثانية: لمَّا أرادَ اللهُ تأسيسَ الحال، وتمهيدَ المقام، وخطَّ الموضعِ للبيت المكرَّم، والبلد المحرَّم، أرسلَ المَلَك، فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح: أنَّ أبا ذَرٍّ ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذَرٍّ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزَمَ، فسمِنتُ حتى تَكَسَّرتْ عُكَنُ بَطْني[٤]، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: المِنْطَقُ: هو ما يُشَدُّ به الوسط. لِتُعَفِّي أثرها: لِتُخفي أثرها. الدَّوحة: الشجرة الكبيرة. السِّقاء: القِربة الصغيرة. ثم قفَّ إبراهيم: ولَّى راجعاً إلى الشام. يتلبَّط: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض. الإنسان المجهود: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المُشِقُّ. غَواث؛ بفتح أوله للأكثر، وجزاء الشرط محذوف، تقديره: فأغثني. تُحَوِّضُه: تجعله مثل الحوض. عيناً مَعيناً: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. الضَّيعة: الهلاك. فتح الباري ٦/ ٤٠٠ - ٤٠٢ .

(٢) في النسخ: لقوله، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والكلام منه .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ ، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠ ، وأخبار مكة للفاكهي ٥/ ١٢٠ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): «عكني»، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لمصادر التخريج القادمة .

جوع. وذكر الحديث[١].

وروى الدَّارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماءُ زمزمَ لِما شُرِبَ له، إنْ شربْتَه تستشفي به؛ شفاكَ اللهُ، وإنْ شرِبْتَه لِشِبَعِكَ؛ أشبعَكَ اللهُ به، وإنْ شرِبْتَه لِقَطْعِ ظمَئِكَ؛ قطعَه، وهي هَزْمةُ جبريل، وسُقْيا الله إسماعيل»[٢].

وروى أيضاً[٣] عن عِكرمة قال: كان ابن عباس إذا شربَ من زمزمَ قال: اللهمَّ إني أسألُكَ علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء.

قال ابن العربي[٤]: وهذا موجودٌ فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّتْ نيَّتُه، وسلمَتْ طَوِيَّتُه، ولم يكن به مكذِّباً، ولا يشربُه مجرِّباً، فإنَّ الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلتُ الطَّوَاف في ليلةٍ ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني، فجعلتُ أعتصر حتى آذاني، وخِفْتُ إن خرجتُ من المسجد أن أطأ بعضَ تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرتُ هذا الحديث، فدخلتُ زمزم فَتَضَلَّعْتُ منه، فذهب عني إلى الصباح[٥]. ورُوِيَ

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣)، والعُكَن جمع عُكْنة: وهي الطيُّ في البطن من السِّمَن. تكسَّرت: انثنت. السَّخْفة ـ بفتح السين وضمِّها: رِقة الجوع وضعفه. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٢) سنن الدارقطني (٢٧٣٩) وهو من طريق محمد بن حبيب الجارودي، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٢٦٨ : الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة، فقد رواه حفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله. اهـ. لكن أول الحديث وهو قوله: «ماء زمزم لما شرب له» رُوي من طرقٍ أخرى مرفوعة محتملة للتحسين بمجموعها، تُنظر في مسند أحمد (١٤٨٤٩) قوله: هزمة جبريل، أي: ضربها برجله فنبع الماء. النهاية (هزم).

(٣) في سننه (٢٧٣٨).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٢ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول.

عن عبد الله بن عمرو: إنَّ في زمزمَ عيناً من[1] الجنة من قِبَلِ الركن[2].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتي» للتبعيض، أي: أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، يعني: إسماعيلَ وأمَّه؛ لأن إسحاق كان بالشام[3]. وقيل: هي صلة، أي: أسكنتُ ذُرِّيَّتي[4].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيت كان قديماً على ما رُوِيَ قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة[5]. وأضاف البيتَ إليه؛ لأنَّه لا يملِكُه غيرُه، ووصفه بأنه مُحرَّم، أي: يَحرُمُ فيه ما يُستباح في غيره من جماعٍ واستحلال[6]. وقيل: محرّم على الجبابرة، وأن تُنتهَكَ حرمتُه، ويُستخفَّ بحقِّه. قاله قتادة وغيره[7]. وقد مضى القول في هذا في «المائدة»[8].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين؛ لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العباد». الحديث[9].

واللام في «لِيُقيموا الصَّلاةَ» لام كي، هذا هو الظاهر فيها[10]، وتكون متعلقةً

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٣٣٩ بنحوه، في قصة بلده زمزم دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٤) نقله العكبري في «إملاء ما منَّ به الرحمن» ٣/ ٤٠٩ عن الأخفش، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٦٦.

(٥) ٢/ ٣٨٦ وما بعده.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

(٨) ٨/ ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٩) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي ١/ ٢٣٠، وابن ماجه (١٤٠١).

(١٠) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

بـ«أسكنتُ»[١]، ويصِحُّ أن تكون لام أمر، كأنه رغِب إلى الله أن يأتمنهم، وأن[٢] يوفِّقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تَضمَّنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا فيه.

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبيِّ ﷺ؟ فذهب عامَّةُ أهل الأثر إلى أنَّ الصلاةَ في المسجد الحرام أفضلُ من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمئة صلاة، واحتجُّوا بحديث عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من صلاةٍ في مسجدي هذا بمئة صلاة».

قال الإمام الحافظ أبو عمر[٣]: وأسند هذا الحديث حبيبٌ المُعلِّم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله بن الزُّبير وجوَّده، ولم يُخلِّطْ في لفظه ولا في معناه، وكان ثقةً. قال ابن أبي خَيْثَمة: سمعتُ يحيى بنَ مَعِين يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال: سمعتُ أبي يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة ما أصحَّ حديثَه! وسُئِلَ أبو زُرْعة الرازي عن حبيب المُعلِّم فقال: بصريٌّ ثقة.

قلتُ: وقد خرَّجَ حديثَ حبيب المُعلِّم هذا عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله ابن الزبير، عن النبيِّ ﷺ الحافظُ أبو حاتم محمد بن حِبَّان[٤] التميمي البُستي في المسند الصحيح له[٥]، فالحديث صحيحٌ، وهو الحُجَّة عند التنازع والاختلاف، والحمد لله.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٧.

(٢) قبلها في (ف) و(م) زيادة: أن يأتمنهم.

(٣) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٦/ ٢٥ - ٢٦.

(٤) في (د) و(م): حاتم، وهو خطأ.

(٥) صحيح ابن حبان (١٦٢٠)، وهو عند أحمد (١٦١١٧).

قال أبو عمر: وقد رُويَ عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ مثلُ حديث ابن الزُّبير، رواه موسى الجُهَني، عن نافع، عن ابن عمر. وموسى الجُهني كوفيٌّ ثقة، أثنى عليه القَطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبةُ والثَّوريُّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألفٍ فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخٌ من أهل الرقَّة، قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيُّ، وأخذ عنه ابن وضَّاح، وهو عندهم شيخٌ صدوقٌ لا بأس به، فإن كان حفِظَ فَهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المُعلِّم.

وروى محمد بن وضَّاح، حدثنا يوسف بن عديٍّ، عن عمر بن عبيد، عن عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ في غيره من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، فإنَّ الصلاة فيه أفضل»[(١)].

قال أبو عمر: وهذا كلُّه نصٌّ في موضع الخلاف قاطعٌ له عند من أُلْهِمَ رُشدَه، ولم تَمِلْ به عصبيَّتُه[(٢)].

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف، وعن أَصْبَغَ عن ابن وهب؛ أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبيِّ ﷺ على ما في هذا الباب[(٣)].

---

(١) التمهيد ٦/ ٢٧ - ٣٠، وحديث ابن عمر الأول أخرجه أحمد (٥١٥٥)، ومسلم (١٣٩٥): (٥٠٩) من طريق موسى الجهني، به دون قوله: «فإنه أفضل منه بمئة صلاة». وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وابن ماجه (١٤٠٦) من طرق عن عبيد الله بن عمرو الرقي، به. وحديث ابن عمر الثاني أخرجه أحمد (٤٨٣٨) من طريق عبد الملك، به.

(٢) لم نقف على قول ابن عبد البر هذا في هذه المسألة، إنما قاله في مسألة النية والقصد في الطهارة، ينظر التمهيد ٢٢/ ١٠١.

(٣) التمهيد ٦/ ٣٤.

وقدِ اتَّفق مالكٌ وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكةَ، فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام[١].

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضِّلون مكةَ ومسجدَها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم[٢]. وإلى هذا ذهب الشافعيُّ، وهو قول عطاءٍ والمكيين والكوفيين[٣].

ورُوِيَ مثلُه عن مالك؛ ذكر ابن وهب في «جامعه» عن مالك أنَّ آدمَ عليه السلام لمَّا أُهبِطَ إلى الأرض قال: يا ربِّ، هذه أحبُّ إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة[٤].

والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيلُ المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك، فطائفةٌ تقول: مكة، وطائفةٌ تقول: المدينة[٥].

قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الأفئدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإنَّ فؤاداً قادني بصَبابَةٍ[٦] ... إليكِ على طولِ المَدى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقُدِّمتِ الفاءُ، وقُلِبَتِ الواوُ ياءً كما هي، فكأنَّه قال: واجعَلْ وفوداً من الناس تَهْوي إليهم[٧]، أي: تَنزع؛ يقال: هَوَى نحوَه: إذا مال، وهَوَتِ الناقةُ تَهوي هُوِيًّا، فهي هاويةٌ: إذا عَدَتْ عَدْواً شديداً كأنها في هواء بئر[٨]، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذٌ منه.

---

(١) التمهيد ٦/ ٣١ .

(٢) التمهيد ٦/ ٣٤ .

(٣) الاستذكار ٧/ ٢٢٦ .

(٤) التمهيد ٦/ ٣١ .

(٥) الاستذكار ٧/ ٢٢٦ .

(٦) في (ظ) وزاد المسير ٣/ ٣٦٧ : لصبابة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٩١ .

قال ابن عباس ومجاهد: لو قال: «أفئدةَ الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاس»، فهم المسلمون(١).

فقوله: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحِنُّ إليهم، وتحِنُّ إلى زيارة البيت(٢). وقرأ مجاهد: «تَهْوَى إليهم» أي: تهواهم وتُجِلُّهم(٣).

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبتَ لهم بالطائف سائرَ الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عباس الحديثُ الطويلُ وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيمُ بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَه، فلم يجِدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّرْ عَتَبَة بابه. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِنْ أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألني عنكَ فأخبرتُه، وسألني كيف عيشتُنا، فأخبرته أنَّا في جَهدٍ وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عَتَبَةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَكِ، الْحَقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّجَ منهم أخرى، فلبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعدُ فلم يجِدْه، ودخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعةٍ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٢ ، والطبري ١٣/ ٦٩٨ عن مجاهد بلفظ: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وأخرج الطبري ١٣/ ٦٩٨ عن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧ .

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٨ .

وأثنَتْ على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهمَّ بارِكْ لهم في اللحم والماء. قال النبيُّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافِقاه. وذكر الحديث[١].

وقال ابن عباس: قول إبراهيم: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: سأل أن يجعلَ اللهُ الناسَ يَهوَون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتاً مُحرَّماً[٢]. وكلُّ ذلك كان والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاريِّ ـ بعد قوله: وإنَّ الله لا يُضيِّعُ أهلَه ـ: وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيولُ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله، وكانت كذلك[٣] حتى مرَّتْ بهم رُفقةٌ من جُرْهُم قافلين[٤] من طريق كَداء، فنزلوا بأسفلَ مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين، فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنينَ لنا أن ننزِلَ عندَكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يطالع تَرِكَته. الحديث[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). وقوله: لا يخلو عليهما أحد . . . الخ، يعني: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. ينظر فتح الباري ٦/ ٤٠٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩ .

(٣) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري، وفي غير (ظ): وكذلك، بدل: وكانت كذلك.

(٤) في صحيح البخاري: مقبلين، وكلاهما بمعنى.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: جُرهم: هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. والطائر العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. والجَريُّ: الرسول، وقد يُطلق على الوكيل وعلى الأجير. فتح الباري ٦/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لمَّا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: على كِبَر سِنِّي وسِنِّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابنُ تسعٍ وتسعين سنة، وإسحاق وهو ابن مئةٍ واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جُبَير: بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق بعد عشرٍ ومئةِ سنة[1]. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعلْ من ذريتي من يُقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعاءُ مُخُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة»[2]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفرَ إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبُتَ عنده أنهما عَدُوَّان لله. قال القُشَيريُّ: ولا يبعدُ أن تكون أمُّه مسلمةً؛ لأنَّ اللهَ ذكر عُذرَه في استغفاره لأبيه دون أمه[3].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨ - ٣٩، وفيه: بشِّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

(٢) ٣/ ١٧٨ بلفظ: «الدعاء هو العبادة» من حديث النعمان بن بشير. وأما الحديث بلفظ: «الدعاء مخّ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٨.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير: «رَبِّ اغْفِرْ لي ولِوالِدي» يعني أباه[١].

وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما[٢]. وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما[٣]. وقيل: أراد آدم وحوّاء[٤]. وقد رُويَ أن العبد إذا قال: اللهمَّ اغفر لي ولوالديَّ، وكان أبواه قد ماتا كافِرَين، انصرفتِ المغفرةُ إلى آدم وحواء؛ لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولدَيه إسماعيل وإسحاق، وكان إبراهيم النَّخَعي يقرأ: «وَلِوَلَدَيَّ» يعني ابنَيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر، ذكره الماوردي والنحاس[٥]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمدٍ ﷺ[٦]. وقيل: للمؤمنين كلِّهم[٧]. وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بعد أن عَجَّبَهُ[٨] من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبِرْ كما صبر إبراهيم، وأَعلِمِ المشركينَ أنَّ تأخيرَ العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سُنَّةُ الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[٩]. ﴿إِنَّمَا

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٣) الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٤٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٥، والنكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٧ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٣٩.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩.

(٨) من (ظ)، وفي باقي النسخ: أعجبه.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٣ - ٧٠٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٨٣ - ٨٤.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة، يُمهِلُهم ويؤخِّرُ عذابَهم[١]. وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسُّلَمي ورُوِيَ عن أبي عَمرٍو أيضاً: «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تغمَضُ من هولِ ما تراه في ذلك اليوم. قاله الفراء. يقال: شَخَص الرجلُ بَصَرَه، وشَخَص البصرُ نفسُه، أي: سَما وطَمَح من هول ما يرى[٤]. قال ابن عباس: تَشخَصُ أبصارُ الخلائق يومئذٍ إلى الهواء؛ لشدة الحَيرةِ فلا يغمضون[٥].

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين. قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جُبير[٦]، مأخوذٌ من أهطع يُهطع إهطاعاً: إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر:٨] أي: مسرعين. قال الشاعر:

بدجْلةَ دارُهُمْ ولقد أرَاهُمْ ... بدجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ[٧]

وقيل: المُهطع الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع، أي: ناظرين من غير أن يَطرِفوا. قاله ابن عباس[٨]. وقال مجاهد والضحَّاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مُديمي النظر[٩]. وقال النحاس[١٠]: والمعروف في اللغة أن يُقال: أهطعَ إذا أسرع. قال أبو عبيد: وقد

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٤ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ .

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ ، والسبعة ص٣٦٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وتهذيب اللغة ٧/ ٧٢ .

(٥) في (م) و(ظ): لا يرمضون، وفي (د): لا يرتمضون، والمثبت من الوسيط للواحدي ٢/ ٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧٠٤ - ٧٠٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: «أهلها» بدل: «دارهم».

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٥ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦ عنهما، ولفظ الضحاك بالمعنى.

(١٠) في معاني القرآن ٣/ ٥٣٨ .

يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المُهطع الذي لا يرفع رأسه[١]. ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رافعي رؤوسهم ينظرون في ذُلٍّ. وإقناعُ الرأس: رفعُه. قاله ابن عباس ومجاهد[٢]. قال ابن عرفة والقُتَبيُّ وغيرهما: المُقنِعُ: الذي يرفع رأسه، ويُقبِلُ ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة[٣] وأقنعَ صوتَه: إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[٤]. وقيل: ناكسي رؤوسهم[٥]. قال المهدويُّ: ويقال: أقنعَ: إذا رفعَ رأسه، وأقنع: إذا طأطأ رأسَه ذِلَّةً وخُضوعاً، والآية محتملةٌ للوجهين[٦]. وقاله المبرِّد[٧]. والقول الأول أعرَفُ في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْـغَـضَ نَـحْـوي رَأْسَـهُ وأَقْـنَـعـا كـأَنَّـمـا أَبْـصَـرَ شـيـئـاً أَطْـمَـعـا[٨]

وقال الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً:

يُـبـاكِـرْنَ الـعِـضـاهَ بـمُـقْـنَـعَـاتٍ نَـواجِـذُهـنَّ كـالْـحَـدَأ الـوَقـيـعِ[٩]

يعني: برؤوسٍ مرفوعاتٍ إليها لتتناولهنَّ. ومنه قيل: مِقْنَعةٌ؛ لارتفاعها. ومنه قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رفع رأسَه عن السؤال. وقَنَع: إذا سأل، أي: أتى ما يتقنَّعُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٨ عنهما.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣ .

(٤) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٥) نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٠ عن المؤرِّج وقتادة.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٣٩ .

(٧) في الكامل ٢/ ١٠٢٧ .

(٨) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٤ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٩) ديوان الشماخ ص٢٢٠ ، قوله: والعِضاه: كل شجر يعظُم وله شوك، والحَدأُ جمع حَدأة: وهي الفأس ذات الرأسين. الصحاح (عضه) و(حدأ).

منه. عن النحاس[١]. وفَمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُه إلى داخل. ورجل مُقَنَّعٌ ـ بالتشديد ـ أي: عليه بَيْضَة. قاله الجوهري[٢].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجِعُ إليهم أبصارُهم من شدة النظر، فهي شاخصةُ النظر[٣]. يُقال: طَرَفَ الرجلُ يَطْرِفُ طَرْفاً: إذا أطبق جَفْنَه على الآخر[٤]، فسُمِّيَ النظرُ طَرْفاً؛ لأنه به يكون[٥]. والطَّرْفُ: العين؛ قال عَنْتَرة[٦]:

وَأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي حتَّى يُواري جارتي مَأْواها

وقال جَميل:

وَأَقْصِرُ طَرْفي دُونَ جُمْلٍ كَرامةً لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنا قاصِرُهْ[٧]

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: لا تعي[٨] شيئاً من شدّة الخوف. ابن عباس: خاليةٌ من كلِّ خير[٩]. السُّدِّيّ: خرجت قلوبهم من صدورهم، فنَشِبت في حلوقهم[١٠]. وقال مجاهد ومُرَّة وابن زيد: خاويةٌ خَرِبةٌ مُنخرقةٌ؛ ليس فيها خيرٌ ولا عقل، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَواءٌ. وقاله ابن عباس[١١].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٥٤٠ .

(٢) في الصحاح (قنع).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (طَرِفَ).

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٦) في ديوانه ص٧٦ .

(٧) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٨) تحرفت في النسخ إلى : تغني، والتصويب من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١١ .

(١٠) ذكره عنه بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٠ ، وهو قول قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧١٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(١١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٧١٠ - ٧١٢ بألفاظٍ مقاربة.

والهواء في اللغة: المجوَّفُ الخالي، ومنه قول حسان:

ألا أَبـلِـغْ أبـا سُـفْـيـانَ عَـنِّـي فـأنـتَ مُـجـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـواءُ(١)

وقال زهير يصف ناقةً صغيرة الرأس:

كـأنَّ الـرَّحْـلَ مِـنـهـا فـوقَ صَـعْـلٍ مـن الـظِّـلْـمـانِ جُـؤْجُـؤهُ هَـواءُ(٢)

فارغٌ، أي: خالٍ، وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: من كلِّ شيءٍ إلا من همِّ موسى. وقيل: في الكلام إضمار، أي: ذاتُ هواءٍ وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة(٣). ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: خَوِّفْهم ذلك اليوم، وإنما خصَّه(٤) بيوم العذاب ـ وإن كان يوم الثَّواب ـ لأنَّ الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي: أمهِلْنا(٥). ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهرَ الحقُّ في الآخرة(٦). ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٤، والبيت في ديوان حسان ص٩.

(٢) ديوان زهير ص٦٣، وفي (م) و(د): الرجل. قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النَّعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة. فوق صعلٍ: فوق ظليمٍ دقيق العُنق صغير الرأس. جؤجؤه: صدره. هواءٌ: لا مُخَّ فيه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢.

(٤) في (ظ): خُصَّ، وفي (ز) و(د) و(م): خصَّهم، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٢، (والكلام منه) وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٠.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٢.

ٱلرُّسُلَۗ﴾ . فيُجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: في دار الدنيا[١] . ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال مجاهد: هو قَسَمُ قريش أنهم لا يُبعثون[٢] . ابن جُرَيج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[٣] [النحل: ٣٨].

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقالٍ عن الدنيا إلى الآخرة، أي: لا تُبعثون ولا تُحشرون. وهذا قول مجاهد. والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: من العذاب[٤] . وذكر البيهقيُّ[٥] عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: لِأهلِ النَّارِ خمسُ دَعَواتٍ: يُجيبهم اللهُ في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]. فيُجيبهم الله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيُجيبهم

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١٥ - ٧١٦ بمعناه.

(٣) لم نقف عليه من قول ابن جريج، وإنما هو تتمة كلام مجاهد السالف.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٢ وعزا القول الثاني للحسن، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ٧١٥ بنحوه.

(٥) في البعث والنشور (٦٦٠)، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يتكلمون بعدها أبداً. خرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» بأطْوَلَ من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[١] ـ وزاد في الحديث: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: هذه الثالثة، وذكر الحديث، وزاد بعد قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض؛ ينبَح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم. قال: فحدَّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكرَ له أن ذلك قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: في بلاد ثَمود ونحوها، فهلَّا اعتبرتُم بمساكنهم بعد ما تبيَّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن[٢]. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «ونُبَيِّنْ لَكُمْ» بنون، والجزم على أنه مستقبل، ومعناه الماضي[٣]، وليناسب قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءة الجماعة: «وَتَبَيَّنَ»، وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبيَّنُ لهم إلا بتبيين اللهِ إيَّاه.

---

(١) ص٤١٧ - ٤١٩ ، ولم نقف عليه في الرقائق لابن المبارك، وقد ذكر المصنف هناك في التذكرة أن ابن المبارك رواه عن الحكم، والحكم هذا: هو ابن ظهير، وهو متروك، واتهمه ابن معين. تقريب التهذيب.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥ ، ونقل فيه ابن عطية أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ بضم النون ورفع النون الأخيرة، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة. عن ابن عباس وغيره[١]. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال؛ لضعفه ووهنه. و«إن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقرأ الجماعة: «وإن كان» بالنون. وقرأ عمر وعليّ[٢] وابن مسعود وأُبيٌّ: «وإن كاد» بالدال[٣]. والعامة على كسر اللام في «لِتزولَ» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً[٤]. وقرأ ابن مُحيْصِن وابن جُريج والكِسائي: «لَتَزُولُ»[٥] بفتح اللام الأولى على أنَّها لامُ الابتداء، ورفعِ الثانية، و«إنْ» مخفَّفة من الثَّقيلة، ومعنى هذه القراءة: استعظامُ مكْرِهم، أي: ولقد عظُمَ مكرُهُم حتى كادتِ الجبالُ تزول منه[٦].

قال الطَّبري[٧]: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة.

قال أبو بكر الأنباري: ولا حجةَ على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدَّثناه أحمد بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع بن الجرَّاح، عن

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) في (ز) و(د) و(م): عمرو بن علي، وهو خطأ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والمحتسب ١/ ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ .

(٥) قراءة الكسائي من السبعة، وينظر السبعة ص٣٦٣ ، والتيسير ص١٣٥ ، وذكرها الطبري ١٣/ ٧٢٠ عن ابن جُريج عن مجاهد.

(٦) ينظر الحجة في القراءات لابن زنجلة ص٣٧٩ والوسيط ٣/ ٣٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ .

(٧) في تفسيره ١٣/ ٧٢٤ .

إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن دانيال قال سمعت عليَّ بن أبي طالبٍ ﷺ يقول: إنَّ جبَّاراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتَّى أعلم من في السماوات، فعَمَدَ إلى فراخِ نُسُورٍ، فأمر أن تُطعَم اللحم، حتى إذا[1] اشتدَّتْ وعَضَلَتْ واستعلجتْ؛ أمرَ بأن يُتَّخذَ تابوتٌ يسَعُ فيه رجلين، وأن يُجعَلَ فيه عصاً؛ في رأسها لحمٌ شديدُ حُمرتُه، وأن يُسْتَوثَقَ من أرجلِ النسور بالأوتاد، وتُشدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحبٌ له في التابوت، وأثارَ النُّسورَ، فلما رأتِ اللحمَ طلَبَتْه، فجعلت ترفع التابوتَ، حتى بلغت به ما شاء الله، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ البابَ فانظُرْ ما ترى؟ فقال: أرى الجبالَ كأنَّها ذبابٌ. فقال: أغلقِ الباب؛ ثم صعَدَتْ بالتابوت ما شاء الله أن تصعَدَ، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ الباب فانظُرْ ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد مِنَّا إلا بُعْداً. فقال: نَكِّسِ العصا. فنكَّسها، فانقضَّتِ النُّسور، فلما وقع التابوت على الأرض سُمِعتْ له هَدَّةٌ كادتِ الجبالُ تزولُ عن مراتبها منها. قال: فسمعتُ عليًّا ﷺ يقرأ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية[2].

وقد ذكر الثَّعلبيُّ[3] هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو النُّمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلامٌ أمرد، وقد حمل القوس والنَّبل، فرمى بهما، فعاد إليه مُلطَّخاً بالدم، وقال: كُفيتُ نَفْسَكَ[4] إلهَ السَّماء. قال عكرمة: تَلطَّخَ بدم سمكةٍ من السماء، قذفتْ نفسَها إليه من بحرٍ في الهواء مُعلّق. وقيل: طائرٌ من الطير أصابه السَّهمُ، ثم أمر نُمرودُ صاحبَه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم،

---

(١) لفظة: إذا من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢١ من طريق وكيع، به وأخرجه الطبري ١٣/٧١٨ من طريق سفيان الثوري، و ١٣/٧١٩ من طريق شعبة، كلاهما عن أبي إسحاق، به. لكن وقع في روايتيهما تسمية الراوي عن علي: عبد الرحمن بن أذنان، وهو مجهول، فقد ترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٥٥ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٢١٠ ، ولم يذكرا عنه راوياً سوى أبي إسحاق، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٥/ ٨٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٣) في عرائس المجالس ص٩٨ - ٩٩ .

(٤) هكذا في النسخ، وفي العرائس: كفيت شغل.

فهبطتِ النُّسورُ بالتابوت، فسمعتِ الجبالُ حفيفَ التابوتِ والنّسورِ ففزعت، وظنَّتْ أنه قد حدَثَ بها حدَثٌ من السماء، وأنَّ الساعة قد قامت، فذلك قوله: «وإنْ كانَ مكرهُمْ لَتَزُولُ منهُ الجبالُ». قال القُشَيريُّ: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال.

وذكر الماورديُّ(١) عن ابن عباس: أنَّ النُّمرود بن كنعان بَنَى الصَّرح في قرية الرَّسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النُّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصَّنَ فيه، فأتى اللهُ بنيانَه من القواعد، فتداعى الصَّرحُ عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض، والثاني: الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال(٢).

وقال القُشَيريُّ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو عالمٌ بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاءُ مكرهم، فحذف المضاف.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام، أي: ما كان مكرهم مكراً يكون له أثرٌ وخطرٌ عند الله تعالى، فالجبال مَثَلٌ لأمر النبي ﷺ(٣). وقيل: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» ويؤثِّر في إبطال الإسلام. وقُرِئَ: «لَتَزُولُ منهُ الجبالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أي: كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال(٤). ولكنَّ اللهَ حفِظَ رسولَه ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ - ١٦٧ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٩ . والقراءة المذكورة هي قراءة الكسائي، وقد ذكرها المصنف قريباً.

والجبال لا تزول، ولكنَّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسمُ الله تعالى و«مخلف» مفعولا تحسب؛ و«رُسُلَهُ» مفعول «وَعْدِهِ»، وهو على الاتساع، والمعنى: مخلفَ رُسُلِهِ وَعْدَه[1] قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أجْمَعُ[2]

قال القُتَبيُّ[3]: هو من المُقدَّم الذي يوضِّحه التأخير، والمؤخَّر الذي يوضِّحه التقديم، وسواءٌ في قولك: مخلف وعدِه رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه: المنتقم، وقد بيَّنَّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[4].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُذكُرْ يوم تبدَّل الأرض، و«غيرَ» نعتٌ لمحذوف، التقدير: أرضاً غيرَ الأرض. ويحتمل أن يكون المراد: إنَّ اللهَ عزيزٌ

---

(١) وقع في النسخ غير (ظ): مخلف وعده رسله، وفي (ظ): رسله وعده، دون لفظة: مخلف، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٨.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢.

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص١٤٨.

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

ذو انتقامٍ يومَ تُبدَّلُ الأرض[١]، فيكون متعلقاً[٢] بما قبله. وقيل: هو صفةٌ لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٣].

واختُلِفَ في كيفية تبديل الأرض، فقال كثيرٌ من الناس: إنَّ تبدُّل الأرض عبارةٌ عن تغير صفاتها، وتسويةِ آكامها، ونسفِ جبالها، ومدِّ أرضها. ورواه ابن مسعود ﷺ، خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[٤]. وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: حدَّثني ابنُ عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّتِ الأرضُ مدَّ الأديم، وزِيدَ في سَعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث[٥].

ورُوِي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ، فيبسُطُها ويمدُّها مدَّ الأديم العُكَاظيِّ، لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً، ثم يزجرُ اللهُ الخلقَ زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى، مَن كان في بطنها ففي بطنها، ومَن كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره الغَزْنَويّ[٦].

وتبديلُ السماءِ تكويرُ شمسِها وقمرِها، وتناثرُ نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرَّةً كالمُهْل ومرَّةً كالدِّهان. حكاه ابن الأنباري[٧]. وقد ذكرنا هذا الباب مُبيَّناً في كتاب «التذكرة»[٨] وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأنَّ الصحيح إزالة هذه

---

(١) من قوله: و«غير» إلى هذا الموضع من (ظ).

(٢) المثبت من (ظ)، وفي باقي النسخ: فتكون متعلقةً.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٩ .

(٤) برقم (٤٠٨١)، وأخرجه أحمد (٣٥٥٦) عن ابن مسعود مرفوعاً، وفي إسناديهما مؤثر بن عفازة، وهو مجهول.

(٥) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣٥٣)، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٦) وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥ - ٧٣٦ من طريق إسماعيل بن رافع القاص، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد متروكان. ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٧ و ٤/ ٤٢٥ .

(٧) نقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٦ .

(٨) ص١٩٠ - ١٩٣ .

الأرض حسب ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ:

روى مسلم(١) عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلامُ عليك... وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهوديُّ: أين يكون الناس يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دون الجِسر»(٢). وذكر الحديث.

وخرَّجَ عن عائشة قالت: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناسُ يومئذٍ؟ قال: «على الصراط». خرَّجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرَّجه الترمذيُّ عن عائشة وأنها هي السائلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح(٣).

فهذه الأحاديث تنصُّ على أنَّ السماواتِ والأرضَ تُبدَّل وتُزال، ويخلق اللهُ أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر.

وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»(٤).

وقال جابر: سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تُبدَّل خُبْزةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٣١٥).

(٢) أي: الصراط. إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٩)، وسنن الترمذي (٣١٢١)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٠)، وأخرجه البخاري (٦٥٢١)، وقوله: «ليس فيها علمٌ لأحد» ليس من كلام النبي ﷺ، وجاء التصريح بذلك في رواية البخاري، ونبَّه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٧٥ على أن هذه العبارة أُدرجت في الحديث في رواية مسلم. ومعناه: أنه ليس فيها علامة سكنى أو بناء أو أثر. والعفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة؛ والنَّقيّ: هو الدقيق الحوري، وهو الدرمك. شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٤.

﴿جَعَلْنَهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[١] [الأنبياء: ٨].

وقال ابن مسعود: إنها تُبدَّلُ بأرضٍ غيرِها بيضاءَ كالفضة، لم يُعْمَلْ عليها خطيئة[٢]. وقال ابن عباس: بأرضٍ من فضَّةٍ بيضاء[٣]. وقال عليٌّ ﷺ: تُبدَّل الأرض يومئذٍ من فضة، والسماءُ من ذهب[٤]. وهذا تبديل العين، وحسبُكَ. ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: من قبورهم، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مشدودين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدتُه صَفْداً، أي: قَيَّدتُه، والاسمُ: الصَّفَد، فإذا أردتَ التكثير قلتَ: صَفَّدتُه تصفيداً؛ قال عمرو بن كُلثوم[٥]:

فـآبُـوا بـالـنِّـهَـابِ وبـالـسَّـبـايـا ... وأُبْـنَـا بـالـمُـلـوكِ مُـصَـفَّـديـنـا

أي: مقيَّدينا. وقال حسان[٦]:

مِـن كـلِّ مـأسُـورٍ يُـشَـدُّ صِـفَـادُهُ ... صَـقْـرٍ إذا لاقَـى الـكـريـهـةَ حـامـي

أي: غلُّه، وأصفدتُه إصفاداً: أعطيتُه. وقيل: صَفَدتُه وأَصْفَدتُه جاريان في القيد والإعطاء جميعاً؛ قال النابغة:

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢٣٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢٩ و ٧٣٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٧٠ وصحَّح إسناده. وأخرجه البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧ عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥ : رواه البزار، وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمعٌ على ضعفه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ وفيه «الجنة» بدل «السماء».

(٥) في معلقته ص١٠٠ .

(٦) ديوانه ص٢١٥ .

فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللعْنَ بالصَّفَدِ[١]

فالصَّفَدُ: العطاء؛ لأنه يُقيِّد ويُعَبِّد[٢]؛ قال أبو الطيب:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقيَّدا[٣]

قيل: يُقرَنُ كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] يعني: قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي[٤].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: قُمُصُهم. عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سِرْبال[٥]، والفعل: تَسربلتُ وسَربلتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الْهَيْجا سَرابيلُ[٦]

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ يعني: قَطِران الإبل الذي تُهْنَأ به. قاله الحسن[٧]. وذلك أبلَغُ لاشتعال النار فيهم[٨].

وفي الصحيح: أنَّ النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تُقام يومَ القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَب[٩]. ورُوي عن جماعةٍ[١٠] أنهم قالوا: هو النُّحاس[١١].

---

(١) وصدره: هذا الثناءُ فإن تسمَعْ به حسناً، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣٧ .

(٢) أي: يُذَلِّل .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٥ . وقوله: ذَرَاك، أي: كنفك. الصحاح (ذرا).

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٨-١٤٩ ، والنكت والعيون ٢/ ١٤٤-١٤٥ .

(٥) جمهرة اللغة ٣/ ٣٠٥ لابن دريد، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٥ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٥ .

(٦) ديوان كعب ص٢٠٣ ، وفيه: مما يُعِدُّون للهيجا، بدل: من نسج داود في الهيجا.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٧ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ .

(٩) صحيح مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري، وأخرجه أحمد (٢٢٩٠٣).

(١٠) من (ظ)، وفي بقية النسخ: حماد.

(١١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ٧٤٤ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء[١]. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء[٢]؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحا لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ والْمُسُوحا[٣]

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرِ آنٍ» رُويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب[٤]. والقِطْرُ: النحاس، والصُّفر المُذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]. و«آن»[٥]: الذي قد انتهى حرُّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾[٦] [الرحمن: ٤٤].

﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ أي: تضرب ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتُغَشِّيها. ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ أي: بما كسبت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلنا إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغٌ وعِظَةٌ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليُخوَّفوا عقابَ الله عزَّ وجلَّ. وقُرِئَ: «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال[٨]، يقال: نَذِرتُ بالشيء أَنْذَرُ: إذا علمتَ به فاستعددتَ له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنَوا بأن والفعل، كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء.

---

(١) ذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ أن عيسى بن عمر كان يقرأ: «من قِطْران» بكسر القاف، أما قراءة فتح القاف وإسكان الطاء فقد ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٤٤٠ عن عمر وعلي.

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر فيما ذكره الطبري كما في التعليق السابق.

(٣) ديوان أبي النجم ص٨٣ . قوله: جَوْن، أي: أسود، أو أبيض (ضدٌّ). أو الأسود المشرب حمرة. والمُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشعر.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٠ ، والمحتسب ١/ ٣٦٦ . وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٧ . والقراءة المشهورة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٥) من (ظ)، وفي غيرها: الآن.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٥ .

(٧) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٨) المحتسب ١/ ٣٦٧ .

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتَّعِظَ أصحاب العقول[(١)]. وهذه اللامات في «وَلِيُنْذَرُوا» «وَلِيَعْلَمُوا» «وَلِيَذَّكَّرَ» متعلقةٌ بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه[(٢)].

وروى يَمان بن رِئاب أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[(٣)].

وسُئِلَ بعضُهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم. قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها.

تمَّ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٧.

(٢) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٧، وزاد المسير ٤/ ٣٧٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٤٦.

تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم[(١)].

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى: هو الهادى لمن قَدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يُغَالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : قَرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد

---

(١) فى ت، أ: «عربيهم وعجميهم».

وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى اتباع الرسل، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة[١]، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم[٢] فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا[٣] منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، عن عمر[٤] بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، عز وجل، نبيا إلا بلغة قومه»[٥].

وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدى من يشاء إلى الحق، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدى من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه: أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمدَ بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلى: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً، وأحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»[٦].

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) عائلة: أى جائرة.
(٢) فى ت: «ففهم».
(٣) فى أ: «رسولا».
(٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (٥/١٥٨) ومجاهد لم يسمع من أبى ذر.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى فى بنى إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهى التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أى: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بأياديه ونعَمه عليهم، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل فى مسند أبيه حيث[(١)] قال: حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفى، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ، قال: «بنعم الله تبارك وتعالى]»[(٢)].

[ورواه ابن جرير][(٣)]، وابن أبى حاتم، من حديث محمد بن أبان، به[(٤)]. ورواه عبد الله ابنه[(٥)] أيضا موقوفا[(٦)]، وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى: إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صَبَّار، أى: فى الضراء، شكور، أى: فى السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلى صَبَر، وإذا أعطى شكر.

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كُلَّه عَجَب، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[(٧)].

---

(١) فى هـ: «فى مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ.

(٢) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زوائد المسند (٥/ ١٢٢) وتفسير الطبرى (١٦/ ٥٢٢).

(٥) فى ت: «بن أحمد».

(٦) زوائد المسند (٥/ ١٢٢).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعَمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين[1] كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أى: نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بَلَاءٌ ﴾ أى: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أى: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ][2] ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله[3]: ﴿ لَئِن[4] شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى: لئن شكرتم نعمتى[5] عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أى: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقد جاء فى الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[6].

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فتسخَّطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهما، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصَّيدلانى، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ـ أو: وحَّش بها ـ قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبى إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهما التى

---

(١) فى ت، أ: «حيث». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «وقال هاهنا».
(٤) فى ت، أ: «وإذ تأذن ربكم لئن». (٥) فى ت: «نعمة الله».
(٦) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٨٠) وابن ماجة فى السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضى الله عنه، وحسنه العراقى كما فى الزوائد للبوصيرى (١/ ٦١).

عندها».

تفرد به الإمام أحمد(١).

وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبَّان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان(٢). وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زُرْعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخارى: ربما يضطرب فى حديثه. وعن أحمد أيضا أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه الدارقطنى، وقال ابن عدى: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى: هو غنى عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كَفَره من كَفَره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك فى(٣) ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل فى البحر». فسبحانه وتعالى الغنى الحميد(٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل(٥) موسى لقومه(٦).

يعنى: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال(٧) ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل:

---

(١) المسند (٣/ ١٥٤).

(٢) فى ت: «أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان». (٣) فى ت، أ: «من».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٥) فى أ: «قول».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٢٩).

(٧) فى ت، أ: «قاله».

إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَّه عليهم ذلك فلا شك[١] أن تكون هاتان القصتان فى «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم[٢] إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن[٣] إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال فى قوله: ﴿ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾: كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم [٤] بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواهم.

قال ابن جرير: وتوجيهه[٥] أن «فى» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: فى الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيها عَن لَقيطٍ ورهْطه عَن سِنْبس لَسْتُ أرغَب

يريد: أرغب بها[٦].

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فكأن هذا [والله أعلم] [٧] تفسير لمعنى «ردّ أيديهم فى أفواههم».

وقال سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص، عن عبد الله فى قوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عضوا عليها غَيْظًا.

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن هُبَيْرَة ابن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب[٨] الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

---

(١) فى ت، أ: «لأوشك». (٢) فى ت، أ: «عدده». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى ت: «يأمروهم». (٥) فى ت: «ويوجهه».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٣٤).
(٧) زيادة من ت، أ. (٨) فى ت: «كلام».

وقالوا: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾؟

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطَر السليمة، ولكن قد يعرض [١] لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث [٢] والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلابد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثانى فى قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أى: أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا [٣] يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد [٤] معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم [٥] ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة، ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولَمّا نَر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم.

---

(١) فى ت: «تعرض». (٢) فى ت، أ: «الحدث». (٣) فى ت، أ: «فلا».
(٤) فى ت، أ: «يعبد». (٥) فى هـ: «وقالت لهم رسلهم: الرسل يدعوكم»، والمثبت من ت، أ.

قالت لهم رسلهم: ﴿إن نَّحْنُ إلا بَشَرٌ مِّثْلُكُم﴾ أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فى جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلَهم، من الإخراج من أرضهم، والنفى من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان (١) من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجندا، يقاتلون فى سبيل الله، ولم يزل يرقيه [الله] (٢) تعالى من شىء إلى شىء، حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و[من] (٣) سائر [أهل] (٤) الأرض، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، فى مشارق الأرض ومغاربها فى أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ (٥) عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(١) فى ت، أ: «فكان». (٢ـ٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «لقوى» وهو خطأ.

[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى: وعيدى [(١)] هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة، وخشى من وعيدى، وهو تخويفى وعذابى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: متجبر فى نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦].

وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إنى وُكلت بكل جبار عنيد» الحديث[(٢)].

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها «وكان أمامهم ملك».

أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد.

---

(١) فى ت: «وعدى».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال الترمذى: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا [(١)] فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وفى حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» [(٢)] وفى رواية: «عُصَارة أهل النار» [(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُرْ، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شَوَى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى[(٤)]: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» [(٥)] [الكهف: ٢٩].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به[(٦)]. ورواه هو وابن أبى حاتم: من حديث بَقِيَّة ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به[(٧)].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه، أى: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه فى فيه [(٨)] حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطاع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

---

(١) فى ت، أ: «فهذا حار».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٤٦٠).

(٣) وهى رواية أبى ذر، رضى الله عنه، رواها أحمد فى المسند (٥/ ١٧١).

(٤) فى أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٥/ ٢٦٥).

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٤٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به، وقال: «هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بُسْرٍ، ولا نعرف عبيد الله بن بُسْر إلا فى هذا الحديث».

(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٥١) من طريق حيوة بن شريح عن بقية به.

(٨) فى ت: «لا يضعه فى فمه» وفى أ: «لا يضيعه فى فمه».

وقال إبراهيم التيمى: من موضع كل شعرة، أى: من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه(١) ومن تحت أرجله(٢)، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا [كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ](٣)﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعنى كلام ابن عباس، رضى الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من [هذا] (٤) العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم(٥)، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، وقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقا، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦].

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم

(١) فى ت: «فوقهم». (٢) فى ت: «أرجلهم». (٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «جحيم».

على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شىء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أى: ذى ريح عاصفة قوية، فلا[يقدرون على شىء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا إلا كما] [(١)] يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال فى هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ أى: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَٰلِكَ [(٢)] هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات، فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ[(٣)] أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ـ٨٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى: بعظيم ولاممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

---
(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «هذا» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو خطأ.

بعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]، وقال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾.

يقول: ﴿ وَبَرَزُوا [لِلَّه][(١)]﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز [(٢)] من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا.

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؟ أى: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تَعِدُوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأو ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا[(٣)]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ[(٤)] النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاهُمْ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «برار». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) فى ت: «فى».

لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وأما تخاصمهم فى المحشر، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ(١) مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا(٢) النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] (٣) أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم(٤)، وغَبنا إلى غبْنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أى: على ألسنة رسله، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿ فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد

---

(١) في ت، أ: «المجرمون» وهو خطأ.
(٢) فى ت: «وأسر» وهو خطأ.
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «خزياً إلى خزيهم».

ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذي قاله هو الراجح[١]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دخين [٢] الحَجْري، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور [٣] [من] [٤] مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظُفر قدمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم[٥]، ﴿ وَقَالَ[٦] الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[٧].

وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رِشْدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن [٨] عن عُقْبَة، به مرفوعا[٩].

---

(١) في أ: «الأرجح». (٢) في ت، أ: «دجين». (٣) في ت، أ: «فيفور».
(٤) زيادة من ت، أ، والطبري. (٥) في ت، أ: «بجهنم». (٦) في ت، أ: «ويقول» وهو خطأ.
(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٠) من طريق ابن وهب: أخبرني ابن نعيم (كذا في المعجم) عن دخين،عن عقبة مرفوعاً. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧٦): «فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف» وضعف السيوطي إسناده أيضا.
(٨) في أ: «دجين».
(٩) ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦٢) من طريق سويد بن نصر، عن ابن المبارك به.

وقال محمد بن كعب القُرظى، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبى: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزى والنَّكَال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا(١)، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السُّدِّى، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هى النخلة.

وشعبة، عن معاوية بن قُرَة، عن أنس: هى النخلة.

---

(١) فى ت: «شاؤوا أين شاؤوا» وفى أ: «شاؤوا حيث شاؤوا».

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بُسْر فقال:[١] «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هى النخلة»[٢].

وروى من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفا[٣]. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخارى: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبى أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا][٤] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع فى نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة». فلما قمنا قلت لعُمَر: يا أبتا، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركُم تَتكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا[٥].

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مُجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحدا ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَّارٍ. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُّ][٦]، فقال رسول الله ﷺ: «هى النخلة» أخرجاه[٧].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يَطْرحُ ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس فى شَجر البوادى، ووقع فى قلبى أنها النخلة [فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة]»[٨]. أخرجاه أيضا[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان ـ يعنى ابن يزيد العطار ـ حدثنا قتادة: أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع

---

(١) فى هـ، ت، أ: «فقرأ» والمثبت من الطبرى والترمذى.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠) والترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: «وروى غير واحد مثل هذا موقوفاً، ولانعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه».

(٣) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبحاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) ورواه حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩).

(٤) زيادة من ت، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٨).

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند،

(٧) المسند(٢/ ١٢) وصحيح البخارى برقم (٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

(٨) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٩) صحيح البخارى برقم (١٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات فى دبر كل صلاة، فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء»(١).

وعن ابن عباس: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هى شجرة فى الجنة.

وقوله: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أى: كاملاً حسنا كثيراً طيبا، ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل](٢).

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس ـ أحسبه رفعه ـ قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هى النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هى الشّرْيان»(٣).

ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفا(٤).

وقال بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك؛ أن النبى ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هى الحنظلة». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع.

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به(٥). ورواه أبو يعلى فى مسنده بأبسط من هذا فقال:

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٢٢) وعزاه لابن أبى حاتم، وهو مرسل.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس مرفوعاً مثله رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠، ٥٨٥).

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٨٣) عن محمد بن المثنى به موقوفاً، ورواه شبابة وعمرو بن الهيثم، عن شعبة فأوقفوه. انظر: تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٣).

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٥).

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى بقناع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هى النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، قال: «هى الحنظل»[1]. قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع[2].

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّل منه شىء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

قال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مَرْثَد قال: سمعت سعد بن عُبَيدة، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»[3].

ورواه مسلم أيضاً وبَقِيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود يَنْكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِىِّ السِّقَاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحَنُوط، ويخرج منها كأطيب نَفْحة مِسْك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون ـ يعنى بها ـ على ملأ من الملائكة

---

(١) فى أ: «الحنظلة».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) عن عبد بن حميد، عن أبى الوليد، عن حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٩).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٠) وسنن النسائى (٤/١٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٩).

إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب][(١)]؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التى [كانوا][(٢)] يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدى فى عِليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».

قال: «فتُعاد روحه [فى جسده][(٣)]، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت تُوعَد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مدَ البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سَخَط من الله وغَضَب». قال: «فتفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها[(٤)] فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا][(٥)] فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل

(١ ـ ٣) زيادة من ت، أ، والمسند. (٤) فى أ: «لم يدعها». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند

قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: ومن أنت فوجهك [الوجه][(١)] يجىء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة».

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائى وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو، به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يونس بن خباب[(٣)]، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، [وكل ملك فى السماء][(٤)]، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفى يده مرزبَّة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا. ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار[(٥)].

وقال سفيان الثورى، عن أبيه، عن خَيْثَمَة، عن البراء فى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجْلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله، فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[(٦)].

وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبى الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ٢٨٧) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣) وسنن النسائى برقم (٤/ ٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٥٤٨).

(٣) فى هـ، أ: «يونس بن حبيب» والمثبت من ت والمسند.

(٤) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٥) المسند (٤/ ٢٩٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٩٧).

قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به[١]. وأخرجه النسائى من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّانى القبر فقال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى فى قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له الملَك: انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعونى أبشر أهلى. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار».

قال جابر: فسمعت النبى ﷺ يقول: «يبعث كل عبد فى القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه».

إسناده[٣] صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[٤] [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبى هند، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد الخدرى قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبتَلى فى قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله[٦]، فيقول له: صدقت. ثم يفتَح له بابا إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فيفتح له بابا إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له فى قبره».

«وإن كان كافرا أو منافقا يقول[٧] له: ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا[٨]. فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيت ولا اهتديت. ثم يفتح له بابا إلى الجنة، فيقول له: هذا

---

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٠).

(٢) سنن النسائى (٤/ ٩٧).

(٣) فى ت: «إسناد».

(٤) فى ت: «ولم يخرجوه».

(٥) الذى فى المسند (٣/ ٣٤٦): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير به. وكذا فى أطراف المسند لابن حجر (٢/ ١١٠).

(٦) فى أ: «وأن محمداً رسول الله».

(٧) فى ت، أ: «فيقول».

(٨) فى أ. «شيئا فقلته».

منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، عز وجل، أبدلك به هذا. فيفتح[١] له بابا إلى النار، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله، عز وجل، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق[٢] إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾»[٣].

وهذا أيضا إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمى روى له البخارى مقرونا، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبى ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ[٤]: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة[٥] كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا تفتح[٦] لك أبواب السماء. فيرسل[٧] من السماء، ثم يصير[٨] إلى القبر»، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول.

ورواه النسائى وابن ماجة، من طريق ابن أبى ذئب[٩] بنحوه[١٠].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَد كنت تَعْمُرينه، فيُنطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من

(١) فى ت: «ففتح». (٢) فى ت: «مطرقة».
(٣) المسند (٣/ ٣).
(٤) فى ت، أ: «عن النبى ﷺ أنه قال». (٥) فى ت، أ: «الطيبة». (٦) فى ت، أ: «يفتح».
(٧) فى ت: «فترسل». (٨) فى ت: «تصير». (٩) فى ت: «ابن أبى ذهاب» وفى أ: «ابن أبى ذر».
(١٠) المسند (٢/ ٣٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

نَتْنها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رَيْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا[(١)].

وقال ابن حبان فى صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمدانى، حدثنا زيد بن أخزَم، حدثنا معاذ ابن هشام، حدثنى أبى، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التى جاءت من قِبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فَلهُم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان فى غمّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمِسْح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»[(٢)].

وقد روى أيضا من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبى الجوزاء، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه. قال: «فَيُسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قُبضت نفسه، وذُهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه. فَيُبْلَغُ بها الأرض السفلى»[(٣)].

قال قتادة: وحدثنى رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجابية. وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبخة بحضرموت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبى سعيد المقْبُرِى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان[(٤)]، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين. ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العروس الذى لا يوقظه إلا أحَبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدرى. فيقولان: قد كنا نعلم أنك

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٧٣٣) «موارد».

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٧٣١) «موارد» ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٥١) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٤) فى ت: «أزراق».

تقول ذلك، فيقال[١] للأرض: التئمى عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[٢].

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾. قال: «ذاك إذا قيل له فى القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدّقت. فيقال له: صَدَقْتَ، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة[٤]. إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلى مَدْخَلٌ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل. فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. فيؤتى من عند رجليه فيقول[٥] فعل الخيرات: ما قبلى مدخل. فيقال له اجلس. فيجلس، قد تَمثّلت[٦] له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما[٧] نسألك. فيقول: دعونى[٨] حتى أصلى. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألونى؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا[٩] بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَييتَ، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّر له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا][١٠]، ثم يجعل نسمه فى النّسم الطيب، وهى طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[١١].

ورواه ابن حبّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

---

(١) فى ت: «ويقال».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٠٧١).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٥٩٦).

(٤) فى ت، أ: «عن أبى هريرة قال».

(٥) فى ت: «فتقول».

(٦) فى ت، أ: «مثلت».

(٧) فى ت: «كما».

(٨) فى ت، أ: «دعنى».

(٩) فى ت، أ: «جاء».

(١٠) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١١) تفسير الطبرى (١٦/٥٩٦، ٥٩٧).

وعذابه[1].

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كَيْسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة ـ أحسبه رفعه ـ قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ [2] لو خرجت ـ يعنى نفسُه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره[3] عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا فى الأرض[4]، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلانا قد مات، قالوا: ما جىء به إلينا. وإن المؤمن يجلس فى قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربى الله[5]. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيى[6]. فيقال: ماذا دينك؟ قال: دينى الإسلام. فيفتح له باب فى قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَة. وإذا كان عَدُو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس فى قبره ـ أو: أجلس ـ يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى. فيقال: لا دَرَيت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب[7] ضربة يسمعها[8] كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبى هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذى تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره.

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم[9].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشُون، عن محمد بن المنْكَدر قال: كانت أسماء ـ يعنى بنت الصديق ـ رضى الله عنها، تحدث عن النبى ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنا أحَفّ به عملُه: الصلاةُ والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول فى هذا الرجل؟ يعنى النبى ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشتَ، وعليه متّ، وعله تبعثُ. وإن[10] كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شىء يَرُدّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول فى هذا الرجل؟ قال: أىّ رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. قال له الملك: على ذلك عشتَ، وعليه متَ، وعليه

(١) صحيح ابن حبان برقم (٧٨١) «موارد».
(٢) فى ت: «فود». (٣) فى ت: «فيستخبرونه». (٤) فى أ: «فى الدنيا».
(٥) فى ت: «الله ربى». (٦) فى ت، أ: «نبيى محمد». (٧) فى ت، أ: «يضربه».
(٨) فى ت، أ: «يسمع».
(٩) مسند البزار برقم (٨٧٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٥٢): «فى الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسى فإنى لم أعرفه».
(١٠) فى ت: «قال: وإن».

تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابة فى قبره، معها سوط تَمْرَته[(١)] جَمرةٌ مثل غَرْب[(٢)] البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوتَه فترحَمه»[(٣)].

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، فى هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جنازته، ثم صلَّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. فيوسَّع له فى قبره مد بَصَره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم ـ «والبسط»: هو الضرب ـ يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرْجع إليهم شيئا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذى بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد البجلى، عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره، فيقال[(٤)] له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له فى ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك فى النار لو زُغت[(٥)]. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك [من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدرى، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك][(٦)] لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت[(٧)]، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: المسألة فى القبر[(٨)].

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ فى القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه «نوادر الأصول»: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن

---

(١) فى ت، أ: «ثمر به». (٢) فى ت، أ: «عرف».
(٣) المسند (٦/ ٣٥٢).
(٤) فى ت: «يقال». (٥) فى ت: «لو رغبت». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «إذ رغبت».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٦).

نافع، عن ابن أبى فُدَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله[١]، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن ابن سَمُرَة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن فى مسجد المدينة، فقال: «إنى رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلا من أمتى [جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برُّه بوالديه[٢] فرد عنه. ورأيت رجلا من أمتى][٣] قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلا من أمتى [قد][٤] احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا، كلما ورد حوضا مُنع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلَقا حلَقا، وكلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلا من أمتى [من][٥] بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلَة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهَج النَّار أو شَرَرهَا بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خُلُقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلا من أمتى قد هَوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها فى يمينه. [ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه][٦] ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم، فجاءه وجَله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار، فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار، [ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يُرعَد كما ترعد السَّعَفَة، فجاء حسن ظنه بالله، فسكَّن رِعْدَته، ومضى][٧]. ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا، فجاءته صلاته علىَّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»[٨].

قال القرطبى بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكرَ فيه أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة. أورده هكذا فى كتابه «التذكرة»[٩].

(١) فى التذكرة: «عبد الرحمن بن أبى عبد الله». (٢) فى ت: «بوالدته». (٣ ـ ٧) زيادة من ت، أ، والتذكرة.

(٨) ذكره الزبيدى فى الإتحاف وعزاه للحكيم فى النوادر وضعفه، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق برقم (٤٩) من طريق سعيد بن عبد الله، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً بأخصر منه، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول: «شواهد الصحة عليه».

(٩) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله[(١)] أحمد بن إبراهيم النُكْرِى، حدثنا محمد بن بكر البرسانى أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطى ـ وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبى مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن تميم الدارى، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق إلى وليى فأتنى به، فإنى قد ضَربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب. ائتنى به فَلأريحنَّه[(٢)].

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة، ومعهم ضبائر الرَّيْحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس[(٣)] ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل مَلَك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفَر تحت ذقنه، ويَفتَح له بابٌ إلى الجنة، فإن نفسه لَتَعلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجها[(٤)] [مرة][(٥)] ومرةً بكسْواتها ومَرَّةً بثمارها، كما يُعَلِّل الصبى أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً».

قال: «وتنزو الروح». قال البُرْسَانى: يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب. قال: «ويقول مَلَك الموت: اخرجى يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولَمَلَك الموت أشدّ به لطفا من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه، فتُسَلّ روحه كما تسل الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾» [النحل: ٣٢]» وقال: «﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ .فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله».

قال: «فإذا قَبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى خيرا، فقد كنت سريعا بى إلى طاعة الله، بطيئا بى عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك».

قال: «وتبكى[(٦)] عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة».

قال: «فإذا قَبَض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه[(٧)] بنوآدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم، وحَنُوط قبل حنوط

---

(١) فى أ: «أبو عبد الرحمن». (٢) فى ت، أ: «فلأريحه». (٣) فى أ: «قال: . فيجلس».
(٤) فى ت، أ: «مرة بأزواجها». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت: «ويبكى».
(٧) فى ت، أ: «فلا تقلبه».

بنى آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع[١] منها عظام[٢] جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلَص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما».

قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة، كلّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خرّ الروح ساجدا». قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب».

قال: «فإذا وضع فى قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فيبعث الله، عز وجل، عُنُقاً من العذاب». قال: «فيأتيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره». قال: «فيأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجليه، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساغاً إلا وجَد ولى الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب، يطآن فى أشعارهما، بين مَنْكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوى جالسا». قال: «وتقع أكفانه فى حَقْوية». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾**».

قال: «فيقول: ربى الله وحده لا شريك له، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة، ونبيى محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا، وعن يمينه أربعين ذراعا، وعن شماله[٣] أربعين ذراعا، ومن خلفه أربعين ذراعا، ومن عند رأسه

---

(١) فى ت، أ: «يتصدع». (٢) فى أ: «بعض عظام».
(٣) فى أ: «وعن يساره».

أربعين ذراعا، ومن عند رجليه أربعين ذراعا». قال: «فيوسعان له مائتى ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعا تحاط به[(١)].

قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولىَّ الله، هذا منزلك إذ أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده[(٢)]، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولى الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك[(٣)] الموت: انطلق إلى عدوى فأتنى به، فإنى قد بسطت له رزقى، ويَسَّرت له نعمتى، فأبى إلا معصيتى، فأتنى به لأنتقم منه».

قال: «فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطّ، له اثنتا عشرة[(٤)] عينا، ومعه سَفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجَمْر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهى نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيبُ كل أصل شوكة من ذلك السفّود فى أصل كلّ شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه ليا شديدا». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» فى عقبيه[(٥)] ثم يسكر[(٦)] عند ذلك عدو الله[(٧)] سكرة، فيرفّه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب[(٨)] الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط». [قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبيه، فيلقيها فى ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط»][(٩)]. قال: «ثم ينتره[(١٠)] ملك الموت نَترة، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه». قال: «فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة[(١١)] وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجى أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرا، فقد كنت سريعا بى

---

(١) فى أ: «محاط».
(٢) فى أ: «والذى نفسى بيده».
(٣) فى أ: «إلى ملك».
(٤) فى أ: «اثنى عشر».
(٥) فى هـ: «ركبتيه» والمثبت من ت ، أ
(٦) فى أ: «قال: فيسكر».
(٧) فى ت: «قال فيسكر عدو الله عند ذلك».
(٨) فى ت: «ويضرب».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «فينتره».
(١١) فى ت: «فيضرب»، وفى أ: «فتضرب».

إلى معصية الله، بطيئا بى عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار».

قال: فإذا وضع فى قبره ضُيق عليه قبره حتى تختلف(١) أضلاعه، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعى دُهماً كأعناق الإبل يأخذن (٢) بأرنبته وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما (٣) كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب(٤)، يطآن فى أشعارهما، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها» قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوى جالسا» قال: «وتقع أكفانه فى حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدرى. فيقولان: لا دريت ولاتَليّت». [قال](٥) «فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا ـ عدوَّ الله (٦)ـ منزلك لو أطعت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا».

قال: «ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً».

قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار، يأتية [من] (٧)حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها(٨).

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشى ـ راويه عن أنس ـ له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله ابن بَحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»، انفرد به أبو

(١) فى ت: «يختلف». (٢) فى أ: «يأخذونه». (٣) فى أ: «أيضا وهما».
(٤) فى ت: «كاللهيب». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «عدو الله هذا».
(٧) زيادة من أ.
(٨) أورده ابن حجر فى المطالب العالية (٤/ ٣٨٢) وعزاه لأبى يعلى قال: «هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت فى حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف».

داود[١].

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] حديثا مطولا جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعا، وفيه غرائب أيضا[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾[٣].

قال البخارى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾[البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بَوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين.

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٤].

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبى بزة، عن أبى الطفيل: أن ابن الكواء سأل عليا عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر.

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام ـ هو الصيرفى[٥] ـ عن أبى الطفيل قال: جاء رجل إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٨) وقال: «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره».

(٣) **تنبيه**: من هذه الآية يبتدئ الاعتماد فى تخريج الأحاديث والآثار فى تفسير الطبرى على الطبعة المصورة عن الطبعة الأميرية بعد أن كان الاعتماد على الطبعة التى حققها الفاضلان الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر فى ستة عشر مجلداً وطبعت فى دار المعارف، والله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب من يكمل تحقيقه فهو من أعظم كتب التفسير وأجلها، والله المستعان.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٠).

(٥) فى ت: «الصرفى».

البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبى حسين [١] قال: قام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحد يسألنى عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم منى به[٢] وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء [٣] فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة [٤] الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال العدوى فى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾الآية، ذكر مسلم المستوفى [٥] عن على أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهى جهنم.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عليا قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال : هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن على، نحوه، وروى من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثورى، عن على بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، فى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكُفيتموُهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد[٦]: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك فى تفسيرة عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى: جعلوا له[٧] شركاء عبدوهم معه، ودَعَوا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مَهدِّدا لهم [٨] ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

---

(١) فى ت، أ: «حنين». (٢) فى ت، أ: «به منى». (٣) فى ت: «الكراء».
(٤) فى ت، أ: «نعم». (٥) فى أ: «المسوف». (٦) فى ت: «وقتادة وابن زيد».
(٧) فى ت: «جعلوا لله». (٨) فى ت: «له».

أى: مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شىء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أى: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾.

يقول تعالى آمراً العباد [(١)] بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق فى السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهى: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع [(٢)] نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلا خِلالٌ﴾: قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالة [(٣)] خليل، فيصفح [(٤)] عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلانا، فأنا أخاله مُخَالَّة وخلالا»، ومنه قول امرىء القيس:

صَرَفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ من خَشْيَة الرَّدَى ... وَلَسْتُ بمقْلِىَ الخلال ولا قَالٍ[(٥)].

وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقى الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

---

(١) فى ت، أ: «العباده». (٢) فى ت: «يباع». (٣) فى ت: «مخالطة».

(٤) فى ت: «فصفح».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/١٤٩).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً[١]، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفه الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى: يسيران لا يقران[٢] ليلا ولا نهاراً، ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان[٣]، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى «وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[٤] ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم[٥] وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وَآتَاكُم مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ».

وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر[٦] من أن يحصيها[٧] العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

---

(١) فى أ: «مرفوعاً». (٢) فى أ: «لايفتران». (٣) فى ت، أ: «يتعارضان».
(٤) فى هـ ت، أ: «ألا وهو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه. (٥) فى ت، أ: «لحالكم».
(٦) فى أ: «أكبر». (٧) فى ت، أ: «تحصيها».

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكْفِىّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا»[١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المحبَّر، حدثنا صالح المرْىّ عن جعفر بن زيد العَبْدى، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة [٢] داووين، ديوان، فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر [٣] نعمه ـ أحسبَه. قال: فى ديوان النعم: خذى ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تَنَحَّى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم[٤] فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدى، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعمى» [٥] .غريب، وسنده ضعيف.

وقد رُوى فى الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتنى يا داود، أى: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة[٦] تُوجِب على مُؤدى ماضى نعَمه بأدائها، نعمة حادثةَ توجب عليه شكره بها[٧].

وقال القائل فى ذلك:

لـو كـل جـارحَـة مـنـى لهـا لُـغَـةٌ ... تُثنى علَيكَ بما أولَيتَ مِنْ حَسَـنِ

لـكـانَ ما زادَ شُكـرى إذ شكَرتُ بـه ... إليكَ أبـلـغَ فى الإحسَان والمـنـنِ

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾.

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٨) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «ثلاث» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «لأصغرهم».

(٤) فى ت، أ: «والنعم والعمل الصالح فيستوعب عمله الصالح كله».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٤٤) «كشف الأستار» وفيه داود بن المحبر وصالح المرى وهما ضعيفان.

(٦) فى هـ، ت، أ: «بنعمة حادثة» والمثبت من الرسالة.

(٧) الرسالة للشافعى (ص٧، ٨).

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي[(١)] بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال فى هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم [(٢)] إلى الله، إن شاء عذبهم[(٣)]، وإن شاء غفر لهم[(٤)]، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[(٥)] وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبَير[(٦)] عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول [(٧)] عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، [ثم] [(٨)] قال: «اللهم أمتى، اللهم أمتى، اللهم أمتى»، وبكى فقال الله: [يا جبريل] [(٩)] اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، [قال] [(١٠)] فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك[(١١)].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

---

(١) فى أ: «للتى» وهو خطأ.
(٢) فى أ: «أمره».
(٣) فى أ: «عذبه».
(٤) فى أ: «له».
(٥) فى ت: «لا تحرير».
(٦) فى أ: «بن جرير».
(٧) فى ت، أ: «وقال».
(٨، ٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) زيادة من ت.
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٥١).

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود [١] والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولايخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر. فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته [٢] من الولد.

ثم قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ أى: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين [٣] الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدى»، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه [٤] لما تبين له عداوته [٥] لله، عز وجل، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم [٦] بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. [والله أعلم][٧].

---

(١) فى ت: «واليهود والروم».
(٢) فى ت: «فيما سألت».
(٣) فى ت، أ: «مقيمى».
(٤) فى ت: «ابنه».
(٥) فى أ: «أنه عدو».
(٦) فى ت: «فيجزيهم».
(٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

يقول [تعالى شأنه][1]: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ يامحمد ﴿ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: لا تحسبه إذ[2] أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم[3]، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عداً، أي: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ][4] ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٠٨ ـ ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعى رؤوسهم.

﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي: [بل][5] أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة[6]، لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شىء لكثرة [الفزع و][7] الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءٌ ﴾: خراب لاتعى[8] شيئا.

ولشدة ما أخبر الله تعالى [به][9] عنهم، قال لرسوله: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: «إذا».
(٣) فى ت، أ: «صنيعهم».
(٤) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «والمخافة والفكرة».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى أ: «لايعى».
(٩) زيادة من ت.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن(١) مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم(٢)﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقد روى شعبة، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن [بن دابيل] (٣) أن عليا، رضى الله عنه، قال فى هذه الآية: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذى حاج إبراهيم فى ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا(٤).

قال: فأوثق رِجْل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر فى التابوت قال:ـ ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم ـ قال: فطارا [قال](٥): وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما (٦) ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صَوِّب العصا،

---

(١) فى أ: «وأكون».
(٢) فى ت: «لكم مزدجر».
(٣) زيادة من ت، وفى أ: «ابن دنيال».
(٤) فى ت: «فشبا».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «ماذا».

فصوبها، فهبطا. قال: فهو قول الله، عز وجل: «وَإِن كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ». قال أبو إسحاق: وكذلك هى فى قراءة عبد الله: «وإن كاد مكرهم»[(١)].

قلت: وكذا رُوى عن أبى بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، أنهما قرآ: «وإن كاد»، كما قرأ على. وكذا رواه سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان[(٢)]، عن على، فذكر نحوه.

وكذا رُوى عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط فى بناء الصرح، فعجزا وضعفا. وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودى أيها الطاغية: أين تريد؟ فَفَرِق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصَوَّبت النسور، ففزعت الجبال من هَدّتها، وكادت الجبال أن تزول من حس[(٣)] ذلك، فذلك قوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

ونقل ابن جُريج[(٤)] عن مجاهد أنه قرأها: «لَتَزُولُ منه الجبال»، بفتح اللام الأولى، وضم[(٥)] الثانية.

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم.

قلت: ويشبه هذا إذاً قوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثانى فى تفسيرها: ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٠)، وصوب العصا: خفضها وأنزلها أ. هـ. مستفادًا من حاشية الشعب.
(٢) فى ت: «أرباب»، وفى أ: «أريان».
(٣) فى ت: «من حين».
(٤) فى أ: «ابن جرير».
(٥) فى ت، أ: «ورفع»

الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾.

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: ﴿**فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع [١] عليه شىء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن [٢] كفر به وجحده ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين، من حديث أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقىّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عَدىّ، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخارى، والترمذى، وابن ماجة، من حديث داود بن أبى هند، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضا، عن عفان، عن وهيب[٥]، عن داود، عن الشعبى، عنها[٦]. ولم يذكر مسروقاً [٧].

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزنى، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ قال: قالت[٨]: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتنى [٩] عن شىء ما سألنى عنه أحد من أمتى، ذاك أن الناس على جسر جهنم[١٠]»[١١].

وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبى عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ**

---

(١) فى ت: «تمتنع». (٢) فى ت: «بمن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).
(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذى برقم (٣١٢١) وابن ماجة برقم (٤٢٧٩).
(٥) فى ت: «وهب». (٦) فى ت: «عنهما».
(٧) المسند (٦/ ١٣٤).
(٨) فى ت، أ: «قلت». (٩) فى ت: «سألتينى». (١٠) فى ت: «على حشرهم».
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٦).

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا على بن الجعد، أخبرنى القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾**، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شىء ما سألنى عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة».

ورواه أحمد، عن عفان[(٢)]، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به[(٣)].

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه: حدثنى الحسن بن على الحُلْوانى، حدثنا أبو تَوْبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ـ يعنى: أخاه ـ أنه سمع أبا سلاَّم، حدثنى أبو أسماء الرَّحَبى؛ أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه[(٤)] حبَر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعنى؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمى محمدٌ الذى سمانى به أهلى». فقال اليهودى: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شىء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذنى. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم فى الظلمة دون الجسر»[(٥)]. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «[فقراء][(٦)] المهاجرين». قال اليهودى: فما تُحْفَتهمُ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم فى أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذنى. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكرا[(٧)] بإذن الله ـ تعالى ـ وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنثا بإذن الله». قال اليهودى: لقد صدقت، وإنك لنبى. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه، وما لى علم بشىء منه، حتى أتانى الله به»[(٨)].

[و][(٩)]قال أبو جعفر بن جرير الطبرى: حدثنى ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبى

---

(١) المسند (٦/ ١١٧).

(٢) فى ت، أ: «عثمان».

(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٦) والمسند (٦/ ١٠١).

(٤) فى ت: «فجاء».

(٥) فى ت: «الحشر».

(٦) زيادة من ت، أ، ومسلم.

(٧) فى أ: «ذكرا».

(٨) صحيح مسلم برقم: (٣١٥).

(٩) زيادة من ت.

مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكَلاعى، عن أبى أيوب الأنصارى، قال: أتى النبىَّ ﷺ حَبْر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله فى كتابه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»[١].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون ـ وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل ـ فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها[٢] خطيئة، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعى، حفاةً عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياما حتى يُلجِمَهم العرق[٣].

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود، به.

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير[٤].

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عَقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتَّاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبى ﷺ فى قول الله، عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم[٥]، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوى[٦].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان[٧]، عن جابر الجُعْفى، عن أبى جُبَيرة[٨]، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَّقِى[٩].

وهكذا رَوى عن على، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة.

وعن على، رضى الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسموات ذهبا.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٤).

(٢) فى ت، أ: «فيها».

(٣، ٤) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

(٥) فى ت: «دما».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣١) «كشف الأستار» وجرير بن أيوب ضعفه الأئمة.

(٧) فى ت، أ: «شيبان».

(٨) فى أ: «عن ابن حبرة».

(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

وقال الربيع: عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: تصير السموات جنانا.

وقال أبو معْشر، عن محمد بن كعب القرظى، أو عن محمد بن قيس فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، قال: [تبدل][١] خبزة يأكل منها المؤمنون[٢] من تحت أقدامهم[٣].

وكذا رَوَى وَكِيع، عن عمر بن بشير الهمدانى، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلها يوم القيامة[٤] نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويُلجِم الناس العرقُ، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال الأعمش أيضاً، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن[٥] قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، [و][٦] الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذى نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترسخ[٧] فى الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا[٨]: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون[٩].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن كعب فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، قال: تصير السموات جنانا، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفى الحديث الذى رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً ـ أو: تحت النار بحرا»[١٠].

وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم فى هذه المبدلة»[١١].

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أى: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «المؤمن». (٣) فى أ: «قدميه».
(٤) فى ت: «يوم القيامة كلها». (٥) فى ت: «ابن سكن». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت: «يرسخ»، وفى أ: «يرشح».
(٨) فى ت: «فقالوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٩) ولفظه: «فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» رواه من طريق بشر أبى عبد الله، عن بشير بن مسلم، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم فى: السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).
(١١) سبق تخريج الحديث عند تفسير سورة الأنعام.

قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾، وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿ **مُقَرَّنِينَ** ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال[١] منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا** ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم.

فَآبُوا[٢] بالثياب وبالسّبايا ... وأُبْنَا بالمُلُوك[٣] مُصَفَّدينا[٤]

وقوله: ﴿ **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ** ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم.

كأنّ قِطْراناً إذَا تَلاهَا ... تَرْمى[٥] به الرّيح إلى مَجْراها[٦]

وكان ابن عباس يقول: القَطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابيلهم من قَطِرانٍ» أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿ **وَتَغْشَىٰ[٧] وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾، كقوله: ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي

---

(١) في ت: «النظر والأشكال».

(٢) في ت: «فأتوا».

(٣) في ت: «وابنا الملوك»، وفي أ: «وأبناء الملوك».

(٤) البيت في تفسير الطبري (١٣/ ١٦٧).

(٥) في ت: «يرمى».

(٦) البيت في تفسير الطبري (١٣/ ١٦٧).

(٧) في ت: «ويغشى».

كثير، عن زيد، عن أبى سلام، عن أبي مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن(١): الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة(٢) إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران، ودرْع من جرَب». انفرد بإخراجه مسلم(٣).

وفى حديث القاسم، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب، توقف فى طريق(٤) بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار»(٥).

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أى: يوم(٦) القيامة، كما قال: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله(٧) تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه فى حال محاسبته(٨) لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شىء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق(٩) بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: [إحصاء](١٠).

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أى: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال فى أول السورة: ﴿ الَر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ أى: ليتعظوا(١١) به، ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو(١٢)، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: ذوو العقول.

---

(١) فى ت: «لابد لهن»، وفى أ: «لا يزكهن».

(٢) فى أ: «والنابحة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).

(٤) فى ت: «الطريق».

(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٣٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم ـ وكلهم ضعفاء ـ عن أبى أمامة به. وقد قال ابن حبان: «إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد، عن القاسم، فهو مما صنعته أيديهم».

(٦) فى ت، أ: «أى يقسم يوم».

(٧) فى ت: «قوله».

(٨) فى ت: «محسباته».

(٩) فى ت: «الخلائق».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) فى ت، أ: «يتعظوا».

(١٢) فى ت، أ: «إلا الله».

/ ## سورة إبراهيم عليه السلام [٢٥٣ظ]

وهي إحدى وخمسون آيةً.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾

﴿الٓر﴾ مرّ الكلام فيه وفي محلّه غير مرّة. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر له على تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً، أو لمبتدأ مضمَر على تقدير كونه خبرًا لمبتدإٍ محذوف، أو مسرودًا على نمط التعديد، ويجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لهذا المبتدأ المحذوف. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ صفة له.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: لتخرجهم كافّةً بما في تضاعيفه مِن البيّنات الواضحة المُفصِحةِ عن كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، الكاشفةِ عن العقائد الحقّة. وقُرئ: "لِيَخْرُجَ النَّاسُ"،[٢] أي: لِيَخرُج به الناسُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن عقائد الكفر والضلال التي كلّها ظلمات محضة وجهالات صِرفة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الحقّ الذي هو نور بَحت، لكن لا كيف ما كان، فإنّك لا تهدي مَن أحببت؛ بل ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه.

وللإنباء عن كون ذلك مَنوطًا بإقبالهم إلى الحقّ -كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد، ٢٧/١٣]- استُعِير له الإذنُ الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمَن يقصد الورودَ، وأُضِيفَ إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المُفصحُ عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجِّهِ إليه.

---

[١] س: سورة إبراهيم، مكيّة، وهي إحدى وخمسون أو ثنتان أو أربع أو خمس.

[٢] قراءة شاذّة، مروية عن ابن عياض. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

وشمول الإذن بهذا المعنى للكلّ واضح، وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعًا. وعدمُ تحقّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقّق شرطه[1] المستنِد إلى سوء اختيارهم غيرُ مخِلّ بذلك.

و"الباء" متعلّقة بـ﴿تُخۡرِجَ﴾، أو بمُضمَر وقع حالًا مِن مفعوله، أي: ملتبسين بإذن ربّهم. وجعلُه حالًا مِن فاعله[2] يأباه إضافة الربّ إليهم، لا إليه.

وحيث كان الحقّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحِه لغيره موصلًا إلى الله عزّ وجلّ استُعير له "النور" تارةً و"الصراط" أخرى، فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف، ٧٥/٧]، وإخلالُ البدل والبيان بالاستعارة إنّما هو في الحقيقة لا في المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢].

وقيل: هو استئناف مبنيّ على سؤال، كأنّه قيل: إلى أيّ نور؟ فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾. وإضافة "الصراط" / إليه تعالى لأنّه مَقصِده أو المبيّن [٢٥٤و]
له. وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه مِن الأمن والعاقبةِ الحميدة.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بالجرّ عطف بيان لـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لجريانه مَجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحقّ، كالنجم في الثريّا. وقُرئ بالرفع[3] على "هُوَ اللهُ"،[4] أي: العزيزُ الحميد -الذي أضيفَ إليه الصراطُ- الله ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ مِلكًا ومُلكًا ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما وجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، كما مرّ في آية الكرسي. ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فَخامة

---

١ وفي هامش م: أي: التوجّه والإقبال. «منه».
٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وقرأ رُويس برفع الهاء في الابتداء وخفضِها في الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.
٤ أي: على تقدير: "هو الله".

شأن الصراط، وإظهارٌ لتحتّم سلوكه على الناس قاطبةً. وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا[1] مبناه الغُفول عن هذه النكتة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لمَن كفر بالكتاب ولم يخرج به مِن الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيض الوَأل؛ وهو النجاة. وأصله النصب كسائر المصادر ثمّ رُفِعَ رَفعَها للدلالة على الثبات، كـ"سلامٌ عليك". ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلّق بـ﴿وَيْلٌ﴾ على معنى: يُوَلْوِلُون[2] ويضجّون منه قائلين: يا وَيلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان، ١٣/٢٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ③﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُؤثِرونها، استفعال مِن المحبّة، فإنّ المُؤثِر للشيء على غيره كأنّه يطلب مِن نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها مِن غيره. ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الحياةِ الآخرة الأبديّة.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي بيّن شأنها. والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كلّ وصف جميلٍ لزومُ الاختصار. وهو مِن "صَدّه صَدًّا". وقُرئ: "يُصِدُّونَ"[3] مِن "أَصَدّ" المنقول مِن "صَدّ صُدودًا" إذا نكَبَ، وهو غير فصيح كـ"أَوْقَفَ"، فإنّ في "صَدّه ووقَفَه" لَمَنْدُوحَةً عن تكلّف النقل.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي: زَيغًا واعوِجاجًا وهي أبعد شيء مِن ذلك، أي: يقولون لمَن يريدون صدّه وإضلاله: إنّها سبيل ناكِبة وزائغة غيرُ مستقيمة.

ومحلُّ موصولِ هذه الصلات الجرُّ على أنّه بدل مِن ﴿الْكَٰفِرِينَ﴾، أو صفةٌ لَهُ فيُعتبر كلُّ وَصْفٍ مِن أوصافهم بإزاء ما يناسبه مِن المعاني / المعتبرة في [٢٥٤ظ]
"الصراط". فالكفر المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا، واستحبابُ الحياة الدنيا

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.

[2] وفي هامش م: أي: يكرّرُون الوَيل.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

الفانيةِ المُفصِحةِ عن وَخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا. وفيه مِن الدلالة على تماديهم في الغيّ ما لا يخفى.

أو النصب على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، وعلى الأوّل جملة مستأنفة وقعت معلِّلةً لِما سبق مِن لحوق الويل بهم، تأكيدًا لِما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة -مِن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمة، ووصفِها بالاعوجاج وهي منه بِنُزْهٍ- في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصية. والبعد وإن كان مِن أحوال الضالّ إلّا أنّه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة، كـ"جَدّ جِدّه"، و"داهية دهياء". ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد، أو فيه بعد، فإنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا، وقد يضلّ بعيدًا. وفي جَعل الضلال محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخالية مِن قَبلك -كما سَيُذكَرُ إجمالًا- ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلّمًا بلغة مَن أرسلَ إليهم مِن الأمم المتّفقة على لغةٍ، سواء بعث فيهم أو لا. وقُرئ: "بِلِسْنِ"، وهو لغة فيه، كـ"رِيش ورِياش"، و"بِلُسُنِ" بضمّتين، وضمّة وسكون،[1] كعُمُدٍ وَعُمْدٍ.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما أُمروا به، فيتلقَّوه منه بيُسر وسرعة، ويعملوا بموجَبه مِن غير حاجةٍ إلى الترجمة ممّن لم يؤمر به.

وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيّدنا صلّى الله عليه[2] وعليهم أجمعين؛ لعموم بعثته الثقلينِ كافّةً على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد

[1] القراءات الثلاث شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال. وعن الأعمش: "بِلَسْنِ" بفتح اللام وسكون السين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[2] س + وسلّم.

نظم الكتاب[١] المنزّل إليه حسب تعدّد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرّق أيدي التحريف، مع أنّ استقلال بعضٍ مِن ذلك بالإعجاز دون غيره مئِنّة لقدح القادحين، واتّفاقَ الجميع / فيه أمر قريب مِن الإلجاء، وحصل [٢٥٥و] البيان بالترجمة والتفسير؛ اقتضت الحكمة اتّحاد النظم المنبئ عن العزّة وجلالة الشأن المستتبع لفوائدَ غنيّة عن البيان، على أنّ الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدّد، إذ لا بدّ لكلّ أمّة مِن معرفة توافق الكلّ وتحاذيه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة[٢] مِن غير مخالفة ولو في خَصلة فذّةٍ،[٣] وإنّما يتمّ ذلك بمَن يترجم عن الكلّ واحدًا أو متعدّدًا، وفيه مِن التعذّر ما يتاخم الامتناع.

ثمّ لمّا كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه السلام قومه الذين بُعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين.

وقيل:[٤] الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه تعالى أنزل الكتب كلّها عربيّة ثمّ ترجمها جبريل عليه السلام، أو كلّ مَن نزل عليه مِن الأنبياء عليهم السلام بلغة مَن نزل عليهم. ويردّه قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فإنّه ضمير القوم، وظاهر أنّ جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب. وَفي رَجْعِه إلى قوم كلّ نبيّ -كأنّه قيل: وما أرسلنا مِن رسول إلّا بلسان قوم محمّد عليه السلام ليبيّن الرسول لقومه الذين أرسل إليهم-[٥] ما لا يخفى مِن التكلّف.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلال لِمباشرة أسبابه المؤدّية إليه، أو يخذله ولا يلطف به لِما يَعلم أنّه لا ينجع فيه الإلطاف. ﴿وَيَهْدِى﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِما فيه مِن الإنابة والإقبال إلى الحقّ.

---

١ س – الكتاب.

٢ أي: مِثلًا بمِثل. وهو مَثَل يُضرب في التسوية بين الشيئين. ومثله "حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعل". والقُذَّة: مِن القَذِّ وهو القطع، يعني: قَطَع الريشة المقذوذة على قدر صاحبتها في التسوية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩٥.

٣ الفَذُّ: الفردُ. الصحاح للجوهري، «فذذ».

٤ ذكره الزمخشري، وقال: «روَوه عن الضحّاك... وليس بصحيح». انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٩.

٥ انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٥٤٩.

والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيحِ مَناط كلّ منهما. و"الفاء" فصيحة، مثلها في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ[١] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، كأنّه قيل: فبيّنوه لهم، فأضلّ الله منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليق إلّا به، وهدى مَن شاء هدايته لاستحقاقه لها. والحذف للإيذان بأنّ مسارعة كلّ رسول إلى ما أُمِرَ به وجريانَ كلّ مِن أهل الخذلان والهداية على سُننه أمرٌ محقّق غنيّ عن الذكر والبيان.

[٢٥٥ظ] والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار / الصورة، أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، حسب تجدّد البيان مِن الرسل المتعاقِبة عليهم السلام. وتقديم الإضلال على الهداية إمّا لأنّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير مِن قِبَل الرسل، وأنّ مدار الأمر إنّما هو مشيئته تعالى بإيهام أنّ ترتّب الضلالة على ذلك أسرع مِن ترتّب الاهتداء، وهذا محقِّق لِما سلف مِن تقييد الإخراج مِن الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغالَبُ في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئًا مِن الإضلال والهداية إلّا لحكمةٍ بالغة. وفيه أنّ ما فُوِّض إلى الرسل إنّما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحقّ، وأمّا الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِلَ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الآيةَ.[٢] ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: ملتبِسًا بها، وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أَخرِجْ؛

---

[١] م س - ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾؛ م س + فقلنا. [٢] في الآية السابقة.

لأنّ الإرسال فيه معنى القول، أو بأن أَخرِجْ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، فإنّ صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء، وهو المدار في صحّة الوصل. والمراد بذلك إخراج بني إسرائيل بعد مَهلِك فرعون.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ مِن الكفر والجهالات التي أدّتهم[1] إلى أن يقولوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨]. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بنَعمائه وبلائه كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾،[2] لكن لا بما جرى عليهم فقط؛ بل عليهم وعلى مَن قبلهم مِن الأمم في الأيّام الخالية حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآيات،[3] أو بأيّامه المنطوية على ذلك كما يلوِّح به قوله: ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾.[4]

والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة بإضافة "الأيّام" إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها، والإشعارِ بعدم اختصاص ما فيها مِن المعاملة بالمخاطَب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير التكلّم، أي: عِظْهُم بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقيل:[5] / ﴿أَيَّامِ اللَّهِ﴾ وقائِعه التي وقعت على الأمم قبلَهم، و"أيّامُ العرب": وقائعها وحروبها وملاحمها، أي: أنذِرهم وقائعَه التي دَهِمَت الأمم الدارجة. ويردّه ما تصدّى له عليه السلام بصدد الامتثال مِن التذكير بكلٍّ مِن السرّاء والضرّاء ممّا جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلى عليك. [٢٥٦و]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بها، أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاء، أو في أيّامها ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وحدانيّة الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته. فهي على الأوّل[6] عبارة عن الأيّام سواء أُريدَ بها أنفسُها أو ما فيها

---

١ ط س: أدّاهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ في الآية التالية.

٣ إبراهيم، ١٤/٩.

٤ في الآية التالية.

٥ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٤٠؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٣.

٦ وفي هامش م: هو كون ذلك إشارة إلى التذكير. «منه».

مِن النعماء والبلاء، ومعنى ظرفيّة التذكير لها كونه مناطًا لظهورها. وعلى الثالث[١] عن تلك النعماء والبلاء، ومعنى الظرفيّة ظاهر. وأمّا على الثاني[٢] فعن كلّ واحدة مِن تلك النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها مِن حيث هو مجموع، أو كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، مثلها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١].

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنَعمائه. وقيل: لكلّ مؤمن، والتعبير عنهم بذلك للإشعار بأنّ الصبر والشكر بعنوان المؤمن، أي: لكلّ مَن يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها، لا لِمَن اتّصف بها بالفعل؛ لأنّه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكّر المؤدّي إلى تلك المرتبة، فإنّ مَن تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَن قبله مِن النعماء والبلاء وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها. وتخصيص الآيات بهم لأنّهم المنتفِعون بها، لا لأنّها خافية عن غيرهم، فإنّ التبيين حاصل بالنسبة إلى الكلّ. وتقديم "الصبّار" على "الشكور" لتقدّم متعلَّق الصبر –أعني: البلاء– على متعلَّق الشكر –أعني: النعماء–، وكونِ الشكر عاقبة الصبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ شروع في بيان تصدّيه عليه السلام لِما أُمِر به مِن التذكير للإخراج المذكور. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتعليق الذكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه غيرَ مرّة،[٣] أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام لقومه: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بدأ عليه السلام بالترغيب لأنّه عند النفس أقبَل، وهي إليه أميَل.

---

[١] وفي هامش م: وهو كونه إشارة إلى أيّامها. «منه».

[٢] وفي هامش م: وهو كونه إشارة إلى مجموع النعماء والبلاء. «منه».

[٣] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، وغيره مِن المواقع. «منه».

والظرف متعلّق بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم. وكذا كلمةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ / أي: اذكروا إنعامه [٢٥٦ظ] عليكم وقت إنجائه إيّاكم مِن آل فرعونَ، أو اذكروا نعمة الله مستقرّةً عليكم وقتَ إنجائه إيّاكم منهم. أو بدلُ اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها الإنعام أو العطيّة.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم، مِن "سامَهُ خَسْفًا" إذا أولاه ظلمًا، وأصل السّوم الذهاب في طلب الشيء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ "السوء" مصدر "ساءَ يسُوء"، والمراد به جنس العذاب السيّء، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقّة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك ممّا لا يُحصر. ونصبه على أنّه مفعول لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين. وإنّما عطفه على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد. وإنّما فعلوا ذلك لأنّ فرعونَ رأى في المنام -أو قال له الكهنة- أنّه سيولد منهم مَن يذهب بمُلكه، فاجتهدوا في ذلك، فلم يغنِ عنهم مِن قضاء الله شيئًا.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبقونهنّ في الحياة مع الذلّ والصَّغار، ولذلك عُدّ مِن جملة البلاء. والجُمل أحوال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أو مِن ضمير المخاطبِين، أو منهما جميعًا؛ لأنّ فيها ضمير كلّ منهما.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكر مِن أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاء منه، لا أنّ البلاء عين تلك الأفعال، اللّهمّ إلّا أن يُجعل ﴿فِى﴾ تجريديّة، فنسبته إلى الله تعالى إمّا مِن حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين. ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يطاق. ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاءَ مِن ذلك. و"البلاء": الابتلاءُ / بالنعمة، [٢٥٧و] وهو الأنسب كما يلوِّح به التعرّض لوصف الربوبيّة. وعلى الأوّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنّ بلاء المؤمن تربيةٌ له.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مِن جملة مقال موسى عليه السلام لقومه، معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذّن ربُّكم، أي:

آذن إيذانًا بليغًا لا تبقى معه شائبةُ شبهةٍ، لِما في صيغة التفعّل مِن معنى التكلّف المحمول في حقّه سبحانه على غايته التي هي الكمال. وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾،[1] أي: اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين، فإنّ هذا التأذّن أيضًا نعمة مِن الله تعالى عليهم ينالون بها خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ".[2]

ولقد ذكّرهم عليه السلام أوّلًا بنعمائه تعالى عليهم صريحًا، وضمّنه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك مِن الضرّاء، ثمّ أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى مِن الله سبحانه مِن الوعد بالزيادة على تقدير الشكر، والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر. والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث مفصّلةً، إذ هي محيطة بذلك، فإذا ذُكرت ذُكر ما فيها كأنّه مشاهَد مُعايَنٌ.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتُكم مِن نعمة الإنجاء وإهلاك العدوّ وغير ذلك مِن النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمَطتُموه ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم.

ومِن عادة الكرام التصريح بالوعد، والتعريضُ بالوعيد، فما ظنّك بأكرم الأكرمين؟ ويجوز أن يكون المذكور تعليلًا للجواب المحذوف، أي: لَأعذِّبنّكم.

و"اللام" في الموضعين موطّئة للقسَم، وكلٌّ مِن الجوابين سادّ مَسدّ جوابَي الشرط والقسَم. والجملة إمّا مفعول / لـ﴿تَأَذَّنَ﴾ لأنّه ضرب مِن القول، أو لقولٍ مقدّر بعده، كأنّه قيل: وإذ تأذّن ربّكم فقال... إلخ. [٢٥٧ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٦٠١/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٥.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَهُ تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمۡ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الخلائق ﴿جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجِب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه مِن أياديه وإن لم يحمَده أحد، أو محمود يحمَده الملائكة؛ بل كلّ ذرّة مِن ذرّات العالم ناطقة بحمده. والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها مِن الفضائل كان أدلّ على كماله سبحانه. وهو تعليل لِما حُذف مِن جواب «إن»، أي: إن تكفروا لم يرجع وَباله إلّا عليكم فإنّ الله تعالى لغنيّ عن شكر الشاكرين.

ولعلّه عليه السلام إنّما قاله عندما عايَن منهم دلائلَ العناد، ومخائلَ الإصرار على الكفر والفساد، وتيقّن أنّه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريضُ بالترهيب، أو قاله غِبَّ تذكيرهم بما ذُكر مِن قول الله عزّ سلطانه تحقيقًا لمَضمونه وتحذيرًا لهم مِن الكفران.

ثمّ شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ليتدبّروا ما أصاب كلّ واحد مِن حِزبَي المؤمِن والكافر، فيُقلِعوا عمّا هم عليه مِن الشرّ، ويُنيبوا إلى الله تعالى. وقيل:[1] هو ابتداءُ كلام مِن الله سبحانه خطابًا للكفرة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيختصّ تذكير موسى عليه السلام بما اختصّ ببني إسرائيل مِن السرّاء والضرّاء، والأيّامُ بالأيّام الجارية عليهم فقط. وفيه ما لا يخفى مِن البُعد، وأيضًا لا يظهر حينئذ وجه تخصيصِ تذكير الكفرة الذين في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام[2] بما أصاب أولئك المعدودين مع أنّ غيرهم أسوة لهم في الخلوّ قبل هؤلاء.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدل مِن الموصول، أو عطف بيان، ﴿وَعَادٖ﴾ معطوف على «قَوۡمِ نُوحٖ»، ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد هؤلاءِ المذكورين، عطفٌ على ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما عُطف عليه.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٤.

٢ م: عليه الصلاة؛ س: عليه السلام. | والمثبت مِن ط.

[٢٥٨و] وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ / اعتراض، أو الموصول مبتدأ، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ إلى آخره خبره، والجملة اعتراض، والمعنى: أنّهم مِن الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلّا اللهُ سبحانه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرفون».[١] وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: «كذَب النسّابون»،[٢] يعني: أنّهم يَدَّعون عِلْمَ الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ استئناف لبيان نبئِهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة والبيّنات الباهرة، فبيَّنَ كلُّ رسول لأمّتِه طريقَ الحقّ، وهداهم إليه ليخرجهم مِن الظلمات إلى النور، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها مِن المقالة اعتناءً منهم بشأنها، وتنبيهًا للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطًا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سِواه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيّنات التي أظهروها حجّةً على صحّة رسالاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [هود، ٩٦/١١]، ومرادهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحّة رسالاتهم، أو فَعَضُّوها غَيْظًا وضجَرًا مِمّا جاءت به الرسل، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]، أو وَضعوها عليها تعجّبًا منه واستهزاءً به، كمَن غلبه الضحِك، أو إسكاتًا للأنبياء وأمرًا لهم بإطباق الأفواه، أو ردّوها في أفواه الأنبياء عليهم السلام يمنعونهم مِن التكلّم تحقيقًا أو تمثيلًا، أو جعلوا أيدي الأنبياء في أفواههم تعجّبًا مِن عتوّهم وعنادهم، كما ينبئ عنه تعجّبهم[٣] بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾... إلخ.[٤]

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، عبّر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي هي مدار النعم الدينيّة والدنياويّة؛ لأنّهم لمّا كذّبوها فلم يقبلوها فكأنّهم ردّوها إلى حيث جاءت منه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٦/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٠/٥.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٧/٥.

٣ وفي هامش م: أي: تعجّب الرسل. «منه».

٤ في الآية التالية.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ مِن الإيمان بالله والتوحيد، فلا ينافي شكّهم في ذلك كفرَهم القطعي بما أرسل به الرسل مِن البيّنات، فإنّهم كفروا بها قطعًا حيث لم يعتدّوا بها / ولم يجعلوها مِن جنس المعجزات، [٢٥٨ظ] ولذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.[١] وقُرئ: "تَدْعُونَّا" بالإدغام.[٢] ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن "أرابه"، أو ذي ريبة، مِن "أرابَ الرجل"، وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيبَ بأنّهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين مِن مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ بإدخال الهمزة على الظرف؛ للإيذان بأنّ مدار الإنكار ليس نفسَ الشكّ؛ بل وقوعُه فيما لا يكاد يُتَوَهّم فيه الشكّ أصلًا، مُتَفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا: أأنتم في شكّ مريب مِن الله تعالى؟ مبالغةً في تنزيه ساحة السُّبحان[٣] عن شائبة الشكّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفِي شأنه سبحانه مِن وجوده ووحدته ووجوبِ الإيمان به وحدَه شكٌّ ما، وهو أظهر مِن كلّ ظاهر، وأجلى مِن كلّ جليّ، حتّى تكونوا مِن قِبَلِه في شكّ مريب؟

وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهار البيّنات وسيلةً إلى ذلك، لم يَتعرّضوا للجواب عن قول الكفرة: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، واقتَصَروا على بيان ما هو الغاية القصوى، ثمّ عقّبوا ذلك الإنكارَ

---

١ في الآية التالية.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

٣ قال أبو حيّان: «سُبحان: هو اسم وُضع موضع المصدر الذي هو التسبيح، وأصله الإضافة، ثمّ استعمل مقطوعًا عنها منوّنًا في الشعر وغير منوّن، وقيل: وُضع نكرة جارية مَجرى المصادر، فعُرّف بالإضافة، وبـ"ال"، قال:

سُبحانك اللّهمّ ذا السُّبحان»

ارتشاف الضرَب لأبي حيّان، ١٣٦٦/٣.

بما يوجبه مِن الشواهد الدالّة على انتفاء المنكَر فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعِهما وما فيهما مِن المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقّق ما أنتم منه في شكّ. وهو صفة للاسم الجليل، أو بدل منه. وَ﴿شَكٌّ﴾ مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام. وجعلُه مبتدأً على أنّ الظرف خبره يفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي، أعني: المبتدأ، والفاعلُ ليسَ بأجنبي مِن رافعه، وقد جُوّز ذلك أيضًا.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيّانا، لا أنّا ندعوكم إليه مِن تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾.[1] ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، أو يدعوكم لأجل المغفرة، كقولك: "دعوتُه ليأكلَ معي". ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَها، وهو / ما [٢٥٩و]
عدا المظالم ممّا بينهم وبينه تعالى، فإنّ الإسلام يَجبُّه.

قيل: هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين، ولعلّ ذلك لِما أنّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتّبة على مَحض الإيمان، وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنّب عن المعاصي ونحو ذلك، فيتناول الخروج عن المظالم. وقيل: المعنى: ليغفر لكم بدلًا مِن ذنوبكم.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمّاه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما سبَق: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مِن غير فضل يؤهّلكم لِما تدّعونه مِن النبوّة، ﴿تُرِيدُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾ حملًا على المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن، ٦/٦٤]، أو كلام مستأنَف، أي: تريدون بما تَتَصَدَّونَ له مِن الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عن عبادة ما استمرّ آباؤنا على عبادته مِن غير شيء يوجبه، وإلّا ﴿فَأْتُونَا﴾ أي: إن لم يكن الأمر كما قلنا -بل كنتم رسلًا مِن جهة الله تعالى كما تدّعونه- فأتونا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلّ على فضلكم

---

[1] في الآية السابقة.

واستحقاقكم لتلك الرتبة، أو على صحّة ما تدّعونه مِن النبوّة حتّى نترك ما لم نَزَلْ نعبده أبًا عن جدّ.

ولقد كانوا آتوهم مِن الآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخِرّ له صُمّ الجبال، ولكنّهم إنّما يقولون ما يقولون مِن العظائم مكابرةً وعنادًا وإراءةً لمَن وراءهم أنّ ذلك ليس مِن جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مُجاراةً معهم في أوّل مقالتهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص / الكلام بهم حيث أُريدَ إلزامهم، بخلاف ما سلف مِن إنكار وقوعِ الشكّ في الله سبحانه، فإنّ ذلك عامّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه. [٢٥٩ظ]

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوّة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أنّ ذلك عطيّة مِن الله تعالى[١] يعطيها مَن يشاء مِن عباده بمحض الفضل والامتنان مِن غير داعية توجبه، قالوه تواضعًا وهضمًا للنفس، أو ما نحن مِن الملائكة؛ بل نحن بشر مثلكم في الصورة، أو في الدخول تحت الجنس، ولكنّ الله تعالى يمُنّ بالفضائل والكمالات والاستعدادات[٢] على مَن يشاء المَنّ بها، وما يشاء ذلك إلّا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلَك الاصطفاءِ للنبوّة.

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ وما استقام ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجّة مِن الحجج فضلًا عن السلطان المبين بشيء مِن الأشياء وسبب مِن الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه أمر يتعلّق بمشيئته تعالى، إن شاء كان، وإلّا فلا.

---

١ س - تعالى.

٢ م ط - والاستعدادات [هو في هامش م بدون إشارة إلى مكانه، ووُضع في ط قبل "والكمالات" وفي س بعده كما اثبتناه].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل، ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثِرَ ذِي أَثِيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ أي: أيّ عذر لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أن لا نتوكل عليه. والإظهار لإظهار النشاط بالتوكّل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمه تعالى وتعليلِ التوكّل. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنّه قَد فَعَل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا / ﴿سُبُلَنَا﴾ [٢٦٠و]
أي: أرشد كلًّا منّا سبيلَه ومنهاجه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكه في الدين.

وحيث كانت أذيّة الكفّار مِمّا يوجب القلقَ والاضطراب القادح في التوكّل قالوا على سبيل التوكيد القسَمي مظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك ممّا لا خير فيه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على ما أحدثوه مِن التوكّل. والمراد هو المراد ممّا سبق مِن إيجاب التوكّل على أنفسهم، والمراد بـ"المتوكّلين" المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكر اتّصافهم به، ويجوز أن يراد: وعليه فليتوكّلْ مَن يتوكّل دون غيره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لعلّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرّدين العاتين الغالين في الكفر مِن أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يُقَل: "وقالوا" ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لم يقتنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحقّ بعد ما رأوا البيّنات الفائتةَ للحصر حتّى اجترأوا على مثلِ هاتِيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان، فحلَفوا على أن يكون أحد المُحالَين. والعَوْدُ إمّا بمعنى مطلق الصيرورة، أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، وقد مرّ في الأعراف،[١] وسيأتي في الكهف.[٢]

---

[١] الأعراف، ٨٨/٧.
[٢] الكهف، ٢٠/١٨.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾ مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم مِن العتوّ إلى غاية لا مَطمَع بعدها في إيمانهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه؛ لكونه ضربًا منه.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ⑭﴾

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ / أي: أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾،[1] كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم. [٢٦٠ظ]

وقُرِئ: "لَيُهْلِكَنَّ"، "وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ" بالياء[2] اعتبارًا لِـ﴿أَوْحَىٰٓ﴾، كقولهم: "حلَف زيد لَيخرجَنّ غدًا".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارَهم، أي: ذلك الأمر محقّق ثابت ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ مَوقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله. وقيل: لفظ "المقام" مُقحَم.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدِي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفّار، والمعنى أنّ ذلك حقّ للمتقين، كقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، ١٢٨/٧].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ⑮﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصروا الله على أعدائهم، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال، ١٩/٨]، أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم، مِن "الفَتاحة"، وهي الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧]، فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين، فإنّهم سألوا أن ينصُر المحقّ ويُهلك المُبطل، وهو معطوف على ﴿أَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾.[3]

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٣ إبراهيم، ١٣/١٤.

وقُرئ بلفظ الأمر[١] عطفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٢] أي: أَوحى إليهم ربُّهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتِحوا.

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متّصف بضدّ ما اتّصف به المتّقون، أي: فنُصِروا عند استفتاحهم، وظَفِروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلّ جبّارٍ عنيد، وهم قومُهم المعانِدون. فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان، دون الحرمان / عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنّهم كانوا يزعمون أنّهم على الحقّ، [٢٦١و] أو استفتح الكفّار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا.

وإنّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد، لا أنّ بعضهم ليسوا كذلك وأنّه لم يُصبهم الخيبة، أو استفتحوا جميعًا، فنُصر الرسل، وأُنجِزَ لهم الوعدُ، وخاب كلّ عاتٍ متمرِّد. فالخيبة بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب. وفي إسناد الخيبة إلى كلّ منهم ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ١٦﴾

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: بين يديه، فإنّه مُرصَد لها،[٣] واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: مِن وراء حياته، وحقيقته ما تَوارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على مقدّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنّه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يُلقى فيها، ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو قيح، أي: دم مختلط بمِدّةٍ يسيل مِن الجرح. قال مجاهد وغيره: «هو ما يسيل مِن أجساد أهلِ النار».[٤] وهو عطف بيان لِـ﴿مَآءٍ﴾، أُبهِمَ أوّلًا ثمّ بيِّنَ بـ"الصَّدِيد" تهويلًا لأمره. وتخصيصه بالذكر مِن بين عذابها يدلّ على أنّه مِن أشدّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٢ إبراهيم، ١٣/١٤.

٣ ط س: بها.

٤ جامع البيان للطبري، ٦١٨/١٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٣١/٣.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قيل: هو صفة لـ﴿مَآءٍ﴾، أو حال منه، والأظهر أنّه استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يَفعل به؟ فقيل: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أي: يتكلّف جَرعه مرّة بعد أخرى؛ لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة؛ بل يغصّ به فيشربه بعد اللّتيا والتي،[١] جَرعةً غِبّ جَرعة، / فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وأخرى بشربه على تلك الحال، فإنّ السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يُدخله في جوفه، وعُبّر عنه بالإساغة لِما أنّها المعهودة في الأشربة. وهو حال مِن فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما جميعًا. [٢٦١ظ]

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسبابُه مِن الشدائد ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ويحيط به مِن جميع الجهات، أو مِن كلّ مكان مِن جسده حتّى مِن أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنّه ليس بميّت حقيقةً كما هو الظاهر مِن مجيء أسبابه لا سيّما مِن جميع الجهات حتّى لا يتألّم بما غشيه مِن أصناف المُوبِقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ مِن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل كلّ وقت عذابًا أشدّ وأشقّ ممّا كان قبله، ففيه دفع ما يتوهّم مِن الخِفّة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: هو الخلود في النار. وقيل: هو حبس الأنفاس. وقيل: المراد بـ"الاستفتاح والخيبة" استسقاء أهل مكّة في سِنيهِم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدَعوته صلّى الله عليه وسلّم وخيبتهم في ذلك، وقد وَعَدَ لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمَثَل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ كقولك:

---

[١] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

"صفة زيد عِرضه مَهتوك وماله مَنهوب". والجملة[١] استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: ما بَالُ أعمالهم التي عملوها في وجوه البِرّ مِن صلة الأرحام، وإعتاقِ الرقاب، وفداء الأسارى، وإغاثة الملهوفين، / وقِرَى الأضياف، وغيرِ [٢٦٢و] ذلك ممّا هو مِن باب المكارم، حتّى آل أمرُهم إلى هذا المآل؟ فأجيب بأنّ ذلك كرمادٍ ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملَتْه وأسرعَتْ الذهابَ به ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح، وُصف به زمانها مبالغةً، كقولك: "ليلة ساكرة"،[٢] وإنّما السُّكورُ لريحها. شُبِّهَتْ[٣] صنائعُهم المعدودة -لابتنائها على غير أساسٍ مِن معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى- برماد طيّرته الريح العاصفة.

أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام، أو مبتدأ خبره محذوف، كما هو رأي سيبويه،[٤] أي: فيما يتلى عليك مَثَلُهم. وقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ جملة مستأنَفة مبنيّة على سؤال مَن يقول: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كَيت وكَيت، سواء أريدَ بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم. وقيل: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل مِن ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقولُه: ﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره.

﴿لَا يَقۡدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ ما، أي: لا يرَون له أثرًا مِن ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور، وهو فَذْلكة التمثيل. والاكتفاء ببيانِ عدم رؤية الأثر لِأعمالهم للأصنام مع أنّ لها عقوباتٍ هائلةً للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكّم بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلّ عليه التمثيل دلالةً واضحةً مِن ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، أو عن نيل الثواب.

---

١ م ط: وهو؛ س: أو هو [صُحّح في هامش م].
٢ ليلةٌ ساكِرةٌ، أي: ساكنةٌ. **الصحاح** للجوهري، «سكر».
٣ م + أو.
٤ انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١٤٣/١؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والمراد به أمّته. وقيل: لكلّ أحد مِن الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾. والرؤية رؤية القلب، وقولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادّ مسدّ مفعولَيها،[١] أي: ألم تعلم أنّه تعالى خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ / ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقّ أن تُخلَق عليه. وقُرئ: "خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ".[٢] [٢٦٢ظ]

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدِمكم بالمرّة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يَخلُق بدلكم خلقًا آخر مستأنَفًا لا علاقة بينكم وبينهم، رتّب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السماوات والأرض على هذا النمط البديع إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنّ مَن قدر على خلق مثل هاتِيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلقٍ آخرَ بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم والإتيانُ بِخلقٍ جديد مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذّر أو متعسّر، فإنّه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدور، ومَن هذا شأنه حقيقٌ بأن يؤمَن به، ويُرجَى ثوابُه، ويُخشى عقابه.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون يوم القيامة. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، أو لأنّه لا مضيّ ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه. والمراد بُروزهم مِن قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنّهم، فإنّهم كانوا يظنّون

---

[١] س: مفعوليهما.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

عند ارتكابهم الفواحش سرًا أنّها تخفى على الله سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ الأتباعُ، جمع "ضَعيف"، والمراد ضعف الرأي، وإنّما كُتب بالواو على لفظ مَن يفخّم الألف قبل الهمزة.[1] ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعُوهم واسْتَغْوَوهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمع "تابع"، كـ"غَيَب" في جمع "غائب"، أو مصدر نُعِتَ به مبالغةً، أو على إضمارٍ، أي: ذَوِي تَبَع.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا﴾ و"الفاء" للدلالة على سببيّة الاتّباع للإغناء. والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت. / ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [٢٦٣و]
﴿مِنۡ﴾ الأولى للبيان واقعةً موقع الحال، والثانية للتبعيض واقعةً موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى، ويجوز كونهما للتبعيض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب كما سبق. ويجوز أن يكون الأولى مفعولًا، والثانية مصدرًا، أي: فهل أنتم مُغنون عنّا بعض العذاب بعض الإغناء؟ ويعضد الأوّل قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر، ٤٠/٤٧].

﴿قَالُواْ﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأَتْباعِ، واعتذارًا عمّا فعلوا بهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإيمان وَوَفَّقَنا له ﴿لَهَدَيۡنَـٰكُمۡ﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضلَلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة مِن العذاب لهديناكم وأغنَينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سَدَّ دُوننا طريق الخلاص، ولاتَ حينَ مَناص.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ ممّا لقينا ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ على ذلك، أي: مستَوٍ علينا الجزَعُ والصبر في عدم الإنجاء. و"الهمزة" و"أم" لتأكيد التسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة، ٢/٦]. وإنّما أسندوهما ونسبوا استواءَهما

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٨. وقال أبو داود سليمان بن نَجاح: «وكتبوا هنا ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ بواو بعد الفاء وألِف بعدها تقويةً للهمزة لخفائها، مِن غير ألف قبلها استغناءً بحركة الفاء عنها». مختصر التبيين لسليمان بن نَجاح، ٣/٧٤٩.

إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنّهم شركاءُ لَهم فيما ابْتُلُوا به وتسليةً لهم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَا﴾... إلخ مِن كلام الفريقين، على منوال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، ويؤيّده ما رُوي أنّهم يقولون: تَعالَوا نَجزَعْ، فيَجزَعون خمسمائة عامٍ، فلا ينفعهم، فيقولون: تَعالَوا نصبِر، فيصبرون كذلك، فلا ينفعهم، فعند ذلك يقولون ذلك.[١]

/ ولمّا كان عتاب الأَتباع مِن باب الجَزَعِ ذَيَّلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ مِن مَنجَى ومَهرَب مِن العذاب، مِن "حاصَ الحِمار" إذا عدل بالفِرار. وهو إمّا اسم مكان، كالمَبيت والمَصيف، أو مصدر، كالمَغيب والمَشيب. وهي جملة مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة، أو بدل منه. [٢٦٣ظ]

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كلا الفريقين واستتبعهما عندما عَتَباهُ بما قاله الأَتباعُ للمستكبرين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّةَ، وأهلُ النارِ النارَ، خطيبًا في محفل الأشقياء مِن الثقلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: وعدًا مِن حقّه أن يُنجَز فأَنجزه، أو وَعدًا أَنجزَهُ، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ أي: وعدَ الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرّح ببطلانه لِما دلّ عليه قوله: ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ أي: مَوعدي، على حذف المفعول الثاني، أي: نقضته، جعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه، كأنّه كان قادرًا على إنجازه، وأنّى لَهُ ذلك.

---

١ قاله مقاتل. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٠/٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٣/٥.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّطٍ أو حجّةٍ تدلّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلّا دعائي إيّاكم إليه وتسويله، وهو وإن لم يكن مِن باب السلطان، لكنّه أبرَزَه في مَبرَزه على طريقة:

تـحـيّـةُ بـيـنِـهـم ضَـــربٌ وجـيـعُ[1]

مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه، كأنّه قال: إنّما يكون لي عليكم سلطان إذا كان / مجرّد الدعاء مِن بابه، ويجوز كون الاستثناء منقطعًا. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [٢٦٤و] فأسرعتم إجابتي، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوعدي إيّاكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القَسْرِ والإلجاء كما يدلّ عليه الفاء. وقُرئ بالياء[2] على وجه الالتفات، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس، ١٠/٢٢].

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حينَ دعوتكم بلا حجّة ولا دليل بمجرّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا ربّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقّ المقرونةَ بالبيّنات والحُجج، وليس مراده التَنصُّلَ عن توجّه اللائمة إليه بالمرّة؛ بل بيانُ أنّهم أحقّ بها منه. وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة؛ بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التي عليها يدور فلَكُ التكليف مدخل فيه، فإنّه سبحانه إنّما يخلق أفعاله حسبما يختاره، وعليه يترتّب السعادة والشقاوة. وما قيل مِن أنّه يستدعي أن يُقال: فلا تلوموني ولا أنفسَكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه؛[3] مبنيّ على عدم الفرق بين مذهب أهل الحقّ وبين مسلك الجبريّة.

---

١ صدره:

وخـيـلٍ قـد دَلَـفـت لـها بخيلٍ

وهو منسوب إلى عمرو بن مَعدي كَرِب. قال البغدادي: «وهذا البيت نسبه شرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعدِي كَرِب الصحابي، ولم أرَه في شعره». خزانة الأدب للبغدادي، ٩/٢٦٥. وانظر: شعر عمرو بن معدي كرب، ص ١٤٩. الشاهد فيه أنّه جعَل الضرب بالسيوف تحيّةً بينهم. ودلَفت لها: قصَدت إليها وقرُبَت منها ولقيَتها. يريد أنّه كان يجمع الجيوش فيلقَى بهم أمثالَهم، وعنَى أنّه كان يرأسهم؛ لأنّ الرؤساء يجهّزون الجيوش ويسيّرونهم. شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٢/١٨٧.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٢٨.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٥٠.

﴿مَآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمُغيثِكم مِمّا أنتم فيه مِن العذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ ممّا أنا فيه. وإنّما تَعرَّضَ لذلك مع أنّه لم يكن في حيّز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إيّاهم، وإيذانًا بأنّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به،[١] ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف مِن إصراخ الغير، ولذلك آثر الجملة الاسميّة، فكأنّ ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهمَ وتقريعهم، وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع / ما دهِمَهُم مِن العذاب. وقُرئ بكسر الياء.[٢] [٢٦٤ظ]

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بإشراككم إيّاي، بمعنى: تبرّأتُ منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر، ١٤/٣٥]، يعني: أنّ إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يُطمِعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبودًا، وكنتُ أوَدّ ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَده، ولم أقبَله منكم؛ بل تبرّأت منه ومنكم، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقة.

أو كفرتُ مِن قبلُ حين أبَيتُ السجود لآدم بالذي أَشۡرَكۡتُمُونِيهِ وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله: "سبحان ما سخّرَكُنّ لنا"،[٣] فيكون تعليلًا لعدم إصراخه، فإنّ الكافر بالله سبحانه بمَعزِل مِن الإغاثة والإعانة، سواء كان ذلك بالمُدافعة أو الشفاعة. وأمّا جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إيّاه فلا وجه له، إذ لا احتمال له حتّى يحتاج إلى التعليل، ولأنّ تعليل عدم إصراخهم بكُفره يوهم أنّهم بسبيل مِن ذلك لولا المانعُ مِن جهته.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تتمّة كلامه، أو ابتداء كلام مِن جهة الله عزّ وعلا.[٤] وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتّى يحاسِبوا أنفسهم ويتدبّروا عواقبهم.

---

١ س - به.

٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

٣ انظر: المفصّل للزمخشري، ص ١٨٦.

٤ س: عزّ وجلّ.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، أو بتوفيقه وهدايته. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطف بهم. والمُدخِلون هم الملائكة عليهم السلام. وقُرئ على صيغة التكلّم،[1] فيكون قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّقًا بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّيهم الملائكة بالسلام بإذن ربّهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد عُلِّق بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ منصوب بمُضمَر، أي: جعل كلمةً طيّبةً / هي كلمة التوحيد، أو [٢٦٥و]
كلَّ كلمة حسنة، كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: حَكَم بأنّها مثلُها، لا أنّه تعالى صيّرها مِثلَها في الخارج، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: "شرّف الأمير زيدًا؛ كساه حُلّة، وحمله على فرَس". ويجوز أن يكون ﴿كَلِمَةً﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة، وأن يكون أوّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى "جعل" قد أُخّر عن ثانيهما -أعني: ﴿مَثَلًا﴾- لئلّا يبعد عن صفته التي هي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾. وقد قُرئت بالرفع على الابتداء.[2]

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضارب بعروقه في الأرض. وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه: "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٍ أَصْلُهَا".[3] وقراءة الجماعة أقوى سبكًا وأنسب بقرينته،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠. والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٢/٦.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٨/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

أعني: قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في جهة العلوّ، ويجوز أن يُراد "وفروعها" على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها. والمراد بالشجرة المنعوتة إمّا النخلة، كما رُوي مرفوعًا،[٢] أو شجرة في الجنّة. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعاني بصور المحسوسات.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر والدعاءُ إليه، أو تكذيبُ الحقّ، أو ما يعمّ الكلّ، أو كلُّ كلمة قبيحة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمِثل شجرة خبيثة. قيل: هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها كالحَنظَل والكَشُوثِ[٣] ونحوهما. وتغيير الأسلوب للإيذان بأنّ ذلك غيرُ مقصودِ الضربِ والبيانِ، وإنّما ذلك أمر ظاهر يعرفه كلّ أحد.

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ استؤصلت وأخذت جثّته بالكلّيّة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبة منها. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ / استقرار عليها. [٢٦٥ظ]

---

١ س: تعالى.

٢ منه ما أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٤/٨ (٦١٤٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أخبروني بشجرة مَثَلها مَثَل المسلم، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها، ولا تَحُتُّ ورقَها» فوقع في نفسي أنّها النخلة، فكرِهت أن أتكلّم وثَمّ أبو بكر وعمر، فلمّا لم يتكلّما، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي النخلة» الحديث. وما أخرجه الترمذي في سننه، ٢٩٥/٥ (٣١١٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقِناع عليه رُطب، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم، ٢٤/١٤]، قال: «هي النخلة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم، ٢٦/١٤]، قال: «هي الحنظل». وروى الترمذي مثله موقوفًا على أنس رضي الله عنه وقال: «هذا أصحّ» يعني الموقوف.

٣ الكَشُوث: نبت يتعلّق بأغصان الشجر مِن غير أن يضرب بعِرْقٍ في الأرض. **الصحاح** للجوهري، «كشث».

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثَبَتَ بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيّبة التي ذُكرت صفتها العجيبة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يُزَالون عنه إذا افتتنوا في دينهم، كزكريّا ويحيى وجرجيس[1] وشمسون[2] والذين فتنهم أصحاب الأخدود، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمون إذا سُئِلوا مِن معتقَدهم في الموقف، ولا يُدْهِشُهم أهوالُ القيامة، أو عند سؤال القبر.

رُوي أنّه عليه السلام ذَكر قبض روح المؤمِن فقال: «ثمّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيُجلِسانِه في قبره، فيقولانِ: "مَن رَبّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟" فيقول: "ربّي الله، وديني الإسلامُ، ونبيّي محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم"، فينادي منادٍ مِن السماء أنّه صدَق عبدي»، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.[3] وهذا مثالُ إيتاء الشجرة المذكورة أُكلَها كلَّ حينٍ.

---

١ قال الطيبي: «وجدت في كتاب المبتدأ المنسوب إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله الكسائي أنّه قال: إنّ جَرجيس كان مِن الحواريّين أصحاب عيسى عليه السلام، وعلّمه الله الاسمَ الذي يحيا به الموتى، وكان بأرض الموصل جبّار يعبد الصنم، فدعاه جرجيس إلى عبادة الله، ونهاه عن عبادة الصنم، فأمَر به، فشُدّ يديه ورجليه، ودعا بأمشاط مِن الحديد فسرح بها صدره وبدنه، ثمّ صبّ عليه ماء الملح، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بمسامير مِن حديد فسمَر عينيه وأذنيه، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بحوض مِن نحاس فأوقد عليه حتى ابيضّ، ثمّ ألقي عليه وأطبق رأسه، فجعله الله له بردًا وسلامًا، وزاده حسنًا وجمالًا، ثمّ قطّع إربًا إربًا، فأحياه الله، ودعاهم إلى الله، فلم يؤمن الملك، فأمر الله أن يغيّر بهم، وقلب بالمدينة عاليَها وسافلَها». فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٤/٨.

٢ قال الثعلبي: «كانت قصّته على ما ذكر وهب بن منبّه: أنّه كان رجلًا مسلمًا، وكانت أمّه قد جعلته نذيرًا، وكان مِن أهل قرية مِن قرى الروم كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، فكان يغزوهم وحدَه، ويجاهدهم في الله فيصيب منهم»... وفيه: «فأخذوه فجدعوا أنفَه وانفذوا أذنيه وفقَئوا عينيه...، فدعا شمسون ربّه حين مثّلوا ووقفوه أن يسلّطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين مِن عُمد المدينة التي عليها الملِك والناس الذين معه، فاجتذبهما جميعا فجذبهما، فردّ الله تعالى إليه بصره وما أصابوا مِن جسده، ووقعت المئذنة بالملِك ومَن عليها مِن الناس، فهلكوا فيها هدمًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/١٠ (سورة القدر).

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٢. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ١٣١/٧ (٤٧٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٨٠/٦ (٥٦٩٩) مختصرًا.

قال الثعلبي في تفسيره:[1] «أخبرني أبو القاسم بن حبيب[2] في سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيّب محمد بنَ عليّ الخيّاطَ[3] يقول: سمعتُ سَهلَ بنَ عمّار العملي[4] يقول: رأيت يَزيدَ بنَ هارون[5] في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فَظّانِ، فقالا: مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء، فقلت لهما: أَلِمِثلِي يقالُ هذا، وقد علَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنةً؟ فذهبا».

/ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهما الضلال عن الحقّ الذي ثبّت المؤمنين عليه حَسْبَ إرادتِهم واختيارهم، والمراد بهم الكفرة، بدليل ما يقابله. ووَصْفُهم بالظلم إمّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمّا باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدّلوا فطرة الله التي فطَر الناس عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو كلُّ مَن ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراض عن البيّنات الواضحة، [٢٦٦و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/٥.

٢ هو الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيّوب النيسابوري، أبو القاسم (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٦م)، الواعظ، المفسِّر. كان أديبًا نحويًّا، عارفًا بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه بنيسابور العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحِسان في الآفاق، وكان أبو القاسم الثعلبي مِن خواصّ تلاميذه. صنّف في القراءات، والتفسير، والآداب. انظر: طبقات المفسّرين للسيوطي، ص ٤٥؛ والأعلام للزركلي، ٢١٣/٢.

٣ هو محمّد بن عليّ بن الحسن، الخيّاط، النيسابوري، أبو الطيّب، سمع أبا يحيى سهلَ بن عمّار العَتكي، وعنه أبو عبد الله الحاكم، ووَصَفه بالزاهد، وذكر أنّه حدّثه مِن أصل كتابه، وأبو الحسن محمّد بن الحسين بن داود العلوي، ووصفه بالصوفي. ترجمه الحاكم في تاريخ نيسابور، ص ١٠٦، وذكَر أنّه كان مجابَ الدعوة. الروض الباسم للمنصوري، ١١٤٢/٢.

٤ كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "العَتكي". وهو سهل بن عمّار العَتكي، النيسابوري، أبو يحيى (ت. ٢٦٧هـ/٨٨٠م)، القاضي، العلّامة، الحنفي، شيخ أهل الرأي بخراسان، وقاضي هراة. ارتحل في الحديث. وسمع مِن يزيد بن هارون، وشَبابة بن سوار، وجعفر بن عون، وعبد الرحمن بن قيس، والواقدي، وعدّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢/١٣.

٥ هو يزيد بن هارون بن زاذي السلمي مولاهم، الواسطي، أبو خالد (ت. ٢٠٦هـ/٨٢١م)، الإمام، القدوة، الحافظ، شيخ الإسلام. سمع مِن عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاري القاضي، وسليمان التيمي، وخلق كثير. وحدّث عنه بقيّة بن الوليد -مع تقدّمه- وعليّ بن المديني، وأحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي شيبة. وكان رأسًا في العلم والعمل، ثقة، حجّة، كبير الشأن. قال عليّ بن المديني: «ما رأيت أحفظَ مِن يزيد بن هارون». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٥٩/٩؛ والأعلام للزركلي، ١٩٠/٨.

فلا يَتَثَبَّتُ في مواقف الفِتَن، ولا يهتدي إلى الحقّ، فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حينئذ المخلصون في الإيمان، الراسخون في الإيقان، كما يُنبئ عنه التثبيت، لكنّه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلةً تحت ما لا قرارَ له مِن الشجرة المضروبة مثلًا.

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخرين حسبما يوجبه مشيئته التابعة للحِكَمِ البالغة المقتضية لذلك.

وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين مِن الفخامة وتربية المَهابة ما لا يخفى، مع ما فيه مِن الإيذان بالتفاوت في مبدأَي التثبيت والإضلال، فإنّ مبدأ صدور كلّ منهما عنه سبحانه وتعالى مِن صفاته العُلَا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخَر.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -أو لكلّ أحد- ممّا صنع الكفرة مِن الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمّن له أدنى إدراك، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمته تعالى، بأن وضَعُوا مَوضعَه ﴿كُفۡرٗا﴾ عظيمًا وغَمْطًا لَها، أو بدّلوا نفسَ النعمة كفرًا، فإنّهم لَمّا كَفروها سُلِبُوها، فصاروا مستبدِلين بِها كفرًا، كأهل مكّة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمِن الذي يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، وجعلهم قُوّام بيته، وشرّفهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكفروا ذلك، فقُحِطوا سبعَ سنين، وقُتِلوا وأُسِروا / يوم بدر، فصاروا أذِلّاء مسلوبي النعمة، باقين بالكفر بدلَها. [٢٦٦ظ]

وعن عُمَرَ وعليّ رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم الأفجران مِن قريش: بنو[2] المُغِيرة وبنو[3] أُميّة، أمّا بنو[4] المغيرة فكُفِيتُمُوهم يومَ بدر، وأمّا بنو[5] أميّة فَمُتِّعوا إلى حين».[6] كأنّهما يتأوّلان ما سيُتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ الآية.[7]

---

١ ط س - تعالى.
٢ م: بنوا.
٣ م: بنوا.
٤ م: بنوا.
٥ م: بنوا.
٦ **جامع البيان للطبري، ١٣/٦٦٩-٦٧٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٩٩.**
٧ إبراهيم، ١٤/٣٠.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: أنزلوا ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾ بإرشادهم إيّاهم إلى طريقة الشرك والضلال. وعدم التعرّض لِحُلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرع الحلول، كقوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود، ١١/٩٨]. ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هَلاكَ وراءَه.

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها. وفي الإبهام ثمّ البيانِ ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ حال منها، أو مِن ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾، أي: داخلين فيها، مُقَاسِينَ لحَرّها. أو استئناف لبيان كيفيّة الحلول، أو مفسِّر لفعل يقدَّر ناصبًا لـ﴿جَهَنَّمَ﴾. فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقَتل والأسر، لكنّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] أنسبُ بالتفسير الأوّل.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ على حذف المخصوص بالذمّ، أي: بئس المَقرّ جهنّمُ، أو بئس القرار قَرارُهم فيها. وفيه بيان أنّ حلولهم وصِليّهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾ عطفٌ على ﴿أَحَلُّواْ﴾[2] وما عُطف عليه، داخل معهما في حيّز الصِّلة وحكمِ التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمَد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار ﴿أَندَادٗا﴾ أشباهًا في التسمية، أو في العبادة؛ ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ قومَهم الذين يُشايِعُونهم حسبما ضلّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القَويم الذي هو التوحيد، ويُوقِعُوهم في وَرطة الكفر والضلال.

ولعلّ تغييرَ الترتيب -مع أنّ مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كُفرانهم نعمةَ الله تعالى، / ثمّ كفرَهم بذاته تعالى باتّخاذ الأنداد، ثمّ إضلالَهم لقومهم المؤدّي [٢٦٧و] إلى إحلالهم دار البوار- لِتثنِيَةِ التعجيب وتكريرِه، والإيذانِ بأنّ كلّ واحد مِن وضع الكفر موضع الشكر، وإحلالِ القومِ دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد للإضلال،

---

[1] في الآية التالية.

[2] إبراهيم، ١٤/٢٨.

أمرٌ يُقضى منه العجَب. ولو سيق النظم على نسق الوجود لَربّما فُهِم التعجيبُ مِن مجموع الهَنَاتِ الثلاث، كما في قصّة البقرة. وقُرِئ: "لِيَضِلُّوا" بالفتح.[١] وأيًّا ما كان فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتّخاذ الأنداد، لكن لمّا كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرَض، وأُدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعيّة.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لأولئك الضالّين المضلّين، ونعيًا عليهم، وإيذانًا بأنّهم لِشدّة إبائهم قبولَ الحقّ، وفرطِ انهماكهم في الباطل، وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحالٍ؛ أحِقّاءُ بأن يُضرَب عنهم صفحًا، ويُعطف عنهم عنانُ العِظة، ويُخَلّوا وشأنَهم، ولا يُنهَوا عنه؛ بل يُؤمرُوا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخذلان، ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة، ويقالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه مِن الشهوات التي مِن جملتها كفران النِّعم العظام، واستتباعُ الناس في عبادة الأصنام.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ إلّا، فلا بدّ لكم مِن تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه مِن أحوالكم؛ بل هي في الحقيقة صورة لدخولها، ومثال له حسبما يلوّح به قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾... إلخ،[٢] فهو تعليل للأمر[٣] المأمور. وفيه مِن التهديد الشديد والوعيد الأكيد ما لا يوصف.

أو قل لهم تصويرًا لِحالهم وتعبيرًا عمّا يُلجئهم إلى ذلك: تمتّعوا؛ إيذانًا بأنّهم لفَرْط انغماسهم في التمتّع بما هم فيه مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم مأمورون بذلك مِن قِبَلِ آمرِ الشهوة، مُذعِنون لحُكمِه، منقادون لِأَمرِه، / كدأب مأمورٍ ساعٍ في طاعة آمرٍ مطاعٍ، فليس قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حينئذ تعليلًا للأمر؛ بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: هذه حالكم، فإن دمتم عليه فإنّ مصيركم إلى النار. وفيه التهديد والوعيد، لا في الأمر. [٢٦٧ظ]

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنّهم

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُوَيس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

٢ إبراهيم، ١٤/٢٨.

٣ وفي هامش م: أي: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾. «منه».

المقيمون لوظائف العبوديّة، الموفون بحقوقها. وترك العطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالهما باعتبار المَقول تهديدًا وتشريفًا.[١] والمقول ههنا محذوف دلّ عليه الجواب، أي: قل لهم: أقيموا وأنفِقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: يُداوِمُوا على ذلك. وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره.

وقد جوّزوا أن يكون المقول ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ بحذف لام الأمر عنهما، وإنّما حسُن ذلك دون الحذف في قوله:

مـحـمّـدُ تَـفـدِ نـفـسَـك كـلُّ نـفـسٍ   إذا مـا خِـفْـتَ مِـن أمـرٍ تَـبـالا[٢]

لدلالة ﴿قُل﴾ عليه.

وقيل: هما جوابا "أقيموا" و"أنفقوا" قد أُقيما مُقامهما،[٣] وليس بذاك.

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ منتصبان على المصدريّة مِن الأمر المقدّر، لا مِن جواب الأمر المذكور، أي: أنفقوا إنفاق سرّ وعلانية، والأحبّ في الإنفاق إخفاء المتطوَّع به وإعلانُ الواجب. والمراد حثّ المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنيّة[٤] والماليّة، وتركِ التمتّع بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيع الكفرة.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ / يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يَتَلافَى به تقصيرَه أو يفتدي به نفسه. والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجه، وانتفاؤه ربّما يتصوّر مع تحقّق الإيجاب مِن قِبل البائع. [٢٦٨و]

---

١ وفي هامش م س: فإنّ مقول الأوّل الأمر التهديدي ومقول الثاني الأمر التشريفي.

٢ بغير نسبة في الكتاب لسيبويه، ٨/٣. ونسب إلى أبي طالب في شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢٧٥. قال السيوطي: «و"تَفْدِ" على إظهار الجازم وهو اللام ضرورة، وفيه الشاهد. وقيل: هو مرفوع حذفت ياؤه ضرورة واكتفي بالكسرة. قال الأعلم: وهذا أشهر في الضرورة وأقرب. و"التَّبال": بفتح المثنّاة وتخفيف الموحّدة: الفساد». شرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٩٧/٢.

٣ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩٩/٣، وضعّفه. وقال الشهاب الخفاجي: «قولٌ لبَعض النحاة، وعُزِي للمبرّد رحمه الله». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٧/٥.

٤ س – البدنيّة.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مُخالّة، فيشفع له خليل أو يسامحه بمالٍ يفتدي به نفسه. أو مِن قَبل أن يأتي يوم لا أثرَ فيه لِما لَهِجوا بتعاطيه مِن البيع والمخالّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنّما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه. والظاهر أنّ ﴿مِن﴾ متعلّقة بـ"أنفِقوا".

وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه -كما في سورة البقرة-[1] مِن حيث إنّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة، وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرّعًا، وانقطاعِ آثار البيع والخلال الواقعَين في الدنيا، وعدمِ الانتفاع بهما؛ مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما يبقى عوائده ويدوم فوائده مِن الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ.

أو مِن حيث إنّ ادّخار المال وتركَ إنفاقه إنّما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادّخاره إلى وقت الموت. وتخصيص التأكيد بذلك لمَيل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبّه والضِّنّةِ به. ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لِمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا مِن حيث إنّ تركها كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبِياعات والمُخالّات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة، ٦٢/١١].

[٢٦٨ظ] وقُرئ بالفتح فيهما[2] على إرادة النفي العامّ، ودلالةُ الرفع على ذلك / باعتبارِ خطابيّ هو وقوعه في جواب: هل فيه بيع أو خِلال؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها مِن الأجرام العلويّة ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما فيها مِن أنواع المخلوقات.

---

[1] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٤].

[2] أي: "لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

لمّا ذكَر أحوالَ الكافرين لنِعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنِعَمِه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافّة الأنام المثابرةَ على الشكر والطاعة مِن النِّعم العِظام والمِنَن الجِسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرة المخِلّين بها، الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصي. وفي جعل المبتدأ الاسمَ الجليل والخبرِ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيل العظيمة مِن خلق هذه الأجرام العِظام وإنزالِ الأمطار وإخراجِ الثمرات وما يتلوها مِن الآثار العجيبة ما لا يخفى مِن تربية المهابة والدلالة على قوّة السلطان.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحابِ، فإنّ كلّ ما علاك سماء، أو مِن الفَلك، فإنّ المطر منه يبتدئ إلى السحاب، ومنه إلى الأرضِ على ما دلّت عليه ظواهر النصوص،[1] أو مِن أسباب سماويّة تثير الأجزاء الرطبة مِن أعماق الأرض إلى الجوّ فينعقد سحابًا ماطرًا. وأيًّا ما كان فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. وتقديم المجرور على المنصوب إمّا باعتبار كونه مبدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: "أعطاه السلطان مِن خِزانته مالًا"، أو لِما مرّ مِرارًا مِن التشويق إلى المؤخّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الفائتة للحصر، / إمّا لأنّ صيغ الجموع يتعاور بعضها موضعَ بعض، وإمّا لأنّه أريدَ بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك: "أدركتُ ثمرة بستانِ فلان". ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق، شامل للمطعوم والملبوس، مفعول لـ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، كقولك: "أنفقْتُ مِن الدراهم ألفًا". [٢٦٩و]

ويجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولًا و﴿رِزْقًا﴾ حالًا منه، أو مصدرًا مِن ﴿أَخْرَجَ﴾؛ لأنّه بمعنى "رَزَق"، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾

---

[1] كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون، ١٨/٢٣]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر، ٢١/٣٩]. وأخرج أبو الشيخ ابن حبّان في العظمة عن الحسَن، أنه سئل: المطر مِن السماء، أم مِن السحاب؟ قال: «مِن السماء، إنّما السحاب علَم ينزل عليه الماء مِن السماء». نواهد الأبكار للسيوطي، ٨٣/٢.

[فاطر، ٢٧/٣٥]، كأنّه قيل: أنزل مِن السماء بعضَ الماء، فأخرج به بعضَ الثمرات، ليكون بعضُ رزقكم، إذ لم يُنزل مِن السماء كلّ الماء، ولا أخرج بالمطر كلّ الثمار، ولا جعل كلّ الرزق ثمرًا.

وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عزّ وجلّ وقدرته، لكن جرت عادته تعالى بإفاضة صُوَرِها وكيفيّاتها على الموادّ الممتزَجة مِن الماء والتراب، أو أودع في الماء قوّة فاعلة وفي الأرض قوّة قابلة يتولّد مِن اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب كذلك؛ لِما أنَّ له تعالى في إنشائها مدرّجًا مِن طورٍ إلى طورٍ صنائعَ وحِكَمًا، يُجدِّد فيها لأولي الأبصار عِبَرًا وسكونًا إلى عظيم قدرته، ليس ذلك في إبداعها دفعةً.

وقوله: ﴿لَّكُمْ﴾ صفة لقوله: ﴿رِزْقًا﴾ إن أريدَ به المَرزوق، ومفعول به إن أريدَ به المصدر، كأنّه قيل: رزقًا إيّاكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ بأن أقدَركم على صَنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفيّة ذلك ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ جريًا تابعًا لإرادتكم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي بها نِيطَ كلُّ شيء. وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أنّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال / واستعمالِ الآلات كما يتراءى مِن ظاهر الحال. [٢٦٩ظ]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إن أريدَ بها المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام -كما يومئ إليه ذِكرها عند البحر- فتسخيرُها جعلُها مُعَدَّة لانتفاع الناس حيث يتّخذون منها جداولَ يسقون بها زروعهم وجِنانهم وما أشبه ذلك. وإن أريدَ بها نفس الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سيرهما وإنارتِهما أصالةً وخلافةً، وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحُه مِن المكوِّنات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقَبان خِلْفة لمَنامكم ومَعاشكم، ولعَقد الثمار وإنضاجِها.

ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضةِ عليهم، وأبرز كلّ واحدة منها في جملة مستقلّة تنويهًا لِشأنها وتنبيهًا على رفعة مكانها وتنصيصًا على كون كلّ منها نعمةً جليلةً مستوجِبةً للشكر.

وفي التعبير عن التصريف المتعلّق بما ذكر مِن الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير مِن الإشعار بما فيها مِن صعوبة المأخذ وعِزّة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدّة المِحَال ما لا يخفى.

وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدّمه مِن الأمور المعدودة مع ما بينه[1] وبين خلق السماوات مِن المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرِها لذِكر الأرض المستدعي لذِكر إنزال الماء منها إليها الموجِبِ لذِكر إخراج الرزق الذي مِن جملته ما يحصل بواسطة الفَلَك والأنهار، أو للتفادي عن توهّم كون الكلّ -أعني: خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر- نعمةً واحدةً، كما مرّ في قصّة البقرة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه حسبما يقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ / ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٧/١٨]. أو آتاكم مِن كلّ ذلك [٢٧٠و]
ما احتجتم إليه ونِيط به انتظامُ أحوالكم على الوجه المقدّر، فكأنكم سألتموه، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعداد، أو كلَّ ما سألتموه، على أنّ ﴿مِن﴾ للبيان، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ للتكثير، كقولك: "فلان يعلم كلّ شيء"، و"أتاه كلُّ الناس"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، ٦/٤٤].

وقيل: الأصل: وآتاكم مِن كلّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحُذف الثاني لدلالة ما أُبقيَ على ما أُلقِي.

---

[1] وفي هامش م: مع ما بينهما وبين السماوات. «منه».

وقُرئ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾[١] على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، ومحلّ ﴿مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ النصب على الحاليّة، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائِليه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا بحصرِها ولو إجمالًا، فإنّها غير متناهية. وأصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيّنًا مِن عقود الأعداد وضع حَصاةً ليحفظ بها. ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتدٍّ بها مِن مراتبها فضلًا عن بلوغ غايتها. كيف لا وما مِن فردٍ مِن أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنوًّا بأصناف العَنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأمّلته ألفيتَه متقلّبًا في نِعمٍ لا تُحدّ ومِنَنٍ لا تُحصى ولا تُعدّ، كأنّه قد أعطي كلَّ ساعةٍ وآنٍ مِن النعماء ما حواه حيطة الإمكان؟

وإن كنت في ريب مِن ذلك فَقَدِّر أنّه مَلِكٌ مَلك أقطارَ العالَم، ودانت له كافّة الأمم، وأذعنت لطاعته السَّراة،[٢] وخضعت لهيبته رقابُ العُتاة، وفاز بكلّ مَرام، ونال كلّ مَنال، وحاز جميع ما في الدنيا مِن أصناف الأموال مِن غير ندٍّ يزاحمه، ولا شريك يساهمه؛ بل قَدِّر أنّ جميع ما فيها مِن حجَر ومدَرٍ يواقيتُ غالية ونفائسُ دُرَرٍ، ثمّ قَدِّر أنّه قد وقع مِن فقْدِ مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسُه الحلقوم، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما لَه مِن المُلك والمال لُقمةً تنجّيه عن رِواه،[٣] / أو شربةً تُرويه مِن ظَماه، أم يختار الهلاك فيذهب الأموالُ والأملاكُ بغير بدل يبقى عليه، ولا نفعٍ يعود إليه؟ كلّا؛ بل يبذل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائنًا ما كان، وليس في صفقته شائبةُ الخسران، فإذن تلك اللقمة والشربة خيرٌ ممّا في الدنيا بألفِ رُتْبة مع أنّهما في طرَف الثُّمام،[٤] ينالهما متى شاء مِن الليالي والأيّام. [٢٧٠ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وزيد عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

٢ السَّراة: الأشراف، وسَراة كلِّ شيء ما ارتفع منه وعَلا. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سرو».

٣ ماء رَواء بالفتح ممدود، أي: عَذْب. وإذا كسرتَ الراء قصَرته وكتبته بالياء وقلت: ماءٌ رِوى. ويقال: هو الذي فيه للواردة رِيّ. الصحاح للجوهري، «روى».

٤ «هو على طرَف الثُّمام» مَثَل يضرب في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. والثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول يُسدّ به خُصاص البيوت، وقالوا: إنه ينبت على قدر قامة المَرء. مجمع الأمثال للميداني، ٢/٣٩٨.

أو قَدِّر أنّه قد احتبس عليه النفَس، فلا دخَل منه ما خرَج، ولا خرَج منه ما ولَجَ، والحَيْنُ[١] قد حان، وأتاه الموت مِن كلّ مكان، أمَا يُعطي ذلك كلّه[٢] بمقابلة نفَس واحد؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد، فإذن هو خير مِن أموال الدنيا بجملتها، ومطالبها برمّتها، مع أنّه قد أُتيح له كلّ آنٍ مِن آنات الليالي والأيّام، حال اليقظة والمنام.

هذا مِن الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد مِن العقلاء. وإن رُمتَ العثور على حقيقة الحقّ، والوقوفَ على كلّ ما جلّ مِن السرّ ودقّ، فاعلم أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته المُمكنة بمَعزِل عن استحقاق الوجود وما يتبعه مِن الكمالات اللائقة والملكاتِ الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة مِن العلاقة لَمَا استقرّ له القرار، ولا اطمأنّت به الدار، إلّا في مطمورة العدَم والبوار، ومهاوي الهلاك والدمار، لكن يفيض عليه مِن الجَناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كلّ زمانٍ يمضي وكلّ آنٍ يمرّ وينقضي مِن أنواع الفيوض المتعلّقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانيّة والنفسانيّة والجسمانيّة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وتوضيحه أنّه كما لا يستحقّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جانب المبدأ الأوّل عزّ وجلّ، فكما لا يتصوّر وجودُه ابتداءً ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمِه الأصلي لا يتصوّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعِلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الاستمرار والدوام مِن خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبير بأنّ ما يتوقّف عليه وجوده مِن الأمور الوجوديّة التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لكنّ الأمور العدميّة التي لها دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غير متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود،

---

١ الحَين، بالفتح: الهلاك. لسان العرب لابن منظور، «حين».

٢ س - كلّه.

فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى -أعني: بقاءَها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده- نِعَمٌ غير متناهية حقيقةً لا ادّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده.

فاتّضح أنّه يَفيض عليه كلَّ آنٍ نِعمٌ لا تتناهى مِن وجوهٍ شتّى، فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانَك، لا يلاحظك العيون بأنظارها، ولا يطالعك العقول بأفكارها، شأنك لا يُضاهى، وإحسانك لا يتناهى، ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداءِ حقوقِ نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك، لا إله إلّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

[٢٧١و] / ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها، أو بوضعه في غير موضعه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحِرمان ﴿كَفَّارٞ﴾ شديدُ الكُفران. وقيل: ظَلوم؛ في الشدّة يشكو ويجزع، كَفّار؛ في النعمة يجمع ويمنع. و"اللام" في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجنس، ومصداق الحُكم بالظلم والكفرانِ بعضُ مَن وُجِدَا فيه مِن أفراده، ويدخل في ذلك ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾... إلخ[١] دخولًا أوّليًا.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر[٢] وقتَ قوله عليه السلام. والمقصود مِن تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه مِن مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل. والمراد به تأكيد ما سلف مِن تعجيبه صلّى الله عليه وسلّم ببيان فنٍّ آخر مِن جناياتهم، حيث كفروا بالنِّعم الخاصّة بهم بعدما كفروا بالنِّعم العامّة، وعَصَوْا أباهم إبراهيم عليه السلام حيثُ أسكنهم بمكّة شرّفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنِعَم الله تعالى، وسألَه تعالى أن يَجْعَلَه[٣] بلدًا آمنًا، ويرزقَهم مِن الثمرات،

---

[١] إبراهيم، ١٤/٢٨.

[٢] ط س: اذكر.

[٣] وفي هامش م: التذكير باعتبار الخبر.

ويهوي قلوب الناس إليهم مِن كلّ أوب سحيق، فاستجاب الله سبحانه دعاءَه، وجعله حرمًا آمنًا يُجبَى إليه ثمرات كلّ شيء، فكفروا بتلك النِّعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دارَ البوار، وجعلوا لله تعالى أندادًا، وفعلوا ما فعلوا.

/ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ يعني مكّة شرّفها الله سبحانه ﴿ءَامِنٗا﴾ أي: ذا أمنٍ، [٢٧١ظ] أو آمِنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مرّ في سورة البقرة. والفرق بينه وبين ما فيها مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة، ١٢٦/٢] أنّ المسئول هناك البلديّةُ والأمنُ معًا، وههنا الأمنُ فقط، حيث جُعِل هو المفعولَ الثاني للجَعل، وجُعِل البلد صفةً للمفعول الأوّل.

فإن حُمل على تعدّد السؤال فلعلّه عليه السلام سأل أوّلًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخّر الآخر إلى وقته المقدّر لِما يقتضيه مِن الحكمة الداعية إليه، ثمّ كرّر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال، أو كان المسئول أوّلًا مجرّدَ الأمن المصحِّحِ للسكنى كما في سائر البلاد، وقد أجيبَ إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ، أو كان هو المسئول فيهما، وقد أجيب إليه أيضًا، لكنّ السؤالَ الثاني للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنّه المقصود الأصلي، أو لأنّ المعتاد في البلديّة الاستمرار بعد التحقّق، بخلاف الأمن.

وإن حُمل على وحدة السؤال وتكرّر الحكاية كما هو المتبادَر فالظاهر أنّ المسئول كِلا الأمرين، وقد حُكي أوّلًا،[١] واقتُصر ههنا على حكاية سؤال الأمن، لا لمجرّد أنّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذِكره أنسب بمقام تقريع الكفَرة على إغفاله كما قيل؛ بل لأنّ سؤال البلديّة قد حُكي بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾،[٢] إذ المسئول هُوِيتُّها إليهم للمساكنة معهم لا للحجّ فقط، وهو عين سؤال البلديّة قد حكي بعبارة أخرى، وكان ذلك أوّلَ ما قدِم عليه السلام مكّة، كما روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لمّا أسكن إسماعيل وهاجَر هناك وعاد متوجّهًا إلى الشام

---

١ وفي هامش م: أي: في سورة البقرة.(١) «منه».
| (١) البقرة، ١٢٦/٢.

٢ إبراهيم، ٣٧/١٤.

تبعَتْهُ هاجَر وجَعَلَتْ تقول: «إلى مَن تكِلُنَا في هذا البَلْقَعِ؟»[١] وهو لا يردّ عليها جوابًا، حتّى قالت: «آللهُ أمرك بهذا؟» فقال: «نعم»، قالت: «إذًا لا يُضيِّعنا»، فرَضِيَتْ، ومضى حتّى إذا استوى على ثنيّة كَداء أقبل على الوادي فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ الآية.[٢] وإنّما فصل[٣] ما بينهما تثنيةً للامتنان، وإيذانًا بأنّ كلًّا منهما نعمة جليلة مستَتبِعة لشكر كثير.

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بعّدني وإيّاهم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ واجعلنا مِنه[٤] في جانب بعيد، أي: ثبّتنا على ما كنّا عليه مِن التوحيد وملّة الإسلام والبعدِ عن عبادة الأصنام. وقُرِئ: "أَجْنِبْنِي"[٥] مِن الإفعال، وهما لغة أهل نجدٍ، يقولون: / "جَنَبَنِي شَرَّهُ" و"أَجْنَبَنِي شَرَّه"، وأمّا أهل الحجاز فيقولون: "جَنَّبَنِي شَرَّه"، وفيه دليل على أنّ عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى. [٢٧٢و]

والظاهر أنّ المراد بِبَنِيهِ أولاده الصلبيّة، فلا احتجاج به لابن عُيَيْنة رضي الله عنه على أنّ أحدًا مِن أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبُد الصنَم، وإنّما كان لكلّ قومٍ حَجَرٌ نَصَبُوه، وقالوا: هو حَجر والبيت حَجر، فكانوا يدورون به ويسمّونه الدُّوار، فاستُحِبّ أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقالَ: دار بالبيت.[٦] وليت شِعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم مِن قَوارعَ تَنْعي على قريش عبادةَ الأصنام؟ على أنّ فيما ذكره كرًّا على مَا فرّ منه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تسبّبن له، كقوله تعالى:

---

١ البَلْقَع والبَلْقَعة: الأرضُ القَفرُ التي لا شيء بها. الصحاح للجوهري، «بلقع».

٢ إبراهيم، ٣٧/١٤. | جامع البيان للطبري، ٦٩٢/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

٣ وفي هامش م: ولم يجمع بينهما كما جمع أوّلًا. «منه».

٤ وفي هامش م: كما في قصّة البقرة. «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/٣.

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام، ٧٠/٦]. وهو تعليل لدعائه، وإنّما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبته في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ منهم في ما[1] أدعو إليه مِن التوحيد وملّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: بَعضي، قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصه به، أو متّصل بي لا ينفكّ عنّي في أمر الدين.

﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ أي: لم يتّبعني. والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنّه عليه السلام مستمرّ على الدعوة، وأنّ عدم اتّباع مَن لم يتّبعه إنّما هو لعصيانه، لا لِأنّه لم يبلغه الدعوة. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قادر على أن تغفِر له وترحَمه ابتداءً، أو بعد توبته، وفيه أنّ كلّ ذنب فللّه تعالى أن يغفِره حتّى الشركِ، خلا أنّ الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

﴿رَّبَّنَآ﴾ آثر عليه السلام ضميرَ الجماعة لا لِما قيل[2] مِن تقدّم ذِكره وذِكرِ بَنيه، وإلّا لَراعاه في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾... إلخ؛[3] لأنّ الدُّعاء المصدَّر به وما أورده بصدَد تمهيد مبادي إجابته مِن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ الآيةَ متعلّق بذرّيّته، فالتعرّض لوصف ربوبيّته تعالى لهم / أدخَل في القبول وإجابةِ المسئول. ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضَهم، أو ذرّيّةً مِن ذرّيّتي، فحُذف المفعول، وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولَد له، فإنّ إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمّن لإسكانهم. [٢٧٢ظ]

رُوي أنّ هاجر أمّ إسماعيل كانت لسارة، فوهبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلمّا ولدت له إسماعيل عليه السلام غارَت عليها، فناشدته أن يُخرجها مِن عندها، فأخرجها إلى أرض مكّة، فأظهر الله تعالى عين زمزم.

---

١ س: فيما.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٤٦/٦.

٣ في الآية السابقة.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه زرع أصلًا، وهو وادي مكّة شرّفها الله سبحانه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ ظرف لـ﴿أَسْكَنتُ﴾، كقولك: "صلّيت بمكّة عند الركن"، لا أنّه صفة لـ﴿وَادٍ﴾ أو بدل منه، إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرّة لِمَحض التقرّب إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزّة الملتجئ وعصمته عن المكاره في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حيث حُرِّم التعرّض له والتهاون به، أو لم يزل معظّمًا ممنّعًا يَهَابُه الجبابرةُ في كلّ عصر، أو مُنع منه الطوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمّي "عَتيقًا".

وتسميته إذ ذاك "بيتًا" ولم يكن له بناءٌ -وإنّما كان نَشَزًا مثلَ الرابية، تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال- ليست باعتبار ما سيئول إليه الأمر مِن بنائه عليه السلام، فإنّه ينزِع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضًا كذلك؛ بل إنّما هي باعتبار ما كان مِن قبل، فإنّ تعدّد بناء الكعبة المعظّمة ممّا لا ريب فيه، وإنّما الاختلاف في كمّيّة عدده، وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله سبحانه.

[٢٧٣و] / ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلّق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾، وتخصيصها بالذِّكر مِن بين سائر شعائر الدين لفضلها. وتكرير النداء وتوسيطه [٢٧٣ظ] لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة، / والاهتمامِ بِعَرْض أنّ الغَرَض مِن إسكانهم بذلك الوادي البَلْقَع ذلك المقصِدُ الأقصى والمطلبُ الأسنى، وكلّ ذلك لتمهيد مبادي إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذي لا يتسنّى ذلك المرام إلّا به، ولذلك أدخل عليه "الفاء" فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أفْئِدةً مِن أفئدتهم. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: "أفئدةَ الناس" لازدحمت عليهم فارس والروم، وأمّا ما زيد عليه مِن قولهم: "ولحجّت اليهود والنصارى"[1] فغير مناسب للمقام، إذ المسئول توجيه القلوب إليهم للمُساكنة معهم، لا توجيهُها إلى البيت للحجّ، وإلّا لقيل: تهوي إليه، فإنّه عين الدعاء بالبلديّة قد حُكي بعبارة أخرى كما مرّ. أو لابتداء الغاية[2] كقولك: "القلب منّي سقيم"، أي: أفئدةَ ناسٍ.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١.

[2] السياق: فـ(مِن) للتبعيض... أو لابتداء الغاية...

وقُرئ: "آفِدَةً"[١] على القلب، كـ"آدُر" في "أَدْؤُر"،[٢] أو على أنّه اسم فاعل مِن "أَفِدَتِ الرحلةُ"، أي: عجِلت، أي: جماعةً مِن الناس. و"أَفِدَةً"[٣] بطرح الهمزة مِن "الأفئدة"، أو على النعت مِن "أَفِدَ".[٤]

﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا. وقُرئ على البناء للمفعول[٥] مِن "أهواه غيرَه"، و"تَهْوَى"[٦] مِن باب عَلِم، أي: تحبّ، وتعديته بـ"إلى" لتضمّنه معنى الشوق والنزوع.

وأوّل آثار هذه الدعوة ما رُوي أنّه مرّت رُفقةٌ مِن جُرهم تريد الشام، فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل، فقالوا: «إنّ هذا الطائر لَعائِف[٧] على الماء»، فأشرفوا، فإذا هم بهاجَر، فقالوا لها: «إن شئتِ كنّا معكِ وَأَنِسناكِ، والماءُ ماؤكِ»، فأذِنَتْ لهم، وكانوا معها إلى أن شَبّ إسماعيل عليه السلام وماتت هاجر، فتزوّج إسماعيل منهم كما هو المشهور.[٨]

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرّيتي الذين أسكنتهم هناك، أو مع مَن ينحاز إليهم مِن الناس. وإنّما لم يخصّ الدعاء بالمؤمنين منهم -كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ / ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، ١٢٦/٢]- اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة. ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن أنواعها بأن يُجعل بقرب منه قُرًى يحصل فيها ذلك، أو يُجبى إليه مِن الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما، حتّى إنّه يجتمع فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحدٍ. [٢٧٤و]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٢ في جمع "دار". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «دار».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٤ أَفِدَ الرجل -بالكسر- يَأْفَد أفدًا، أي: عَجِل، فهو أَفِد على فَعِل، أي: مستعجلٌ. وأَفِدَ الترحُّل، أي: دنا وأزِف. الصحاح للجوهري، «أفد».

٥ أي: "تُهْوَى". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسين بن عليّ وعن سلمة بن عبد الله. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٧ عافَتِ الطيرُ تَعيفُ عَيْفًا، إذا كانت تحوم على الماء وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. الصحاح للجوهري، «عيف».

٨ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٩٠/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أنّ الطائف كانت مِن أرض فلسطين، فلمّا دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقًا للحرَم».[١] وعن الزهري «أنّه تعالى نقل قرية مِن قُرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام».[٢]

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديّة.

وقيل:[٣] "اللام" في ﴿لِيُقِيمُوا﴾ لام الأمر، والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء مِن الله تعالى بتوفيقهم لها، ولا يناسبه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ﴾... إلخ.

وفي دعائه عليه السلام مِن مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضَّراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى، فإنّه عليه السلام بذكر كون الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيَّنَ كمال افتقارهم إلى المسئول، وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرّم أشار[٤] إلى أنّ جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم، وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمَحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهّد جميع مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحُسن القبول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ مِن الحاجات وغيرها، والمراد بـ﴿مَا نُخْفِي﴾ ما يقابل ﴿مَا نُعْلِنُ﴾، سواء تعلّق به الإخفاء أو لا، أي: تعلم ما نُظهره وما لا نُظهره، فإنّ علمه تعالى متعلِّق بما لا يخطر بباله ممّا فيه مِن الأحوال الخفيّة فضلًا عن إخفائه. وتقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾[٥] على ﴿مَا نُعْلِنُ﴾ لتحقيق المساواة بينهما / في تعلّق العلم بهما على أبلغ وجه، فكأنّ تعلّقه بما يُخفى أقدم منه [٢٧٤ظ]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٦٢. وفي جامع البيان للطبري، ١٣/٧٠١، نحوه مِن قول محمّد بن مسلم الطائفي.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٣٠؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١/٣٠٣.

٣ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١؛ وابن عادل في اللباب، ١١/٣٩٦.

٤ س: إشارة.

٥ م: ما نُخف.

بما يُعلَن، أو لأنّ مرتبة السرّ والخفاء متقدّمة على مرتبة العلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو قبل ذلك خفيّ، فَتَعلُّقُ علمِه سبحانه بحالتِه الأولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

ومقصده عليه السلام أنّ إظهار هذه الحاجات وما هو مِن مباديها وتتمّاتها ليس لكونها غير معلومة لك؛ بل إنّما هو لإظهار العبوديّة والتخشّعِ لعظمتك، والتذلّلِ لعزّتك، وعرضِ الافتقار إلى ما عندك، والاستعجالِ لنَيل أياديك.

وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال. وضمير الجماعة لأنّ المراد ليس مجرّدَ علمه تعالى بسرّه وعلنه؛ بل بجميع خفايا المُلك والملَكوت، وقد حقّقه بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّه العالِم بالذات، فما مِن أمر يدخل تحت الوجود كائنًا ما كان في زمان مِن الأزمان إلّا ووجوده في ذاته عِلم بالنسبة إليه سبحانه.

وإنّما قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾... إلخ -دون أن يقول: "ويَعلم ما في السماوات والأرض"- تحقيقًا لِما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ مِن أنّ علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمة ﴿فِى﴾ متعلّقة بمحذوف وقع صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، أي: مِن شيء كائنٍ فيهما، أعمّ مِن أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيّة منهما، أو بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾[1] مع توسيط ﴿لَا﴾ بينهما باعتبار القربِ والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

والالتفات مِن الخطاب إلى اسم الذات المستجمِعة للصفات لتربية المَهابة والإشعار بعلّة الحكم[2] على نهج قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك، ١٤/٦٧]، والإيذانِ بعمومِه؛ لأنّه ليس بشأن يختصّ به أو بمَن يتعلّق به؛ بل شامل لجميع الأشياء، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحّح لمبدئيّة الكلّ.

---

[1] س - على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

[2] وفي هامش م: وهو عدم الخفاء. «منه».

[٢٧٥و] / وقيل: هو مِن كلام الله عزّ وجلّ وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل، ٣٤/٢٧]. و﴿مِن﴾ للاستغراق على الوجهين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَري ويأسي عن الولد. قيّد الهبة به استعظامًا للنعمة وإظهارًا لِشكرها. ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ رُوي أنّه وُلد له إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين سنةً، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرةَ سنةً،[١] أو مائةٍ وسبعَ عشرةَ سنةً.[٢]

﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لَمجيبه، مِن قولهم: "سمِع الملِك كلامَه" إذا اعتدّ به، وهي مِن أبنية المبالغة العاملةِ عملَ الفعل، أضيفَ إلى مفعوله أو فاعله بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازًا، وهو مع كونه مِن تتمّة الحمد والشكر -إذ هو وَصْف له تعالى بأنّ ذلك الجميل سُنّته المستمِرّة- تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة. وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]، فاقترنت الهبة بقَبول الدعوة. وتوحيد ضمير المتكلِّم وإن كان عقيب ذِكر هبتهما لِما أنّ نعمة الهبة فائضة عليه خاصّةً، وهما مِن النِّعم، لا مِن المنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مثابرًا عليها مُعَدِّلًا لها. وتوحيد ضمير المتكلّم مع شمول دعوته لذرّيّته أيضًا -حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعضَهم مِن المذكورين ومَن يسير سيرتهما مِن أولادهما- للإشعار بأنّه المقتدَى في ذلك، وذرّيّته أتباع له، وأنّ ذِكرهم بطريق الاستطراد، لا كما في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾... إلخ،[٣] فإنّ إسكانه مع عدم تحقّقه بلا ملابسةٍ لِمَن أسكنه

---

[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٣/٥، والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٤/٣.

[٢] عن سعيد بن جبير في معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٢.

[٣] إبراهيم، ٣٧/١٤.

إنّما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذرّيّته، وإنّما خصّ هذا الدعاء ببعض ذرّيّته لعلمه مِن جهة الله تعالى أنّ بعضًا منهم لا يكون مقيمَ الصلاة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢].

/ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: دعائي هذا المتعلّق بجعلي وجعل بعض ذرّيّتي مقيمي الصلاة، ثابتين على ذلك، مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة. [٢٧٥ظ]

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أي: ما فرط منّي مِن ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك ممّا لا يسلَم منه البشر ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وقُرئ بالتوحيد،[١] و"لِأَبَوَيَّ".[٢] وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنّما كان قبل تبيُّن الأمرِ له عليه السلام. وقيل: أراد بوالدَيه آدم وحوّاء. وقيل: بشرط الإسلام،[٣] ويردّه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة، ٤/٦٠]، وقد مرّ في سورة التوبة[٤] نوع تحقيق للمقام، وسيأتي تمامه في سورة مريم[٥] بفضل الله عزّ وجلّ.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كافّة مِن ذرّيّته وغيرهم، وللإيذان باشتراك الكلّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة. ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ أي: يثبُت ويتحقّق محاسبة أعمال المكلّفين على وجه العدل، استُعير له مِن ثبوت القائم على الرِّجل بالاستقامة، ومنه "قامت الحَرب على ساقٍ"، والمراد تهويله. وقيل: أسندَ إليه قيامُ أهله مجازًا، أو حُذف المضاف كما في ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف، ٨٢/١٢].

واعلم أنّ ما حُكي عنه عليه السلام مِن الأدعية والأذكار وما يتعلّق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعيّة؛ بل صدر عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢.

٣ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٢.

٤ انظر: التوبة، ١١٤/٩.

٥ انظر: مريم، ٤٧/١٩.

في أزمنة متفرّقةٍ، حكي مرتّبًا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملّة، وإرشاد الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد تثبيته على ما كان عليه مِن عدم حسبانه عزّ وجلّ كذلك، نحو قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائره، مع ما فيه مِن الإيذان بكونه واجِبَ الاحتراز عنه في الغاية حتّى نُهِي عنه مَن لا يمكن تعاطيه، [٢٧٦و] / أو نهيُه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركًا لعقابهم على طريقة العفو. والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي، والإيذانِ بأنّ ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم؛ إذ العلم بذلك مستوجِب لعقابهم لا محالةَ، فتركُه لو كان لَكان للغفلة عمّا يوجبه مِن أعمالهم الخبيثة. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ووعدٌ له أكيدٌ[١] ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد.

أو لكلّ أحد[٢] ممّن يستعجل عذابهم أو يتوهّم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله. وقيل: معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عمّا عملوا؛ بل معاملةَ مَن يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرًا وقطميرًا.

والمراد بالظالمين أهلُ مكّة ممّن عُدّت مَساويهم، مِن تبديل نعمة الله كفرًا، وإحلالِ قومهم دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد، كما يُؤذن به التعرّض لحكمةِ التأخير المنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ الآية،[٣] أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم متمتّعين بالحظوظ الدنيويّة، ولا يعجّل عقوبتهم حسبما يشاهَد. وهو استئناف وقع تعليلًا للنهي السابق، أي: دُم على ما كنت عليه مِن عدم حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه

---

١ ط س: أكيدٌ.
٢ السياق: خطاب لرسول الله... أو لكلّ أحد...
٣ إبراهيم، ٣٠/١٤.

مِن العذاب الأليم، إنّ تأخيره للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركًا لعقوبتهم لِما ترى مِن تأخيرها، إنّما ذلك لأجل هذا، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لِما ترى مِن التأخير، إنّما هو لهذه الحكمة. وقُرئ بالنون.[1]

وإيقاع التأخير عليهم مع أنّ المؤخَّر إنّما هو عذابهم لتهويل الخَطب وتفظيع الحال ببيان أنّهم متوجّهون إلى العذاب، مُرصَدون لأمر ما، لا أنّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنّ حقّهم / مِن العذاب هو الاستئصال بالمرّة، [٢٧٦ظ] وأن لا يبقى منهم في الوجود عينٌ ولا أثَرٌ، وللإيذان بأنّ المؤخَّر له مِن جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنّما يؤخِّر عذابَهم... إلخ لَما فُهم ذلك.

﴿لِيَوۡمٍ﴾ هائل ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ترتفع أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الكفرة المعهودون دخولًا أوّليًا، أي: تبقى مفتوحة لا تتحرّك أجفانهم مِن هَول ما يرونه. واعتبار عدم قرارها في أماكنها إمّا باعتبار الارتفاع الحِسّي في جِرم العين، وإمّا بجعل الصيغة مِن "شَخَصَ مِن بلد إلى بلد، وسار في ارتفاع".

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي، مُقبلين عليه بالخوف والذلّ والخشوع، أو مُقبلين بأبصارهم عليه، لا يُقلِعون عنه، ولا يَطرِفون هيبةً وخوفًا. وحيث كان إدامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعي قيل: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رافعيها مع إدامة النظر مِن غير التفات إلى شيء، قاله العَيني[2] وابن عرفة.[3] أو ناكسيها، ويقال:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والسلمي وعبّاس عن أبي عمرو والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

[2] هو محمود بن أحمد بن موسى العينتابي العيني، بدر الدين (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، الحنفي، قاضي القضاة. ولد في عينتاب. وتفقّه بها ثمّ قدِم حلب، وأخذ بها عن الجمال يوسف الملطي. ثمّ قدم القاهرة فأخذ عن مشايخها، وبرَع في الفنون، وولي حُسبة القاهرة، وقضاء الحنفيّة، وله عدّة مصنّفات، منها: شرح البخاري، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وشرح الشواهد الكبرى. انظر: نظم العقيان للسيوطي، ص ١٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٦٣/٧.

[3] انظر: شرح سنن أبي داود للعيني، ٣١٦/٣. والعبارة في تفسير القرطبي، ٣٧٦/٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٣/٦: "قاله ابن عرفة ›

"أقنَع رأسَه"، أي: طأطأها ونكَّسَها، فهو مِن الأضداد. وهما حالان ممّا دلّ عليه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مِن أصحابها، أو الثاني حال متداخِلة مِن الضمير في الأوّل، وإضافته غير حقيقيّة، فلا ينافي الحاليّة.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كلّ لحظة؛ بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تَطرِف، أو لا ترجع إليهم أجفانهم التي هي آلة الطَّرْف، فيكون إسناد الرجوع إلى الطَّرْف مَجازيًّا، أو هو نفس الجَفن. قال الفيروزابادي:[١] «الطَّرْف: العَين، لا يُجمع؛ لأنّه مصدر في الأصل، أو اسم جامع للعين».

[٢٧٧و] أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلًا / عن أن يرجع إلى شيء آخر فيَبقَون مَبهوتين، وهو أيضًا حال أو بدل مِن ﴿مُقْنِعِي﴾... إلخ، أو استئناف، والمعنى: لا يزول ما اعتراهم مِن شُخوص الأبصار، وتأخيره عمّا هو مِن تتمّته مِن الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشُّخوص المذكور مِن المناسبة لتربية هذا المعنى.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خالية مِن العقل والفهم لفَرط الحيرة والدهش، كأنّها نفس الهواء الخالي مِن كلّ شاغل، ومنه قيل للجبان والأحمق: "قلبه هواء"،

= والقُتَبي". | ابن عرفة: هو محمّد بن محمّد بن عرفة بن حمّاد الوَرْغَمي، أبو عبد الله (ت. ٨٠٣هـ/١٤٠٠م). فقيه تونس وإمامها وعالمها وخطيبها، تبحّر في العلوم، وفاقَ في الأصول والكلام، وتقدّم في الفقه والنحو والتفسير، قرأ القراءات على محمّد بن محمّد بن سلامة، وأخذ العلم عن جماعة مِن العلماء الجلّة، منهم والده أبو عبد الله بن الوادياشي وغيره، قال ابن الجزري: «لم يخلِّف بعدَه مثله». مِن كتبه: المختصر الكبير في فقه المالكيّة، والمختصر الشامل في التوحيد، ومختصر الفرائض، والمبسوط في الفقه، والطرق الواضحة في عمل المناصحة، والحدود في التعاريف الفقهيّة. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٢/٢٤٣؛ والأعلام للزركلي، ٧/٤٣.

١ القاموس المحيط للفيروزابادي، «طرف». | هو محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم، الشيرازي، الفيروزابادي، مجد الدين، أبو طاهر (ت. ٨١٧هـ/١٤١٥م)، مِن أئمّة اللغة والأدب. وُلد بكارِزين مِن أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زَبيد فأكرمه ملِكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكَنها، وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتّى كان مرجعَ عصره في اللغة والحديث والتفسير، أشهر كتبه القاموس المحيط، وله بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ونزهة الأذهان في تاريخ أصبهان. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٢٧٣؛ والأعلام للزركلي، ٧/١٤٦.

أي: لا قوّةَ ولا رأيَ فيه، واعتبارُ خلوّها عن كلّ خير[1] لا يناسب المقام، وهو إمّا حال عاملُها ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدمِ ارتداد طرفهم بلا فَهم ولا اختيار، أو جملةٌ مستقِلّة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إعلامه أنّ تأخيرهم لماذا، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه. والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّار المعبّر عنهم بالظالمين، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب، والعدول إليه مِن الإضمار للإشعار بأنّ المراد بالإنذار هو الزجر عمّا هم عليه مِن الظلم شفقةً عليهم، لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسب عدم ذكرِهم بعنوان الظلم. أو الناسُ جميعًا، فإنّ الإنذار عامّ للفريقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس، ١١/٣٦]، والإتيان يعمّهما مِن حيث كونُهما في الموقف، وإن كان لحوقه بالكفّار خاصّةً، أي: أنذرهم وخوّفهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِف بما لا يوصف مِن الأوصاف الهائلة، أعني: يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسكَرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، أو يومُ هلاكهم بالعذاب العاجل، ويأباهُ القصر السابق.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأنَّ مَا لَقُوه مِن الشدّة إنّما هو لظلمهم. وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذُكر أوّلًا للإيذان بأنّ الظلم / في الجملة كافٍ [٢٧٧ظ] في الإفضاء إلى ما ذُكر مِن الأهوال مِن غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما يُنبئ عنه صيغة الفاعل.

وعلى تقدير كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مَن يعمّ المسلمين أيضًا، فالمعنى: الذين ظلموا منهم وهم الكفّار. أو يقول:[2] كلُّ مَن ظلَم بالشرك والتكذيب مِن المنذرين

---

[1] ذكره الزمخشري عن ابن جريج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٤/٢.

[2] وفي هامش م: على التقديرين. «منه».

وغيرهم مِن الأمم الخالية فإنّ إتيان العذاب يعمّهم كما يُشعر بذلك وَعدُهم باتّباع الرسل.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلى أَمدٍ وحدٍّ مِن الزمان قريب ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليكَ وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل، ففيه إيماء إلى أنّهم صدّقوهم في أنّهم مرسلون مِن عند الله تعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما جاءونا به، أي: نتدارك ما فرّطنا فيه مِن إجابة الدعوة واتّباع الرسل. والجمع إمّا باعتبار اتّفاق الجميع على التوحيد، وكونِ عصيانهم للرسول عليه السلام عِصيانًا لهم جميعًا عليهم السلام، وإمّا باعتبار أنّ المحكي كلام ظالِمي الأمم جميعًا، والمقصودُ بيانُ وَعد كلّ أمّة باتّباع رسولها.

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على إضمار القول معطوفًا على ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: ألَم تؤخّروا في الدنيا؟ ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطَرًا وأَشَرًا وجهلًا وسفهًا: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ممّا أنتم عليه مِن التمتّع بالحظوظ الدنياويّة؟ أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيدًا وَأمّلتُم بَعِيدًا، ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة؟ وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبُعدِ مَداه، أو ما لكم مِن زوالٍ مِن هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل، ٣٨/١٦].

[٢٧٨و] وصيغة الخطاب / في جواب القسَم لمراعاة حال الخطاب في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾ كما في قوله: "حلَف بالله ليخرُجَنّ"، وهو أدخل في التوبيخ مِن أن يقال: "ما لنا" مراعاةً لحال المُقسِم.

ذكر البيهقيّ[١] عن محمّد بن كعب القرظي رحمه الله أنّه قال: لأهل النار خمسُ دعوات يجيبهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر، ١١/٤٠]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر، ١٢/٤٠]، ثمّ يقولون:

---

[١] الأسماء والصفات للبيهقي، ٥٥٥/١ (٤٨٢)؛ البعث والنشور للبيهقي، ص ٣٢٨-٣٢٩ (٦٠١).

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ الآية [السجدة، ١٤/٣٢]، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ الآية، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون، ١٠٦/٢٣]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، فلا يتكلّمون بعدها أبدًا، إن هو إلّا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم يَنْبُحُ في وجه بعضٍ، وأُطبقت عليهم جهنّم. اللّهمّ إنّا بك نعوذ وبكنَفك نلوذ، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝٤٥﴾

﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ مِن السُّكنى بمعنى التَبَوُّء والإيطان، وإنّما استُعمل بكلمة ﴿فِي﴾ حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ جريًا على الأصل؛ لأنّه منقول عن مطلق السكون الذي حقّه التعدية بها، أو مِن السكون واللبث، / أي: قررتم في مساكنهم مُطْمَئنّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدِّثين لأنفسكم بما لقيه الأوّلون بسبب ما اجترحوا مِن الموبقات. وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأنّ غائلة الظلم آيِلة[١] إلى صاحبه. [٢٧٨ظ]

والمراد بهم إمّا جميعُ مَن تقدّمَ مِن الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاص الاستمهال، والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمّا أوائلهم مِن قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكلّ، وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم.

---

[١] س: آئِلة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِن الإهلاك والعقوبة بما فعلوا مِن الظلم والفساد، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب بما بعده مِن الفعل. وليس الجملة فاعلًا لـ﴿تَبَيَّنَ﴾ كما قاله بعض الكوفيين؛[١] بل فاعله ما دلّت هي عليه دلالة واضحة، أي: فعلْنَا العَجيبُ بهم،[٢] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف، ٣٥/١٢]. وقُرئ: "يُبَيِّنُ".[٣]

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بيّنّا لكم في القرآن العظيم -على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذَرين- أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام -على تقدير عمومه لجميع الظالمين- صفاتِ ما فعلوا وما فُعِل بهم مِن الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم، وتنتقلوا مِن حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عمّا كنتم فيه مِن الكفر والمعاصي، أو بيّنّا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاق العذاب.

والجمل الثلاث في موقع الحال مِن ضمير ﴿أَقْسَمْتُم﴾،[٤] أي: أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكنِ المهلَكين بظلمهم، وتبيّن لكم فِعلُنا العجيبُ بهم، / ونبهناكم على جَليّة الحال بضرب الأمثال. [٢٧٩و]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حال مِن الضمير الأوّل في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾،[٥] أو مِن الثاني، أو منهما جميعًا. وإنّما قُدّم عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٦] لشدّة ارتباطه بما قبله، أي: فَعلنا بهم ما فَعلنا، والحال أنّهم قد مكروا

---

[١] انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢١٧.

[٢] وفي هامش م: وفيه مِن المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم.

[٣] لم أجد مَن ذكَر القراءة بالياء. والمذكور في المصادر: "وَنُبَيِّنُ" بنون مضمومة ورفع النون الأخيرة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وحكاها أبو عمرو الداني عن السُّلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٣/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٠/١١.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] في الآية السابقة.

في إبطال الحقّ وتقريرِ الباطل مكرَهم العظيم، الذي استفرغوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلّ حدٍّ معهود، بحيث لا يقدِر عليه غيرهم. فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم. أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادي البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصود إظهارُ عجزهم واضمحلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه[1] وتعالى.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: جزاءُ مَكرهم الذي فعلوه، على أنّ المَكر مضاف إلى فاعله، أو أخذُه تعالى بهم، على أنّه مضاف إلى مفعوله، وتسميته "مكرًا" لكونه بمقابلة مكرهم وجودًا وذِكرًا، أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان مِن حيث لا يشعرون. وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾،[2] لا أنّه وعيد مستأنَف. والجملة حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه. والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلًا مع تحقّق ما يوجب تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ في العِظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدّة، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مَثلًا في ذلك. والجملة المصدّرة بـ﴿إِن﴾ الوصليّة معطوفة على جملة مقدّرة، والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لِتزول منه الجبال وإن كان... إلخ، وقد حُذف ذلك حذفًا مطّردًا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع القويّ فلأن يتحقّق عند عدمه أَولى. / وعلى هذه النكتة يدور ما في ﴿إِن﴾ الوصليّة مِن التأكيد المعنوي. والجواب محذوف دلّ عليه ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾. [٢٧٩ظ]

وقيل: ﴿إِن﴾ نافية، و"اللام" لتأكيدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]، وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ".[3] فالجملة حينئذ حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، لا مِن قوله تعالى:

[1] ط: تعالى.
[2] في الآية السابقة.
[3] قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إليه رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٢.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: مكروا مكرَهم والحالُ أنّ مكرَهم لم يكن لِتزول منه الجبال، على أنّها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ.

وأمّا كونها عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمرِ القرآن العظيم -كما قيل-[1] فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم مِن المخاطَبين، وإن خُصّ الخطاب بالمنذَرين.

وقيل: هي مخففّة مِن "إنّ"، والمعنى: إنّه كان مكرهم لِتزول منه ما هو كالجبال في الثبات ممّا ذُكر مِن الآيات والشرائع والمعجزات، والجملة كما هي حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ، وإنّ الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر كذلك، وكان شأن الآيات والشرائع مانعًا مِن مباشرة المكر لإزالته.

وقد قرأ الكسائيّ: "لَتَزُولُ" بفتح اللام[2] على أنّها الفارقة، والمعنى تعظيم مكرهم، فالجملة حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكرُ بهم، والحالُ أنّ مكرهم بحيث تزول منه الجبال، أي: في غاية الشدّة. وقُرئ بالفتح والنصب[3] على لغة مَن يفتح لام "كي". وقُرئ: "وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ"،[4] هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم، وينساق إليه الطبع السليم.

وقد قيل: إنّ الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾ للمنذَرين، والمراد بـ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال، ٣٠/٨]، / وغيرُه مِن أنواع مكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. [٢٨٠و]

ولعلّ الوجهَ حينئذ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾... إلخ حالًا مِن القول المقدّر، أي: فيقال لهم ما يقال والحال أنّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور

---

[1] قاله الثعلبي في الكشف والبيان، ٣٢٦/٥؛ والواحدي في التفسير الوسيط، ٣٦/٣.

[2] انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٠/٢.

[3] أي: "لَتَزُولَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٣/١١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو وعليّ وابن مسعود وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن عليّ. انظر: شواذ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٤/٦.

مع ما ينافيه مِن السكون في مساكن المهلَكين وتبيُّنِ أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مَكْرَهم العظيم، أي: لم يكن الصادر عنهم مجرّدَ الإقسام الذي وُبِخُوا به؛ بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾ حسبما ذكرنا مِن قبل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويًا أو ضعيفًا كما مرّ هناك. وعلى تقدير كون ﴿إِن﴾ نافيةً فهو حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، والجبال عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: وقد مكروا والحال أنّ مكرهم ما كان لتزول منه هاتِيك الشرائعُ والآيات التي هي في القوّة كالجبال. وعلى تقدير كونها مخفّفة مِن المثقّلة و"اللامُ" مكسورة يكون حالًا منه أيضًا، على معنى أنّ ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرَض، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر لذلك، لِما أنّ شأن الشرائع أعظمُ مِن أن يَمكُر بها ماكر. وعلى تقدير فتح "اللام" فهو حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ كما ذكرنا مِن قبلُ، فليتأمّل.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧﴾

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ لم يُرد به -والله سبحانه أعلم- ما وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر، ٥١/٤٠]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة، ٢١/٥٨] كما قيل،[١] فإنّه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيّما الأخرويّ؛ بل ما سلف آنفًا مِن وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ الآية،[٢] كما يُفصِح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أريدَ به تثبيته عليه السلام على ما كان عليه مِن الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يومَ إتيان العذاب المتضمّن لذكر تعذيب الأمم السالفة، بسبب كفرهم وعصيانهم رسلَهمْ بعد ما وعدهم بذلك كما فُصِّلت قصّة كلّ منهم في القرآن العظيم، فكأنّه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب / الظالمين يوم القيامة، [٢٨٠ظ]

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٦/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٣.

٢ إبراهيم، ٤٢/١٤.

وأخبرناك بما يلقَونه مِن الشدائد، وبما يسألونه مِن الردّ إلى الدنيا، وبما أجبناهم به، وقرّعناهم بعدم تأمّلهم في أحوال مَن سبقهم مِن الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم، فَدُم على ما كنت عليه مِن اليقين بعدم إخلافنا رسلَنا وعدَنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكَرُ، وقادِر لا يُقادَر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه مِن أعدائه. والجملة تعليل للنهي المذكور، وتذييل له. وحيث كان الوعد عبارة عمّا ذكرنا مِن تَعذيبهم خاصّةً لم يُذيّل بأن يقال: "إنّ الله لا يُخلِف الميعاد"؛ بل تعرّض لوصف العزّة والانتقام المشعِرَين بذلك. والمراد بالانتقام ما أشيرَ إليه بالفعل،[1] وعُبّر عنه بالمكر.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ظرف لمُضمَر مستأنَف ينسحب عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه[2] يومَ... إلخ، أو معطوف عليه، نحو: وارْتَقِبْ يومَ تُبدّلُ الأرض غيرَ الأرض. أو لـ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، وهو ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[3] بعينه، ولكن له أحوال جمّة يُذكر كلّ مرّة بعنوان مخصوص. والتقييد به مع عموم انتقامه للأوقات كلّها للإفصاح عمّا هو المقصود به مِن تعذيب الكفرة المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجَب الحكمة الداعية إليه.

وقيل: بدل مِن ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾،[4] أو نصب بـ"اذكر"، أو بإضمار "لا يُخلِف وعده يومَ تُبدّل"... إلخ، وفيه أيضًا ما في الوجه الثالث مِن الحاجة إلى الاعتذار. ولا يجوز أن ينتصب بقوله: ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ﴾؛[5] لأنّ ما قبل "إنّ" لا يعمل فيما بعده. وقيل: هو غيرُ مانع؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[6] جملة اعتراضيّة، فلا يُبالى بها فاصلًا.

---

[1] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٥]. «منه».

[2] وفي هامش م: أحد.

[3] إبراهيم، ١٤/٤٤.

[4] إبراهيم، ١٤/٤٤.

[5] في الآية السابقة.

[6] في الآية السابقة.

واعلم أنّ التبديل قد يكون في الذات، كما في: "بدّلتُ الدراهمَ دنانيرَ"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء، ٥٦/٤]، وقد يكون في الصفات كما في قولِك: "بدّلتُ الحلْقةَ خاتمًا" إذا غيّرتَ شكلَها، ومنه قوله تعالى: / ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان، ٧٠/٢٥] على بعض الأقوال، [٢٨١و]
والآية الكريمة ليست بنصّ في أحد الوجهين.

فعن عليّ كرّم الله تعالى[1] وجهه: «يبدّل أرضًا مِن فضّة، وسماواتٍ مِن ذهب».[2] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يبدّل الأرض بأرض كالفضّة بيضاء نقيّة لم يُسفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة».[3] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[4] عنهما: «هي تلك الأرض وإنّما تُغيَّر صفاتُها»، وأنشَد:

وما النـاسُ بالناس الذيـن عَهِدتُهم   وما الـدارُ بـالـدارِ التي كنت تعلمُ[5]

ويُبدَّلُ السماوات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابًا، ويدلّ عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «تبدّل الأرض غيرَ الأرض، فتُبسَط وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكاظي، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا».[6]

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: ويبدّل السماوات غير السماوات حسبما مرّ مِن التفصيل. وتقديم تبديل الأرض لقُربها منّا، ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق، أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق. والمراد بروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض، أو ظهورُهم بأعمالهم

---

١ س - تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٣/٣. ولفظه في جامع البيان للطبري، ٧٣٣/١٣: «الأرض مِن فضّة، والجنّة مِن ذهَب».

٣ جامع البيان للطبري، ٧٣٠/١٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧/٣.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥١٤/١٢. وأخرج ابن بطّة في الإبانة الكبرى، ٥٧٤/٢ (٧٢١)، بسنده أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يتمثّل بهذا البيت. والبيت للعبّاس بن عبد المطّلب في التذكرة الحمدونيّة لابن حمدون، ٢٩٦/٧؛ وجمهرة الأمثال للعسكري، ٩٦/١.

٦ جامع البيان للطبري، ٧٣٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥. وأخرجه في حديث طويل أبو الشيخ في العظمة، ٨٢١/٣ (٣٨٦)؛ والبيهقي في البعث والنشور، ص ٣٣٨-٣٤٤ (٦٠٩).

التي كانوا يعملونها سرًا ويزعمون أنّها لا تظهر، أو يعملون عملَ مَن يزعم ذلك. ولعلّ إسنادَ البُروز إليهم مع أنّه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكالٍ تناسِبُها. وهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾، والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بتقدير "قد"، والرابط بينها وبين صاحبِها "الواو".

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء. والتعرّض للوصفين لتهويلِ الخطب، وتربية المهابة، وإظهارِ بطلان الشرك، وتحقيقِ الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفًا له، وتحقيقِ إتيان العذاب / الموعود على تقدير كونه بدلًا [٢٨١ظ] مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[١] فإنّ الأمر إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازّ وقادرٍ لا يُضارّ ولا يُعارّ كان في غاية ما يكون مِن الشدّة والصعوبة.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على ﴿بَرَزُوا﴾،[٢] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار. وأمّا البروز فهو دفعيّ لا استمرارَ فيه. وعلى تقدير حاليّة ﴿بَرَزُوا﴾[٣] فهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[٤] ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدّم، على تقدير كونِهِ يُنْجِزُهُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ برزوا له عزّ وجلّ، أو يومَ إذ تُبدَّل الأرض، أو يومَ إذ يُنجِزُ[٥] وعدَه.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرِنوا مع الشياطين الذين أغوَوهم، أو قُرنوا مع ما اقترفوا مِن العقائد الزائغة والملَكات الرديّة والأعمال السيّئة غِبّ تَصوّر كلّ منها وتَشكّلها بما يناسبها مِن الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قُرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم. وهو حال مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال. وهو إمّا متعلّق بقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: مصفَّدين.

---

[١] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] ط س: ينجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝﴾

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾،[١] أو مِن ضميرهم في ﴿مُقَرَّنِينَ﴾،[٢] رابطتها الضمير فقط، كما في "كلّمتُه فُوهُ إلى فِيّ"، أو مستأنفة.

و"القَطران": ما يتحلّب مِن الأَبْهُل،[٣] فيُطبَخ فتُهْنَأُ به الإبل الجَرْبَى، فيُحرق الجرَب بما فيه مِن الحدّة الشديدة، وقد يصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود مُنتِن، يُسرع فيه اشتعال النار، يُطلى به جلود أهل النار حتّى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم الألوان الأربعة مِن العذاب؛ لذعه، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش / والنتن، على أنّ التفاوت بينه وبين ما [٢٨٢و] نشاهده وبين النارين لا يكاد يُقادَر قدره، فكأنّ ما نشاهِدُه منهما أسماءٌ مسمّياتها في الآخرة، فبكرمه العميم نعوذ، وبكنفه الواسع نلوذ.

ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لِما يُحيط بجوهر النفس مِن الملَكات الرديّة والهيئات الموحشة، فتَجلب إليها الآلامَ والغموم؛ بل وأن يكون القَطران المذكور عينَ ما لابَسوه في هذه النشأة وجعلوه شِعارًا لهم مِن العقائد الباطلة والأعمال السيّئة المستجلِبة لفنون العذاب، قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبِعة لاشتداد العذاب، عصمَنا الله سبحانه عن ذلك بمنّه ولطفه. وقُرئ: "مِن قَطْرٍ آنٍ"،[٤] أي: نُحاس مُذاب متناهٍ حرُّه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار التي تمسّ جسدَهم المُسَرْبَلَ بالقَطران. وتخصيص الوجوه بالحُكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾... إلخ [الزمر، ٢٤/٣٩]، ولكونها مَجمع المشاعرِ والحواسّ

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الأبهَل: شجر الغَرب: شجر كبير، ورقه كالطرفاء، وثمره كالنبق، أو ورقه كالسرو، كثير الشوك، شجر العرعر أو ثمره، وهو شجر يستخرج منه القَطران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بهل»؛ ومعجم متن اللغة لأحمد رضا، «بهل».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة وزيد عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

التي خُلقت لإدراك الحقّ، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبّره، كما أنّ الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفة، وقد مَلَئوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة، ٧/١٠٤]، أو لخلوّها عن القَطران المغني عن ذكر غَشَيان النار لها. ولعلّ تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهَب أحيانًا، ويتضاعف عذابهم بالخِزي على رءوس الأشهاد.

وقُرئ: "تَغَشّى"،[1] أي: تتغشّى، بحذف إحدى التاءين. والجملة نصب على الحاليّة، لا على أنّ الواو حاليّة؛ لأنّه مضارع مثبَت؛ بل على أنّها معطوفة على الحال، قاله أبو البقاء.[2]

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٥١﴾

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: يفعل بهم ذلك ليجزي ﴿كُلَّ نَفۡسٖ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي جزاءً موافقًا لعملها. وفيه إيذان بأنّ جزاءهم مناسب لأعمالهم. أو بقوله: ﴿بَرَزُواْ﴾[3] على تقدير كونه معطوفًا على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[4] والضمير للخلق، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾... إلخ[5] اعتراض بين المتعلِّق والمتعلَّق به، أي: برزوا للحساب ليجزي الله كلَّ نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت مِن خير أو شرّ. وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلًا على شهادة الحال لا سيّما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيتمّه في أعجل ما يكون مِن الزمان، فيوفّي الجزاء بحسبه، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما / في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد، ٤١/١٣].[6] [٢٨٢ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

[2] انظر: التبيان لأبي البقاء العكبري، ٧٧٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤١٩/١١.

[3] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[4] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[5] في الآية السابقة.

[6] التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٥/١٢ (الرعد، ٤١/١٣)؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٣/١١ (الرعد، ٤١/١٣).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾[1] إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2] ﴿بَلَٰغٌ﴾ كفاية في العِظة والتذكير مِن غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كلُّ القرآن المجيد مِن فنون العظات والقوارعِ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفّار خاصّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾،[3] أو لهم وللمؤمنين كافّةً على تقدير شموله لهم أيضًا، وإن كان ما شُرِح مختصًّا بالظالمين.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ عطفٌ على مقدّر، و"اللام" متعلّقة بالبلاغ، أي: كفاية لهم في أن يُنْصَحُوا ويُنذَروا به، أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولِيُنذَروا به، على أنّ البلاغ بمعنى الإبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة، ٩٩/٥]، أو متعلّقة بمحذوف، أي: ولِيُنذَروا به أُنزل أو تُلِيَ. وقُرئ: "لِيَنْذَرُوا بِهِ"[4] مِن "نذِر بالشيء" إذا علمه وحذِره واستعدّ له.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بالتأمّل فيما فيه مِن الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكانُ آخَرين مساكنَهم وغيرُهما ممّا سبَق ولحِق ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له. وتقديم الإنذار لأنّه الداعي إلى التأمّل المؤدّي إلى ما هو غاية له مِن العلم المذكور والتذكّر في قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ليتذكّروا ما كانوا يعلمونه مِن قبلُ مِن التوحيد وغيرِه مِن شُئُون الله عزّ وجلّ ومعاملته مع عباده، فيرتدعوا عمّا يُرْديهم مِن الصفات التي يتّصف بها الكفّار، ويتدرّعوا بما يُحْظِيهم مِن العقائد الحقّة والأعمال الصالحة.

وفي تخصيص التذكّر بـ"أولي الألباب" تلويح باختصاص العلم بالكفّار، ودلالةٌ على أنّ المشار إليه بهذا ما ذكرنا مِن القوارع المسوقة لشأنهم، لا كلُّ السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضًا، فإنّ فيه ما يُفيدهم فائدة جديدةً.

---

[1] إبراهيم، ٤٢/١٤.
[2] في الآية السابقة.
[3] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن عمارة وأحمد بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

وحيث كان ما يفيده البلاغ مِن التوحيد وما يترتّب عليه مِن الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرًا حادثًا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أشيرَ إليه عُبّر عن الأوّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكّر، وروعي ترتيب الوجود، مع ما فيه مِن الختم بالحُسنى، والله سبحانه أعلم. ختمَنا الله بالسعادة والحُسنى، ورزقَنا الفوز بمَرضاته في الأولى والعُقبى، آمين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة إبراهيم أُعطي مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن عبد الأصنام ومَن لم يعبُدْ».[1]

والحمد لله وحدَه.[2]

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٤/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[2] وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه وتعالى وقت الضحوة الكبرى مِن يوم الاثنين السادس مِن المحرّم المحترم، سنة ستّ وخمسين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا على نبيّه عليه السلام، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.

سورة إبراهيم

أخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنَّها نزلت بمكة[1]، والظاهرُ أنَّهما أرادا أنَّها كلَّها كذلك، وهو الذي عليه الجمهور، وأخرج النَّحاسُ في «ناسخه» عن الحبر أنها مكِّيةٌ إلا آيتين منها فإنَّهما نزلَتا بالمدينة، وهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيتَين [إبراهيم:٢٨ ـ ٢٩] نَزلَتا في قتلَى بدر من المشركين[2]، وأخرج نحوَه أبو الشيخ عن قتادة[3]، وقال الإمام: إذا لم يكن في السورة ما يتَّصل بالأحكام فنزولُها بمكةَ والمدينة سواءٌ، إذ لا يختلف الغرضُ فيه إلا أنْ يكونَ فيها ناسخٌ أو منسوخٌ فتظهرُ فائدتُه[4]. يعني أنَّه لا يختلفُ الحالُ وتظهر ثمرتُه إلا بما ذكر، فإنْ لم يكن ذلك فليس فيه إلا ضبطُ زمانِ النزول، وكفَى به فائدةً.

وهل في هذه السورةِ منسوخٌ أَوْ لا؟ قولان، والجمهورُ على الثاني، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنَّ فيها آيةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] فإنَّه قد نُسِخَت باعتبار الآخر بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨] وفيه نظرٌ.

وهي إحدى وخمسون آيةً في البصري، وقيل: خمسون فيه، واثنتان وخمسون في الكوفي، وأربعٌ في المدني، وخمسٌ في الشامي.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٦٩، وأخرج أثر ابن عباس رضي الله عنهما ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.

(٣) وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٧٢.

وارتباطُها بالسورة التي قبلها واضحٌ جدّاً؛ لأنَّه قد ذُكر في تلك السورة من مَدْح الكتاب وبيان أنَّه مُغْنٍ عمَّا اقترحوه ما ذُكِر، وافتُتِحَت هذه بوصف الكتاب والإيماء إلى أنَّه مُغنٍ عن ذلك أيضاً، وإذا أُريد بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] الله تعالى، ناسبَ مطلعُ هذه ختامَ تلك أشدَّ مناسبة.

وأيضاً قد ذُكر في تلك إنزالُ القرآن حكماً عربيّاً، ولم يُصرَّح فيها بحكمة ذلك، وصُرِّح بها هنا.

وأيضاً تضمَّنت تلك الإخبار مِن قِبَلِهِ تعالى بأنَّه ما كان لرسول أنْ يأتيَ بآيةٍ إلا بإذن الله تعالى، وتضمَّنَت هذه الإخبار به من جهة الرسل عليهم السلام وأنَّهم قالوا: ما كان لنا أنْ نأتيَ بسلطان إلا بإذن الله.

وأيضاً ذُكر هناك أمرُه عليه الصلاة والسلام بأن (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وحُكي هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكُّلُهم عليه سبحانه، وأمرهم بالتوكل عليه جلَّ شأنه.

واشتَملَت تلك على تمثيلٍ للحقِّ والباطل، واشتَملَت هذه على ذلك أيضاً بناءً على بعض ما ستسمعُه إن شاء الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] إلى آخره.

وأيضاً ذكر في الأُولى مِن رفعِ السماء ومدِّ الأرض وتسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك ما ذكر، وذكر هنا نحو ذلك إلا أنَّه سبحانه اعتَبر ما ذكر أولاً آياتٍ وما ذكر ثانياً نِعَماً، وصرَّح في كلٍّ بأشياءَ لم يُصرِّح بها في الآخر.

وأيضاً قد ذكر هناك مكر الكفرة، وذكر هنا أيضاً، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك.

وأيضاً قال الجلال السيوطي: إنه ذكر في الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] وذلك مجملٌ في أربعة مواضع: الرسل، والمُستهزئين، وصفة الاستهزاء، والأخذ، وقد فصِّلَت الأربعة في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [إبراهيم: ٩] الآيات[1].

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٦١.

وقد اشتركَت السورتان ممَّا عدا افتتاح كلٍّ منهما بالمتشابه بأنَّ كلًّا قد افتتح بالألف واختتم بالباء، وجُمِعَا أيضاً في آخر ما خُتما به، وبَقي مناسبات بينهما غير ما ذكرنا لو ذكرناها لطالَ الكلامُ، والله تعالى أعلم بما في كتابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ مرَّ الكلامُ فيما يتعلَّق به ﴿كِتَٰبٌ﴾ جوِّز فيه أنْ يكون خبراً لـ «الر» على تقدير كونه مبتدأً، أو لمبتدأ مضمَرٍ على تقدير كونه خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أو مفعولاً لفعلٍ محذوف، أو مسروداً على نمط التعديد.

وجوِّز أن يكونَ خبراً ثانياً للمبتدأ الذي أُخبِرَ عنه بـ «الر»، وأن يكونَ مبتدأً، وسَوَّغ الابتداءَ به كونُه موصوفاً في التقدير، أي: كتابٌ عظيمٌ، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ إمَّا في موضعِ الصفة أو الخبر، وهو مع مبتدآته قيل: في موضع التفسير.

وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمةِ ومخاطبتِهِ عليه الصلاة والسلام مع إسناد الإخراج إليه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ = ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم. واللام متعلِّقة بـ «أنزلناه». والمرادُ من الناس جميعُهم، أي: أنزلناه إليك لتخرجَهم كافَّةً بما في تضاعيفه من البيِّنات الواضحة المفصِحَة عن كونه من عند الله تعالى، الكاشفةِ عن العقائد الحقَّة من عقائد الكفر والضلال، وعبادةِ الله عزَّ وجل من الآلهة المختلفة كالملائكة وخواصِّ البشر والكواكب والأصنام التي كلُّها ظلماتٌ محضةٌ وجهالاتٌ صرفةٌ إلى الحقِّ المؤسَّس على التوحيد، الذي هو نورٌ بحتٌ.

وقرئ: «لِيَخْرُجَ الناسُ» بالياء التحتانية[1] في «يخرج» ورفع «الناس» به. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه تعالى، وهو مستعارٌ من الإذن الذي يوجب تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم، وقال

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨.

مُحيي السنة: إذنه تعالى أمره[١]، وقيل: علمُه سبحانه، وقيل: إرادته جلَّ شأنه، وهي ـ على ما قيل ـ متقاربةٌ، ومنع الإمامُ أنْ يُرادَ بذلك الأمر أو العلم[٢]، وعللَّه بما لا يخلو عن نظر.

وفي الكلام على ما ذكر أوَّلاً ثلاثُ استعارات؛ إحداها ما سمعت في الإذن، والأُخريَان في «الظلمات» و«النور» وقد أُشيرَ إلى المراد منهما.

وجوَّز العلامة الطيبي أنْ تكون كلُّها استعارةً مركبةً تمثيليةً بتصوير الهدى بالنور، والضلالِ بالظلمة، والمكلَّفِ المنغمس في ظلمة الكفر، بحيث لا يتسهَّل له الخروجُ إلى نور الإيمان إلا بتفضُّل الله تعالى بإرسال رسولٍ بكتابٍ يُسهِّلُ عليه ذلك؛ كمن وقع في تِيْهٍ مُظلم ليس منه خلاصٌ، فبعثَ ملكٌ توقيعاً لبعض خواصِّه في استخلاصه، وضَمِن تسهيلَ ذَلك على نفسه، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك فقيل: «كتابٌ أنزلناه» إلى آخره. وكان الظاهر: بإذننا، إلا أنَّه وضع ذلك الظاهر موضع الضمير، وقيل: «ربهم» للإشعار بالتربية واللطف والفضل، وبأنَّ الهدايةَ لطفٌ محضٌ، وفيه أنَّ الكتاب والرسول والدعوة لا تُجدي دون إذن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]. اهـ.

وما ذكره من الاستعارة التمثيليةِ مع بلاغته وحُسنه لا يخلُو عن بُعد، وكأنَّه للإنباء عن كون التيسير والتوفيق مَنوطَين بالإقبال إلى الحقِّ، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] استُعير لذلك الإذن الذي هو ما علمتَ، وأُضيفَ إلى ضمير «الناس» اسمُ الرَّبِّ المُفصح عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغ الشيءِ إلى كماله المتوجّه إليه، وشمولُ الإذن بذلك المعنى للكلِّ واضحٌ، وعليه يدورُ كونُ الإنزال لإخراجهم جميعاً، وعدمُ تحقُّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقُّق شرطِه المستنِدِ إلى سوء اختيارهم ورَدَاءة استعدادِهم غيرُ مُخلٍّ بذلك.

ومن هنا فسادُ قول الطبرسي[٣]: إنَّ اللام لامُ الغرض لا لامُ العاقبةِ وإلا لزمَ أن يكونَ جميعُ الناس مؤمنين والواقعُ بخلافه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٥.

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ٧٤.

(٣) مجمع البيان ١٣/ ١٩٦.

وذكر الإمامُ(١) أنَّ المعتزلة استدلُّوا بهذه الآيةِ على أنَّ أفعالَ الله تعالى تُعلَّلُ برعاية المصالح، ثمَّ ساق دليلَ أصحابه على امتناع ذلك، وذكر أنَّه إذا ثَبَت الامتناعُ يَلزم تأويلُ كلِّ ما أشعَرَ بخلافه، وتأويلُه بحملِ اللام على لام العاقبة ونحوها.

ونُقل عن ابن القَيِّم(٢) وغيرِه القولُ بالتعليل، وأنَّه مذهب السلف، وأنَّ في الكتاب والسنة ما يزيدُ على عشرة آلاف موضعٍ ظاهرةٌ في ذلك، وتأويلُ الجميع خروجٌ عن الإنصاف، وليس الدليل على امتناع ذلك من المتانةِ على وجهٍ يضطرُّ معه إلى التأويل.

وللشيخ إبراهيم الكوراني في بعض رسائله كلامٌ نفيسٌ في هذا الغرض سالمٌ ـ فيما أرى ـ عن العلَّة، إنْ أردتَه فارجع إليه.

والباء متعلِّقةٌ بـ «تُخرِجَ» على ما هو الظاهر، وجوَّز أنْ يكون متعلِّقاً بمضمَرٍ وقع حالاً من مفعوله، أي: مُلتبسين بإذن ربِّهم، ومنهم مَن جوَّز كونَه حالاً من فاعله، أي: مُلتبساً بإذن ربِّهم. وتعقِّب بأنَّه يأباه إضافةُ الربِّ إليهم لا إليه ﷺ. ورُدَّ بما ردَّ فتأمَّل.

واستَدلَّ بالآية القائلون بأنَّ معرفةَ الله تعالى لا تحصُل إلا مِن طريق التعليم من الرسول ﷺ حيث ذكر فيها أنَّه عليه الصلاة والسلام هو الذي يُخرجُ الناس من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، وأُجيبَ بأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام كالمنبِّه، وأمَّا المعرفةُ فإنَّما تحصُل من الدليل. واستَدلَّ بها أيضاً كلٌّ من المعتزلة وأهلُ السنة على مذهبه في أفعال العباد، وتفصيل ذلك في تفسير الإمام(٣).

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ الجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرور فيما تقدَّم، أعني قوله تعالى: «إلى النور».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣.
(٢) ينظر شفاء العليل ص٣٤٥.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣ ـ ٧٤.

وقال بعضهم[1]: إنَّ «صراط» بدلٌ من «النور» وأُعيدَ عاملُه وكرِّر لفظاً ليدلَّ على البدليَّة كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف:٧٥] ولا يضرُّ الفصلُ بين البدل والمبدَل منه بما قبله؛ لأنَّه غيرُ أجنبيٍّ، إذ هو من معمولات العامل في المبدَل منه على كلِّ حال.

واستُشكل هذا مع الاستعارة السابقةِ بأنَّ التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة:١٨٧] وأُجيبَ بأنَّ الصراط استعارةٌ أخرى للهدى، جُعِلَ نوراً أولاً، لظهوره في نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به، ثم جُعِل ثانياً جادةً مسلوكةً مأمونةً لا كَبُنيَّاتِ الطرق[2] دلالةً على تمام الإرشاد.

وفي «الإرشاد»[3] أنَّ إخلالَ البيان والبدل بالاستعارة إنَّما هو في الحقيقة لا في المجاز، وهو ظاهرٌ، وجوَّز أنْ يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنَّه جوابُ سائلٍ يَسأل: إلى أيِّ نور؟ فقيل: إلى صراط.. إلى آخره، وإضافة الصراط إليه تعالى؛ لأنَّه مقصده أو المبيِّن له، وتخصيصُ الوصفَين الجليلَين بالذكر للترغيب في سلوكه، إذ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّه يُعَزُّ سالكُه ويُحمَد سابلُه.

وقال أبو حيان[4]: النكتة في ذلك أنَّه لمَّا ذكر قبلُ إنزاله تعالى لهذا الكتابِ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم، ناسَبَ ذكر هاتَين الصفتَين، صفةَ العزَّة المتضمِّنةِ للقدرة والغلبة لإنزاله مثلَ هذا الكتابِ المعجزِ الذي لا يقدر عليه سواه، وصفةَ الحمد لإنعامه بأعظمِ النعم لإخراج الناسِ من الظلمات إلى النور. ووجهُ التقديم والتأخير على هذا ظاهر.

وقال الإمامُ: إنما قدَّم ذكر «العزيز» على ذكر «الحميد» لأنَّ الصحيح أنَّ أول

---

(١) في (م): وقال غير واحد.
(٢) بنيَّات الطرق: هي الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الكبيرة، وأطلق بُنيَّات الطريق على الأباطيل، فقيل في المثل: دع بُنيَّات الطريق. أي: عليك بمعظم الأمر ودع سفساف الأمور. مجمع الأمثال ١/ ٢٩٦، وزهر الأكم ٢/ ٢٣٨.
(٣) إرشاد العقل السليم، وهو تفسير أبي السعود ٥/ ٣٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٣.

العلم بالله تعالى العلمُ بكونه تعالى قادراً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه عالماً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه غنيّاً عن الحاجات، والعزيزُ هو القادرُ، والحميدُ هو العالمُ الغنيُّ، فلمَّا كان العلم بكونه تعالى قادراً مُتقدِّماً على العلم بكونه عالماً بالكلِّ غنيّاً عنه، لا جَرَم قدَّم ذِكرَ العزيز على ذكر الحميد[١]. اهـ. ولم نَرَ تفسيرَ «الحميد» بما ذكر لغيره.

وفي «المواقف» و«شرح أسماء الله الحسنى» لحجَّة الإسلام الغزالي وغيرهما: أنَّ «الحميد» هو المحمودُ المُثنَى عليه، وهو سبحانه محمودٌ بحمده لنفسه أزلاً وبحَمْد عباده له تعالى أبداً[٢]، وبين هذا وما ذكره الإمام بُعد بعيدٌ. وأمَّا ما ذكره في «العزيز» فهو قولٌ لبعضهم؛ وقيل: هو الذي لا مِثْلَ له. وربَّما يقال على هذا: إنَّ التقديمَ للاعتناء بالصفات السلبيَّة، كما يُؤذن به قولهم: التخلية أَوْلَى من التحلية، وكذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ولعلَّ كلامه قدِّس سرُّه بَعْدُ لا يخلو عن نظر.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالرفع على ما قرأ نافعٌ وابنُ عامر[٣] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الله، والموصول الآتي صفتُه، وبالجرِّ على قراءة باقي السبعة والأصمعيِّ عن نافع[٤] بدلٌ مما قبله في قول ابن عطية[٥] والحوفي وأبي البقاء[٦]، وعطفُ بيانٍ في قول الزمخشري[٧]، قال: لأنَّه أُجري مُجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصِهِ بالمعبود بحقٍّ، كما غلب النجمُ على الثريَّا. ولعلَّ جعله جارياً مجرى ذلك ليس لاشتراطه في عطف البيان، بل لأنَّ عطف البيان شرطُه إفادةُ زيادة إيضاحٍ لمتبوعه، وهي هنا بكونه كالعلم باختصاصه بالمعبود بحقٍّ، وقد خرج عن الوصفيَّة بذلك، فليس صفةً كـ «العزيز الحميد».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٥.

(٢) المواقف ص٣٣٥، والمقصد الأسنى ص١٣٠.

(٣) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر، ووافقهم رويس في الابتداء فقط. التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) وهي غير المشهورة عنه، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

ثم إنَّه لا يخفَى عليك أنَّه عند الأئمة المحقِّقين علمٌ لا أنَّه كالعلم، وعن ابن عصفور أنَّه لا تُقدَّمُ صفةٌ على موصوفٍ إلا حيث سُمِعَ، وذلك قليلٌ، وللعرب فيما وُجد من ذلك وجهان:

أحدهما: أنْ تُقدِّم الصفة وتُبقيها على ما كانت عليه، وفي إعراب مثل هذا وجهان:

أحدهما: إعرابُه نعتاً مقدَّماً.

والثاني: أن يُجعل ما بعد الصفة بدلاً.

والوجه الثاني: أن تُضيفَ الصفة إلى الموصوف. اهـ.

وعلى هذا يجوز أنْ يكونَ «العزيز الحميد» صفتَين متقدِّمتَين، ويُعرب الاسمُ الجليل موصوفاً متأخِّراً، ومما جاء فيه تقديمُ ما لو أُخِّر لكان صفةً، وتأخيرُ ما لو قُدِّم لكان موصوفاً قوله:

والمُؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسَحُها رُكبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّعدِ[1]

فلو جاء على الكثير لكان التركيبُ: والمؤمنِ الطير العائذاتِ، ومثله قوله:

لو كنتَ ذا نَبْلٍ وذا شَزِيْبِ[2] لم أَخْشَ شدَّات[3] الخبيث الذيب[4]

وجوِّز في قراءة الرفع كونُ الاسم الجليل مبتدأً، وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ أي: مِلكاً ومُلكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبرُه، وما تقدَّم أَوْلَى، فإنَّ في الوصفية من بيان كمالِ فخامة شأنِ الصراط وإظهار تحتُّم سلوكه على الناس ما ليس في

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٥. قال اليوسي في زهر الأكم ١/ ٨٠: أراد العائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة، أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغَيل والسعد: أجمتان بين مكة ومنًى. وفي الأصل: السند، والمثبت من (م) والديوان.

(٢) في الأصل: تشزيب، وفي (م): تشذيب، والمثبت من المصادر، والشزيب: القوس ليست بجديدٍ ولا خَلقٍ. القاموس المحيط (شزب).

(٣) شدات: جمع شدة، وهي الحملة الواحدة، ومنه: شدّ على القوم في القتال: حمل عليهم. اللسان: (شدد).

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٠، والفائق للزمخشري (شزب).

الخبرية، والمرادُ بـ «ما في السموات وما في الأرض» ما وُجد داخلاً فيهما أو خارجاً عنهما، متمكِّناً فيهما، ومن الناس مَن استَدلَّ بعموم «ما» على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ له تعالى، كما ذكره الإمام[1]،

وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ لمن كَفَر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل. وهو عند بعضٍ نقيضُ الوَأْل بالهمزة بمعنى النجاة، فمعناه الهلاك، وهو[2] مصدرٌ إلا أنَّه لا يُشتَقُّ منه فعلٌ، إنما يقال: وَيْلاً له، فيُنصَب نصبَ المصادر، ثم يُرفع رَفْعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويلٌ له كـ: سلامٌ عليك، وقال الراغب: قال الأصمعي: «ويلٌ» قُبوحٌ وقد يُستعمل للتحسُّر، و«وَيْسٌ» استصغارٌ، و«وَيْحٌ» ترحُّمٌ، ومَن قال: هو وادٍ في جهنَّم، لم يُرد أنَّه في اللغة موضوعٌ لذلك، وإنما أرادَ أنَّ مَن قال الله تعالى فيه ذلك، فقد استحقَّ مقرًّا من النار وثبت له ذلك[3].

وقوله سبحانه: ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ في موضع الصفة لـ «ويل» ولا يضرُّ الفصل ـ على ما في «البحر»[4] وغيرِه ـ بالخبر، وجوِّز أنْ يكون في موضع الحال ـ على ما في الحواشي الشهابية ـ و«من» بيانية[5]، وجوِّز أن تكونَ ابتدائيةً على معنى أنَّ الويل بمعنى عدم النجاةِ متَّصلٌ بالعذاب الشديد وناشئٌ عنه، وقيل: إنَّ الجارَّ متعلِّق: بـ «ويل» على معنى أنَّهم يُوَلوِلُون من العذاب ويضجُّون منه قائلينَ: يا ويلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]، ومنع أبو حيان[6] وأبو البقاء[7] ذلك لما فيه من الفَصْل بين المصدر ومعموله بالخبر، وهو لا يجوز، وقد مرَّ قريباً في «الرعد»[8] ما يتعلَّق بذلك فتذكَّر، فما في العهد من قدم.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٨.
(٢) في (م): فهو.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (ويل) و(ويس) و(ويح).
(٤) ٥/ ٤٠٤.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.
(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.
(٨) عند تفسير الآية (٢٤).

وفي «الكشاف» أنَّ «مِن عذابٍ» إلخ متَّصلٌ بالويل على معنى أنَّهم يُولْوِلُون[1] . . إلى آخر ما ذكرنا. وهو مُحتمل لتعلُّقه به، ولتعلُّقه بمحذوف، واستظهرَ هذا في «البحر»[2].

وفي «الكشف» أنَّ الزمخشريَّ لمَّا رأى أنَّ الويل من الذنوب لا مِن العذاب، كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩] وأمثالُه، أشار هنا إلى أنَّ الاتِّصال معنويٌّ، لا مِن ذلك الوجه، فإنَّه هناك جَعَل الويلَ نفْسَ العذاب، وهنا جَعَله تلفُّظهم بكلمة التلهُّف من شدَّة العذاب، وكلاهما صحيح، ولم يُرد أنَّ هنالك فصلاً بالخبر لقُرب ما مرَّ في قوله تعالى: (سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ). اهـ.

واعترض عليه بأنَّه لا حاجةَ لِمَا ذُكر من التكلُّف؛ لأنَّ اتِّصاله به ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى صَرْفه للتلفُّظ بتلك الكلمة، و«مِن» بيانيةٌ لا ابتدائيةٌ حتى يحتاجَ إلى ما ذكر، ولا يخفى قوَّة ذلك، وأنَّه لا يحتاج إلى التكلُّف، ولو جعلت «مِن» ابتدائيةً، فتأمَّل. والظاهر أنَّ المراد بالعذاب الشديد عذابُ الآخرة. وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ عذاباً يقعُ بهم في الدنيا.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: يختارونها عليها، فإنَّ المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليه من غيره، فالسين للطلب، والمحبةُ مجازٌ مرسَلٌ عن الاختيار والإيثار بعلاقة اللزوم في الجملة، فلا يضرُّ وجود أحدهما بدون الآخَر، كاختيار المريض الدواءَ المرَّ لنفعه[3]، وتَرْكِ ما يحبُّه ويَشتهيه من الأطعمة اللذيذة لضَرَره، ولاعتبار التجوُّزِ عُدِّيَ الفعلُ بـ «على».

ويجوزُ أنْ يكونَ استفعل بمعنى أَفْعَلَ، كاستجاب بمعنى أَجَابَ، والفعلُ مضمَّنٌ معنى الاختيار والتعدية بـ «على» لذلك.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعوقُون الناسَ ويمنعونهم عن دين الله تعالى والإيمان به، وهو الصراط الذي بُيِّن شأنه، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كل وَصْفٍ جميلٍ لرَوْمِ الاختصار.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) ٥/ ٤٠٤.

(٣) في الأصل: لنفسه، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.

وقرأ الحسنُ: «يُصِدُّون» من أصدَّ[1] المنقول من صدَّه صدوداً: إذا تَنكَّبَ وحاد، وهو ليس بفصيحٍ بالنسبة إلى القراءة الأُخرى؛ لأنَّ في صدِّه مندوحةً عن تكلُّف النقل، ولا محذورَ في كون القراءةِ المتواترة أفصحَ من غيرها، ومن مجيء أصدَّ قولُه:

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسَّيفِ عنهم صدودَ السَّواقي عن أُنوف الحَوائمِ[2]

ونظيرُ هذا: وَقَّفه وأَوْقَفه.

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًاۚ﴾ أي: زيغاً واعْوِجاجاً، وهي أبعدُ شيء عن ذلك، أي: يقولون لمن يُريدون صدَّه وإضلالَه عن السبيل: هي سبيلٌ ناكبةٌ وزائغةٌ غيرُ مستقيمة، وقيل: المعنى: يطلبون أنْ يَرَوا فيها ما يكون عِوَجاً قادحاً فيها، كقول مَن لم يَصِل إلى العنقود، وليسوا بواجدين ذلك، وكِلا المعنيين أنسبُ مما قيل: إنَّ المعنى: يبغون أهلَها أنْ يعوجوا بالرِّدَّة.

ومحلُّ موصول هذه الصلات الجرُّ على أنَّه بدلٌ ـ كما قيل ـ من «الكافرين»، فَيُعتَبر كلُّ وصفٍ مِن أوصافهم بما يُناسبه من المعاني المعتبرة في الصراط، فالكفرُ المنبئُ عن الستر بإزاء كونه نوراً، واستحباب الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه[3] محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كون[4] سالكِهِ عزيزاً.

وقال الحوفي وأبو البقاء[5]: إنَّه صفةٌ «للكافرين»، ورَدَّ ذلك أبو حيان بأنَّ فيه الفصلَ بين الصفة والموصوفِ بأجنبيٍّ، وهو «من عذابٍ شديد» سواء كان في موضع الصفة لـ «ويل» أو متعلِّقاً بمحذوفٍ[6]، ونظيرُ ذلك على الوصفيَّة قولك:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

(٢) البيت لذي الرمة وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١ وفيه: رؤوس المخارم، ونقل ابن منظور في اللسان (صدد) عن ابن بري أنه هكذا صواب إنشاده، وذكره مثلَ رواية المصنِّفِ الجوهريُّ في الصحاح (صدد) والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٩٤ دون نسبة.

(٣) في (م): مسلوكه.

(٤) في (م): كونه.

(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

الدارُ لزيدٍ الحسنةُ القرشيِّ، وهو لا يجوز؛ لأنَّك قد فصلتَ بين زيدٍ وصفتِه بأجنبيٍّ عنهما، والتركيبُ الصحيح فيه أنْ يقال: الدارُ الحسنةُ لزيدٍ القرشيِّ، أو: الدارُ لزيدٍ القرشيِّ الحسنةُ، وقيل: إذا جعل «مِن عذابٍ شديد» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ اعتراضيةٌ، لا يضرُّ الفصلُ بها، وهو كما ترى.

وجوِّز أنْ يكون محلُّه النصبَ على الذَّمِّ، أو الرفعَ عليه بأنْ يقدَّر أنَّه كان نعتاً فقُطِعَ، أي: هم الذين.

وجوِّز أنْ لا يُقدَّر ذلك ويُجعل مبتدأً خبرُه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ﴾ أي: بُعْدٍ عن الحقِّ ﴿بَعِيدٖ ۝٣﴾ وهو على غير هذا الوجهِ استئنافٌ في موضع التعليل، وفيه تأكيدٌ لما أَشعَر به بناءُ الحكم على الموصول، والمراد أنَّهم قد ضلُّوا عن الحقِّ ووقعوا عنه بمراحل.

وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفَى حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازاً كـ: جُدَّ جِدُّه، إلا أنَّ الفرق بين ما نحن فيه وذاك أنَّ المسندَ إليه في الأول مصدرُ غير المسند، وفي ذاك مصدرُه، وليس بينهما بُعْدٌ.

ويجوز أنْ يقال: إنَّه أسندَ فيها ما للشخص إلى سبب اتِّصافه بما وُصِف به بناءً على أنَّ البعد في الحقيقة صفةٌ له باعتبار بُعْدِ مكانه عن مقصده، وسببُ بُعدِه ضلالُه؛ لأنَّه لو لم يَضِلَّ لم يَبعُد عنه، فيكون كقولك: قَتَل فلاناً عصيانُه، والإسناد مجازيٌّ، وفيه المبالغةُ المذكورة أيضاً.

وفي «الكشاف»: هو من الإسناد المجازيِّ، والبعدُ في الحقيقة للضالِّ، فوُصِفَ به فعلُه، ويجوزُ أن يُراد: في ضلالٍ ذي بُعد، أو: فيه بعدٌ؛ لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً[1].

وكتب عليه في «الكشف»: أنَّ الإسناد المجازيَّ على جَعْل البُعدِ لصاحب الضلال؛ لأنَّه الذي يَتَباعد عن طريق الصواب[2]، فوُصِفَ ضلالُه بوصْفه مبالغةً، وليس المرادُ إبعادَهم في الضلال وتعمُّقَهم فيه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٦.

(٢) في الأصل: الطريق، وفي (م): طريق الضلال، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٥١.

وأما قوله: فيجوز أنْ يراد: في ضلالٍ ذي بُعد، فعلى هذا البُعْدُ صفةٌ للضلال حقيقةً بمعنى بُعدِ غورِه وأنَّه هاويةٌ لا نهايةَ لها.

وقوله: أو فيه بعدٌ، على جعل الضلال مستقَرّاً للبُعد بمنزلة مكان بعيد عن الجادَّة، وهو معنى بُعْدِه في نفسه عن الحقِّ لتضادِّهما، وإليه الإشارة بقوله: لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ مكاناً بعيداً وقريباً، والغرضُ بيانُ غاية التضادِّ، وأنَّه بُعْدٌ لا يُوازن وِزانُه، وعلى جميع التقادير البعدُ مستفادٌ من البعد المسافي إلى تفاوت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلهما، وجاز أنْ يكون قولُه: ذي بعدٍ، أو فيه بعدٌ، وجهاً واحداً إشارةً إلى الملابسة بين الضلال والبُعد، لا بواسطة صاحب الضلال، لكن الأوَّل أَوْلَى؛ تكثيراً للفائدة.

ثم قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ) دون أنْ يقول سبحانه: أولئك ضالُّون ضلالاً بعيداً، للدلالة على تمكُّنهم فيه تمكُّنَ المظروف في الظرف، وتصويرِ اشتمال الضلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط، وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصف، ـ أعني الضلال ـ على الأوجه، فافْهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر إن شاء الله تعالى إجمالاً ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ متلبِّساً ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلِّماً بلغة مَن أُرسل إليهم من الأمم المتَّفقة على لغةٍ، سواء بُعِث فيهم أَوْ لا، وقيل: بلغة قومه الذين هو منهم وبُعث فيهم، ولا ينتقضُ الحصرُ بلوطٍ عليه السلام، فإنَّه تزوَّج منهم وسكنَ معهم، وأمَّا يُونس عليه السلام، فإنَّه من القوم الذين أُرسل إليهم كما قالوه، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ ذلك باعتبار الأكثر الأغلب، ولعلَّ الأَولى ما ذكرنا.

وقرأ أبو السمَّال وأبو الجوزاء وأبو عمران الجوني: «بلِسْن» بإسكان السين[1] على وَزْن: ذِكْر، وهي لغةٌ في «لسان» كـ: رِيْش ورِيَاش، وقال صاحب «اللوامح»: إنَّه خاصٌّ باللغة، واللسان يُطلَق عليها وعلى الجارحة، وإلى ذلك ذهب ابنُ عطية[2].

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وزاد ابن خالويه نسبتها للأعمش.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣.

وقرأ أبو رجاء وأبو المتوكل والجحدري: «بلُسُن» بضمِّ اللام والسين[1]، وهو جمْعُ لسان كـ : عِمَاد وعُمُد.

وقرئ: «بلُسْن» بضمِّ اللام وسكون السين[2]، وهو مخفَّف لُسُن كـ : رُسُل ورُسْل.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسولُ ﴿لَهُمْ﴾ لأولئك القومِ الذين أُرسلَ إليهم ما كُلِّفوا به فيتلقوه منه بسهولةٍ وسرعة، فيمتثلوا ذلك من غير حاجةٍ إلى الترجمة، وحيث لم تَتَأتَّ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد ﷺ وعلى إخوانه المرسلين أجمعين لعموم بِعثته وشمولِ رسالته الأسودَ والأحمرَ والجنَّ والبشرَ على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد نظم الكتاب المنزل إليه ﷺ حسبَ تعدُّد ألسنة الأمم أَدْعَى إلى التنازع واختلافِ الكلمةِ وتطرُّقِ أيدي التحريف، مع أنَّ استقلالَ بعضٍ من ذلك بالإعجاز مَئِنَّةٌ لقدح القادحين، واتِّفاق الجميع فيه أمرٌ قريبٌ من الإلجاء المُنافي للتكليف، وحصر[3] البيان بالترجمة والتفسير = اقتضَت الحكمةُ [اتحادَ النظم] المنبئ عن العزَّة وجلالةِ الشأن المستَتْبِع لفوائدَ غنيةٍ عن البيان على أنَّ الحاجة إلى الترجمة تَتَضاعف عند التعدُّد، إذ لابدَّ لكلِّ طائفةٍ من معرفةِ توافقُ الكلِّ حذو القذَّة بالقذَّة من غير مخالفةٍ ولو في خَصلة فذَّة، وإنما يتمُّ ذلك بمَن يترجم عن الكلِّ واحداً أو متعدِّداً، وفيه من التعذُّر ما فيه، ثم لمَّا كان أشرفُ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومَه الذين بُعِثَ بين ظهرانَيهم، ولغتهم أفضلُ اللغات نَزَل الكتابُ المبين بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وانتشرَت أحكامه بين الأُمم أجمعين. كذا قرَّره شيخُ الإسلام والمسلمين[4]، وهو من الحُسن بمكان، بَيْدَ أنَّ بعضَهم أبقَى الكلامَ على عمومه، بحيث يشمل النبيَّ ﷺ[5]، وأراد بالقوم الذين ذلك الرسولُ منهم وبُعث

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٨ لجناح بن حبيش.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.

(٣) في الأصل و(م): حصل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢. وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

(٥) جاء في حاشية (م): ادعى بعضهم أنه ﷺ كان يعلم كل اللغات لعموم بعثته وإن كان لم يتكلم على خلاف بغير العربية فافهم ولا تغفل. اهـ منه.

فيهم، والمرادُ من قومه ﷺ العربُ كلهم[١]، ونَقَل ذلك أبو شامة في «المرشد» عن السجستاني، واحتجَّ بقوله ﷺ: «أُنْزِلَ القرآنُ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ»[٢] وفيه نظر ظاهر.

وقال ابنُ قتيبة: المراد منهم قريش ولم يَنزل القرآنُ إلا بلغتهم[٣]. وقيل: إنَّما نزل بلغةِ مُضَرَ خاصَّةً لقول عمر رضي الله عنه: نَزَل القرآنُ بلغة مُضر.

وعيَّن بعضُهم فيما حكاه ابنُ عبد البرِّ سبعاً منهم: هُذَيل وكِنَانة وقَيس وضَبَّة وتَيم الرَّباب وأَسَد[٤] بن خزيمة وقُريش[٥].

وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: نزل بلغةِ الكَعبين: كعبِ قريش وكعبِ خُزاعةَ. فقيل: وكيف؟ فقال: لأنَّ الدار واحدةٌ. يعني خزاعة كانوا جيرانَ قريش فسهُلَت عليهم لغتهم.

وجاء عن أبي صالح عنه أنَّه قال: نَزَل على سبعِ لغاتٍ منها خمسٌ بلغة العجز من هوازن، ويقال لهم: عُلْيا هوازن، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصحُ العرب عُلْيا هوازن وسُفلى تميم، يعني بني دارم. والذي يذهب مذهب السجستاني يقول: إنَّ في القرآن ما نزل بلغة حِمْيَر وكنانة وجُرْهُم وأزدشنوءةِ ومَذْحِج وخَثْعَم وقيس عيلان وسعد العشيرة وكِنْدَة وعُذْرَة وحضرموت وغَسَّان ومُزَيْنَة ولَخْم وجُذَام وحنيفة واليمامة وسَبَأ وسُلَيم وعمارة وطَيِّئ وخُزاعة وعمان وتَمِيْم وأَنمار والأَشْعريِّين والأوس والخزرج ومَدْين؛ وقد مثَّل لكلٍّ ذلك أبو القاسم[٦].

---

(١) قوله: العرب كلهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨)، والبخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) غريب الحديث ١/ ٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٢.
(٤) في الأصل و(م): أسيد، والمثبت من المصادر.
(٥) عزاه لابنِ عبد البر ابنُ حجر في الفتح ٩/ ٢٧، والسيوطيُّ في الإتقان ١/ ١٥٠.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٣، وأبو القاسم هو يوسف بن علي بن عبادة الهذلي المغربي، له: الكامل في القراءات الخمسين، (ت٤٦٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

وذكر أبو بكر الواسطي: أنَّ في القرآن من اللغات خمسينَ لغةً، وسردها مُمَثِّلاً لها، إلا أنَّه ذكر أنَّ فيه من غير العربية الفُرس والنَّبط والحبشة والبَرْبر والسُّريانية والعِبرانية والقِبْط[1].

والذاهبُ إلى ما ذهب إليه ابنُ قتيبة يقول: إنَّ ما نُسب إلى غير قريش على تقدير صحة نسبتِهِ مما يُوافق لغتهم، ونَقَل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنَّه قال: إنَّه نزل أوَّلاً بلسان قريش ومَن جاوَرَهم من العرب الفصحاء، ثم أُبيحَ لسائر العرب أنْ تقرأه بلغاتهم التي جرَت عادتُهم باستعمالها، كاختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يُكلَّف أحدٌ منهم الانتقال من لغته إلى لغةٍ أخرى؛ للمشقَّة ولِمَا كان فيهم من الحميَّة ولطَلَبِ تَسهيل المراد[2]، لكن أنت تعلم أنَّ هذه الإباحة لم تستمرَّ، وكون المتبادر من قومه عليه الصلاة والسلام قريشاً مما لا أظنُّ أنَّ أحداً يمتري فيه، ويليه في التبادر العرب.

وفي «البحر»: أنَّ سبب نزول الآيةِ أنَّ قريشاً قالوا: ما بالُ الكتب كلّها أعجمية وهذا عربيٌّ[3]؟ وهذا إنْ صحَّ ظاهرٌ في العموم، ثمَّ إنَّه لا يلزم من كون لغتِهِ لغةَ قريش أو العرب اختصاصُ بعثته ﷺ بهم، وإنْ زعمَت طائفةٌ من اليهود - يُقال لهم العيسوية - اختصاصَ البعثة بالعرب لذلك، وحكمةُ إنزاله بلغتهم أظهرُ من أنْ تخفَى.

وقيل: الضميرُ في «قومه» لمحمدٍ ﷺ المعلوم مِن السياق، فإنَّه كما أخرج ابنُ أبي [حاتم] عن سفيان الثوري: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربية ثم تَرجَمَ كلُّ نبيٍّ لقومه[4]، وقيل: كان يُترجم ذلك جبريلُ عليه السلام، ونُسب إلى الكلبي، وفيه أنَّه إذا لم يقع التبيين إلا بعدَ الترجمة فات الغرضُ مما ذكر.

وضميرُ «لهم» للقوم بلا خلاف، وهم المبيَّن لهم بالترجمة. وفي «الكشاف» أنَّ ذلك ليس بصحيح؛ لأنَّ ضميرَ «لهم» للقوم، وهم العرب، فيؤدّي إلى أنَّ الله تعالى أنزل التوراة مثلاً بالعربية ليُبيِّن للعرب، وهو معنًى فاسدٌ[5].

---

(١) الإتقان ١/ ٤٢٤، وكلام أبي بكر في كتابه: الإرشاد في القراءات العشر.
(٢) فتح الباري ٩/ ٢٧.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٩، وما بين حاصرتين سقط من الأصل و(م).
(٥) الكشاف ٢/ ٣٦٧.

وتكلَّف الطيبي دفْعَ ذلك بأنَّ الضمير راجعٌ إلى كلٍّ قوم بدلالةِ السياق، والجوابُ كما في «الكشف»: أنَّه لا يدفع عن الإيهام على خلاف مُقتضى المقام.

واحتجَّ بعض الناس بهذه الآية على أنَّ اللغاتِ اصطلاحيةٌ لا توقيفيةٌ، قال: لأنَّ التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلَّت الآية على أنَّ إرسال كلٍّ مِن الرسل لا يكونُ إلا بلغة قومه، وذلك يقتضي تقدُّم حصولِ اللغات على إرسال الرسول، وإذا كان كذلك امتنع حصولُ تلك اللغاتِ بالتوقيف، فوجَبَ حصولُها بالاصطلاح. انتهى.

وأُجيب بأنَّا لا نُسلِّم توقُّف التوقيف على إرسال الرسل، لجواز أنْ يخلُق الله تعالى في العقلاء علماً بأنَّ الألفاظ وضَعَها واضعٌ لكذا وكذا، ولا يلزم من هذا كونُ العاقل عالماً بالله تعالى بالضرورة، بل الذي يلزم منه ذلك لو خَلَق سبحانه في العقلاء علماً ضرورياً بأنَّه تعالى الواضعُ، وأين هذا من ذاك، على أنَّه لا ضرَرَ في التزام خَلْقِ الله تعالى هذا العلمَ الضروريَّ، وأيُّ ضررٍ في كونه سبحانه معلومَ الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟! والقولُ بأنَّه يبطل التكليف حينئذٍ على عمومه، غيرُ مسلَّم، وعلى تخصيصه بالمعرفة مُسلَّم وغيرُ ضارٍّ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلالَ لوجود أسبابه المؤدِّية إليه فيه، وقيل: يَخذُله فلا يَلطُف به لِمَا يعلم أنَّه لا يَنجَعُ فيه الإلطاف.

﴿وَيَهْدِى﴾ يخلق الهدايةَ، أو يَمنَح الإلطافَ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِمَا فيه من الأسباب المؤدِّية إلى ذلك، والإلتفات بإسناد الفعلَين إلى الاسم الجليل؛ لتفخيم شأنهما وترشيح مناطِ كلٍّ منهما، والفاءُ قيل: فصيحةٌ مثلها في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] كأنه قيل: فبيَّنوه لهم فأَضَلَّ الله تعالى مَن شاء إضلالَه، وهدَى مَن شاء هدايتَه حسبما اقتضَته حكمته تعالى البالغة، والحذفُ[١] للإيذان بأنَّ مسارعة كلِّ رسولٍ إلى ما أُمر به وجريان كلٍّ مِن الفعلَين على سَنَنه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن الذكر والبيان.

---

(١) قوله: والحذف، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

وفي «الكشف»: وجهُ التعقيب عن السابق كوجهه في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] على معنى: أنزلنا[١] الكتاب للتبيين، فمنهم مَن نفعناه بذلك البيانِ، ومنهم مَن جعلناه حجَّةً عليه، والفاء على هذا تفصيلية، والعدولُ إلى صيغة الاستقبال؛ لاستحضار الصورةِ، أو الدلالة على التجدُّد والاستمرار حيث تجدَّد البيانُ من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم، وتقديمُ الإضلال على الهداية ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ إما لأنَّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أنَّه لا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قِبَل الرسل عليهم السلام، وأنَّ مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أنَّ ترتُّب[٢] الضلالة أسرعُ من ترتُّب الاهتداء، وهذا محقّقٌ لما سلَفَ من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُغالَب في مشيئته تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ فلا يشاءُ ما يشاءُ إلا لحكمةٍ بالغةٍ، وفيه ـ كما في «البحر» وغيره ـ أنَّ ما فُوِّض إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو التبليغُ وتَبيين طريق الحقِّ، وأمَّا الهدايةُ والإرشاد إليه فذلك بيد الله تعالى يفعلُ ما يشاء ويَحكمُ ما يريد[٣].

ثم إنَّ هذه الآية ظاهرةٌ في مذهب أهل السنة من أنَّ الضلالة والهدايةَ بخلقه سبحانه، وقد ذكر المعتزلةُ لها عدَّة تأويلات، وللإمام فيها كلامٌ طويلٌ إنْ أردته فارجع إليه[٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجملَ في قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» الآية. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: ملتبساً بها، وهي ـ كما أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن مجاهد وعطاء وعُبيد بن عُمير ـ الآيات التسع التي أجراها الله تعالى على يده عليه السلام[٥]. وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها آياتُ التوراة.

---

(١) في (م): أرسلنا.
(٢) في الأصل: ترتيب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨١ ـ ٨٢.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٥، والدر المنثور ٤/ ٧٠.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أخرج، فـ «أنْ» تفسيريَّة؛ لأنَّ في الإرسال معنى القول دون حروفه، أو بأنْ أخرج، فهي مصدريةٌ حُذف قبلها حرفُ الجرِّ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى بالباء، والجارُّ يطَّرد حذفُه قبل «أنَّ» و«أنْ»، واتِّصال المصدرية بالأمر أمرٌ مرَّ تحقيقه.

وزعم بعضُهم أنَّ «أنْ» هنا زائدةٌ، ولا يخفى ضعفُه، والمرادُ من قومه عليه السلام كما هو الظاهر بنو إسرائيل، ومِن إخراجهم إخراجُهم بعد مهلك فرعون.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر والجهالات التي كانوا فيها وأدَّت بهم إلى أنْ يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيدِه وسائرِ ما أمِرُوا به، وقيل: أخرجْهم من ظلمات النقص إلى نور الكمال.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بنعمائه وبلائه كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختارَه الطبريُّ[1]؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام والأوفق بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الكلام، والعطف على «أَخرِجْ».

وجوِّز أنْ تكون الجملةُ مستأنفةً، والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل؛ للإيذان بفخامة شأنها والإشعار ـ على ما قيل ـ بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه، كما يُوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلِّم، وحاصلُ المعنى: عِظْهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

وعن ابن عباس أيضاً والربيع ومقاتل وابن زيد: المراد بـ «أيام الله» وقائعُه سبحانه ونقماتُه في الأمم الخالية. ومن ذلك أيامُ العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار ويوم قِضَّة[2] وغيرها، واستظهره الزمخشريُّ[3] للغلبة العُرفية، وأنَّ العرب استعملَته للوقائع، وأنشدَ الطبرسيُّ[4] لذلك قولَ عمرو بن كلثوم:

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٥٩٤.
(٢) مكان معروف كانت فيه وقعة بين بكر وتغلب، تسمَّى يوم قِضَّة. تاج العروس (قضض).
(٣) في الكشاف ٢/ ٣٦٧.
(٤) مجمع البيان ١٣/ ١٩٨.

وأيـــامٍ لـــنـــا غُــرٌّ(١) طِـــوالٍ عَـصَـينا الـمَـلْـكَ فـيـهـا أَنْ نَـدِيـنـا(٢)

وأنشده الشهابُ(٣) للمعنى السابق، وأنشد لهذا قوله:

وأيـــامـــنـــا مـــشـــهـــورة فـــي عـــدونـــا(٤)

وأخرج النسائيُّ وعبد الله بنُ أحمد في «زوائد المسند» والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» وغيرُهم عن أُبيِّ بنِ كعبٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه فسَّر الأيامَ في الآية بنعم الله تعالى وآلائه(٥)، وروى ذلك ابنُ المنذر عن ابن عباس ومجاهد(٦). وجَعَل أبو حيان من ذلك بيتَ عمرو(٧)، والأظهرُ فيه ما ذكره الطبرسيُّ.

وأنت تعلمُ أنَّه إنْ صحَّ الحديثُ فعليه الفتوى، لكن ذكر شيخُ الإسلام في ترجيح التفسير المرويِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أوَّلاً على ما روي ثانياً بأنَّه يردُّ الثاني ما تصدَّى له عليه السلام بصدد الامتثال من التذكير بكلٍّ من السراء والضرَّاء مما جَرَى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلَى بعدُ(٨)، وهو يُبعدُ صحة الحديث، والقولُ بأنَّ النقَم بالنسبة إلى قوم نِعَمٌ بالنسبة إلى آخرين، كما قيل:

مـــصـــائـــبُ قـــومٍ عـــنـــدَ قـــومٍ فـــوائـــدُ(٩)

(١) في الأصل و(م): غرر، والمثبت من المصادر.
(٢) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٥٨، وشرح القصائد المشهورات ٢/ ٩٨، وشرح القصائد العشر ص٢٦٢، وشرح المعلقات السبع ص٩٨، وورد عند ابن كيسان: ولهم، بدل: غرٌّ.
(٣) في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٥٢، ولفظ عجزه فيه: عضضنا الملك فيها إن بدينا.
(٤) صدر بيت عجزه: لها غررٌ معلومةٌ وحجول، والبيت من قصيدة قيل: هي للسموءل، وقيل: هي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. ديوان المعاني ١/ ٣٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٢١، والمثل السائر ١/ ١٧٣، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٨٣، والتذكرة السعدية ص٣٧.
(٥) سنن النسائي الكبرى (١١١٩٦)، وزوائد عبد الله على المسند (٢١١٢٨)، وشعب الإيمان (٤٤١٨).
(٦) الدر المنثور ٤/ ٧٠.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٤٠٦.
(٨) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.
(٩) عجز بيت للمتنبي، وصدره: بذا قَضَتِ الأيامُ ما بين أهلها، وهو في ديوانه ١/ ٣٩٩.

مما لا ينبغي أنْ يَلتفتَ إليه عاقلٌ في هذا المقام. نعم إنَّ قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأحزاب:٩] ظاهرٌ في تفسير الأيام بالنعم وما يستدعي غير ذلك ستسمعُ فيه أقوالاً لا يستدعيه على بعضها.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد من قومه عليه السلام القِبطُ، «والظلمات والنور» الكفر والإيمان لا غير.

وقيل: قومُه عليه السلام القبطُ وبنو إسرائيل، وكان عليه السلام مبعوثاً إليهم جميعاً إلا أنَّه بُعِثَ إلى القِبط بالاعتراف بوحدانية الله تعالى، وأنْ لا يُشركوا به سبحانه شيئاً، وإلى بني إسرائيل بذلك وبالتكليف بفروع الشريعة.

وقيل: هم بنو إسرائيلَ فقط، إلا أنَّ المراد من «الظلمات والنور» إنْ كانوا كلُّهم مؤمنين ظلماتُ ذلِّ العبودية ونورُ عزَّة الدين، وظهور أمر الله تعالى.

ونحن نقول: نسأل الله تعالى أنْ يُخرجنا وأهلَ هذه الأقوال من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله تعالى، أو في الأيام ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالَّةً على وحدانية الله تعالى وقُدرته وعلمه وحكمته، وهي على الأوَّل الأيامُ، ومعنى كونِ التذكير ظرفاً لها كونُه مناطاً لظهورها، وعلى الثاني كذلك أيضاً إلا أنَّ كلمةَ «في» تجريديَّة، أو هي عليه كل واحدةٍ من النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموعٌ.

وجوِّز أنْ يُراد بالأيام فيما سبق أنفسُها المنطوية على النعم والنقم، فإذا كانت الإشارة إليها وحُملَت الآياتُ على النعماء والبلاء، فأمر الظرفية ظاهرٌ.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ كثيرِ الصبر على بلائه تعالى ﴿شَكُورٖ ۝٥﴾ كثيرِ الشكر لنعمائه عزَّ وجل.

وقيل: المراد لكلِّ مؤمنٍ، فعلى الأول الوصفان عبارتان لمعنيَين، وعلى هذا عبارةٌ عن معنى واحد على طريق الكناية كـ: حيّ مستوي القامةِ بادي البشرة، في الكناية عن الإنسان، والتعبيرُ عن المؤمن بذلك للإشعار بأنَّ الصبر والشكر عنوانُ المؤمن الدالّ على ما في باطنه. والمرادُ ـ على ما قيل ـ: لكلِّ مَن يليقُ بكمال

الصبرِ والشكر، أو الإيمان ويصيرُ أمرُه إلى ذلك، لا لمن اتَّصف به بالفعل؛ لأنَّ الكلام تعليلٌ للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدِّي إلى تلك المرتبةِ، فإنَّ من تذكَّر ما فاضَ أو نزل عليه أو على ما قبله، من النعمة والنقمة وتنبَّهَ لعاقبة الصبرِ والشكر أو الإيمان، لا يكادُ يُفارق ذلك، وتخصيصُ الآياتِ بالصبار الشكور لأنَّه المنتفع بها، لا لأنَّها خافية عن غيره، فإنَّ التبيين حاصلٌ بالنسبة إلى الكلِّ، وتقديمُ الصبر على الشكر لما أنَّ الصبر مفتاحُ الفرج المقتضي للشكر، وقيل: لأنَّه من قَبيل التروك؛ يقال: صبَّرتُ الدابة، إذا حبستَها بلا علفٍ، والشكر ليس كذلك فإنَّه كما قال الراغب: تَصوُّرُ النعمة وإظهارُها، قيل: وهو مقلوبُ الكَشْر، أي: الكَشْف، وقيل: أصلُه من عَينٍ شَكْرَى، أي: ممتلئةٍ، فالشكر على هذا هو الامتلاءُ من ذكر المُنعِم عليه، وهو على ثلاثة أَضرُب: شُكرُ القلب، وشُكرُ اللسان، وشكر الجوارح، وذكر أن تَوفِيَةَ شُكرِ الله تعالى صعبةٌ، ولذلك لم يُثْنِ سبحانه بالشكر على أحدٍ من أوليائه إلا على اثنين نوح وإبراهيمَ عليهما السلام[1]. وقد يكون انقسام الشكر على النعمة وعدمُ انقسام الصبر على النقمة وجهاً للتقديم والتأخير، وقيل: ذلك لتقدُّم متعلّق الصبر، أعني: البلاء، على متعلّق الشكر، أعني: النعماء.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في بيان تصدِّيه عليه السلام لِمَا أُمِرَ به من التذكير للإخراج المذكور. و«إذ» منصوبٌ على المفعولية عند كثيرٍ بمضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ ﷺ، وتعليقُ الذِّكر بالوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وَقَع فيه من الحوادث لِمَا مرَّ غير مرة، أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِ﴾ الذين أمرناه بإخراجهم من الظلمات إلى النور: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تعالى الجليلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وبدأ عليه السلام بالترغيب؛ لأنَّه عند النفس أقبلُ، وهي إليه أَميَلُ، وقيل: بدأ بهذا الأمرِ لِمَا بينه وبينَ آخِرِ الكلام السابق من مَزيد الرَّبْط، ولا يخفى أنَّ هذا إنَّما هو على تقدير أنْ يكون عليه السلام مأموراً بالترغيب والترهيب، أمَّا إذا كان مأموراً بالترغيب فقط فلا سؤالَ.

والظرفُ متعلِّقٌ بنفس النعمة إنْ جُعِلَت مصدراً بمعنى الإنعام، أو بمحذوفٍ وَقَع حالاً منها إنْ جُعِلَت اسماً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم أو نعمتَه كائنةً عليكم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (شكر).

و«إذ» في قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوز أنْ يتعلَّق بالنعمة أيضاً على تقدير جعلها مصدراً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوز أنْ يتعلَّق بكلمة «عليكم» إذا كانت حالاً لا ظرفاً لغواً للنعمة؛ لأنَّ الظرف المستقرَّ لنيابته عن عامله يجوز أنْ يَعمل عملَه، أو هو على هذا معمولٌ لمتعلّقه، كأنَّه قيل: اذكروا نعمةَ الله تعالى مستقرَّةً عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ من «نعمةَ الله» مراداً بها الإنعامُ أو العطيةُ المنعَمُ بها.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي[1]: يبغونكم، من سَامَهُ خسفاً، إذا أَوْلاه ظلماً، وأَصلُ السَّوم كما قال الراغب: الذهابُ في طلب الشيء، فهو لفظٌ لمعنًى مركبٍ من الذهاب والطلب، فأُجرِي مُجرى الذهاب في قولهم: سامَت الإبلُ فهي سائمةٌ، ومجرى الطلب في قولهم: سمتُه كذا[2].

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ «يسومونكم» والسُّوء مصدرُ ساءَ يسوءُ، والمرادُ جنسُ العذاب السيِّئ، أو استعبادُهم واستعمالهم في الأعمال الشاقَّة والاستهانة بهم وغيرُ ذلك.

وفي «أنوار التنزيل»: أنَّ المرادَ بالعذاب ها هنا غيرُ المراد به في سورة البقرة والأعراف؛ لأنَّه مفسَّرٌ بالتذبيح والتقتيل ثَمَّ، ومعطوفٌ عليه التذبيحُ المفاد بقوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ها هنا[3]. وفيه إشارةٌ إلى وجْهِ العطف وتركه مع أنَّ القصةَ واحدة، وحاصلُ ذلك أنَّه حيث طرح الواو قصدَ تفسيرَ العذاب وبيانه، فلم يعطف؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، وحيث عطف لم يقصد ذلك، والعذابُ إنْ كان المرادُ به الجنسَ، فالتذبيحُ لكونه أشدَّ أنواعه، عُطِفَ عليه عطْفَ جبريلَ على الملائكة عليهم السلام، تنبيهاً على أنَّه لشدَّته كأنَّه ليس من ذلك الجنس، وإنْ كان المراد به غيرَه كالاستعباد[4]، فهما متغايران، والمحلُّ محلُّ العطف.

---

(١) قوله: أي، ليس في (م).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (سام).
(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٣.
(٤) في الأصل: كالاستبعاد، والمثبت من (م).

وقد جوَّز أهلُ المعاني أنْ يكونا بمعنًى في الجميع، وذُكِرَ الثاني للتفسير، وتَرْكُ العطف في السورتين ظاهرٌ، والعطفُ هنا لعدِّ التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهرَ ـ بمنزلةِ المغاير، وهو وجهٌ حسنٌ أيضاً.

وسببُ هذا التذبيح أنَّ فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة: إنه سيُولَد لبني إسرائيل مَن يذهبُ بملكه، فاجتهدوا في ذلك فلم يُغْنِ عنهم من قضاء الله تعالى شيئاً.

وقرأ ابنُ محيصن: «ويَذْبَحون»(١) مضارع ذَبَحَ ثلاثيّاً. وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما كذلك إلا أنَّه حذف الواو(٢).

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبقُونَهنَّ في الحياة مع الذُّلِّ، ولذلك عُدَّ من جملة البلاء، أو لأنَّ إبقاءَهُنَّ دون البنين رزيَّةٌ في نفسه، كما قيل:

ومِن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أرَى ... بقاءُ البنات ومَوتُ البنينا(٣)

والجُمَلُ أحوالٌ من «آل فرعون»، أو من ضمير المخاطَبين، أو منهما جميعاً؛ لأنَّ فيها ضميرَ كلٍّ منهما، ولا اختلاف في العامل؛ لأنَّه وإنْ كان في آل فرعون «مِن» في الظاهر، لكنَّه لفظ «أنجاكم» في الحقيقة، والاقتصار على الاحتمالَين الأوَّلَين هنا، وتجويز الثلاثةِ في سورة البقرة ـ كما فعل البيضاوي بيَّضَ الله تعالى غُرَّة أحواله ـ لا يظهر وَجْهُهُ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكرنا من الأفعال الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاءٌ منه تعالى، لا أن(٤) البلاءَ عينُ تلك الأفعال، اللهم إلا أنْ تجعلَ «في» تجريديَّة، فنسبتُه إلى الله تعالى إمَّا من حيث الخلقُ، وهو الظاهرُ، أو الإقدارُ والتمكين. ويجوز أنْ يكونَ المشارُ إليه الإنجاء من ذلك، والبلاء: الابتلاء بالنعمة، فإنَّه يكون بها كما يكون بالمحنة، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال زهير:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٣) ذكره الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٥٣.
(٤) في الأصل: إلا أن، وفي (م): لأن، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٨٩ والكلام منه.

جَزَى اللهُ بالإحسان ما فَعَلا بكم فأبْلَاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[١]

وهو الأنسب بصدر الآية، ويُلوِّح إليه التعرُّض لوصف الربوبية، وعلى الأوَّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنَّ بلاء المؤمن تربيةٌ له ونفعٌ في الحقيقة. ﴿عَظِيمٌ ۝﴾ لا يُطاقُ حملُه، أو عظيمُ الشأن جليلُ القدر.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ داخلٌ في مقول موسى عليه السلام لا كلامٌ مبتدأٌ، وهو معطوفٌ على نعمة الله، أي: اذكروا نعمةَ الله تعالى عليكم، واذكروا حينَ تأذَّن ربُّكم، أي: آذن إيذاناً بليغاً، وأَعلَمَ إعلاماً لا يبقى معه شُبهةٌ؛ لما في صيغة التفعُّل من معنى التكلُّف المحمول في حقِّه تعالى، لاستحالةِ حقيقته عليه سبحانه على غايته التي هي الكمال، وجوز عطفه على «إذ أنجاكم» أي: اذكروا نعمتَه تعالى في هذَين الوقتَين، فإنَّ هذا التأذُّن أيضاً نعمةٌ من الله تعالى عليهم لِمَا فيه من الترغيب والترهيب الباعثَين إلى ما ينالون به خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذْ قال ربُّكم»[٢].

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما خَوَّلْتُكم من نعمةِ الإنجاء من الإهلاك[٣] وغير ذلك، وقابلتموه بالإيمان أو بالثبات عليه أو الإخلاص فيه والعمل الصالح ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: نعمةً إلى نعمة، فإنَّ زيادةَ النعمة ظاهرةٌ في سَبْق نعمةٍ أُخرى. وقيل: يُفهَم ذلك أيضاً من لفظ الشكر، فإنَّه دالٌّ على سبق النعم، فليس الزيادةُ لمجرَّد الإحداث.

والظاهر ـ على ما قيل ـ أنَّ هذه الزيادة في الدنيا، وقيل: يحتمل أنْ تكونَ في الدنيا وفي الآخرة، وليس ببعيدٍ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لئن وحَّدتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم في الثواب. وعن الحسن وسفيان الثوري أنَّ المعنى: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من طاعتي. والكلُّ خلافُ الظاهر.

وذكر الإمام[٤] أنَّ حقيقةَ الشكر الاعترافُ بنعمة المُنعِم مع تعظيمه، وبيانُ زيادة

---

(١) والبيت في ديوانه ص١٠٩، وتقدم ١٠/ ٦٩.
(٢) ذكرها الطبري في تفسيره ١٢/ ٦٠١، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٣) في (م): إهلاك.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

النعم به أنَّ النِّعَمَ منها روحانيةٌ ومنها جسمانيةٌ، والشاكرُ يكون أبداً في مطالعة أقسامِ نِعَمِ الله تعالى وأنواعِ فضله وكرمه، وذلك يوجب تأكُّدَ محبة الله تعالى المُحسنِ عليه بذلك، ومقامُ المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يَترقَّى العبدُ من تلك الحالة إلى أنْ يكون حبُّه للمُنعِم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلَى وأغلَى، فثبَتَ من هذا أنَّ الاشتغال بالشكر يُوجبُ زيادةَ النعم الروحانية، وكونُه موجباً لزيادة النعم الجسمانية فللاستقراء الدالِّ على أنَّ كلَّ مَن كان اشتغالُه بالشكر أكثر، كان وصولُ النعم إليه أكثر، وهو كما ترى.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمطتُموه ولم تشكروه كما تدلُّ عليه المقابلة، وقيل: المرادُ بالكفر ما يقابلُ الإيمان، كأنَّه قيل: ولئن أشركتُم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ فعسى يُصيبكم منه ما يُصيبكم، ومن عادة الكرام غالباً التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد، فما ظنُّك بأكرم الأكرمين، فلذا لم يقل سبحانه: إنَّ عذابي لكم، أو[1]: لأعذِّبنَّكم كما قال جلَّ وعلا: (لَأَزِيدَنَّكُمْ).

وجوِّز أنْ يكون المذكور تعليلاً للجواب المحذوف، أي: لأعذِّبنكم، وبيَّن الإمام وَجْهَ كون كفرانِ النِّعَمِ سبباً للعذاب أنَّه لا يحصلُ الكفرانُ إلا عند الجهل بكون تلك النعمةِ من عند[2] الله تعالى؛ والجاهلُ بذلك جاهلٌ بالله تعالى، والجهلُ به سبحانه من أعظم أنواع العذاب[3].

والآية مما اجتمع فيها القَسَمُ والشرط، فالجواب سادٌّ مسدَّ جوابيهما، والجملةُ إمَّا مفعول لـ «تأذَّنَ» لأنَّه ضَربٌ من القول، أو مفعولُ قولٍ مقدَّر منصوب على الحال سادٌّ معمولُه مسدَّه، أي: قائلاً: لئن شكرتم . . . إلخ، وهذان مذهبان مشهوران للكوفية والبصرية في أمثال ذلك.

واستدلَّ بالآية على أنَّ شكر المُنعمِ واجبٌ، وهو مما أجمعَ عليه السُّنِّيُّون والمعتزلةُ إلا أنَّ الأَوَّلِينَ على وجوبه شرعاً، والآخِرينَ على وجوبه عقلاً، وهو

---

(١) ليس في (م).
(٢) قوله: عند، ليس في (م).
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

مبنيٌّ على قولهم بالحُسن والقُبح العقليَّين، وقد هدَّ أركانَه أهلُ السنة، على أنَّه لو قيل به لم يكَدْ يتمُّ لهم الاستدلال بذلك في هذا المقام، كما بُيِّن في محلِّه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَه سبحانه ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس، وقيل: من الخلائق ﴿جَمِيعًا﴾ لم يتضرَّر هو سبحانه، وإنَّما يتضرَّر من يكفُر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم وشكرهم ﴿حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ مستوجبٌ للحمد بذاته تعالى، لكثرة ما يُوجبه من أياديه وإنْ لم يحمَدْه أحدٌ، أو محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ عليهم السلام، بل كلُّ ذرَّةٍ من ذرات العالم ناطقةٌ بحمده.

والحمدُ حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله جلَّ وعلا، وهو تعليلٌ لِمَا حُذف من جواب «إنْ تكفروا» كما أشرنا إليه.

ثم إنَّ موسى عليه السلام بعد أنْ ذكَّرهم أوَّلاً بنعمائه تعالى عليهم صريحاً، وضمَّنه بذكر ما أصابهم من الضراء، وأمرهم ثانياً بذكر ما جَرَى منه سبحانه من الوعد بالزيادة على الشكر والوعيدِ بالعذاب على الكفر، وحقَّق لهم مضمونَ ذلك، وحذَّرهم من عند نفسه عن الكفران ثالثاً لمَّا رأى منهم ما يوجبُ ذلك = شَرَع في الترهيب بتذكير ما جَرَى على الأمم الدارجة فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ليتدبَّروا ما أصاب كلَّ واحدٍ من حِزبَي المؤمن والكافر، فيتمَّ له عليه السلام مقصودُه منهم. وجوز أنْ يكون من تَتمَّة قوله عليه السلام: «إن تكفروا»... إلخ على أنَّه كالبيان لِمَا أُشير إليه في الجواب من عَود ضَرَر الكفران على الكافر دونَه عزَّ وجلَّ.

وقيل: هو من كلامه تعالى جيء تَتمَّةً لقوله سبحانه: (لَئِن شَكَرْتُمْ)... إلخ، وبياناً لشدَّة عذابه، ونَقلُ كلام موسى عليه السلام مُعترِضٌ في البين، وهو كما ترى.

وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ منه تعالى مخاطباً به أمة محمد ﷺ بعدَ ما ذكر إرسالَه عليه الصلاة والسلام بالقرآن، وقصَّ عليهم من قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أمته، ولعلَّ تخصيصَ تذكيرهم بما أصاب أولئك المعدودين مع قُرب غيرِهم إليهم للإشارة إلى أنَّ إهلاكَه تعالى الظالمين ونَصْرَه المؤمنين عادةٌ قديمة له سبحانه وتعالى، ومن الناس من استبعد ذلك.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدلٌ من الموصول أو عطفُ بيان ﴿وَعَادٖ﴾ معطوفٌ على «قوم نوح» ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين، عطف على «قومِ نوح» وما عطف عليه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ اعتراضٌ، أو الموصول مبتدأ، وهذه الجملة خبرُه، وجملةُ المبتدأ وخبرِه اعتراضٌ، والمعنى على الوجهين أنَّهم(١) من الكثرة بحيث لا يَعلمُ عددَهم إلا الله تعالى.

ومعنى الاعتراض على الأول: أَلَم يأتِكم أنباءُ الجمِّ الغفير الذي لا يُحصَى كثرةً فتعتبروا بها أنَّ في ذلك لمعتبراً(٢). وعلى الثاني: هو تَرَقٍّ، ومعناه: أَلَم يأتِكم نبأُ هؤلاء ومن لا يُحصَى عددهم، كأنَّه يقول: دع التفصيلَ، فإنَّه لا مطمع في الحصر، وفيه لطفٌ لإيهام الجميع بين الإجمال والتفصيل، ولذا جعَلَه الزمخشريُّ أولَ الوجهَين(٣)، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: بين عدنان وإسماعيلَ عليه السلام ثلاثونَ أباً لا يُعرَفون(٤)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه إذا قرأ هذه الآية قال: كذَبَ النسَّابون(٥). يعني أنَّهم يَدَّعون علم الأنساب، وقد نَفَى الله تعالى علمها عن العباد = أظهرُ فيه على ما قيل.

ومن هنا يعلم أنَّ ترجيحَ الطيبي الوجْهَ الأوَّل بما رجَّحه به ليس في محلِّه.

واعترض أبو حيان القولَ بالاعتراض بأنَّه لا يكونُ إلا بين جُزأين يَطلبُ أحدهما الآخر(٦)، وما ذكر ليس كذلك، ومنع بأنَّ بين المعترض بينهما ارتباطاً يطلبُ به أحدُهما الآخر، لأنَّه يجوز أنْ تكونَ الجملة الآتية حالاً بتقدير «قد» والاعتراضُ يقع بين الحال وصاحبها، فليس ما ذُكر مخالفاً لكلام النحاة، ولو سلّم أنَّها ليسَت بحاليَّةٍ فما ذكروه هنا على مصطلح أهلِ المعاني، وهم لا يشترطون الشرط المذكور، حتى جوَّزوا أنْ يكون الاعتراضُ في آخر الكلام،

---

(١) في حاشية (م): إلا أن مرجع الضمير في أنهم مختلف.

(٢) في الأصل: لمعتبر.

(٣) قوله: أول الوجهين، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م)، وينظر الكشاف ٢/ ٣٦٨.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٧٢.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٤.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

كما صرَّح به ابنُ هشام في «المغني»[١]، مع أنَّ الجملةَ الآتيةَ مُفسِّرة لما في الجملة الأولى، فهي مرتبطةٌ بها معنًى، واشتراطُ الارتباط الإعرابي عند النحاة غيرُ مسلَّم أيضاً، فتأمَّل.

وجعل أبو البقاء جملة «لا يعلمهم إلا الله» ـ على تقدير عطفِ الموصولِ على ما قبلُ ـ حالاً من الضمير في «من بعدهم»، وجوّز الاستئناف، ولعلَّه أرادَ بذلك الضمير المستقر في الجارِّ والمجرور لا الضمير المجرور بالإضافة، لفقد شرط مجيء الحال منه، وجوّز على تقدير كونِ الموصول مبتدأ كونَ تلك الجملة خبراً، وكونَها حالاً والخبر قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾[٢]. والكثيرُ على أنَّه[٣] استئناف لبيان نبئهم.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة، فبيَّن كلُّ رسولٍ منهم لأمته طريقَ الحقِّ وهداهم إليه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقَت به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيِّنات التي أظهروها حُجَّةً على صحَّة رسالتهم.

ومرادُهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحة رسالتهم، أو الكتب والشرائع. وحاصلُه أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا كأنَّهم قالوا: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيرُه إقناطاً لهم من التصديق، وهذا كما يقع في كلام المخاطَبين أنَّهم يُشيرون إلى أنَّ هذا هو الجواب ثم يُقرِّرونه، أو يقرِّرونه ثم يُشيرون بأيديهم إلى أنَّ هذا هو الجواب، فضمير «أيديهم» و«أفواههم» إلى الكفار. والأيدي على حقيقتها، والردُّ مجازٌ عن الإشارة، وهي تحتمل المقارنةَ والتقدُّم والتأخُّر.

وقال أبو صالح: المراد أنَّهم وضَعوا أيديَهم على أفواههم مُشيرين بذلك للرسل عليهم السلام أنْ يكفُّوا ويَسكُتُوا عن كلامهم[٤]. كأنَّهم قالوا: اسكُتوا فلا ينفعكم الإكثار ونحن مُصرُّون على الكفر لا نُقلع عنه:

---

(١) ص ٥٢١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٥ بنحوه.
(٣) في الأصل: أنها، والمثبت من (م).
(٤) قوله: أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

فكم أنا لا أصغي وأنت تُطيل[(١)]

فالضميران للكفار أيضاً وسائرُ ما في النظم على حقيقته.

وأخرج ابنُ المنذر والطبرانيُّ والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن ابن مسعود ﷺ: أنَّ المراد أنَّهم عضُّوا أيديَهم غيظاً[(٢)]، من شدَّة نَفْرتهم من رؤية الرسل وسماع كلامهم، فالضميران أيضاً كما تقدَّم، واليدُ والفمُ على حقيقتهما، والردُّ كنايةٌ عن العضِّ، ولا يُنافي الحقيقةَ كونُ المعضوضِ الأناملَ كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] فإنَّ مَن عضَّ موضعاً من[(٣)] اليد، يقال حقيقةً: إنَّه عضَّ اليد، وعن ابن عباس ﷺ أنَّ المراد أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواههم تعجُّباً مما جاء به الرسل عليه السلام، وهذا كما يضعُ من غلبه الضحك يدَه على فِيْهِ، فالضميران وسائر ما في النظم كما في القول الثاني.

وجوز أنْ يرجعَ الضمير في «أيديهم» إلى الكفار، وفي «أفواههم» إلى الرسل عليهم السلام، وفيه احتمالان:

الأوَّلُ: أنَّهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل عليهم السلام أن اسكُتوا.

والآخر: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواه الرسل عليهم السلام منعاً لهم من الكلام. ورُوي هذا عن الحسن. والكلامُ يحتمل أنْ يكونَ حقيقةً، ويحتمل أنْ يكونَ استعارةً تمثيليَّةً بأنْ يُراد بردِّ أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم السلام عدمُ قبول كلامهم واستماعه مشبَّهاً بوضع اليد على فم المتكلِّم لإسكاته.

وظاهر ما في «البحر» يقتضي أنَّه حقيقةٌ حيث قال: إنَّ ذلك أبلغُ في الردِّ وأذهبُ في الاستطالة على الرسل عليهم السلام والنَّيل منهم، وأنْ يكونَ الضميرُ في «أيديهم» للكفار، وضمير «أفواههم» للرسل عليهم السلام[(٤)].

---

(١) عجز بيت لبهاء الدين زهير، وهو في ديوانه ص٢٧٩، وصدره:

ويا عاذلي في لوعتي لست سامعاً

(٢) المعجم الكبير (٩١١٩)، والمستدرك ٢/ ٣٥١، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٣/ ٧٢.

(٣) في الأصل: في، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

والأيدي، جمع: يد، بمعنى النعمة، أي: رَدُّوا نِعَمَ الرسل عليهم السلام التي هي أجلُّ النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أُوحيَ إليهم من الشرائع والأحكام في أفواههم، ويكون ذلك مَثَلاً لردِّها وتكذيبها بأنْ يُشبَّه ردَّ الكفار ذلك بردِّ الكلام الخارج من الفم، فقيل: رَدُّوا أيديَهم، أي: مواعظهم في أفواههم، والمرادُ عدمُ قبولها.

وقيل: المرادُ بالأيدي النعم، والضميرُ الأوَّل للرسل عليهم السلام أيضاً لكنَّ الضميرَ الثاني للكفار على معنى: كذَّبوا ما جاؤوا به بأفواههم، أي: تكذيباً لا مستندَ له.

و«في» بمعنى الباء، وقد أثبتَ الفرَّاء مجيئها بمعناها، وأنشدَ:

وأرغبُ فيها عن لقيطٍ ورَهْطِهِ ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أرغبُ[1]

وضُعِّف حمل الأيدي على النعم بأنَّ مجيئها بمعنى ذلك قليلٌ في الاستعمال حتى أنكره بعضُ أهل اللغة، وإنْ كان الصحيحُ خلافه، والمعروف في ذلك الأيادي كما في قوله:

سأشكرُ عَمراً إنْ تراخَتْ مَنيَّتي أياديَ لم تُمنَنْ وإنْ هي جَلَّتِ[2]

وبأنَّ الردَّ والأفواه يُناسب إرادةَ الجارحة، وقال أبو عبيدة: الضميران للكفار، والكلامُ ضربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجل إذا سكَتَ عن الجواب وأمسك: ردَّ يدَه في فِيْهِ[3]، ومثله عن الأخفش[4].

وتعقَّبه القُتَبيُّ: بأنَّا لم نَسمَع أحداً من العرب يقول: ردَّ فلانٌ يدَه في فِيْهِ: إذا سكَتَ وتَرَكَ ما أُمِرَ به[5]. وفيه أنَّهما سمعا ذلك، ومَن سَمِع حُجَّةٌ على مَن لم يسمع.

(١) معاني القرآن ٢/ ٧٠، والبيت دون نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٨، وزاد المسير ٤/ ٣٤٨، ولسان العرب: (ذرا)، وجاء في هامش (م): يعني بنتاً له، ولقيط: اسم رجل، ورهطه: قبيلته، وسنبس: قبيلة أيضاً.

(٢) البيت نُسب لعبد الله بن الزبير في الأغاني ١٤/ ٢٢٣، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٥، ولأبي الأسود الدؤلي في اللآلي في شرح أمالي القالي ١/ ١٦٦.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٥) غريب القرآن ص٢٣٠ ـ ٢٣١، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

قال أبو حيان[1]: وعلى ما ذكراه يكونُ ذلك من مجاز التمثيل، كأنَّ المُمسِك عن الجواب الساكِتَ عنه وَضَع يده على فِيْهِ. وردَّه الطبريُّ[2] بأنَّهم قد أجابوا بالتكذيب؛ لأنَّهم قالوا: «إنَّا كفرنا» إلى آخره. وأُجيبَ بأنَّه يحتمل أنْ يكون مرادُ القائل أنَّهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضي الذي يَقتَضيه مَجيء الرسل عليهم السلام إليهم بالبيِّنات، وهو الاعتراف والتصديق.

وقال ابنُ عطية: الضميران للكفار، ويحتمل أنْ يُتجوَّزَ بـ «الأيدي» ويُراد منها ما يشمل أنواعَ المدافعة، والمعنى: ردُّوا جميعَ مدافعتهم في أفواههم، أي: إلى ما قالوا بأفواههم من التكذيب، وحاصلُه أنَّهم لم يجدوا ما يدفعون به كلام الرسل عليهم السلام سوى التكذيبِ المحضِ، وعبَّر عن جميع المدافعةِ بـ «الأيدي» إذ هي موضعُ أشدِّ المدافعة والمُرادَّة[3].

وقيل: المرادُ أنَّهم جعلوا أيديَهم في محلِّ ألسنتهم على معنى أنَّهم آذَوا الرسل عليهم السلام بألسنتهم نحو الإيذاء بالأيدي، والذي يُطابق المقامَ وتشهد[4] له بلاغةُ التنزيل هو الوجه الأول، ونصَّ غيرُ واحدٍ على أنَّه الوجهُ القويُّ؛ لأنَّهم لمَّا حاولوا الإنكار على الرسل عليهم السلام كلَّ الإنكار جَمَعُوا في الإنكار بين الفعل والقول، ولذا أَتَى بالفاء تنبيهاً على أنَّهم لم يمهلوا بل عقَّبوا دعوتَهم بالتكذيب وصدَّروا الجملة بـ «إنَّ»، ويَلي ذلك على ما في «الكشف» الوجهُ الثاني، ولا يخفَى ما في أكثر الوجوه الباقية، فتأمَّل.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان والتوحيد، وبهذا وتفسير «ما أرسلتم به» بما ذكر أوَّلاً يندفعُ ما يُتوهَّم من المنافاة بين جزمهم بالكفر وشكِّهم هذا.

وقيل في دفع ذلك على تقدير كونِ متعلَّقَي الكفر والشَّكّ واحداً: إنَّ الواوَ بمعنى «أو»، أي: أحدُ الأمرين لازمٌ، وهو أنَّا كفرنا جزماً بما أرسلتُم به، فإنْ لم

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ ونحوه.
(٤) في الأصل: ويسهد، والمثبت من (م).

نجزم فلا أقلَّ من أنْ نكونَ شاكِّين فيه؛ وأيًّا ما كان فلا سبيل إلى الإقرار والتصديق.

وقيل: إنَّ الكفر عدمُ الإيمان عمَّن هو من شأنه، فـ «كفرنا» بمعنى: لم نصدِّق، وبذلك فسَّره ابنُ عباس رضي الله عنهما، وذلك لا ينافي الشكَّ.

وفي «البحر» أنَّهم بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنَّهم في شكٍّ، وهو التردُّد، كأنَّهم نظروا بعضَ نظر اقتضَى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردُّد، أو هما قولان من طائفتين؛ طائفة بادَرَت بالتكذيب والكفر، وأُخرى شكَّت، والشكُّ في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفرٌ[(١)]. وهذا أَوْلَى من قرينه.

وقرأ طلحة: «مما تَدْعونَّا»[(٢)] بإدغام نون الرفع في نون الضمير، كما تُدغم في نون الوقاية في نحو: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿مُرِيبٖ ٩﴾ أي: مُوقِع في الريبة، مِن أرابني، بمعنى: أوقَعَني في ريبة، أوْ: ذي ريبة، مِنْ أَراب؛ صارَ ذا ريبة، وهي: قَلَقُ النفس وعدمُ اطمئنانها بالشيء، وهو صفة توكيدية.

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقامُ، كأنَّه قيل: فماذا قالت لهم رسلُهم حين قابلوهم بما قابلوهم به؟ فأُجيبَ بأنَّهم قالوا مُنكرينَ عليهم ومتعجِّبين من مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾! بتقديم الظرف وإدخالِ الهمزة عليه؛ للإيذان بأنَّ مدارَ الإنكار ليس نفسَ الشكِّ بل وقوعه فيمَن لا يكاد يُتوهَّم فيه الشكُّ أصلاً، ولولا هذا القصدُ لجاز تقديم المبتدأ، والقولُ بأنَّه ليس كذلك خطأٌ؛ لأنَّ وقوعَ النكرة بعد الاستفهام مسوِّغٌ للابتداء بها، وهو ممَّا لا شكَّ فيه، وكونُ ذلك المؤخَّرِ مبتدأً غيرُ متعيِّن، بل الأرجحُ كونه فاعلاً بالظرف المعتمد على الاستفهام كما ستعلمه[(٣)] إن شاء الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٣) في (م): ستعلم.

والكلامُ على تقدير مضافٍ على ما قيل، أي: أفي وحدانيةِ الله تعالى شكٌّ، بناءً على أنَّ المرسَل إليهم لم يكونوا دهريَّةً مُنكرين للصانع، بل كانوا عَبَدَةَ أصنام. وقيل: يُقدَّر: أفي[1] شأن الله، ليعمَّ الوجودَ والوحدةَ؛ لأنَّ فيهم دهريةً ومشركين. وقيل: يُقدَّر حسب المخاطَبين، وتقديرُ الشأن مطلقاً ذو شأن.

وفي عدم تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأنْ يقولوا: أأنتم في شكٍّ مريبٍ من الله تعالى = مبالغةٌ في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشكِّ، وتسجيلٌ عليهم بسخافة العقول، أي: أفي شأن الله ـ تعالى شأنه ـ من وجودِه ووحدتِهِ ووجوبِ الإيمان به وحده شكٌّ ما، وهو أظهرُ من كلِّ ظاهر وأَجلَى من كلِّ جَليٍّ، حتى تكونوا من قِبله سبحانه في شكٍّ عظيمٍ مُريب، وحيث كان مقصدُهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهارُ البيِّنات وسيلةً إلى ذلك لم يتعرَّضوا للجواب عن قولهم: «إنَّا كفرنا» إلى آخره، واقتصروا على بيان ما هو الغايةُ القصوى، وقد يقال: إنَّهم عليهم السلام قد اقتصروا على إنكار ما ذُكر؛ لأنَّه يُعلَم منه إنكارُ وقوعِ الجزم بالكفر به سبحانه من باب أولَى.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظامٍ أنيقٍ شاهدٍ بتحقُّق ما أنتم في شكٍّ منه. وفي الآية ـ كما قيل ـ إشارةٌ إلى دليل التمانع.

وجرُّ «فاطر» على أنَّه بدلٌ من الاسم الجليل، أو صفةٌ له. وحيث كان «شكٌّ» فاعلاً بالظرف وهو كالجزء من عامله لا يُعَدُّ أجنبيّاً، فليس هناك فصلٌ بين التابع والمتبوع بأجنبيٍّ وبهذا رُجِّحَت الفاعليةُ على المبتدئية؛ لأنَّ المبتدأ ليس كذلك. نعم إلى الابتدائية ذهب أبو حيان[2]، وقال: إنَّه لا يضرُّ الفصل بين الموصوف وصفتِهِ بمثل هذا المبتدأ، فيجوز أنْ تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ، وإنْ كان أصل التركيب: في الدار الحسنةِ زيدٌ.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «فاطرَ»[3] نصباً على المدح.

---

(١) في (م): في.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

ثم إنه بعد أنْ أُشيرَ إلى الدليل الدالِّ على تحقُّق ما هم في شكٍّ منه، نبَّه على عِظَمِ كرمه ورحمتِهِ تعالى فقيل: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى الإيمان بإرساله إيّانا لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا، كما يُوهم قولكم: «مما تدعوننا إليه». ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، فالمدعو إليه غيرُ المغفرة. وتقديرُ الإيمان لقرينة ما سبق. ويحتمل أنْ يكونَ المدعو إليه المغفرةَ، لا لأنَّ اللام بمعنى «إلى»، فإنَّه من ضِيقِ العَطَن[1]، بل لأنَّ معنى الاختصاص ومعنى الانتهاء كلاهما واقعان في حاقِّ[2] الموقع، فكأنَّه قيل: يدعوكم إلى المغفرة لأجلها لا لغرض آخر. وحقيقتُه أنَّ الأغراضَ غاياتٌ مقصودةٌ تُفيدُ معنى الانتهاء وزيادة، قاله في «الكشف»، وهذا نظيرُ قوله:

دعـوتُ لِـمَـا نـابـنـي مِـسْـوَراً فـلـبَّـى فـلـبَّـيْ يَـدَيْ مِـسْـوَرِ[3]

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا المظالم وحقوقِ العباد على ما قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ الإسلام إنما يرفعُ ما هو من حقوق الله تعالى الخالصة له دون غيره، والذي صحَّحه المحدِّثون في شرح ما صحَّ من قوله ﷺ: «إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما قبلَه»[4] أنَّه يرفع ما قبلَه مطلقاً حتى المظالم وحقوق العباد، وأيّد ذلك بظاهر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٢] بدون «مِن»، ومِن هنا ذَهَب أبو عبيدة[5] والأخفش[6] إلى زيادة «مِن» فيما هي فيه، وجمهورُ البصريين لا يجوِّزون زيادتها في الموجب، ولا إذا جَرت المعرفة كما هنا، فلا يتأتَّى التوفيقُ بذلك بين الآيتَين، وجعَلَها الزجَّاج للبيان، ويحصل به التوفيق.

---

(١) يضرب المثل في المنع وضيق الخُلُق، فيقال: فلان ضيِّق العَطَن، والعطن: موضع مَبَارِك الإبل حول الماء. فصل المقال ص٤٣١.
(٢) الحاقُّ: الوسط. وحاقُّ كلِّ شيء: وسطه.
(٣) الكتاب ١/ ٣٥٢، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، والمغني ص٧٥٣، وخزانة الأدب ٢/ ٩٣، قال البغدادي: هذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل. ونسبه السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠ لأعرابي من بني أسد.
(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٨٢٧)، ومسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص ﷺ، ولفظ أحمد: «يَجبُّ»، بدل: «يهدم».
(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.
(٦) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.

وقيل: هي للبدل، أي: ليغفر لكم بدل ذنوبكم، ونُسب للواحدي.

وجوِّز أيضاً أنْ تكون للتبعيض ويُراد من البعض الجميع توسُّعاً.

وردَّ الإمام[1] الأول بأنَّ «مِن» لا تأتي للبدل، والثاني بأنَّه عين ما نُقل عن أبي عُبيدة والأخفش، وهو منكرٌ عند سيبويه والجمهور، وفيه نظر ظاهر، ولو قال: إنَّ استعمال البعض في الجميع مسلَّم، وأمَّا استعمال «مِن» التبعيضية في ذلك فغيرُ مسلَّمٍ، لكان أولَى.

وفي «البحر»: يصحُّ التبعيضُ، ويُراد بالبعض ما كان قبلَ الإسلام، وذلك لا يُنافي الحديث، وتكونُ الآية وعداً بغفران ما تقدَّم لا بغفران ما يستأنف، ويكون ذاك مسكوتاً عنه باقياً تحت المشيئة في الآية والحديث[2].

ونُقل عن الأصمِّ القول بالتبعيض أيضاً على معنى: إنَّكم إذا آمنتُم يَغفر لكم الذنوب التي هي الكبائر، وأمَّا الصغائر فلا حاجةَ إلى غفرانها؛ لأنَّها في نفسها مغفورةٌ.

واستَطْيَبَ ذلك الطيبي قال: والذي يقتضيه المقامُ هذا؛ لأنَّ الدعوةَ عامةٌ لقوله سبحانه: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) كأنَّه قيل: أيُّها الشاكُّون الملوَّثون بأوضار الشركِ والمعاصي إنَّ الله تعالى يدعوكم إلى الإيمان والتوحيد ليطهركم من أجناس[3] أنجاسِ الذنوب، فلا وجْهَ للتخصيص، أي: بحقوق الله تعالى الخالصة له، وقد ورد: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. و«ما» للعموم سيَّما في الشرط، ومقامُ الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسطٌ لا قبضٌ، والكفار إذا أسلموا إنَّما اهتمامُهم في الشرك ونحوه لا في الصغائر، ويُؤيِّده ما روي أنَّ أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أنَّ مَن عبد الأوثان وقتَل النفس التي حرَّم الله تعالى لم يُغفر له، فكيف ولم نهاجِر وعبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرَّم الله تعالى؟! فنزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٩٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٣) في (م): أخباث.

﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(١) الآية [الزمر:٥٣]، وقصةُ وَحْشِيٍّ مشهورةٌ(٢)، وجرح ذلك القاضي، فقال: إنَّ الأصمَّ قد أبعدَ في هذا التأويل؛ لأنَّ الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنَّها لا تغفر، وإنَّما تكون الصغيرةُ مغفورةً من الموحِّدين من حيث إنهم يزيد ثوابهم على عقابها، وأمَّا مَن لا ثوابَ له أصلاً فلا يكون شيءٌ من ذنوبِهِ صغيراً، ولا يكون شيءٌ منها مغفوراً، ثم قال: وفي ذلك وجهٌ آخر، وهو أنَّ الكافر قد يَنسَى بعضَ ذنوبه في حال توبته وإيمانه، فلا يكون المغفور إلا ما ذكره وتاب منه. اهـ.

ولو سمع الأصمُّ هذا التوجيه لأخذ ثأرَه من القاضي، فإنَّه لَعمري توجيهٌ غيرُ وجيهٍ؛ ولو أنَّ أحداً سخَّم وجهَ القاضي لسخَّمتُ وجهَه.

وقال الزمخشري: إنَّ الاستقراء في الكافرين أنْ يأتي «من ذنوبكم»، وفي المؤمنين «ذنوبكم» وكان ذلك للتفرقة بين الخطابَين، ولئلا يُسوَّى في الميعاد بين الفريقَين(٣).

وحاصلُه على ما في «الكشف» أن ليس مغفرة بعضِ الذنوب للدلالة على أنَّ بعضاً آخر لا يُغفر، فإنَّه من قبيل دلالة مفهوم اللقب، ولا اعتداد به، كيف وللتخصيص فائدةٌ أخرى هي التفرقة بين الخطابَين بالتصريح بمغفرة الكلِّ، وإبقاءُ البعض في حقِّ الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتَّكلوا على الإيمان. وفيه أيضاً أنَّ هذا معنىً حسنٌ لا تكلُّفَ فيه.

واعترض ابنُ الكمال بأنَّ حديث التفرقة إنَّما يتم لو لم يجئ خطابٌ على العموم، وقد جاء كذلك في سورة الأنفال في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية:٣٨]. وأُجيبَ بأنَّ هذا غيرُ وارد، إذ المرادُ التفرقةُ فيما ذكر فيه صيغة: «ويغفر ذنوبكم» لا مطلقُ ما كان بمعناه، ولذا أسنَدَ الأمرَ إلى الاستقراء، ومثلُ الزمخشري لا يخفى عليه ما أُورد، ولا يلزم رعاية هذه النكتةِ في جميع المواد.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب ص٣٨٩، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجها الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

وذكر البيضاوي في وجه التفرقة بين الخطابَين ما حاصلُه: لعلَّ المعنى في ذلك أنَّها لما ترتَّبت المغفرةُ في خطاب الكفرة على الإيمان، لَزِم فيه «مِن» التبعيضية لإخراج المظالم؛ لأنَّها غيرُ مغفورةٍ، وأمَّا في خطاب المؤمنين فلما ترتَّبت على الطاعة واجتناب المعاصي التي من جملتها المظالم، لَمْ يحتَجْ إلى «مِن» لإخراجها؛ لأنَّها خرجَت بما رُتِّبت عليه[1]. وهو مبنيٌّ على خلاف ما صحَّحه المحدِّثون، ويُنافيه ما ذكره في تفسير «مِن ذنوبكم» في سورة نوح عليه السلام؛ ومع ذا أُورد عليه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح:٢-٤] حيث ذُكرت «من» مع ترتيب المغفرةِ على الطاعة واجتناب المعاصي الذي أفاده «اتقوا»، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ الآية [الصف:١٠] لعدم ذكر«من» مع ترتُّبها على الإيمان.

والجواب بأنَّه لا ضيرَ، إذ يكفي ترتُّب[2] ذلك على الإيمان في بعض المواد، فيحمل مثله على أنَّ القصد إلى ترتيبه عليه وحدَه بقرينة ذلك البعض، وما ذكر معه يحمل على الأمر به بعد الإيمان أدنَى من أنْ يقال فيه: ليس بشيء، وبالجملة توجيهُ الزمخشريِّ أوجهُ مما ذكره البيضاوي، فتأمَّل وتذكَّر.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى وقتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه منتهى أعماركم على تقدير الإيمان ولا يعاجلكم بعذاب الاستئصال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُمتِّعكم في الدنيا باللذَّات والطَّيِّبات إلى الموت، ولا يلزم مما ذكر القولُ بتعدُّد الأجل كما يزعمه المعتزلة، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك[3].

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ كما سبق آنفاً ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ من غير فضل يُؤهِّلكم لما تَدَّعُون من الرسالة، والزمخشريُّ تهالك في مذهبه حتى اعتقد أنَّ الكفار كانوا يعتقدون تفضيلَ المَلَك[4].

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.

(٢) في(م): ترتيب.

(٣) ٥/ ٢٩ وما بعدها.

(٤) الانتصاف ٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠.

﴿تُرِيدُونَ﴾ صفةٌ ثانية لـ «بشر» حملاً على المعنى كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦] أو كلامٌ مستأنفٌ، أي: تريدون بما أنتم عليه من الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بما تدعونا إليه من التوحيد وتخصيص العبادة بالله تعالى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عمَّا استمرَّ على عبادته آباؤنا من غير شيءٍ يوجبه.

وقرأ طلحة: «أن تصدونَّا» بتشديد النون[1]، وخُرِّج على جَعْل «أنْ» مخفَّفةً من الثقيلة وتقدير فاصل بينها وبين الفعل، أي: أنَّه قد تصدونا، وقد جاء مثل ذلك في قوله:

علموا أنْ يؤمَّلونَ فجادوا قبلَ أنْ يُسألوا بأعظمِ سُؤْلِ[2]

والأولَى أنْ يُخرَّج على أنَّ «أنْ» هي الثنائيَّة التي تنصب المضارع، لكنَّها لم تعمل، كما قيل في قوله تعالى: «لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة» [البقرة:٢٣٣] في قراءة الرفع[3]، حملاً لها على أُختها «ما» المصدرية، كما عملت «ما» حملاً عليها فيما ذكره بعضهم في قوله:

أَنْ تقرآنِ على أسماءَ وَيْحَكُما مِنِّي السلام وأنْ لا تُشعرا أحداً[4]

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ أي: إنْ لم يكن الأمرُ كما قلنا بل كنتم رسلاً من قِبَلِهِ تعالى كما تدَّعون، فأتونا بما يدلُّ على صحة ما تدَّعونه من الرسالة حتى نتركَ ما لم نَزَل نعبدُه أباً عن جدٍّ، أو على فضلكم واستحقاقكم لتلك المرتبة.

قال ابن عطية[5]: إنَّهم استبعدوا إرسال البشر فأرادوا حُجَّة عليه، وقيل: بل إنَّهم اعتقدوا مُحاليَّته وذهبوا مذهبَ البراهمة[6]، وطلبوا الحُجَّة على جهة التعجيز، أي: بعثُكم محالٌ وإلا فأتوا بسلطانٍ مبين، أي: إنَّكم لا تفعلون ذلك أبداً. وهو

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٠.
(٢) شرح ابن عقيل ١/ ٣٨٨، وأوضح المسالك ص١٨٧، وشرح قطر الندى ص٢٦١.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٢١٣، وشرح المفصل ٨/ ١٤٣، ونسباها لمجاهد.
(٤) الخصائص ١/ ٣٩٠، ومغني اللبيب ص٤٦، وشرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ١٠٠، وخزانة الأدب ٨/ ٤٢٠.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٨.
(٦) البراهمة: قبيلة بالهند من ولد برهمي ملك من ملوكهم القدماء، ولهم علامة ينفردون بها وهي خيوط ملونة بحمرة وصفرة، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبواتِ. الفِصَل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٦٩.

خلافُ الظاهر. وهذا الطلبُ كان بعد إتيانهم عليهم السلام لهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخرُّ له الجبال الصمُّ، أقدمَهم عليه العنادُ والمكابرة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراةً لأوّل مقالتهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون وهذا كالقول بالموجب؛ لأنَّ فيه إطماعاً في الموافقة، ثم كرًّا إلى جانبهم بالإبطال بقولهم عليهم السلام: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنما اختصَّنا الله تعالى بالرسالة بفضلٍ منه سبحانه وامتنانٍ، والبشرية غيرُ مانعةٍ لمشيئته جلَّ وعلا، وفيه دليلٌ على أنَّ الرسالة عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعض الجائزات على بعضٍ بمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن: ولكنَّ الله منَّ علينا، إلى ما في النظم الجليل من التواضع منهم عليهم السلام.

وقيل: المعنى: ما نحن من الملائكة بل نحن بشرٌ مثلُكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس، ولكنَّ الله تعالى يَمنُّ على مَن يشاء بالفضائل والكمالات والاستعدادت التي يدور عليها فلكُ الاصطفاء للرسالة، وفي هذا ذهابٌ إلى قول بعض حكماء الإسلام: إنَّ الإنسان لو لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواصَّ شريفةٍ عُلْويَّةٍ قُدسيَّة، فإنَّه يمتنع عقلاً حصول صفةِ النبوَّة فيه، وأجابوا عن عدم ذكر المرسلين عليهم السلام فضائلَهم النفسانية والبدنية بأنَّه مِن باب التواضع كاختيار العموم. والحقُّ منعُ الامتناع العقلي وإن كانوا عليهم السلام جميعاً لهم مزايا وخواصُّ مرجِّحةٌ لهم على غيرهم. وإنما قيل لهم كما قِيل لاختصاص الكلام بهم حيث أُريد إلزامُهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشكِّ فيه تعالى، فإنَّه عامٌّ وإن اختصَّ بهم ما يعقبه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما صحَّ وما استقام ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجةٍ ما من الحُجَج فضلاً عن السلطان المبين الذي اقترحتموه بشيءٍ من الأشياء وسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّه أمرٌ يتعلَّق بمشيئته تعالى إنْ شاء كان، وإلا فلا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ⑪﴾ في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عمَّموا الأمر للإشعار بما يُوجب التوكُّل من الإيمان، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّليًّا، ويدلُّ على ذلك قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ومحلُّ الخلاف في دخول المتكلم في عموم كلامِهِ حيث لم يعلم دخوله فيه

بالطريق الأولَى، أو تَقُم عليه قرينةٌ كما هنا. واحتمالُ أنْ يُراد بـ «المؤمنين» أنفسُهم و«مالنا» التفاتٌ، لا التفاتَ إليه، والجمعُ بين الواو والفاء تقدَّم الكلام فيه(١).

و«ما» استفهاميةٌ للسؤال عن السبب والعذر، و«أَنْ» على تقدير حرف الجرِّ، أي: أيُّ عذرٍ لنا في عدم التوكُّل عليه تعالى، والإظهارُ لإظهار النشاط بالتوكُّل عليه جلَّ وعلا، والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التوكُّل.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنَّه سبحانه قد فعل بنا ما يُوجب ذلك ويستدعيه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَا﴾ أي: أرشد كلًّا منَّا سبيلَه ومنهاجَه الذي شرع له، وأوجبَ عليه سلوكَه في الدين.

وقرأ أبو عمرو: «سُبْلَنا» بسكون الباء(٢).

وحيث كانت أذيَّةُ الكفار مما يوجب القلقَ والاضطرابَ القادح في التوكُّل قالوا على سبيل التوكيد القَسَميِّ مُظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ و«ما» مصدريَّةٌ، أي: أذاتكم إيَّانا بالعناد واقتراحِ الآيات وغيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه، وجوَّزوا أنْ تكونَ موصولةً بمعنى «الذي» والعائدُ محذوفٌ، أي: الذي آذيتموناه، وكان الأصل: آذيتمونا به، فهل حُذفَ به أو الباء ووُصِل الفعلُ إلى الضمير؟ قولان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصَّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ أي: فليثبُت المتوكِّلون على ما أحدثوه من التوكُّل، والمرادُ بهم المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق اتِّصافهم به، وغرضُ المرسَلين من ذلك نحو غرضهم مما تقدَّم، وربما يُتَجوَّز في المسند إليه. فالمعنى: وعليه سبحانه فليتوكَّل مريدو التوكُّل، لكن الأوَّل أولَى.

وقرأ الحسنُ بكسر لامِ الأمر في «لِيتوكَّل»(٣) وهو الأصل.

هذا، وذكر بعضُهم أنَّ من خواصِّ هذا الآية دفعَ أذى البرغوث. فقد أخرج المستغفري في «الدعوات» عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا آذاك البرغوثُ فخذ

(١) ١٢/ ٤١٤.

(٢) التيسير ص٨٥، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر ٥/ ٤١١.

قَدَحاً من ماء واقرأ عليه سبعَ مراتٍ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، وتقول: إنْ كنتُم مؤمنين فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا، ثم ترشُّه حولَ فراشك، فإنَّك تبيتُ آمناً من شرِّها»(١).

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي الدرداء مرفوعاً نحو ذلك إلا أنَّه ليس فيه: «إنْ كنتُم مؤمنينَ فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا»(٢) ولم أقف على صحة الخبر، ولم أُجرِّب ذلك، إذ ليس للبرغوث وَلَعٌ بي، والحمد لله تعالى. وأظنُّ أنَّ ذلك لملوحة الدم كما أخبرني به بعض الأطباء، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيل: لعلَّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرِّدين في الكفر من أولئك الأُمَم الكافرة التي نُقِلَت مقالاتُهم الشنيعةُ دون جميعهم، كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يقل: وقالوا لرسلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ بهم أهلَ الحلِّ والعقد الذين لهم قدرةٌ على الإخراج والإدخال، ويكونُ ذلك علَّةً للعدول عن قالوا أيضاً.

و«أو» لأحد الأمرَين، ومرادُهم ليكونَنَّ أحدُ الأمرَين، إخراجُكم أو عودُكم؛ فالمقسَم عليه في وسع المقسِم، والقولُ بأنَّها بمعنى «حتى» أو «إلا أنْ» قولُ مَن لم يُمعن النظر ـ كما في«البحر» ـ فيما بعدها، إذ لا يصحُّ تركيبُ ذلك مع ما ذكر كما يصحُّ في: لَألْزمَنَّك أو تقضيَني حقِّي.

والمرادُ من العَوْد: الصيرورةُ والانتقال من حالٍ إلى أخرى، وهو كثيرُ الاستعمال بهذا المعنى، فيندفعُ ما يُتوهَّم من أنَّ العودَ يقتضي أنَّ الرسل عليهم السلام كانوا ـ وحاشاهم ـ في ملَّة الكفر قبل ذلك(٣).

واعترض في «الفرائد» بأنَّه لو كان العودُ بمعنى الصيرورةِ لقيل: إلى ملَّتنا، فتعديتُه بـ «في» يقتضي أنَّه ضُمِّن معنى الدخول، أي: لتدخُلُنَّ في ملَّتنا.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٧٢.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٣٦٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١١.

وردَّه الطيبي بأنَّه إنما يلزمُ ما ذكر لو كان «في ملتنا» صلة الفعل، أمَّا إذا جُعل خبراً له؛ لأنَّ «صار» من أخوات «كان» فلا يردُ كما في نحو: صار زيدٌ في الدار. نعم يُفهم مما ذكره وجهٌ آخر، وهو جعلُه مجازاً بمعنى: تدخلُنَّ، لا تضميناً، لأنَّه على ما قرَّروه يُقصد فيه المعنيان فلا يُدفع المحذور.

وفي «الكشف» أنَّ «في» أبلغ من «إلى» لدلالته على الاستقرار والتمكُّن، كأنَّهم لم يرضوا بأنْ يتظاهروا أنَّهم من أهل ملَّتهم.

وقيل: المرادُ من العود في ملَّتهم سكوتُهم عنهم وتركُ مطالبتهم بالإيمان، وهو كما ترى.

وقيل: هو على معناه المتبادر، والخطابُ لكلِّ رسولٍ ولمن آمنَ معه من قومه، فغلَّبوا الجماعة على الواحد. فإنْ كان الجماعةُ حاضرين فالأمرُ ظاهرٌ، وإلا فهناك تغليبٌ آخر في الخطاب.

وقيل: لا تغليبَ أصلاً والخطابُ للرسل وحدهم، بناءً على زعمهم أنَّهم كانوا من أهل ملَّتهم قبل إظهار الدعوة، كقول فرعون ـ عليه اللعنةُ ـ لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩] وقد مرَّ الكلام في مثل ذلك، فتذكَّر.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل عليهم السلام بعد ما قيل لهم ما قيل: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مالكُ أمرهم سبحانه ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: المشركين المتناهين في الظلم، وهم وأولئك القائلون، وقال ابنُ عطية[1]: خصَّ سبحانه «الظالمين» من «الذين كفروا» إذ جائز أنْ يُؤمن مِن الكفرة الذين قالوا تلك المقالة ناسٌ، فالتوعُّد بإهلاك من خلص للظلم.

و«أوحى» يحتمل أنْ يكون بمعنى: فعل الإيحاء، فلا مفعولَ له، و«لنهلكنَّ» على إضمار القول، أي: قائلاً لَنُهلكنَّ، ويحتمل أنْ يكونَ جارياً مجرى القول لكونه ضرباً منه، و«لنهلكنَّ» مفعولُه.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: أرضَهم وديارَهم، فاللام للعهد، وعند بعضٍ عِوَضٌ عن المضاف إليه ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد إهلاكهم، وأقسم سبحانه وتعالى في مقابلة قَسَمهم، والظاهرُ أنَّ ما أقسَم عليه جلَّ وعلا عقوبةٌ لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ وفي ذلك دلالةٌ على مزيد شناعةِ ما أَتَوا به، حيث إنَّهم لمَّا أرادوا إخراجَ المخاطَبين من ديارهم جَعَل عقوبتَه إخراجَهم من دار الدنيا وتوريثَ أولئك أرضَهم وديارَهم، وفي الحديث: «مَن آذى جارَه أورثه الله تعالى دارَه»[1].

وقرأ أبو حيوة: «لَيُهلكنَّ الظالمين ولَيُسكننَّكم الأرضَ» بياء الغيبة[2] اعتباراً لـ «أوحى» كقولك: أقْسَمَ زيدٌ ليخرجَنَّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظالمين وإسكانُ المخاطَبين ديارَهم، وبذلك الاعتبار وحَّد اسمَ الإشارة مع أنَّ المشارَ إليه اثنان، فلا حاجةَ إلى جعله من قبيل: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] وإنْ صحَّ، أي: ذلك الأمر محقَّقٌ ثابتٌ.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: موقفي الذي يقفُ به العبادُ بين يديَّ للحساب يوم القيامة، وإلى هذا ذهب الزجَّاجُ[3]، فالمقامُ اسمُ مكان، وإضافتُه إلى ضميره تعالى لكونه بين يديه سبحانه. وقال الفراء[4]: هو مصدرٌ ميميٌّ أُضيفَ إلى الفاعل، أي: خاف قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إيَّاه. وقيل: المراد إقامتي على العدل والصوابِ وعدم الميل عن ذلك.

وقيل: لفظُ مقام مُقحَمٌ؛ لأنَّ الخوفَ من الله تعالى، أي: لمن خافني.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ أي: وعيدي بالعذاب، فياءُ المتكلِّم محذوفةٌ للاكتفاء بالكسرةِ عنها في غير الوقف. والوعيدُ على ظاهره ومتعلَّقه محذوفٌ، وجوَّز أنْ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٧٠، والرازي في تفسيره ١٩/ ١٠٠، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٢: لم أجده.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١١.

(٣) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١١.

يكون مصدراً من الوعد على وزن فَعِيْل، وهو بمعنى اسمِ المفعول، أي: عذابي الموعود للكفار، وفيه استعارة الوعد للإيعاد.

والمرادُ بـ «مَن خاف» إلخ على ما أُشيرَ إليه في «الكشاف»: المتَّقون[1]، ووقوع «ذلك» إلى آخره بعدَ «ولنُسكننَّكم الأرضَ مِن بعدهم» موقع ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في قصة موسى عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصَرُوا الله تعالى على أعدائهم كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩] ويجوزُ أنْ يكونَ من الفتاحة، أي: الحكومة، أي: استَحْكَموا الله تعالى وطَلَبُوا منه القضاء بينهم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]. والضمير للرسل عليهم السلام كما رُوي عن قتادة وغيره. والعطف على «أَوْحَى» ويُؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: «واسْتفتِحُوا» بكسر التاء[2] أمراً للرسل عليهم السلام معطوفاً على «ليُهلِكَنَّ» فهو داخلٌ تحت الموحَى، والواوُ من الحكاية دون المحكي.

وقيل: ما قبله لإنشاء الوعد فلا يلزمُ عطفُ الإنشاء على الخبر مع أنَّ مذهبَ بعضهم تجويزُه، وأُخِّر على القراءتَين عن قوله تعالى: «لنهلكن» ـ أو «أَوْحَى إليهم» على ما في «الكشف» ـ دلالةً على أنَّهم لم يزالوا داعينَ إلى أنَّ تحقُّقَ الموعود من إهلاك الظالمين، وذلك لأنَّ «لنُهلِكنَّ» وعدٌ، وإنَّما حقيقة الإجابة حين الإهلاك، وليس من تفويض الترتيب إلى ذهن السامع في شيء، ولا ذلك من مقامه كما تُوهِّم.

وقال ابن زيد: الضمير للكفار، والعطف حينئذٍ على «قال الذين كفروا» أي: قالوا ذلك واستفتَحوا على نحو ما قال قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] وكأنَّهم لمَّا قَوِيَ تكذيبُهم وأذاهم ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ظنُّوا أن ما قيل لهم باطلٌ، فاستفتَحوا على سبيل التهكُّم والاستهزاء، كقول قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢] وقوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشعراء:١٨٧] إلى غير ذلك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.

وقيل: الضميرُ للرسل عليهم السلام ومكذِّبيهم؛ لأنَّهم كانوا كلُّهم سألوا الله تعالى أنْ يَنصُر المحقَّ ويُهلك المبطلَ، وجعل بعضُهم العطف على «أَوحَى» على هذا أيضاً، بل ظاهرُ كلام بعضٍ أنَّ العطف عليه على القراءة المشهورة مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى احتمالٌ آخر في الضمير ذكره الزمخشري[1].

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَكَ ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ مُتكبِّرٍ عن عبادة الله تعالى وطاعته، وقال الراغب: الجبَّارُ في صفةِ الإنسان يقال لمن يَجبُر نَقيصَتَه بادِّعاء منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، ولا يقال إلا على طريق الذمِّ[2].

﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ معاند للحقِّ، مُباهٍ بما عنده، وجاء فَعيلٌ بمعنى مُفاعل كثيرًا، كخليط بمعنى مُخالط، ورَضِيع بمعنى مُراضع، وذكر أبو عبيدة أنَّ اشتقاق ذلك من العَنَد، وهو: الناحية[3]، ولذا قال مجاهد: العنيدُ: مجانِب الحقِّ. قيل: والوصف الأوَّل إشارةٌ إلى ذمِّه باعتبار الخلق النفساني، والثاني: إلى ذمِّه باعتبار الأثر الصادرِ عن ذلك الخلق، وهو كونُه مجانبًا منحرفًا عن الحقِّ.

وفي الكلام إيجازُ الحذفِ بحذف الفاءِ الفصيحةِ والمعطوف عليه، أي: استفتَحوا ففُتِح لهم وظَفِرُوا بما سألوا وأَفلحُوا، وخاب كلُّ جبارٍ عنيد وهم قومُهم المعاندون؛ فالخيبة بمعنى مطلق الحِرمان دون الحرمان عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّهم على الحقِّ، هذا إذا كان ضمير «استفتحوا» للرسل عليهم السلام، وأمَّا إذا كان للكفار فالعطف ـ كما في «البحر»[4] ـ على «استفتحوا»، أي: استفتح الكفار على الرسل عليهم السلام وخابُوا ولم يُفلحوا. وإنَّما وضع «كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ» موضع ضميرهم ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبُّر والعناد، لا أنَّ بعضَهم ليسوا كذلك ولم تصبهم الخيبة، ويُقدَّر ـ إذا كان الضمير للرسل عليهم السلام وللكفرة ـ «استفتحوا» جميعًا؛ فنصر الرسل وخابَ كلُّ عاتٍ متمرِّد، والخيبةُ على الوجهَين بمعنى الحِرمان غِبَّ الطلب، وفي إسناد الخيبة إلى كلٍّ منهم ما لا يخفى من المبالغة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١، وسيأتي عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (جبر).

(٣) ينظر مجاز القرآن، ومختار الصحاح: (عند).

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَّامه وبَيْنَ يديه، كما قال الزجّاج[١] والطبريُّ[٢] وقُطربُ وجماعةٌ، وعلى ذلك قوله:

أَليسَ ورائي إنْ تراخَتْ مَنِيَّتي لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[٣]

ومعنى كونها قُدَّامه أنَّه مرصدٌ لها واقفٌ على شفيرها ومبعوثٌ إليها، وقيل: المرادُ مِن خَلْف حياته وبعدَها، ومِن ذلك قولُه:

حَلَفتُ فلم أَترُكْ لنفسكَ رِيبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهبُ[٤]

وإليه ذهب ابنُ الأنباري[٥]، واستعمالُ «وراء» في هذا وذاك بناء على أنَّها من الأضداد عند أبي عبيدة[٦] والأزهري[٧]، فهي من المشترِكات اللفظية عندهما. وقال جماعة: إنَّها من المشترِكات المعنوية، فهي موضوعةٌ لأمرٍ عامٍّ صادقٍ على القُدَّام والخلف، وهو: ما توارى عنك. وقد تُفسَّر بالزمان مجازًا، فيقال: الأمرُ من ورائك على معنى: أنَّه سيأتيك في المستقبل من أوقاتك.

﴿وَيُسْقَىٰ﴾ قيل: عطف على متعلَّق «من ورائه» المقدَّر، والأكثرُ على أنَّه عطفٌ على مقدَّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنَّه قيل: فماذا يكونُ إذن؟ فقيل: يَلقَى فيها ما يَلقَى ويُسقَى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوصٍ لا كالمياه المعهودة. ﴿صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك: هو ما يَسيلُ من أجساد أهلِ النار. وقال محمد بنُ

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٥٦.
(٢) في تفسيره ١٣/ ٦١٧.
(٣) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٧٠، وجاء في هامش (م):
قوله:
أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقوم تميم والفلاة ورائيا
وقوله:
عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
انتهى منه.
(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٧.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، والقرطبي ١٢/ ١٢٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.
(٦) مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.
(٧) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

كعب والربيع: ما يسيلُ من فروج الزناة والزواني، وعن عكرمة: هو الدمُ والقيح.

وأَعربَه الزمخشريُّ[١] عطفَ بيانٍ لـ «ماء»، وفي إبهامه أوَّلًا ثم بيانه من التهويل ما لا يخفَى، وجواز عطف البيان في النكرات مذهبُ الكوفيين والفارسيِّ[٢]، والبصريُّون لا يرونَه، وعلى مذهبهم هو بدلٌ من «ماء» إن اعتُبِرَ جامدًا، أو نعتٌ إنْ اعتُبِرَ فيه الاشتقاق من الصدِّ، أي: المنعِ من الشرب، كأنَّ ذلك الماء لمزيد قُبحه مانعٌ عن شربه. وفي «البحر»: قيل: إنَّه بمعنى مصدودٌ عنه، أي: لكراهته يُصدُّ عنه[٣]. وإلى كونه نعتًا ذهب الحوفي وكذا ابنُ عطية، قال: وذلك كما تقول: هذا خاتمُ حديد[٤]. وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة، وإنما أُطلقَ عليه باعتبار أنَّه بدَلُه.

وقال بعضُهم: هو نعتٌ على إسقاطِ مفيدِ التشبيه كما تقول: مررتُ برجل أسد، والتقدير: مثل صديد، وعلى هذا فإطلاقُ الماء عليه حقيقة، وبالجملة تخصيصُ السَّقي من هذا الماء بالذكر مِن بين عذابها يدلُّ على أنَّه من أشدِّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ جوَّز أبو البقاء كونَه صفةً لـ «ماء»، أو حالًا منه، أو استئنافاً[٥]، وجوَّز أبو حيان[٦] كونَه حالًا من ضمير «يُسقَى». والاستئنافُ أظهرُ، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ، كأنَّه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرَّعُه، أي: يتكلَّفُ جَرْعَه مرَّةً بعد أُخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يُقارب أنْ يُسيغَه فضلًا عن الإساغة، بل يَغَصُّ به فيشرَبه بعد اللُّتيا والتي جُرعةً غِبَّ جُرعة، فيطول عذابُه تارةً بالحرارة والعطش،

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.
(٢) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٥) الإملاء ٣/ ٣٩٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.

وأُخرَى بشربه على تلك الحالة؛ فإنَّ السَّوغَ انحدارُ الماء انحدارَ الشراب[١] في الحَلْق بسهولةٍ وقبولِ نفس، ونفيُه لا يُفيد نَفْي ما ذُكر جميعًا. وقيل: تَفَعَّل مُطاوع فَعَّلَ، يقال: جَرَّعَه فتَجَرَّع، وقيل: إنَّه موافقٌ للمجرَّد، أي: جَرَعه، كما تقول: عدا الشيءَ وتعدَّاه.

وقيل: الإساغة: الإدخال في الجوف، والمعنى: لا يُقارِبُ أنْ يُدخله في جوفه قبل أنْ يَشرَبه، ثم شَرِبه على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: ما قاربوا قبل الذبح، وعبَّر عن ذلك بالإساغة لِمَا أنَّها المعهودةُ في الأشربة.

أخرج أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ والحاكم وصحَّحه وغيرُهم عن أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «يُقرَّبُ إليه فيَتكرَّهُهُ فإذا أُدنِيَ منه شَوَى وَجْهَهُ ووَقعتْ فَرْوةُ رأسِهِ، فإذا شَرِبَه قَطَّع أمعاءَه حتى يَخرُجَ من دُبُره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: ٢٩][٢].

و«يُسيغه» بضمِّ الياء؛ لأنَّه يُقال: ساغَ الشرابَ وأَساغَه غيرُه، وهو الفصيح، وإنْ وَرَد ثلاثيُّه متعدِّيًا أيضًا على ما ذكره أهلُ اللغة، وجملةُ «ولا يكاد» إلى آخره في موضع الحال من فاعل «يَتجَرَّعُه» أو من مفعوله أو منهما جميعًا.

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسبابُه من الشدائد وأنواع العذاب، فالكلامُ على المجاز أو بتقدير مضافٍ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: من كلِّ موضعٍ، والمرادُ: أنَّه يُحيطُ به من جميع الجهات كما رُوي عن ابن عباس ﵄، وقال إبراهيم التيميّ: من كلِّ مكانٍ من جسدِه حتى من أطرافِ شعره، ورُوي نحوُ ذلك عن ميمون بنِ مهران ومحمد بنِ كعب، وإطلاق المكان على الأعضاء مجازٌ، والظاهرُ أنَّ هذا الإتيان في الآخرة.

---

(١) قوله: انحدار الشراب، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

(٢) المسند (٢٢٢٨٥)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٩)، والمستدرك ٢/ ٣٥١، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال الأخفش(١): أراد البلايا التي تُصيب الكافر في الدنيا سمَّاها موتًا لشدَّتها، ولا يخفَى بُعدُه؛ لأنَّ سياق الكلام في أحوال الكافرِ في جهنَّمَ وما يلقى فيها.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنَّه ليس بميِّتٍ حقيقةً، كما هو الظاهر من مجيء أسبابه على أتمِّ وجهٍ فيستريح مما غشيَهُ من أصناف الموبقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: مِن بين يدَي مَن حُكم عليه بما مرَّ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ يَستقبلُ كلَّ وقتٍ عذابًا أشدَّ وأشقَّ مما كان قبله، وقيل: في «ورائه» هنا نحو ما قيل فيما تقدَّم أمامَه، وذِكر هذه الجملة لدفع ما يُتوهَّم من الخِفَّة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا.

وقيل: ضمير «ورائه» يعودُ على العذاب المفهومِ من الكلام السابق لا على كلِّ جبار، وروي ذلك عن الكلبي.

والمرادُ بهذا العذابِ قيل: الخلودُ في النار، وعليه الطبرسيُّ(٢)، وقال الفضيل(٣): هو قطعُ الأنفاس وحبسها في الأجساد.

هذا وجوّز في «الكشاف» أنْ تكونَ هذه الآية ـ أعني قوله تعالى: (وَٱسْتَفْتَحُواْ) ـ إلى هنا منقطعةً عن قصة الرسل عليهم السلام، نازلةً في أهل مكة، طلبوا الفتحَ الذي هو المطَرُ في سِنِيِّهم التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ(٤)، فخيَّب سبحانه رجاءَهم، ولم يَسْقهم ووعدهم أن يَسْقيَهم في جهنَّم بدلَ سقياهم صديدَ أهل النار، والواو على هذا قيل: للاستئناف، وقيل: للعطف إمَّا على قوله تعالى: (وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ) أو على خبر «أولئك في ضلالٍ بعيد» لقربه لفظًا ومعنًى.

والوجهُ الأول أوجهُ؛ لبعد العهد وعدمِ قرينةٍ تخصيصِ الاستفتاح بالاستمطار؛

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٢) مجمع البيان ١٣/ ٢٠٨.
(٣) في الأصل: الفضل، والمثبت من (م)، وهو الفضيل بن عياض، وأخرجه عنه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٧٤.
(٤) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

ولأنَّ الكلام على ذلك التقدير يتناولُ أهل مكة تناولاً أوَّليًا، فإنَّ المقصود من ضرب القصة أنْ يعتبروا.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: فيما يُتلَى عليكم صفتُهم التي هي في الغرابة كالمَثَل، كما ذهب إليه سيبويه[١]، وقوله سبحانه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان مَثَلِهم، ورجَّحَ ابنُ عطية[٢] كونَه مبتدأً وهذه الجملة خبره.

وتعقَّبه الحوفي بأنَّه لا يجوزُ؛ لخلوِّ الجملة عمَّا يربطُها بالمبتدأ، وليسَت نفسَه في المعنى لتستغني عن ذلك لظهور أن ليس المعنى: مثلهم هذه الجملة.

وأجاب عنه السمينُ[٣] بالتزام أنَّها نفسه، لأنَّ «مثل الذين» في تأويل ما يُقال فيهم ويُوصَفُون به إذا وُصِفوا، فلا حاجةَ إلى الرابط، كما في قولك: صفةُ زيدٍ عِرضُه مصونٌ ومالُه مبذولٌ، قيل: ولا يخفَى حسنُه إلا أنَّ المثل عليه بمعنى الصفة، والمرادُ بالصفة اللفظ الموصوف به كما يقال: صفةُ زيدٍ أسمرُ، أي: اللفظ الذي يُوصَفُ به هو هذا.

وهذا، وإنْ كان مجازًا على مجازٍ لكنَّه يُغتَفَر؛ لأنَّ الأولَ ملحَقٌ بالحقيقة لشهرته، وليس من الاكتفاء بعَوْد الضمير على المضاف إليه؛ لأنَّ المضاف ذُكِرَ توطئةً له؛ فإنَّ ذلك أضعفُ من بيت العنكبوت كما علمتَ.

وذهب الكسائي والفراء[٤] إلى أنَّ «مثل» مُقحَمٌ، وتقدَّم ما عليه وله، وقال الحوفي: هو مبتدأٌ و«كرمادٍ» خبرُه، و«أعمالُهم» بدلٌ من المبتدأ بدلَ اشتمال كما في قوله:

ما للجمالِ مَشْيُها وئيدًا ... أَجَنْدلًا يَحْمِلْنَ أمْ حَديدا[٥]

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٧١ ـ ٧٢، والبحر ٥/ ٤١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٣) الدر المصون ٧/ ٨٢.
(٤) ينظر معاني القرآن ٢/ ٧٢ ـ ٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.
(٥) البيت للزباء كما في أدب الكاتب ص٢٠٠، والأغاني ١٥/ ٣٢٠، ومغني اللبيب ص٧٥٨، وأوضح المسالك ص٢٣١، ومعاهد التنصيص ١/ ٣١٤، والوئيد: ذو صوت شديد.

وفيه خفاءٌ، ولعلَّه اعتبر المضاف إليه. وفي «الكشاف» جوازُ كونه بدلاً من «مثل الذين كفروا» لكن على تقدير: مَثَلُ أعمالهم، فيكونُ التقديرُ: مَثَلُ الذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرمادٍ[1]. قال في «الكشف»: وهو بدلُ الكلِّ من الكلِّ، وذلك لأنَّ مَثَلَهم ومَثَلُ أعمالهم متَّحدان بالذات، وفيه تفخيم. اهـ.

وقيل: إنَّه على هذا التقدير أيضاً بدلُ اشتمال؛ لأنَّ مَثَلَ أعمالهم كونُها كرمادٍ، ومثلُهم كونُ أعمالهم كرمادٍ، فلا اتِّحادَ، لكنَّ الأول سببٌ للثاني، فتأمَّل.

والرَّماد معروفٌ، وعرَّفه ابنُ عيسى بأنَّه جسمٌ يَسحَقُه الإحراق سحْقَ الغبار، ويجمع على رُمُد في الكثرة، وأَرمِدَة في القِلَّة، وشذَّ جمعُه على أَفْعِلاء، قالوا: أَرْمِداء، كذا في «البحر»[2]، وذكر في «القاموس»: أنَّ الأَرْمِدَاء كالأربعاء: الرَّماد[3]. ولم يَذكر أنَّه جمعٌ.

والمرادُ بـ «أعمالهم» ما هو من باب المكارم كصلةِ الأرحام، وعتق الرقاب، وفداءِ الأسارى، وقَرْي الأضيافِ، وإغاثةِ الملهوفين وغيرِ ذلك، وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم، وقيل: ما يعمُّ هذا وذاك، ولعلَّه الأَولَى.

وجيء بالجملة على ما اختاره بعضُهم جوابًا لمَا يقال: ما بالُ أعمالهم التي عملوها حتى آلَ أمرُهم إلى ذلك المآل؟ إذ بُيِّن فيها أنَّها كرمادٍ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: حملَتْه وأَسرعَت الذهاب به، فاشتدَّ من «شَدَّ» بمعنى «عدا»، والباء للتعدية أو للملابسة، وجوِّز أنْ يكون من الشِّدَّة بمعنى القوَّة، أي: قويَت بملابسة حَمْلِهِ.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصفُ: اشتدادُ الريح، وُصِفَ به زمانُ هبوبها على الإسناد المجازيِّ، كـ: نهاره صائمٌ وليله قائمٌ، للمبالغة. وقال الهروي: التقديرُ: في يومٍ عاصفِ الريح، فحذف الريح لتقدُّم ذكره كما في قوله:

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٣٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.
(٢) ٥/ ٤١٤.
(٣) القاموس المحيط: (رمد).

إذا جاءَ يومٌ مظلمُ الشمسِ كاسفُ[(١)]

والتنوينُ على هذا عِوضٌ عن المضاف إليه، وضَعْفُ هذا القول ظاهرٌ، وقيل: إنَّ «عاصف» صفة «الريح» إلا أنَّه جُرَّ على الجوار، وفيه أنَّه لا يصحُّ وصفُ الريح به لاختلافهما تعريفاً وتنكيرًا.

وقرأ نافع وأبو جعفر: «الرياح» على الجمع[(٢)]، وبه يشتدُّ فسادُ الوصفية، وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بنُ أبي بكر عن الحسن: «في يومِ عاصفٍ» على الإضافة[(٣)]، وذلك عند أبي حيان من حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصفة مقامَه، والتقدير: في يومِ ريحٍ عاصفٍ[(٤)]، وقد يقال: إنَّه من إضافة الموصوف إلى الصفة من غير حاجةٍ إلى حذفٍ عند مَن يَرَى جواز ذلك.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ما، أي: لا يَرَون له أثرًا من ثواب أو تخفيفِ عذاب.

ويؤيِّد التعميمَ ما ورد في الصحيح عن عائشة أنَّها قالت: يا رسول الله، إنَّ ابنَ جدعانَ في الجاهلية يَصلُ الرحمَ ويُطعمُ المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفَعُه؛ لأنَّه لم يقُل: ربِّي اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[(٥)].

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: لا يقدرون من ثوابِ ما كسبوا على شيءٍ ما، والأوَّلُ أولَى، وقدم المتعلّق الأول لـ «لا يقدرون» على الثاني وعكس في البقرة لأهمية كلٍّ في آيته، وذلك ظاهرٌ لمن له أدنى بصيرة.

وحاصلُ التمثيل تشبيهُ أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتنائها على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٤، والبيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣، وصدره:

وتضحك عرفان الدروع جلودنا

وجاء في هامش (م): يريد كاسف الشمس.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤).

غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به وكونها لوجهه = برمادٍ طيَّرته الريحُ العاصفُ وفرَّقْته، وهذه الجملة فذلكة ذلك والمقصود منه، قيل: والاكتفاء ببيان عدمِ رؤيةِ الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أنَّ لها عقوبات = للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنَّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلَّ عليه التمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنَّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ⑱﴾ عن طريق الحقِّ والصواب، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيدٍ.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ، والمرادُ به أمتُه الذين بُعث إليهم، وقيل: خطابٌ لكلِّ واحدٍ من الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [الآية:١٩] والرؤية رؤيةُ القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها، أي: ألم تعلم أنَّه تعالى خَلَقَهما ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقُّ أنْ يخلق عليه.

وقرأ السلميُّ: «ألم ترْ» بسكون الراء(١)، و وَجْهُهُ أنَّه أجرى الوصلَ مجرى الوقف، قال أبو حيان: وتوجيهٌ آخرُ وهو أنَّ «تَرَى» حَذفَت العربُ ألفها في قولهم: قام القوم ولو تَرَ ما زيدٌ، كما حذفت ياءَ: لا أُبَالي، وقالوا: لا أُبالِ، فلمَّا دَخَل الجازمُ تُخيِّل أنَّ الراء هي آخرُ الكلمة، فسُكِّنَت للجازم، كما قالوا في: لا أبالِ، لم أُبَلْ، تخيَّلوا اللام آخرَ الكلمة(٢). والمشهور التوجيهُ الأول.

وقرأ الأخوان: «خالقُ السماواتِ والأرضِ» بصيغة اسم الفاعل، والإضافة، وجرِّ «الأرض»(٣).

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ يعدمْكم أيُّها الناس، كما قاله جماعةٌ، أو أيُّها الكفرة ـ كما رُوي عن ابن عباس ـ بالمرَّة. ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ⑲﴾ أي: يخلقُ بدلَكم خلقًا مستأنفًا، لا علاقةَ بينكم وبينهم، والجمهورُ على أنَّه من جنس الآدميِّين، وذهب آخرون إلى أنَّه أعمُّ من أنْ يكونَ من ذلك الجنس أو من غيره.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٥ ـ ٤١٦.
(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، وهي قراءة خلف أيضًا.

أوردَ سبحانه هذه الشرطيَّة بعد أنْ ذَكَرَ خَلْقَه السماواتِ والأرضَ إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنَّ مَن قَدَر على خلقِ مثل هاتيك الأجرام العظيمة، كان على إعدام المخاطَبين وخَلْقِ آخرين بدَلَهم أقدرَ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي: المذكور من إذهابكم والإتيان بخلقٍ جديدٍ مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ بمتعذِّر أو متعسِّر، فإنَّه سبحانه وتعالى قادرٌ بذاته لا باستعانةٍ وواسطةٍ على جميع المُمكنات، لا اختصاصَ له بمقدورٍ دون مقدور.

وهذه الآية على ما في «الكشاف» بيانٌ لإبعادهم في الضلال وعِظَم خَطْبهم في الكفر بالله تعالى، لوضوح آياتِهِ الشاهدة له، الدالةِ على قدرته الباهرةِ وحكمتِهِ البالغةِ، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُؤمَنَ به، ويُرجى ثوابُه، ويُخشى عقابُه[1].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرُزون يوم القيامة، وإيثار الماضي لتحقُّق الوقوع، أو لأنَّه لا مضيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ ببروزهم لله ظهورهم من قبورهم للرَّائينَ لأجل حساب الله تعالى، فاللامُ للتعليل، وفي الكلام حذفُ مضافٍ.

وجوِّز أنْ تكونَ اللامُ صلةَ البروز وليس هناك حذفُ مضافٍ، ويُراد: أنَّهم ظهروا له عزَّ شأنه عند أنفسهم وعلى زعمهم، فإنَّهم كانوا يظنُّون عند ارتكابهم الفواحشَ سرًّا أنَّها تخفَى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشَفُوا له تعالى عند أنفسهم، وعلموا أنَّه لا تخفَى عليه جلَّ شأنه خافية، وقال ابنُ عطية: معنى «برزوا» صاروا بالبَراز، وهي: الأرضُ المتَّسِعةُ، فاستُعير ذلك لمجمع يومِ القيامة[2]. وهذا ميلٌ إلى التعليل والحذف.

ونقل الإمامُ عن الحكماء في تأويل البروز: أنَّ النفس إذا فارقَت الجسد، فكأنَّه زال الغطاء وبقِيَت مجرَّدة بذاتها عاريةً عن كلِّ ما سواها، وذلك هو البروزُ لله تعالى[3]. وهو كلامٌ تعدُّه العرب من الأحاجي، ولذا لم يَلتفت إليه المحدِّثون.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٧.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «وبُرِّزُوا» مبنيًّا للمفعول وبتشديد الراء[1]، والمرادُ: أظهرَهم الله تعالى وأخرجَهم من قبورهم لمحاسبته.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ جمعُ: ضعيفٍ، والمرادُ ضعافُ الرأي وهم الأتباع، وكتب في المصحف العثماني بواو قبل الهمزة، ووجه ذلك بأنَّه على لفظ من يُفخِّم الألف قبل الهمزة فيُميلها إلى الواو، ونظيرُه ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2] [الشعراء: ١٩٧] وردَّ ذلك الجعبريُّ قائلًا: إنَّه ليس من لغة العرب ولا حاجةَ للتوجيه بذلك؛ لأنَّ الرسم سُنَّةٌ متَّبعة، وزعَمَ ابنُ قتيبة أنَّه لغةٌ ضعيفةٌ[3]، ولو وُجِّه بأنَّه اتباعٌ للفظه في الوقف، فإنَّ من القرَّاء مَن يقف في مثل ذلك بالواو = كان حسنًا صحيحًا. كذا ذكر، فليُراجَع[4]. ولعلَّ مَن أنصفَ لا يَرى أحسنَ من ترك التوجيه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي: لرؤسائهم الذين استتْبعوهم واستَغْووهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم، وهو جمعُ: تابعٍ، كخادم وخَدَمٍ، وغائب وغَيَبٍ، أو اسمُ جمعٍ لذلك، ولم يذكر كونه جمعًا في «البحر»[5]. أو هو مصدرٌ نُعِت به مبالغةً، أو بتأويل أو بتقدير مضافٍ، أي: تابعين، أو ذوي تَبَعٍ؛ وبه على سائر الاحتمالات يتعلَّق الجارُّ والمجرور، والتقديم للحصر، أي: تبعًا لكم لا لغيركم.

وقيل: المعنى: إنَّا تَبَعٌ لكم لا لرأينا، ولذا سمَّاهم الله تعالى ضعفاء، ولا يلزم منه كون الرؤساءِ أقوياءَ الرأي، حيث ضلُّوا وأضلُّوا، ولو حُمل الضعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسنَ، وليس بذاك.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ استفهامٌ أُريدَ به التوبيخُ والتقريع، والفاءُ للدلالة على سببيَّة الاتِّباع للإغناء، وهو من الغَناء بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عدِّي بـ «عن» أي: إنَّا اتَّبعناكم فيما كنتُم فيه من الضلال، فهل أنتم اليومَ دافعون

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٦١.
(٤) ينظر: التيسير ص٤١، وجامع البيان للداني ١/ ٢٨٣-٢٨٤، والنشر ١/ ٤٦٨ و٤٩٠.
(٥) ٥/ ٤١٦.

عنَّا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: بعضِ الشيء، الذي هو عذابُ الله تعالى بناءً على ما قيل: إنَّ «مِن» الثانية للتبعيض واقعة موقعَ المفعول للوصف السابق، والأُولى للبيان وهي واقعةٌ موقع الحال من مجرور الثانية؛ لأنَّها لو تأخَّرت كانت صفةً له، وصفةُ النكرة إذا قُدِّمَت أُعربَت حالًا.

واعتُرض هذا الوجه بأنَّ فيه تقديم «مِن» البيانيَّة على ما تُبيِّنه وهو لا يجوز، وكذا تقديم الحال على صاحبها المجرور.

وأجيبَ بأنَّ في كلٍّ من هذَين الأمرَين اختلافًا، وقد أجاز جماعةٌ تقديمَ «مِن» البيانية، وصُحِّحَ ذلك، لأنَّه إنَّما يفوتُ بالتقديم الوصفية لا البيانية، وكذا أجازَ كثيرٌ كابن كيسان وغيره تقديمَ الحال على صاحبها المجرور، فلعلَّ الذاهب إلى هذا الوجه في الآية يرى رأي المُجوِّزين لكلٍّ من التقديمَين.

وقال بعض المدقِّقين: جاز تقديمُ هذه الحال؛ لأنَّها في الحقيقة عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، أعني: بعض، لا عن المجرور وحدَه، وفيه من البعد ما لا يخفى.

وجوِّز أنْ تكونَ الأُولَى والثانية للتبعيض، والمعنى: هل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ الله تعالى؛ والإعراب كما سبق. واختار بعضُهم على هذا كونَ الحال عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، إذ لو جعل حالًا عن المجرور لآل الكلامُ إلى: هل أنتم مغنون عنَّا بعضَ بعضِ عذاب الله تعالى، ولا معنى له، وفيه أنَّه يُفيد المبالغةَ في عدم الغَنَاء كقولهم: أقلُّ من القليل، فنَفْيُ المعنَى لا معنَى له. ولا يصحُّ الإلغاء؛ إذ لا يصحُّ أنْ يتعلَّق بفعلٍ ظرفان مِن جنسٍ دون ملابسةٍ بينهما تُصحِّح التبعيَّة.

وجَعْل الثاني بدلًا من الأول يأباه ـ كما في «الكشف» ـ اللفظُ والمعنى؛ وقد تعقَّب أبو حيان توجيهَ التبعيض في المكانَين كما سمعتَ بأنَّ ذلك يقتضي البدليَّةَ، فيكون بدلَ عامٍّ من خاصٍّ؛ لأنَّ «من شيء» أعمُّ من قوله: «من عذاب»، وهذا لا يقال؛ لأنَّ بعضيَّةَ الشيء مطلقةٌ، فلا يكون لها بعضٌ[1]، ومما ذكرنا يُعلَم ما فيه.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٧.

وجوّز أنْ تكون الأُولَى مفعولًا، والثانية صفة مصدرٍ سادَّة مسدَّه، والشيء عبارة عن إغناءٍ ما، أي: فهل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ عذاب الله بعض الإغناء.

وتُعقِّب بأنَّه يلزم على هذا أنْ يتعلَّق بعاملٍ ظرفان، إلى آخر ما سمعْتَ آنفًا، وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لكون أحدهما في تأويل المفعول به، والآخر في تأويل المفعول المطلق، صحَّ التعلُّق ولم يكونا من جنسٍ واحدٍ، وقد يقال: إنَّ تقييد الفعل بالثاني بعد اعتبار تقييده بالأول، فليس العاملُ واحدًا.

ونصَّ الحوفي وأبو البقاء[1] على أنَّ «من» الثانية زائدةٌ للتوكيد، وسَوَّغ زيادتها تقدُّم الاستفهام الذي هو هنا في معنى النفي، و«مِن عذاب الله» إما متعلِّقٌ بـ «مغنون» أو متعلِّق بمحذوفٍ وقَعَ حالًا من «شيء» أي: شيئًا كائنًا من عذاب الله تعالى، أو مغنون مِن عذاب الله تعالى غناءً ما.

﴿قَالُوا﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن توبيخ الضعفاء وتقريعهم واعتذارًا عمَّا فعلوا بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإيمان ووفَّقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنا فَضَلَّلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، وحاصلُه على ما قيل: إنَّ ما كان منَّا في حقِّكم هو النصحُ، لكن قصرنا في رأينا.

وقال الزمخشريُّ: إنَّهم وَرَّكوا الذنبَ[2] في ضلالهم وإضلالهم على الله تعالى وكَذَبُوا في ذلك، ويدلُّ على وقوع الكذب من أمثالهم يوم القيامة قولُه تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقد خالف في ذلك أصول مشايخه؛ لأنَّهم لا يُجوِّزون صدور الكذب عن أهل القيامة، فلا يُقبَل منه، وجوَّز أنْ يكونَ المعنى: لو كنَّا من أهل اللطف فلَطَف بنا ربُّنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان[3]، ونقل ذلك القاضي وزيَّفه كما ذكره الإمام[4].

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) قال ابن منظور في اللسان (ورك): ورَّك فلان ذنبه على غيره توريكًا، إذا أضافه إليه، وإنه لمورَّك في هذا الأمر، أي: ليس له فيه ذنب.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٣.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٩، والقاضي هو عبد الجبار.

وقيل: المعنى: لو هدانا الله تعالى إلى الرَّجعة إلى الدنيا فنُصلح ما أفسدناه لهديناكم، وهو كما ترى. وقال الجُبَّائي وأبو مسلم: المرادُ: لو هدانا الله تعالى إلى طريق الخلاصِ من العقاب والوصولِ إلى النعيم والثوابِ لهديناكم إلى ذلك. وحاصلُه: لو خَلَصنا لخلَّصناكم أيضًا، لكنْ لا مطمعَ فيه لنا ولكم. قال الإمام: والدليل على أنَّ المراد من الهدى هو هذا أنَّه الذي طلبوه والتمسوه[1].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لَقِينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، و«سواء» اسمٌ بمعنى الاستواء مرفوعٌ على الخبرية للفعل المذكور بعده؛ لأنَّه مجرَّدٌ عن النسبة والزمان، فحكمه حكم المصدر.

والهمزة و«أم» قد جُرِّدتا عن الاستفهام لمجرَّد التسوية، ولذا صارت الجملةُ خبريةً فكأنَّه قيل: جَزَعُنا وصَبْرُنا سواءٌ علينا، أي: سيَّان، وإنما أفرد الخبر لأنَّه مصدرٌ في الأصل.

وقال الرضي في مثله: إنَّ «سواء» خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمران سواءٌ، ثم بَيَّن الأمرَين بقولهم: «أجزعنا أم صبرنا». وما قيل: من أنَّ «سواء» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ جزاءٌ للجملة المذكورة بعدُ لتضمُّنها معنى الشرط، وإفادة همزة الاستفهام معنى «إنْ» لاشتراكهما في الدلالة على عدم الجزم، والتقدير: إنْ جَزِعْنا أم صبرنا فالأمران سيَّان = فتكلُّفٌ كما لا يخفى.

والجزعُ: حزنٌ يَصرِف عمَّا يُراد، فهو حزنٌ شديدٌ. وفي «البحر»: هو عدمُ احتمال الشدَّة، فهو نقيضُ الصَّبر[2]، وإنما أسندوا كلًّا من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطَبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنَّهم شركاء لهم فيما ابتُلُوا به وتسليةً لهم.

وجوِّز أنْ يكون هذا من كلام الفريقَين، فهو مردودٌ إلى ما سيق له الكلام وهو[3] الفريقان، ولا نظرَ إلى القرب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ

---

(١) المصدر السابق ١٩/ ١٠٩.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٤.

(٣) في (م): وهم.

﴿أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢] وأيد ذلك بما أخرجَه ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن كعب بنِ مالك رَفَعه إلى النبيِّ ﷺ فيما يظنُّ أنَّه قال: «يقولُ أهلُ النار: هَلمُّوا فلنصبر، فيَصْبِرُون خمسمئة عام، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفَعُهم قالوا: هَلمُّوا فَلْنجزع، فيبكون خمسمئة عام، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ الآية»[1]، وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار ذهب بعضُهم ميلًا لظواهر الأخبار.

واستظهر أبو حيان[2] أنَّها في موضع العرض وقتَ البروز بين يدي الله تعالى، وقولُ الأتباع: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ جزءٌ منهم، وكذا جوابُ الرؤساء باعترافهم بالضلال، واحتمالُ أنَّه من كلام الأوَّلين فقط خلافُ الظاهر جدًّا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ جملةٌ مفسِّرةٌ لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أو حالٌ مؤكدةٌ، أو بدل منه، والمحيصُ من حاص: حادَ وفرَّ، وهو إما اسمُ مكانٍ كالمبيت والمصيف، أو مصدرٌ ميميٌّ كالمغيب والمشيب، والمعنى: ليس لنا محلٌّ ننجوا فيه من عذابه، أو لا نجاةَ لنا من ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كِلا الفريقَين واستَتْبَعَهما عندما عتباه وقرَّعاه على نمط ما قاله الأتباع للرؤساء ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحْكِمَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ خطيبًا في مَحْفِل الأشقياء من الثقلَين.

أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن الحسن قال: إذا كان يومُ القيامة قامَ إبليسُ خطيبًا على منبرٍ من نارٍ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى آخره[3]. وعن مقاتل: أنَّ الكفار يجتمعون عليه في النار باللائمة فيرقَى منبرًا من نار فيقول ذلك.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٩/(١٧٢)، والدر المنثور ٤/ ٧٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٥ إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

وفي بعض الآثار ما هو ظاهرٌ في أنَّ هذا في الموقف، فقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ المبارك في «الزهد» وابنُ جرير وابنُ عساكر لكن بسند ضعيف من حديث عُقبةَ بنِ عامر يرفعُه إلى رسول الله ﷺ، «أنَّ الكفار حين يَرَون[1] شفاعةَ النبيِّ ﷺ للمؤمنين يأتُون إبليسَ فيقولون له: قد وَجَد المؤمنونَ مَن يشفعُ لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنَّك أنت أضْلَلْتَنا، فيقومُ، فيثورُ من مجلسه أنتنُ ريحٍ شمَّها أحدٌ، فيقول ما قصَّ الله تعالى»[2].

ومعنى «وَعْدَ الحقِّ» وعدًا مِن حقِّه أنْ يُنجز، أو وعدًا نجز، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، وقيل: أراد بـ «الحقِّ» ما هو صفتُه تعالى، أي: إنَّ الله تعالى وَعَدكم وعدَه الذي لا يُخلَف، والظاهرُ أنَّه صفةُ الوعدِ، وفي الآية على الأول إيجازٌ، أي: إنَّ الله سبحانه وعدَكم وعدَ الحقِّ فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعدَ الباطل، وهو أنْ لا بعثَ ولا حسابَ، ولئن كانا فالأصنام تشفعُ لكم.

﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، أي: لم يتحقَّق ما أخبرتُكم به، وظهر كذبُه، وقد استُعير الإخلاف لذلك، ولو جُعل مُشاكلةً لصحَّ.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلُّطٍ أو حُجَّةٍ تدلُّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة، وهو[3] وإنْ لم يكن من جنس السلطان حقيقةً، لكنَّه أبرزَه في مبرزه، وجعَلَه منه ادِّعاء، فلذا كان الاستثناء متَّصلًا، وهو من تأكيد الشيءِ بضدِّه كقوله:

وخيلٍ قد دَلفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وَجيعُ[4]

وهو من التهكُّم لا من باب الاستعارة أو التشبيه أو غيرهما على ما حُقِّق في موضعه، فإنْ لم يُعتَبر فيه التهكُّم والادعاء يكون الاستثناء منقطعاً على حدِّ قوله:

---

(١) في الأصل و(م): يروا، والمثبت هو الجادة.
(٢) المعجم الكبير ١٧/ (٨٨٧)، والزهد (٣٧٤ زوائد نعيم)، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وتاريخ دمشق ٧/ ٤٥٣، وأخرجه أيضاً الدارمي (٢٨٠٤).
(٣) في (م): وهذا.
(٤) البيت لعمرو بن معديكرب كما في النوادر لأبي زيد ص١٥٠، والعمدة في محاسن الشعر ٢/ ٢٩٢، وخزانة الأدب ٩/ ٢٦٥.

وبـلـدةٍ لـيـسَ بـهـا أنـيـسُ إلا الـيـعـافـيـرُ وإلا الـعـيـسُ[١]

وإلى الانقطاع ذهب أبو حيان وقال: إنَّه الظاهر[٢]، وجوَّز الإمام[٣] القولَ بالاتصال من غير اعتبار الادِّعاء؛ ووجَّه ذلك بأنَّ القدرة على حَمْل الإنسان على الشيء تارةً تكون بالقهر من الحامل، وتارةً تكونُ بتقويةِ الداعية في قلبه وذلك بإلقاء الوَسواس إليه، وهذا نوعٌ من أنواع التسلُّط فكأنَّه قال: ما كان لي تسلُّطٌ عليكم إلا بالوَسوسة لا بالضرب ونحوه.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: أسرعتُم إجابتي، كما يُؤذنُ بذلك الفاء، وقيل: يُستفاد الإسراع من السين؛ لأنَّ الاستجابةَ وإنْ كانت بمعنى الإجابة لكنْ عُدَّ ذلك من التجريد، وأنَّهم كأنَّهم طلبوا ذلك من أنفسهم، فيقتضي السرعة، وفيه بعدٌ.

﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن على طريق القَسْر والإلجاء كما يدلُّ عليه الفاء، وقيل: بوسوستي، فإنَّ مَن صرَّح بالعداوة وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] لا يُلام بأمثال ذلك.

وقرئ: «فلا يلوموني» بالياء[٤] على الالتفات.

﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتُم لي باختياركم الناشئ عن سوء استعدادكم حين دعوتكم بلا حجَّةٍ ولا دليل، بل بمجرَّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا لربِّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقِّ المقرونة بالبيِّنات والحُجَج، وليس مرادُ اللَّعين التنصُّلَ عن توجُّه اللائمة إليه بالمرَّة، بل بيانُ أنَّهم أحقُّ بها منه.

وفي «الكشاف»: إنَّ في هذه الآية دليلًا على أنَّ الإنسان هو الذي يختارُ الشقاوةَ والسعادة ويُحصِّلهما لنفسه، وليس من الله تعالى إلا التمكينُ، ولا مِن الشيطان إلا التزيينُ، ولو كان الأمر كما تزعمُ المجبرة لقال: فلا تلوموني

---

(١) البيت لجِرَان العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧ ـ وفيه: بسابسًا، بدل: وبلدة ـ وخزانة الأدب ١٠/ ١٧.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٨.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١١١.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٨.

ولا أنفسَكم، فإنَّ الله تعالى قد قضَى عليكم الكفرَ وأجبرَكم عليه، وليس قولُه المحكيُّ باطلًا لا يصحُّ التعلُّقُ به، وإلا لبيَّن الله سبحانه بطلانَه وأظهرَ إنكاره، على أنَّه لا طائلَ في النطق بالباطل في ذلك المقام، ألا تَرى كيف أتى بالصدق الذي لا ريبَ فيه في قوله: «إنَّ الله وعَدَكم» إلى آخره. وقوله: «وما كانَ لي عليكم» إلى آخره[1]. اهـ.

واعترض قوله: وإلا لبيَّن سبحانه بطلانَه، بأنَّه ينقلبُ عليه في قول المستكبرين: «لو هدانا الله لهديناكم» إذ لم يُعقَّب بالبطلان على وجه التَّوْرِيك الذي ادَّعاه، وكذلك قوله: على أنَّه لا طائلَ.. إلى آخره.

والجوابُ أنَّ الأوَّل غيرُ متعيِّنٍ لذلك الوجه كما سمعتَ، ومع ذلك قد عقَّب بالبطلان في مواضعَ عديدةٍ، ويكفي حكاية الكذب عنهم في ذلك الموطن، وذلك في الموطن على توهُّم أنَّه نافعٌ كما حكَى الله تعالى عنهم، أمَّا بعدَ قضاء الأمر ودخولِ أهل الجنةِ الجنةَ، والنارِ النارَ فلا يُتوَهَّم لذلك طائلٌ ألبتة؛ لاسيَّما والشيطانُ لا غرضَ له في ذلك، فافترقا قائلًا وموطنًا وحكمًا.

بل الجوابُ أنَّ أهلَ الحقِّ لا يُنكرون توجُّه اللائمة عليهم، وأنَّ الله تعالى مقدَّسٌ عن ذلك، وحجَّته البالغةُ وقضاؤه سبحانه الحقُّ، حيث أثبتُوا للعبد القدرةَ الكاسبةَ التي يدورُ عليها فَلَكُ التكليف وجعلوا لها مدخلًا في ذلك، فإنَّه سبحانه إنَّما يخلقُ أفعالَه حسبما يختارُه، وسَلْبُهم التأثيرَ الذاتيَّ عن قدرته لا ينفي اللوم عنهم، كما بُيِّن في محلِّه[2].

وما ذكره من أنَّه لو كان الأمر.. إلى آخره، مبنيٌّ على عدم الفَرْق بين مذهبِ أهلِ الحقِّ الملقَّبينَ عنده بالمجبرة وبين مَسْلك المجبرة في الحقيقة، والفَرْقُ مثلُ الصبح ظاهرٌ.

هذا، واستدلَّ بظاهر الآية على أنَّ الشيطان لا قدرةَ له على تصريع الإنسان، أو تعويجِ أعضائه وجوارحِه، أو على إزالة عقله؛ لأنَّه نَفَى أنْ يكونَ له تسلُّطٌ

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٤بنحوه.

(٢) منها ما ورد في ٤/٣٤٨-٣٤٩، وما سيأتي في سورة الإنسان عند تفسير الآية (٣٠).

إلا بالوسوسة، وأجاب من زعم القدرة على نحو ذلك بأن المقصود في الآية نفي أن يكون له تسلُّط في أمر الإضلال إلا بمحض الوسوسة، لا نفيَ أنْ يكونَ له تسلُّط أصلًا، والسياقُ أدلُّ قرينةٍ على ذلك.

وانتزع بعضُهم من الآية إبطالَ التقليد في الاعتقاد، قال ابنُ الفرس: وهو انتزاعٌ حسنٌ؛ لأنَّهم اتَّبعوا الشيطان بمجرَّد دعواه ولم يطلبوا منه برهانًا، فحُكيَ ذلك عنهم متضمِّنًا لذمِّهم.

ثم الظاهرُ أن هذه الدعوة من الشيطان ـ أعني إبليس ـ بلا واسطةٍ، وهي إنْ كانت في وقت واحدٍ لمتعدِّدين فممَّا يعسرُ تصوُّره، ولا يبعدُ أنْ يقال: إنَّ له أعوانًا يفعلون كما يفعل، لكن لمَّا كان ذلك بأمره تصدَّى وحدَه لِمَا تصدَّى ونسبت الدعوة إليه، وللإمام الرازي[1] في الآية كلامٌ طويلٌ ساقه لبيان كيفيَّة الدعوة وإلقاء الشيطان الوسوسةَ في قلب الإنسان، وأكثرُه عند المحدِّثين والسلف الصالحين أشبهُ شيءٍ بوساوس الشياطين، ولعلَّ النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى تحقيق ذلك بعون الله تعالى القادر المالك.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، يقال: استصرخَني فأصرختُه، أي: استغاثني فأغثتُه، وأصلُه من الصُّراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزةُ للسلب، كأنَّ المغيثَ يُزيلُ صراخَ المستغيث.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ مما أنا فيه، وفي تعرُّضه لذلك مع أنَّه لم يكن في حيِّز الاحتمال مبالغةٌ في بيان عدم إصراخه إياهم، وإيذانٌ بأنَّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به، ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف له بإصراخ الغير، ولذلك آثرَ الجملة الاسميةَ، والمرادُ استمرارُ النفي وتأكيده[2] لا نفْي الاستمرار، وكذا يقالُ في التأكيد، فكان ما مضَى جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعهم، وهذا جوابُ استغاثتهم واستعانتهم به في دفع ما دَهَمَهم من العذاب.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) قوله: وتأكيده، ليس في (م).

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: «بمصرخيِّ» بكسر الياء[1] على الأصل في التخلُّص من التقاء الساكنَين، وذلك أنَّ الأصل: بمُصْرِخِينَ لي، فأُضيفَ وحُذفَت نونُ الجمع للإضافة، فالتقت ياءُ الجمع الساكنة وياءُ المتكلِّم، والأصل فيها السكون، فكُسِرَت لالتقاء الساكنَين وأُدغمت.

وطعَنَ في هذه القراءة كثيرٌ من النحاة، قال الفرَّاء[2]: لعلَّها مِن زعم القرَّاء، فإنَّه قلَّ مَن سَلِمَ منهم من الوهم. وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا[3]. وقال الأخفش[4]: ما سمعتُ هذا الكسرَ من أحدٍ من العرب، ولا من أحدٍ من النحويين. وقال الزجَّاج[5]: إنَّها عند الجميع رديئةٌ مرذولة، ولا وجهَ لها إلا وُجَيهٌ ضعيفٌ. وقال الزمخشري: هي ضعيفةٌ، واستشهدوا لها ببيتٍ مجهولٍ:

قال لها هلْ لَكِ ياتا فيِّ ... قالَتْ له ما أنتَ بالمَرضيِّ[6]

وكأنَّهم قدَّروا ياءَ الإضافة ساكنةً فحرَّكوها بالكسر لِمَا عليه أصلُ التقاء الساكنَين، ولكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً حيث قبلها ألفٌ نحو: عصايَ، فما بالُها وقبلها ياءٌ؟ والقولُ بأنَّه جَرَت الياءُ الأُولَى مجرَى الحرفِ الصحيح لأجل الإدغام، فكأنَّها ياءٌ وقعَت ساكنةً بعد حرفٍ صحيحٍ ساكنٍ، فحرِّكَت بالكسر على الأصل = ذهابٌ إلى القياس، وهو قياسٌ حسن، ولكنَّ الاستعمال المستفيضَ الذي هو بمنزلة الخبرِ المتواترِ تَتَضاءلُ إليه القياسات[7]. اهـ.

---

(١) قراءة حمزة في التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، ونسبها ليحيى بن وثاب الفراءُ في معاني القرآن ٢/ ٧٥، والنحاسُ في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، والزجاجُ في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٩.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٥٩٩.

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٦) في هامش (م): وقبله:

أقبلَ في ثوبٍ معافريِّ ... عند اختلاط الليل والعشيِّ

اهـ. منه. والبيت للأغلب العجلي كما في خزانة الأدب ٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٣، وقوله: ياتا فيِّ: (يا) حرف نداء، (تا) منادى، وهو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث، و(فيِّ): جار ومجرور متعلقان بخبر مبتدأ محذوف. ينظر خزانة الأدب.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

وقد قلَّد هؤلاء الطاعنين[١] جماعة، وقد وَهِمُوا طعنًا وتقليدًا؛ فإنَّ القراءة متواترةٌ عن السلف والخلف، فلا يجوزُ أنْ يقال فيها: إنَّها خطأٌ أو قبيحةٌ أو رديئةٌ، وقد نقلَ جماعةٌ من العلماء أنَّها لغةٌ لكنَّها قلَّ استعمالُها.

ونصَّ قُطْرب على أنَّها لغةٌ في بني يَربوع فإنَّهم يكسرون ياءَ المتكلِّم إذا كان قبلها ياءٌ أُخرى، ويَصلُونها بهاء كـ: عَلَيِّه ولَدَيِّه، وقد يكتفون بالكسرة، وذلك لغةُ أهل الموصل وكثير من الناس اليوم، وقد حسَّنها أبو عمرو وهو إمامُ لغةٍ وإمامُ نحوٍ وإمامُ قراءةٍ، وعربيٌّ صحيح، ورَوَوا بيتَ النابغة:

علَيِّ لعمرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ لوالدِه ليسَتْ بذاتِ عقاربِ[٢]

بكسر ياءِ: عليّ، فيه، وأنشدوا لذلك أيضاً البيت السابق، وهو للأغلب العجليّ، وجَهْلُ الزمخشريِّ به كالزجَّاج لا يُلتفَتُ إليه، وقولُه: إنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً... إلى آخره، مردودٌ بأنَّه رُوِي سكونُ الياء بعدَ الألف، وقرأ به القُرَّاء في «محيايْ»[٣] [الأنعام:١٦٢] وما ذكره أيضًا قياسٌ مع الفارق، فإنَّه لا يلزمُ من كسرها مع الياء المجانسةِ للكسرة كَسْرها مع الألف الغيرِ المجانسة لها، ولذا فُتحت بعدها للمجانسة، وكونُ الأصل في هذه الياء الفتحَ في كلِّ موضع غيرُ مسلَّم، كيف وهي من المبنيَّات، والأصلُ في المبنيِّ أنْ يُبنَى على السكون.

ومن الناس من وجَّه القراءة بأنَّها على لغة مَن يَزيدُ ياءً على ياء الإضافة إجراءً لها مجرى هاء الضمير وكافِهِ، فإنَّ الهاء قد تُوصَلُ بالواو إذا كانت مضمومةً كـ: هذا لهو، وضَرَبَهو، وبالياء إذا كانت مكسورةً نحو: بِهِي، والكافُ قد تلحقُها الزيادة فيقال: أعطيتُكاه وأعطيتُكِيْهِ إلا أنَّه حُذفت الياءُ هنا اكتفاءً بالكسرة.

وقال البصير[٤]: كسر الياء ليكونَ طبقًا لكسر الهمزة في قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾

---

(١) في (م): الطاغين.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٩.

(٣) وهي قراءة قالون وورش وأبي جعفر كما في التيسير ص١٠٨، والنشر ٢/٢٦٨.

(٤) لعله: أبو علي الفضل بن جعفر بن الفضل النخعي، كان أديباً ظريفاً بليغاً، وكان أعمى، فلقِّب بالبصير، وقيل: لقِّب بالبصير لذكائه وفطنته. (ت٢٥١هـ). معجم الشعراء للمرزباني ص١٨٥، ولسان الميزان ٦/٣٣٦.

لأنَّه أرادَ الوصل دون الوقف والابتداء بذلك، والكسرُ أدلُّ على الوصل من الفتح[١]، وفيه نظر.

وبالجملة لا ريبَ في صحَّة تلك القراءةِ، وهي لغةٌ فصيحةٌ، وقد روي أنَّه تكلَّم بها رسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي وشرحِ حاله عليه الصلاة والسلام لورقةَ بنِ نَوفل[٢] رضي الله عنه، فإنكارُها محضُ جهالةٍ.

وأراد بقوله: «إنِّي كفرتُ»: إنِّي كفرتُ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: من قبل هذا اليوم، يعني في الدنيا.

و«ما» مصدريةٌ و«مِن» متعلِّقةٌ بـ «أشركتموني» أي: كفرتُ بإشراكِكُم إيَّايَ لله تعالى في الطاعة؛ لأنَّهم كانوا يُطيعونه في أعمال الشرِّ كما يُطاعُ الله تعالى في أعمال الخير، فالإشراك استعارةٌ بتشبيه الطاعةِ به وتنزيلها منزلتَه، أو لأنَّهم لمَّا أشركوا الأصنام ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنَّهم أشركوه، والكفرُ مجازٌ عن التبرِّي كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: ١٤] ومرادُ اللَّعين أنَّه إنْ كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، وخَيَّل إليكم أنَّ لكم حقًّا عليَّ فإني تبرَّأتُ من ذلك ولم أحمَدْه، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقةٌ، وإرادة اليوم حسبما ذكرنا هو الظاهر، فيكونُ الكلام محمولًا على إنشاء التبرِّي منهم يومَ القيامة.

وجوَّز النسفيُّ أنْ يكونَ إخبارًا عن أنَّه تبرَّأ منهم في الدنيا، فيكون «مِن قبلُ» متعلِّقًا بـ «كفرتُ» أو متنازعًا فيه[٣].

وجوَّز غير واحدٍ أن تكون «ما» موصولةً بمعنى «مَن» كما قيل في قولهم: سبحان ما سَخَّرَكُنَّ لنا، والعائدُ محذوفٌ، و«مِن قبلُ» متعلِّقٌ بـ «كفرتُ»، أي: إنِّي كفرتُ مِن قبلُ حين أبيتُ السجودَ لآدم عليه السلام بالذي أشركتُمونيه، أي: جعلتُموني شريكًا له بالطاعة وهو الله عزَّ وجلَّ، فـ: أَشْرك، منقولٌ من: شركتُ

(١) مجمع البيان١٣/ ٢١٢.
(٢) بعدها في (م): رضي الله عنه، والخبر في حاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤.
(٣) ينظر تفسير النسفي ٢/ ٤٢٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤ والكلام منه.

زيدًا، للتعدية إلى مفعولٍ ثانٍ، والكلامُ على هذا إقرارٌ من اللَّعين بقِدَم كفره، وبيانٌ لأنَّ خطيئتَه سابقةٌ عليهم فلا إغاثةَ لهم منه، فهو في المعنى تعليلٌ لعدم إصراخه إياهم.

وزعم الإمام: أنَّه لنفي تأثيرِ الوسوسةِ، كأنَّه يقول: لا تأثيرَ لوَسوستي في كفركم، بدليل أنِّي كفرتُ قبلَ أنْ وقعتُم في الكفر بسبب وسوسةٍ أخرى، وإلا لزِمَ التسلسل، فثبتَ بهذا أنَّ سبب الوقوع في الكفر شيءٌ آخرُ سوى الوسوسة[1]. وكان الظاهر على هذا تقديمه على قوله: «ما أنا بمصرخكم» إلى آخره، ولا يظهرُ لتأخيره نكتةٌ يَهَشُّ لها الخاطرُ.

ومنهم مَن جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إياه، وهو مما لا وجهَ له، إذ لا احتمالَ لذلك حتى يحتاج إلى التعليل، وقيل: لأنَّ تعليل عدم إصراخهم بكفره يُوهم أنَّهم بسبيلٍ من ذلك لولا المانعُ من جهته.

واعترض بأنَّ نحو هذا الإيهام جارٍ في الوجه الأول، وهم الكفرةُ الذين لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين.

وتَعقَّب في «البحر» القولَ بالموصولية، بأنَّ فيه إطلاقَ «ما» على الله تعالى، والأصحُّ فيها أنَّها لا تُطلَق على آحاد مَن يعلم[2]. و«ما» في: سبحان ما سخَّركُنَّ، يجوز أنْ تكون مصدريةً بتقدير مضافٍ، أي: سبحان مُوجد أو ميسِّر تسخيركُنَّ لنا.

وقال الطيبي: إنَّ «ما» لا تُستعمل في ذي العلم إلا باعتبار الوصفية فيه وتعظيم شأنه، والمثال على ذلك، أي: سبحانَ العظيمِ الشأنِ الذي سخَّركنَّ للرجال مع مكركنَّ وكيدكنَّ، وكون «ما» موصولةً عبارة عن الصنم، أي: إنِّي كفرتُ بالصنم الذي أشركتُمونيهِ، مما لا ينبغي أنْ يُلتفَتَ إليه.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ الظاهرُ أنَّه من تمام كلامِ إبليسَ قطعًا لأطماع الكفار من الإغاثة والإعانة، وحَكَى اللهُ تعالى عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت ليكونَ تنبيهًا للسامعين وحثًّا لهم على النظر في عاقبتهم والاستعدادِ لما لا بدَّ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٥.

(٢) الكلام من النهر الماد على هامش البحر ٥/ ٤٢٠.

منه، وأنْ يَتصوَّروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما ينفعُهم هناك.

وقيل: إنه من كلام الخزنةِ يوم ذاك.

وقيل: إنَّه ابتداءُ كلامٍ من جهته تعالى، وأُيِّد بأنَّه قرأ الحسنُ، وعمرو بنُ عبيد: «أُدخلُ»[1] في قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بصيغة المضارع المسنَدِ إلى المتكلِّم، وأنت تعلم أنَّه إذا اعتبرت هذه القراءة مؤيِّدةً لهذا القول، فلتعتبر قراءة الجمهور: «أُدخلَ» بصيغة الماضي المبنيِّ للمفعول مؤيِّدةً لمَا قبله، فإنَّ المُدخلين الملائكةُ عليهم السلام، فتأمَّل.

وكأنَّ الله تعالى لمَّا جمعَ الفريقَين في قوله سبحانه: (وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا) وذكَرَ شيئًا من أحوال الكفار ذكر ما آل إليه أمرُ المؤمنين من إدخالهم الجنةَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره سبحانه أو بتوفيقه وهدايته جلَّ شأنُه، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أُدخلَ» على قراءة الجمهور. وفي التعرُّض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطفِ بهم.

وعلَّقه جماعةٌ على القراءة الأُخرَى بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يُحيِّيهم الملائكةُ بالسلام بإذن ربِّهم. وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تقديمَ معمول المصدر المنحَلِّ بحرفٍ مصدريٍّ وفعلٍ عليه، وهو غيرُ جائز[2]، لِمَا أنَّ ذلك في حكم تقديمِ جزءٍ من الشيء المرتَّب الأجزاء عليه. ورُدَّ بأنَّ الظاهرَ أنَّه هنا غيرُ منحلٍّ إليهما؛ لأنَّه ليس المعنى المقصود منه أنْ يُحيَّوا فيها بسلام، ولو سَلِمَ فمراد القائل بالتعلُّقِ التعلُّقُ المعنويُّ، فالعاملُ فيه فعلٌ مقدَّرٌ يدلُّ عليه «تحيتهم» أي: يُحيّون بإذن ربِّهم.

وقال العلامة الثاني: الأظهرُ أنَّ التقديم جائزٌ إذا كان المعمولُ ظرفًا أو شِبهَهُ، وهو في الكلام كثير. والتقديرُ تكلُّفٌ، وليس كلُّ مؤوَّلٍ بشيء حكمه حكم ما أُوِّلَ

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

به، مع أنَّ الظرف مما يكفيه رائحة من الفعل؛ لأنَّ له شأنًا ليس لغيره، لتنزُّله من الشيءِ منزلةَ نفسِهِ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه، ولهذا يُتَّسَعُ[١] في الظروف ما لا يُتَّسعُ في غيرها. اهـ.

وبالجواز أقولُ، وإنَّما لم يجعله المحقِّقون متعلِّقًا بـ «أُدخل» على تلك القراءة مع أنَّه سالم من الاعتراض ومشتَمِلٌ على الالتفات أو التجريد، وهو من المحسِّنَات؛ لأنَّ قولك: أدخلته بإذني، ركيكٌ لا يناسبُ بلاغةَ التنزيل، والالتفاتُ أو التجريد حاصلٌ إذا عُلِّق بما بعدَه أيضًا.

وفي «الانتصاف» الصارفُ عن هذا الوجه، هو أنَّ ظاهر «أُدخلُ» بلفظ المتكلِّم يُشعرُ بأنَّ إدخالهم الجنةَ لم يكن بواسطةٍ بل من الله تعالى مباشرةً، وظاهرُ الإذن يُشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافرٌ، واستَحْسَنَ أنْ يعلَّق بـ «خالدين»، والخلودُ غيرُ الدخول فلا تنافر[٢].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ ذلك لا يدفعُ الركاكة، وكأنَّه لما أنَّ الإذن للدخول لا للاستمرار بحسب الظاهر، وكونُ المرادِ: بمشيئتي وتيسيري لا يدفعُ ذلك عند التأمُّل الصادق، فما ذهب إليه ابنُ جني[٣] واستَطيبَه الشيخ الطيبيُّ وارتضاه، ليس بشيءٍ لمن سلم له ذوقه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب لسيِّد المخاطبين ﷺ، وقيل: لمن يصلُح له، والفعل معلّقٌ بما بعده من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمله ووضَعَه في موضعه اللائق به. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نُصبَ على البدلية من «مثلًا»، و«ضَرَبَ» متعدِّية إلى مفعول واحد كما ذهب إلى ذلك الحوفيُّ والمهدويُّ وأبو البقاء[٤]، وهو على ما قيل: بدلُ اشتمال، ولو جُعل بدل كلٍّ مِن كلٍّ لم يَبعُد.

واعترض عليه بأنَّه لا معنى لقولك: ضَرَبَ الله كلمةً طيِّبةً، إلا بضمِّ «مثلًا» إليه، فـ «مثلًا» هو المقصود بالنسبة، فكيف يُبدل منه غيرُه، ولا يخفَى أنَّ هذا بناء

---

(١) في (م): اتسع.
(٢) الانتصاف ٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٣) المحتسب ١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

على ظاهر قول النحاة: إنَّ المبدل منه[١] في نية الطرح، وهو قولٌ[٢] غيرُ مسلَّم.

وقوله سبحانه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ صفةُ «كلمة»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي كشجرةٍ، وجوّز أن يكونَ «كلمة» منصوبًا بمضمَر، و«ضَرَبَ» أيضًا متعدِّيةً لواحد، أي: جعل كلمةً طيبة كشجرةٍ طيبة، أي: حكم بأنَّها مثلها، والجملةُ تفسيرٌ لقوله سبحانه: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا) كقولك: شرَّف الأميرُ زيدًا، كساهُ حُلَّةً وحمله على فرس.

وتَعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تكلُّفَ إضمار لا ضرورة تدعو إليه[٣]. وأجابَ عنه السمين بما فيه بحثٌ[٤].

وجوِّز أيضًا أن يكونَ «ضَرَبَ» المذكور متعدِّيًا إلى مفعولَين، إمَّا لكونه بمعنى جَعَل واتَّخذ، أو لتضمينه معناه، و«كلمةً» أوَّلُ مفعوليه قد أُخِّر عن ثانيهما أعني «مثلًا» لئلَّا يَبعُدَ عن صفته التي هي «كشجرةٍ»، قيل: ولا يرد على هذا بأنَّ المعنى: أنَّه تعالى ضرَبَ لكلمة طيِّبة مثلًا لا كلمةً طيِّبةً مثلًا؛ لأنَّ المثل عليه بمعنى الممثَّل به، والتقدير: ذات مثلٍ، أَوْلها مثلًا.

وقرئ: «كلمةٌ» بالرفع[٥] على الابتداء لكونها نكرةً موصوفةً، والخبرُ «كشجرةٍ»، ويجوز أنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و«كشجرة» صفة أخرى.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضاربٌ بعروقه في الأرض.

وقرأ أنس بنُ مالك: «كشجرة طيبةٍ ثابتٍ أصلُها»[٦] وقراءة الجماعة على الأصل، وذكروا أنَّها أقوى معنًى، قال ابنُ جني: لأنَّك إذا قلت: ثابتٌ أصلُها، فقد أجريت الصفة على «شجرة» وليس الثباتُ لها إنما هو للأصل، والصفةُ إذا كانت في المعنى لِمَا هو من سبب الموصوفِ قد تَجري عليه لكنَّها أخصُّ بما هي له

---

(١) قوله: منه، ليس في (م).
(٢) قوله: قول، ليس في (م).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٤) الدر المصون ٧/ ٩٩.
(٥) الإملاء ٣/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٦) المحتسب ١/ ٣٦٢، والكشاف ٢/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

لفظًا ومعنًى، فالأحسن تقديمُ الأصل عنايةً به، ومِن ثَمَّ قالوا: زيدٌ ضربته، فقدَّموا المفعول عنايةً به حيث إنَّ الغرض ليس ذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول، ثُم لم يَقنعوا بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه ربَّ الجملة لفظًا فرفعوه بالابتداء، وصار «ضربته» ذيلًا له وفضلةً ملحقةً به، وكذلك قولُك: مررْتُ برجلٍ أبوه قائمٌ، أقوى معنًى من قولك: مررتُ برجلٍ قائم أبوه؛ لأنَّ المخبَر عنه بالقيام إنما هو الأب لا الرجل مع ما في التقديم هنا من حُسْنِ التقابل والتقسيم إلا أنَّ لقراءة أنس وجهًا حسنًا، وهو أنَّ «ثابت أصلُها» صفةُ الشجرة، وأصلُ الصفة أنْ تكونَ اسمًا مفردًا؛ لأنَّ الجملة إذا وقعَت صفةً حُكم على موضعها بإعراب المفرد، وذلك لم يبلغ مبلغَ الجملة، بخلاف: «أصلُها ثابتٌ» فإنَّه جملةٌ قطعًا[1].

وقال بعضُهم: إنَّها أبلغُ. ولم يذكر وجْهَ ذلك، فزعم مَن زعم أنَّه ما أُشير إليه من وجه الحسن، وهو بمعزلٍ عن الصواب.

وقال ابنُ تمجيد: هو أنَّه كوصف الشيء مرَّتَين، مرةً صورةً ومرةً معنًى، مع ما فيه من الإجمال والتفصيل، كما في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فإنَّه لما قيل: «كشجرةٍ طيبةٍ ثابت» تبادَر الذهن مِن جَعْل «ثابت» صفةً لـ «شجرةٍ» صورةُ أنَّ شيئًا من الشجرة متَّصفٌ بالثبات، ثم لمَّا قيل: «أصلُها» عُلم صريحًا أنَّ الثبات صفةُ أصلِ الشجرة.

وقيل: كونُها أكثرَ مبالغةً لجعل الشجرةِ بثبات أصولها ثابتةً بجميع أغصانها، فتدبَّر.

﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها من قولهم: فَرَعَ الجبلَ: إذا علاه، وسمِّي الأعلى فرعاً؛ لتفرُّعه على الأصل، ولهذا أُفرِدَ، وإلا فكلُّ شجرةٍ لها فروعٌ وأغصانٌ. ويجوزُ أن يُراد به الفروع؛ لأنَّه مضافٌ، والإضافة حيث لا عهدَ تردُ للاستغراق، أو لأنَّه مصدرٌ بحسب الأصل، وإضافته على ما اشتهر تفيدُ العمومَ فكأنَّه قيل: وفروعها ﴿فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: في جهة العلوِّ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقت أقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها جلَّ شأنه.

---

(١) ينظر المحتسب ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٥.

والمراد بالكلمة الطيبة شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، على ما أخرجَهُ البيهقيُّ وغيرُه عن ابن عباس[١]، وعن الأصمِّ أنَّها القرآن، وعن ابن بحر: دعوة الإسلام، وقيل: التسبيحُ والتنزيهُ، وقيل: الثناءُ على الله تعالى مطلقًا، وقيل: كلُّ كلمةٍ حسنةٍ، وقيل: جميعُ الطاعات، وقيل: المؤمنُ نفسُه، وأخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[٢]، وهو خلاف الظاهر، وكأنَّ إطلاقَ الكلمة عليه نظيرُ إطلاقها على عيسى عليه السلام.

والمرادُ بالشجرة المشبَّه بها النخلةُ عند الأكثرين، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد.

وأخرج عبد الرزاق والترمذيُّ وغيرُهما عن شُعيب بن الحَبْحَاب قال: كنَّا عند أنس فأُتينا بطَبَقٍ عليه رُطَبٌ، فقال أنس لأبي العالية: كُلْ يا أبا العالية فإنَّ هذا من الشجرة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: «ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة ثابت أصلها»[٣].

وأخرج الترمذيُّ أيضاً والنسائيُّ وابنُ حبان والحاكم وصححه عن أنس قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ من بُسرٍ، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قال: «هي النخلة»[٤].

وأخرج ابنُ مردويه[٥] عن ابن عباس أنَّها شجرةُ جوز الهند.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ (٢٠٦)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، وفيه: علي بن أبي طلحة مولى بني العباس. قال ابن حجر في التقريب: أرسل عن ابن عباس ولم يره، صدوق قد يخطئ.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٦، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٥.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٤٢، وسنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١١٠، وفي الأصل: أصلها ثابت، والمثبت من الطبري والدر المنثور ٤/ ٧٦، وهي قراءة أنس رضي الله عنه كما مرَّ.

(٤) سنن الترمذي (٣١١٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٨)، وصحيح ابن حبان (٤٧٥)، والمستدرك ٢/ ٣٥٢، وذكر الترمذي أن الموقوف أصحُّ، والقِناعُ: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية: (قنع).

(٥) كما في الدر المنثور ٤/ ٧٧.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عنه ﷺ أيضًا أنَّها شجرةٌ في الجنة[١]. وقيل: كلُّ شجرةٍ مثمرة طيبةِ الثمار كالنخلة وشجرةِ التين والعنب والرُّمَّان وغير ذلك، وأنت تعلم أنه إذا صحَّ الحديث، ولم يتأتَّ حملُ ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدولُ عنه.

ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادةِ أن لا إله إلا الله بهذه الشجرةِ المنعوتة بما ذكر أنَّ أصلَ تلك الكلمةِ ومنشأها ـ وهو الإيمان ـ ثابتٌ في قلوب المؤمنين، وما يتفرَّع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء، وما يترتَّب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرةُ التي تؤتيها كلَّ حين، ويقال نحو هذا على تقدير أنْ تكون الكلمةُ بمعنًى آخر، فتأمَّل.

والذاهبون إلى تفسير الشجرةِ بالنخلة من السلف اختلفوا في مقدار الحين، فأخرج البيهقيُّ عن سعيد بن المسيب أنَّه شهران قال: إنَّ النخلةَ إنما يكونُ فيها حملُها شهرَين[٢].

وأخرج ابنُ جرير عن مجاهد أنَّه سنة[٣]، وقيل غيرُ ذلك.

واختلفَت الرواياتُ عن ابن عباس، والأشهرُ أنَّه فسَّره بستَّة أَشهُر، وقال: إنَّ النخلة ما بينَ حملها إلى صرامها ستَّةُ أشهر، وأفتى ﷺ لرجلٍ حلَفَ أنْ لا يُكلِّم أخاه حِينًا أنَّه لو كلَّمه قبل ستَّةِ أشهر، حنَثَ[٤]. وهو الذي قال به الحنفية، فقد ذكروا أنَّ الحين والزمان معرَّفَين أو منكَّرين واقعَين في النفي أو في الإثبات ستَّة أشهر، وعلَّلوا ذلك بأنَّ الحين قد جاء بمعنَى الساعةِ، وبمعنى أربعينَ سنةً، وبمعنى الأبد، وبمعنى ستَّةِ أَشهُر، فعند عدم النية ينصرفُ إليه؛ لأنَّه الوسط؛ ولأنَّ القليل لا يقصَدُ بالمنع لوجود الامتناع فيه عادةً، والأربعونَ سنةً لا تُقصَدُ بالحلف عادةً لأنَّه في معنى الأبد، ولو سكت عن الحين تأبَّد، فالظاهرُ أنَّه لم يقصد ذلك، ولا الأبدَ ولا أربعينَ سنةً، فيحكم بالوسط في الاستعمال، والزمان استعمل استعمال الحين. ويعتبر ابتداء الستَّةِ أشهر من وقت اليمين في نحو: لا أكلِّم فلانًا

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٦٢، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٩.
(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٧.

حينًا، مثلًا، وهذا بخلاف: لَأصومَنَّ حينًا، فإنَّ له أنْ يُعيِّن فيه أيَّ ستةِ أشهر شاء كما بُيِّن في محلِّه، ومتى نوى الحالفُ مقدارًا معيَّنًا في الحين وأخيه، صُدِّق؛ لأنَّه نوى حقيقةَ كلامه؛ لأنَّ كلًّا منهما للقدر المشترك بين القليل والكثير والمتوسط، واستعمل في كلٍّ كما لا يخفى على المتتبع فليتذكر.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ضربها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنَّه تصويرُ المعاني العقلية بصُوَر المحسوسات، وبه يرتَفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمةُ الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب، أو كلُّ كلمةٍ لا يرضاها الله تعالى. وقرئ: «ومثلَ» بالنصب[1] عطفًا على «كلمةً طيبةً»، وقرأ أُبيٌّ: «وضَرَبَ الله مثلًا كلمة خبيثة»[2].

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ولعلَّ تغييرَ الأسلوب على قراءة الجماعة، للإيذان بأنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالضرب والبيان، وإنما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كلُّ أحد، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: كمثل شجرةٍ خبيثة، والمثل بمعنى الصفة الغريبة[3].

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتُلِعَت من أصلها، وحقيقةُ الاجْتِثاثِ: أَخذُ الجثة، وهي: شخصُ الشيء كلها ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبةً من الفوق فكأنَّها فوق ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: استقرارٍ على الأرض، والمرادُ بهذه الشجرةِ المنعوتة الحنظلةُ، ورُوي ذلك أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ[4]، وعن الضحاك أنَّها الكَشُوث[5]، ويُشبَّه به الرجلُ الذي لا حسَبَ له ولا نسَبَ كما قال الشاعر:

فهو الكَشُوث فلا أصلٌ ولا وَرَقٌ ... ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ[6]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٣) قوله: والمثل بمعنى الصفة الغريبة، ليس في الأصل.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١١٩)، والطبري ١٣/ ٦٥٤، وابن حبان (٤٧٥)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والحاكم ٢/ ٣٥٢ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥) الكَشُوث: نبتٌ يتعلَّق بالأغصان ولا عرقَ له في الأرض. القاموس (كشث).

(٦) مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤، وتصحيح التصحيف ص١٢٣، والصحاح (كشث).

وقال الزجّاج[١] وفرقةٌ: شجرةُ الثُّوم، وقيل: شجرةُ الشَّوك، وقيل: الطُّحْلَب، وقيل: الكَمْأَةُ، وقيل: كلُّ شجرٍ لا يطيبُ له ثمر، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّها شجرةٌ لم تُخلَق على الأرض.

والمقصودُ التشبيه بما اعتبر فيه تلك النعوت. وقال ابنُ عطية: الظاهرُ أنَّ التشبيهَ وقعَ بشجرةٍ غيرِ معيَّنة جامعة لتلك الأوصاف[٢]، وفي رواية عن الحبر أيضًا تفسيرُ هذه الشجرة بالكافر.

وروَى الإمامية ـ وأنت تعرفُ حالَهم ـ عن أبي جعفر رضي الله عنه تفسيرَها ببني أمية، وتفسيرُ الشجرة الطيبةِ برسول الله ﷺ وعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمةَ رضي الله عنهما وما تولَّد منهما.

وفي بعض روايات أهل السنة ما يُعكِّر على تفسير الشجرةِ الخبيثة ببني أمية، فقد أخرج ابنُ مردويه عن عديِّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قَلَّب العبادَ ظهرًا وبَطْنًا فكان خَيرُ عبادِهِ العربَ، وقلَّبَ العربَ ظهرًا وبطنًا فكانَ خَيرُ العرب قريشًا، وهي الشجرةُ المباركةُ التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[٣]» لأنَّ بني أميةَ من قريش، وأخبارُ الطائفتَين في هذا الباب ركيكةٌ، وأحوالُ بني أميةَ التي يستحقُّون بها ما يستحقُّون غيرُ خفيةٍ عند الموافقِ والمخالفِ.

والذي عليه الأكثرون في هذه الشجرة الخبيثة أنَّها الحنظل، وإطلاقُ الشجرة عليه للمشاكلة، وإلا فهو نَجْمٌ لا شجَرٌ، وكذا يقال في إطلاقه على الكَشوث ونحوه.

وللإمام الرازي[٤] قدِّس سرُّه كلامٌ في هذَين المثَلَين لا بأس بذكره ملخَّصًا،

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٧/ (٢٠١)، وفي إسناده: حصين السلولي، قال الذهبي في الميزان ١/ ٥٥٤: قال الدارقطني: يضع الحديث، ونقل ابن الجوزي أن ابن حبان قال: لا يجوز الاحتجاج به.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١١٦.

وهو أنَّه تعالى ذكر في المَثَل الأوَّل شجرةً موصوفةً بأربعِ صفاتٍ، ثم شبَّه الكلمةَ الطيبةَ بها:

الصفة الأُولَى: كونها «طيبة» وذلك يحتمل كونَها طيبةَ المنظر، وكونَها طيبةَ الرائحة، وكونها طيبةَ الثمرة، بمعنى كونها لذيذةً مستطابةً، وكونَها طيبةَ الثمرة بمعنى كثرة الانتفاع بها، ويجبُ إرادةُ الجميع، إذ به يحصل كمالُ الطيب.

والثانية: كون أصلها ثابتًا، وهو صفةُ كمالٍ لها؛ لأنَّ الشيءَ الطيب إذا كان في معرض الزوال فهو وإن كان يحصل الفرحُ بوِجْدانه إلا أنَّه يعظمُ الحزنُ بالخوف من زواله، وأمَّا إذا لم يكن كذلك، فإنَّه يعظمُ السرورُ به من غير ما يُنغِّص ذلك.

والثالثة: كون «فرعها في السماء» وهو أيضًا صفةُ كمال لها، لأنَّها متى كانت مُرتَفعةً كانت بعيدةً عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية، فكانت ثمرتُها نقيَّةً خالصةً عن جميع الشوائب.

والرابعة: كونها دائمة الثمر لا أنَّ ثمرَها حاضرٌ في بعض الأوقات دون بعض، وهو صفةُ كمالٍ أيضًا، إذ الانتفاع بها غيرُ مُنقَطعٍ حينئذ.

ثم إنَّ من المعلوم بالضرورة أنَّ الرغبةَ في تحصيل مثل هذه الشجرة يجبُ أن تكونَ عظيمةً، وأنَّ العاقلَ متى أمكنه تحصيلها ينبغي أنْ يقوم له على ساقٍ ولا يتساهل عنه، والمرادُ من الكلمة المشبهةِ بذلك معرفةُ الله تعالى، والاستغراقُ في محبته سبحانه وطاعته، وشبَّه ذلك للشجرة في صفاتها الأربع:

أمَّا في الأولَى فظاهرٌ بل لا لذةَ ولا طيبَ في الحقيقة إلا لهذه المعرفة؛ لأنَّها ملائمةٌ لجوهر النفس النُّطقيَّةِ والروح القدسية، ولا كذلك لذة الفواكه، إذ هي أمرٌ ملائم لمزاج البدن، ومن تأمَّل أدنَى تأمُّلٍ ظهر له فروقٌ لا تُحصَى بين اللذَّتَين.

وأما في الصفة الثانية: فثبوتُ الأصل في شجرة معرفة الله تعالى أقوَى وأكملُ؛ لأنَّ عروقها راسخة في جوهر النفس القدسية، وهو جوهرٌ مجرَّدٌ آمنٌ عن الكون والفساد، بعيدٌ عن التغير والفناء، وأيضًا مَدَدُ هذا الرسوخِ إنما هو من تجلِّي جلالِ الله تعالى، وهو من لوازم كونه سبحانه في ذاته نورَ النور ومبدأَ الظهور، وذلك مما يمتنعُ عقلًا زواله.

وأما في الصفة الثالثة فلأنَّ شجرةَ المعرفةِ لها أغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الإلهي، وأغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الجسماني:

والنوعُ الأوَّل: أقسامُه كثيرةٌ يجمعُها قولُه ﷺ: «التعظيمُ لأمر الله تعالى»[١] ويدخلُ فيه التأمُّل في دلائل معرفتِه سبحانه كأحوال العوالمِ العلويَّةِ والسفليةِ، وكذا محبَّةُ الله تعالى والتشوُّقُ إليه سبحانه، والمواظبةُ على ذكره جلَّ شأنه، والاعتمادُ عليه وقَطْعُ النظر عمَّا سواه جلَّ وعلا إلى غير ذلك.

والنوع الثاني: أقسامُه كذلك، ويجمعُها قوله عليه الصلاة والسلام: «والشفقةُ على خلق الله تعالى»[٢] ويدخل فيه الرأفةُ والرحمةُ والصفحُ، والتجاوز عن الإساءة، والسعيُ في إيصال الخير إلى عباد الله تعالى، ودفع الشرور عنهم ومقابلة الإساءة بالإحسان إلى ما لا يُحصَى، وهي فروعٌ من شجرة المعرفةِ فإنَّ الإنسان كلَّما كان متوغِّلاً فيها كانت هذه الأحوالُ عنده أكمل وأقوى.

وأمَّا في الصفة الرابعة فلأنَّ شجرة المعرفةِ موجبةٌ لِمَا علمت من الأحوال، ومؤثِّرةٌ في حصولها، والسببُ لا ينفكُّ عن المسبَّب[٣]، فدوامُ أكلِ هذه الشجرةِ أتمُّ من دوام أكل الشجرة المنعوتة، فهي أَولَى بهذه الصفةِ، بل ربما توغَّل العبدُ في المعرفة، فيصيرُ بحيث كلَّما لاحظَ شيئًا لاحظ الحقَّ فيه، وربما عَظُم تَرَقِّيه فيصيرُ لا يرى شيئًا إلا يرى الله تعالى قِبَله، وأيضًا قد يحصل للنفس من هذه المعرفةِ إلهامات نفسانيةٌ ومَلَكات روحانية، ثم لا يزال يصعد منها في كلِّ حينٍ ولحظة كلامٌ طيِّب وعملٌ صالح وخضوعٌ وخشوعٌ وبكاءٌ وتذلُّلٌ كثمرة هذه الشجرة.

وفي قوله سبحانه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ دقيقةٌ عجيبةٌ، وذلك لأنَّ الإنسانَ عند حصول هذه الأحوالِ السنيَّةِ والدرجاتِ العليةِ قد يفرح بها من حيث هي هي، وقد يَتَرَقَّى

---

(١) قطعة من حديث ذكره الصغاني في الموضوعات ص٦٤، قال السخاوي في المقاصد ص٢٥٣: معناه صحيح في كثير من الأحاديث، وأما خصوص هذا اللفظ فلا أعرفه، وقال الملا علي القاري في الموضوعات الكبرى ص٢٢٦: ومن كلام بعض المشايخ حيث قال: مدار الأمر على شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

(٢) ينظر التعليق السابق.

(٣) في (م): والمسبب لا ينفك عن السبب.

فلا يفرح بها كذلك، وإنما يفرحُ بها من حيث إنَّها من المولَى جلَّ جلاله، وعند ذلك يكونُ فرحُه في الحقيقة بالمولى تبارك وتعالى، ولذلك قال بعضُ المحقِّقين: مَن آثَرَ العِرفان للعرفان فقد وَقَفَ بالساحل، ومَن آثَرَ العِرفان لا للعِرفان بل للمعروف فقد خاضَ لُجَّةَ الوصول.

وذكر بعضُهم في هذا المثال كلامًا لا يخلو عن حُسْن، وهو أنَّه إنما مثَّل سبحانه الإيمان بالشجرة؛ لأنَّ الشجرة لا تستحقُّ أنْ تسمَّى شجرةً إلا بثلاثة أشياء: عِرْقٌ راسخٌ، وأصلٌ قائم، وأغصانٌ عالية، فكذلك الإيمانُ لا يتمُّ إلا بثلاثة أشياء: معرفةٌ في القلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان. ولم يرتَضِ قدِّس سرُّه تفسيرَ الشجرةِ بالنخلة، ولا الحينَ بما شاع فقال ـ بعد نقل كلام جماعة ـ: إنَّ هؤلاء وإنْ أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظِ الآية إلا أنَّهم بَعُدُوا عن إدراك المقصود؛ لأنَّه تعالى وصَفَ شجرةً بالصفات المذكورة، ولا حاجةَ بنا إلى أنَّ تلك الشجرة هي النخلة أم غيرُها، فإنَّا نعلمُ بالضرورة أنَّ الشجرةَ الكذائيةَ يسعَى في تحصيلها وادِّخارها لنفسه كلُّ عاقل، سواءٌ كان لها وجودٌ في الدنيا أو لم يكن؛ لأنَّ هذه الصفةَ أمرٌ مطلوبُ التحصيل.

واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله تعالى أعلم.

وذكر تباركَ وتعالى في المثل الثاني شجرةً أيضًا إلا أنَّه تعالى وصَفَها بثلاث صفات:

الصفة الأولى: كونها «خبيثة» وذلك يحتملُ أنْ يكونَ بحسب الرائحة، وأن يكونَ بحسب الطعم، وأن يكونَ بحسب الصورة، وأن يكون بحسب اشتمالها على المضارِّ الكثيرة، ولا حاجةَ إلى القول بأنَّها شجرةُ كذا أو كذا، فإنَّ الشجرةَ الجامعةَ لتلك الصفات، وإنْ لم تكن موجودةً إلا أنَّها إذا كانت معلومةَ الصفة كان التشبيهُ بها نافعًا في المطلوب.

والثانيةُ: اجتثاثُها مِن فوقِ الأرضِ، وهذه في مقابلة «أصلها ثابت» في الأول.

والثالثة: نَفْيُ أنْ يكونَ لها قرارٌ، وهذه كالمتمِّمة للصفة الثانية.

والمرادُ بالكلمةِ المشبَّهة بذلك الجهلُ بالله تعالى والإشراكُ به سبحانه، فإنَّه

أوَّلُ الآفات وعنوانُ المخافات ورأسُ الشقاوات، فخبثُه أظهرُ من أنْ يخفَى، وليس له حجَّةٌ ولا ثباتٌ ولا قوَّةٌ، بل هو داحضٌ غيرُ ثابت. اهـ. وهو كلامٌ حسنٌ لكن فيه مخالفةٌ لظواهر كثيرٍ من الآثار، فتأمَّل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت عندهم وتمكَّن في قلوبهم، وهو الكلمةُ الطيبة التي ذُكِرَت صفتُها العجيبة، والظاهرُ أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بـ «يُثَبِّتُ» وكذا قوله سبحانه: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُثبِّتُهم بالبقاء على ذلك مدَّةَ حياتهم فلا يَزِلُّون[1] إذا قُيِّضَ لهم مَن يفتنهم ويُحاول زلَلَهم عنه كما جرى لأصحاب الأخدود[2] ولجرجيس وشمسون، وكما جرى لبلال وكثيرٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ و رضي الله عنهم.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بعد الموت، وذلك في القبر الذي هو أوَّلُ منزلٍ من منازل الآخرةِ، وفي مواقف القيامة، فلا يتلعثَمون إذا سُئلوا عن مُعتقدهم هناك ولا تُدهشُهم الأهوالُ.

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن البراء بنِ عازب أنَّه قال في الآية: التثبيتُ في الحياة الدنيا إذا جاء الملَكان إلى الرجل في القبر قالا له: مَن ربُّك؟ قال: ربِّي الله، قالا: وما دينُك؟ قال: ديني الإسلام، قالا[3]: ومَنْ نبيُّك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ[4]. وعلى هذا فالمرادُ من «الآخرة» يوم القيامة.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ إلخ: «في الآخرةِ: القَبْر»[5]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «الحياة الدنيا» مدَّة الحياة، وإلى ذلك ذهبَ جمهورُ

---

(١) في (م): يزالون.

(٢) سيأتي ذكر قصتهم وتخريجها عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ من سورة البروج.

(٣) في الأصل و(م): قال، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧، وأخرجه بنحوه مرفوعًا أحمد (١٨٥٧٥)، ومسلم (٢٨٧١).

(٥) المعجم الأوسط (٥٥٧٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٤: فيه عطية العوفي وهو ضعيف.

العلماء واختاره الطبريُّ(١). نعم اختار بعضُهم أنَّ «الحياة الدنيا» مدة حياتهم، و«الآخرة» يوم القيامة والعَرْض؛ وكأنَّ الداعي لذلك عمومُ «الذين آمنوا» وشمولهم لمؤمني الأُمم السابقة مع عدم عمومِ سؤالِ القبر.

وجوَّز تعلُّق الجارِّ الأول بـ «آمنوا» على معنى: آمنوا بالتوحيد الخالص، فوحَّدوه ونزَّهوه عمَّا لا يليقُ بجنابه سبحانه، وكذا جوَّز تعلُّق الجارِّ الثاني بـ «الثابت».

ومن الناس مَن زَعَم أنَّ التثبيت في الدنيا الفتحُ والنصرُ، وفي الآخرة الجنةُ والثوابُ، ولا يخفَى أنَّ هذا مما لا يكادُ يُقال، وأمرُ تعلُّقِ الجارَّين ما قدَّمنا، وهذا عند بعضهم مثالُ إيتاء الشجرةِ أُكُلَها كلَّ حين.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: يخلق فيهم الضلالَ عن الحقِّ الذي ثبَّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم، والمرادُ بهم الكفرةُ بدليل مقابلتهم بـ «الذين آمنوا» ووَصَفهم بالظلم إمَّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمَّا باعتبار ظُلمهم لأنفسهم، حيث بدَّلوا فطرةَ الله تعالى التي فَطَر الناسَ عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو حيث قلَّدوا أهلَ الضلال وأعرضُوا عن البينات الواضحةِ، وإضلالُهم - على ما قيل - في الدنيا أنَّهم لا يثبتون في مواقف الفتنِ وتزِلُّ أقدامُهم أول شيءٍ، وهم في الآخرة أضلُّ وأزلُّ.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم والبيهقيُّ من حديث ابن عباس ﵄ أنَّ الكافر إذا حضَرَه الموتُ تنزلُ عليه الملائكةُ عليهم السلام يضربون وجْهَه ودُبُرَه، فإذا دَخل قبرَه أُقعِدَ فقيل له: مَن ربُّك؟ فلم يرجع إليهم شيئًا، وأنساهُ الله تعالى ذكرَ ذلك، وإذا قيل له: مَن الرسولُ الذي بُعِثَ إليكم؟ لم يهتدِ له ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: (وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ)(٢).

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ من تَثْبيت بعضٍ وإضلالِ بعضٍ آخرين حسبما تُوجبُه

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٦٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٦٧ - ٦٦٨، وعذاب القبر للبيهقي ص٣١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٩.

مشيئتُه التابعةُ للحكم البالغة المقتضية لذلك، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعَين من الفخامة وتربيةِ المهابة ما لا يخفَى، مع ما فيه ـ كما قيل ـ من الإيذان بالتفاوت في مبادي التثبيت والإضلال، فإنَّ مبدأ صدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غير ما هو مبدأ صدورِ الآخر، وفي ظاهر الآية من الردِّ على المعتزلة ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعجيبٌ لرسول الله ﷺ أو لكلِّ أحدٍ مما صنَعَ الكفرةُ من الأباطيل، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: شُكرَ نعمتِهِ تعالى الواجب عليهم، ووَضعوا موضعَه ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً وغَمْطًا لها، فالكلامُ على تقدير مضافٍ حُذف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، وهو المفعول الثاني، و«كفرًا» المفعولُ الأوَّلُ، وتوهَّم بعضُهم عكس ذلك.

وقد لا يحتاجُ إلى تقديرٍ على معنى أنَّهم بدَّلوا النعمةَ نفسَها كفرًا؛ لأنَّهم لمَّا كفروها سُلبوها، فبقوا مسلوبيها موصوفين بالكُفر، وقد ذكر هذا كالأول الزمخشريُّ[1]، والوجهان كما في «الكشف» ـ خلافاً لما قرَّره الطيبي وتابعه عليه غيرُه ـ متَّفقان في أنَّ التبديل ها هنا تغييرٌ في الذات، إلا أنَّه واقعٌ بين الشكر والكفر، أو بين النعمة نفسها والكفر، والمرادُ بهم أهلُ مكة، فإنَّ الله سبحانه أسكنَهم حَرَمَه، وجعَلَهم قُوَّامَ بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمةَ الله تعالى بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم، أو أصابَهم الله تعالى بالنعمة والسعةِ لإيلافهم الرحلتَين، فكفروا نعمتَه سبحانه، فضَرَبهم جلَّ جلاله بالقحطِ سبعَ سنينَ، وقُتلوا وأُسروا يومَ بدر، فحصل لهم الكفر بدلَ النعمة، وبقيَ ذلك طوقًا في أعناقهم.

وأخرج الحاكمُ وصحَّحه وابنُ جرير والطبرانيُّ وغيرُهم من طرقٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في هؤلاء المبدِّلين: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة؛ فأمَّا بنو المغيرة فقَطَعَ الله تعالى دابرَهم يوم بدر، وأما بنو أمية فَمُتِّعوا إلى حين[2].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٧.

(٢) المستدرك ٢/ ٣٥٢، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٧٠، والطبراني في الأوسط (٧٧٦).

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه» وابنُ المنذر وغيرُهما عن عمر رضي الله عنه مثل ذلك[١]. وجاء في رواية كما في «جامع الأصول»: «هم والله كفارُ قريش»[٢].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: هم جبلةُ بنُ الأيهم والذين اتَّبعوه من العرب، فلحقوا بالروم[٣]. ولعلَّه رضي الله عنه لا يُريد أنَّها نزلَت في جبلةَ ومَن معه؛ لأنَّ قصتهم كانت في خلافة عمرَ رضي الله عنه، وإنَّما يُريد أنَّها تخصُّ مَن فَعَلَ فِعْلَ جبلةَ إلى يوم القيامة.

﴿وَأَحَلُّوا﴾ أي: أَنزَلُوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الضلال، ولم يتعرَّض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرعُ الحلول كما قالوا في قوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: الهلاك، مِنْ بار يَبُور بَوَارًا وبَوْرًا، قال الشاعر:

فلم أرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحرب إذ خِيفَ البَوارُ[٤]

وأصلُه ـ كما قال الراغبُ ـ فرطُ الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد كما قيل: كَسَد حتى فَسَد، عبَّر به عن الهلاك[٥].

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيان للدار، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفَى من التهويل، وأعربه الحوفيُّ وأبو البقاء بدلًا منها[٦].

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يُقاسون حرَّها، حالٌ من الدار، أو من «جهنم»، أو من «قومهم»، أو استئنافٌ لبيان كيفيَّةِ الحلولِ، وجوَّز أبو البقاء كون «جهنم» منصوبًا على الاشتغال، أي: يصلون جهنَّمَ يصلونها، وإليه ذهب ابنُ

---

(١) التاريخ الكبير ٣/ ٣٧٣بنحوه، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٤، وأخرجه أيضًا الطبري ١٣/ ٦٦٩.

(٢) جامع الأصول ٢/ ٢٠٤، وهي رواية عن علي رضي الله عنه، وأخرجها عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣)، والطبري ١٣/ ٦٧١، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٩٥.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (بور).

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

عطية[١]، فالمرادُ بالإحلال حينئذ تعريضُهم للهلاك بالقتل والأَسْر، وأُيِّد بما روَى عطاء أنَّ الآية نزلَت في قتلَى بدر[٢]، وبقراءة ابن أبي عبلة: «جهنمُ» بالرفع على الابتداء، ويحتملُ أن يكونَ «جهنم» على هذه القراءة خبرَ مبتدأ محذوفٍ، واختاره أبو حيان[٣] معلِّلاً بأنَّ النصب على الاشتغال مرجوحٌ من حيث إنَّه لم يتقدَّم ما يُرجِّحه ولا ما يجعله مساويًا، وجمهورُ القراء على النصب، ولم يكونوا ليقرؤوا بغير الراجح أو المساوي، إذ: زيدٌ ضربتُه، بالرفع أرجحُ من: زيدًا ضربتُه، فلذلك كان ارتفاعُه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ في تلك القراءة راجحًا. وأنت تعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يرجح التفسير السابق.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ على حذف المخصوصِ بالذمِّ، أي: بئس القرار هي، أي: جهنمُ، أو بئس القرارُ قرارُهم فيها، وفيه بيانُ أنَّ حلولَهم وَصَلْيهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ عطفٌ على «أَحلُّوا» أو ما عطف عليه داخلٌ معه في حيِّز الصلة وحكم التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمد الذي ليس كمثله شيءٌ وهو الواحدُ القهار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالًا في التسمية، أو في العبادة، وقال الراغب: نِدُّ الشيءِ: مشاركُه في جوهره، وذلك ضربٌ من المماثلة، فإنَّ المِثْلَ يقال في أيِّ مشاركةٍ كانت، فكلُّ نِدٍّ مِثلٌ، وليس كلُّ مِثلٍ ندًّا[٤]. ولعلَّ المعوَّل عليه هنا ما أشرنا إليه.

﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قومَهم الذين يُشايعونهم حسبما ضلُّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القويم الذي هو التوحيدُ، وقيل: مقتضَى ظاهر النظم الكريم أن يذكر كفرانَهم نعمةَ الله تعالى، ثم كفرانَهم بذاته سبحانه باتِّخاذ الأنداد، ثم إضلالَهم لقومهم المؤدِّي إلى إحلالهم دار البوار، ولعلَّ تغييرَ الترتيب لتثنية التعجيب وتكريره والإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من هذه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٦.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٤، وفيه قراءة ابن أبي عبلة.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن (ندّ).

الهَنات يقضي منه العجب، ولو سيقَ النظمُ على نَسَقِ الوجود لَربَّما فُهِم التعجيبُ من المجموع، وله نظائر في الكتاب الجليل.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب: «لِيَضِلُّوا» بفتح الياء[1]، والظاهرُ أنَّ اللام في القراءتَين مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وذلك أنَّه لمَّا كان الإضلال أو الضلال نتيجةً للجعل المذكور شُبِّه بالغرض والعلَّة الباعثة، فاستُعمل له حرفُه على سبيل الاستعارة التبعية، قاله غيرُ واحد. وقيل عليه: إنَّ كونَ الضلال نتيجةً للجعل لله سبحانه أندادًا غير ظاهر، إذ هو متَّحدٌ معه أو لازمٌ لا ينفكُّ عنه، إلا أنْ يُراد الحكم به أو دوامُه.

وردَّ بأنَّهم مشركون لا يعتقدون أنَّه ضلالٌ، بل يزعُمون أنَّه اهتداءٌ، فقد ترتَّب على اعتقادهم ضدُّه، على أنَّ المراد بالنتيجة ما يترتَّب على الشيء أعمُّ من أنْ يكون من لوازمه أولًا، وفيه تأمُّل.

﴿قُلْ﴾ لأولئك الضالين[2] المتعجَّب منهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها تبديلُ نعمة الله تعالى كفرًا، واستتباع الناس في الضلال، وجعل ذلك متمتَّعًا به تشبيهًا له بالمُشتَهيات المعروفة لتلذُّذهم به كتلذُّذهم بها، وفي التعبير بالأمر ـ كما قال الزمخشري[3] ـ إيذانٌ بأنَّهم لانغماسهم بالتمتُّع بما هم عليه، وأنَّهم لا يعرفون غيرَه ولا يُريدونه، مأمورونَ به، قد أمرَهم آمرٌ مطاعٌ لا يَسَعُهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونَه، وهو آمر الشهوة؛ وعلى هذا يكونُ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ جوابَ شرطٍ ينسحب عليه الكلام على ما أشار إليه بقوله، والمعنى: إنْ دُمتُم على ما أنتم عليه من الامتثال لآمر الشهوة، فإنَّ مصيرَكم إلى النار، ويجوز أنْ يكون الأمرُ مجازًا عن التخلية والخذلان، وأنَّ ذلك الآمر مُتَسخَّطٌ إلى غاية، ومثالُه أنْ ترى الرجل قد عزم على أمرٍ، وعندك أنَّ ذلك الأمرَ خطأٌ، وأنَّه يؤدِّي إلى ضرر عظيم، فتبالغُ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تَرَ منه إلا الإباء والتصميم، حردتَ عليه وقلتَ: أنت

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) في (م): الضلال.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٨.

وشأنك، فافعل ما شئتَ، فلا تريدُ بهذا حقيقةَ الأمر، ولكنَّك كأنك تقول: فإذ قد أبيتَ قبولَ النصيحة فأنت أهلٌ ليقالَ لك: افعل ما شئتَ وتُبعث عليه، ليتبيَّنَ لك إذا فعلتَ صحةَ رأي الناصح وفسادَ رأيك. انتهى.

قال صاحب «الكشف»: إنَّ الوجهَين مشتركان في إفادة التهديد، لكنَّ الأداء إليه مختلفٌ، والأوَّل نظيرُ ما إذا أطاعَ أحد عبيدِك بعضَ من تنقم طريقتَه، فتقول: أَطِعْ فلانًا، وهذا صحيحٌ، صَدَرَ من المنقوم أمرٌ ومن العبد طاعةٌ، أو كان منه موافقةٌ لبعض ما يهواه، والقسم الأخير هو ما نحنُ فيه، والثاني ظاهر. انتهى.

وظاهر هذا أن التهديدَ على الوجهَين مفهومٌ من صيغة الأمر، ويُفهم من كلام بعضِ الأجلَّة أنَّ ذلك على الوجه الأول من الشرطية، وعلى الثاني من الأمر، وما في حيِّز الفاء تعليلٌ له، ولعلَّ النظر الدقيق قاضٍ بما أفتَى به ظاهرُ ما في «الكشف».

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّ هذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمرُه بالاحتماء فلا يحتمي: كُلْ ما تريد، فإنَّ مصيرَك إلى الموت. فإنَّ المقصودَ ـ كما قال صاحبُ «الفرائد» ـ التهديدُ ليرتدعَ ويقبلَ ما يقول.

وجعل الطيبي ما قُرِّر في المثال هو المراد من قول الزمخشري: إنَّ في «تمتَّعوا» إيذانًا بأنَّهم لانغماسهم إلخ. وأنت تعلم أنَّه ظاهرٌ في الوجه الثاني، فافهم.

والمصيرُ مصدر «صار» التامَّة بمعنى «رَجَع»، وهو اسمُ «إنَّ»، و«إلى النار» في موضع الخبر، ولا ينبغي أنْ يقال: إنَّه متعلِّقٌ بـ «مصير» وهو من «صار» بمعنى انتقل، ولذا عُدِّي بـ «إلى»؛ لأنَّه يدعو إلى القول بحذف خبر «إنَّ»، وحذفُه في مثل هذا التركيب قليلٌ، والكثيرُ فيما إذا كان الاسمُ نكرةً والخبرُ جارًّا ومجرورًا. والحوفي جوَّز هذا التعلُّق، فالخبرُ عنده محذوف، أي: فإنَّ مصيركم إلى النار واقعٌ أو كائنٌ لا محالة.

ثم إنَّه تعالى لمَّا هدَّد الكفار وأشارَ إلى انهماكهم في اللَّذة الفانيةِ أمر نبيَّه ﷺ أنْ يأمرَ خُلَّص عباده بالعبادة البدنية والمالية، فقال سبحانه:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وخصَّهم بالإضافة إليه تعالى؛ رَفْعًا لهم وتشريفًا

وتنبيهًا على أنَّهم المقيمون لوظائف العبودية المُوفون بحقوقها، وتَرَك العطفَ بين الأمرَين؛ للإيذان بتبايُنِ حالهما تهديدًا وغيرَه.

ومقولُ القول على ما ذهب إليه المبرّد والأخفش والمازني محذوف دلَّ عليه «يقيموا»[١] أي: قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.

﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ والفعل المذكور مجزومٌ على أنَّه جوابُ «قل» عندهم. وأوردَ أنَّه لا يلزم من قوله عليه الصلاة والسلام: أقيموا وأنفقوا، أنْ يفعلوا.

وردَّ بأنَّ المقولَ لهم الخُلَّصُ، وهم متى أُمِرُوا امتثلوا، ومن هنا قالوا: إنَّ في ذلك إيذانًا بكمال مطاوعتهم وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال، ويشدُّ عَضُدَ ذلك حذفُ المقول؛ لما فيه من إيهام أنَّهم يفعلون من غير أمر، على أنَّ مبنى الإيراد على أنَّه يشترط في السببية التامَّة، وقد منع.

وجعل ابنُ عطية «قل» بمعنى: بلِّغ وأدِّ الشريعة، والجزم في جواب ذلك[٢]. وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وحُكي عن أبي عليٍّ وعُزيَ للمبرِّد[٣] أنَّ الجزم في جواب الأمر المقول المحذوف.

وتعقَّبه أبو البقاء بأنَّه فاسدٌ لوجهَين: الأوَّل: أنَّ جواب الشرط لابدَّ أنْ يُخالف فعلَ الشرط إمَّا في الفعل، أو في الفاعل، أو فيهما، فإذا اتَّحدا لا يصحُّ، كقولك: قم تقم، إذ التقدير هنا: إن يقيموا يقيموا. والثاني: أنَّ الأمر المقدَّر للمواجهة، والفعل المذكور على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحدًا[٤]، وقيل عليه: إنَّ الوجه الأوَّل قريب، وأمَّا الثاني فليس بشيء؛ لأنَّه يجوز أنْ تقول: قل لعبدك أطعني يُطعْك، وإنْ كان للغيبة بعد المواجهة باعتبار حكاية الحال.

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٠٥، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.
(٣) المقتضب ٢/ ٨٤.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

وعن أبي عليٍّ وجماعة أنَّ «يقيموا» خبرٌ في معنى الأمر، وهو مقولُ القول[١].

ورُدَّ بحذف النون، وهي في مثل ذلك لا تحذف، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١] إذ المرادُ منه: آمنوا، والقولُ بأنَّه لمَّا كان بمعنى الأمر بُني على حذف النون كما بُني الاسمُ المتمكّن في النداء على الضَّمِّ في نحو: يا زيدُ، لمَّا شُبِّه بـ: قَبْلُ وبَعْدُ، وما لم يُبْنَ إنما لُوحِظَ فيه لفظُه = مما لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

وذهب الكسائي والزجاج[٢] وجماعةٌ إلى أنَّه مقولُ القول، وهو مجزومٌ بلام أمرٍ مقدَّرة، أي: لِيُقيموا ويُنفقوا، على حدِّ قول الأعشى:

محمدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ مِن أمرٍ تَبالا[٣]

وأنت تعلم أنَّ إضمار الجازم أضعفُ من إضمار الجارِّ إلا أنَّ تقدُّم «قل» نائبٌ منابه، كما أنَّ كثرةَ الاستعمال في أمر المخاطَب ينوبُ منابَ ذلك، والشيء إذا كثر في موضعٍ أو تأكدت الدلالة عليه جاز حذفُه، منه حذفُ الجارِّ من «أنّى» إذا كانت بمعنى: مِن أين، وبما ذكرنا من النيابة فارَقَ ما هنا ما في البيت، فلا يضرُّنا تصريحُهم فيه بكون الحذف ضرورة.

وعن ابن مالك أنَّه جعل حذفَ هذه اللام على أضرب: قليل وكثير ومتوسِّط، فالكثيرُ أنْ يكون قبله قولٌ بصيغة الأمر كما في الآية، والمتوسِّط ما تقدَّمه قولٌ غير أمرٍ كقوله:

قلتُ لبوَّابٍ لديه دارُها تِيذَنْ فإنِّي حَمْؤُها وجارُها[٤]

---

(١) العسكريات ص٤٩ ـ ٥٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.

(٣) قال البغدادي في الخزانة ٩/ ١٤: البيت لا يعرف قائله، وقال بعض فضلاء العجم: هو للأعشى، ونسبه ابن هشام في شرح شذور الذهب ص٢٧٥ لأبي طالب عمِّ النبيِّ ﷺ. قال الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٦٨: أراد: لتفدِ، فحذف لام الأمر، والتَّبَال هو: سوء العاقبة، وأصله وَبَال، فتاؤه مبدلة عن واو.

(٤) الرجز في المغني ص٢٩٨، وخزانة الأدب ٩/ ١٣ دون نسبة، ونسبه العيني في هامش الخزانة ٤/ ٤٤٤ لمنصور بن مرثد. قال ابن هشام: تِيذَنْ: أي: لتأذَنْ، فحذف اللام وكسر حرف المضارعة.

والقليلُ ما سوى ذلك. وظاهرُ كلام «الكشف» اختيارُ هذا الوجه، حيث قال المدقق فيه: والمعنَى على هذا أظهرُ، لكثرة ما يلزم من الإضمار، وأنَّ تقييد الجواب بقوله تعالى: (مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ) إلى (وَلَا خِلَٰلٌ) ليس فيه كثيرُ طائلٍ، إنما المناسب تقييدُ الأمر به.

وقال ابنُ عطية: ويظهر أنَّ مقولَ القول (ٱللَّهُ ٱلَّذِى) إلخ[١]، ولا يخفَى ما في ذلك من التفكيك، على أنَّه لا يصحُّ حينئذٍ أنْ يكون «يقيموا» مجزومًا في جواب الأمر؛ لأنَّ قول: «الله الذي» إلخ لا يستدعي إقامةَ الصلاةِ والإنفاقَ إلا بتقديرٍ بعيدٍ جدًّا.

هذا، والمرادُ بالصلاة قيل: ما يعمُّ كلَّ صلاةٍ فرضًا كانت أو تطوُّعًا، وعن ابن عباس تفسيرها بالصلاة المفروضة، وفسَّر الإنفاقَ بزكاة الأموال. ولا يخفَى عليك أنَّ زكاة المال إنَّما فُرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد صدقةِ الفطر، وأنَّ هذه السورةَ كلَّها مكيةٌ عند الجمهور، إلا آيتين[٢] ليست هذه الآيةُ إحداهما عند بعضٍ، ثمَّ إن لم يكن هذا المأمور به في الآية مأمورًا به من قبلُ فالأمر ظاهرٌ، وإن كان مأمورًا به فالأمرُ للدوام، فتحقَّق ذلك ولا تَغْفُل.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منتصبان على المصدرية لكن من الأمر المقدَّر، أو من الفعل المذكور على ما ذهب إليه الكسائي ومَن معه على ما قيل، والأصلُ: إنفاقَ سرٍّ وإنفاقَ علانيةٍ، فحذف المضاف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه فانتصب انتصابَه.

ويجوز أنْ يكون الأصلُ: إنفاقًا سرًّا وإنفاقًا علانيةً، فحذف الموصوفَ وأُقيمَت صفتُه مقامه.

وجوِّز أنْ يكونا منتصبين على الحالية إما على التأويل بالمشتق، أو على تقدير مضافٍ، أي: مُسرِّين ومُعلنين، أو ذوي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظرفية، أي: في سرٍّ وعلانية.

وقد تقدَّم الكلامُ في حكم نفقة السرِّ ونفقة العلانية[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.
(٢) في (م): والآيتين.
(٣) ص١٢٥ من هذا الجزء.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتلافى به تقصيرَه، أو يفتدي به نفسَه، والمقصودُ ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ نَفْيُ عقد المعاوضة بالمرَّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نَفْي العقدِ، إذ انتفاءُ البيع يستلزمُ انتفاءَ الشراء على أبلغِ وجه، وانتفاؤه ربما يُتصوَّر مع تحقُّق الإيجاب من البائع. انتهى.

وقيل: إنَّ البيع كما يُستعمَل في إعطاء المثمَن وأخذِ الثمن، وهو المعنى الشائع، يُستعمَل في إعطاء الثمن وأخذ المثمَن، وهو معنى الشراء؛ وعلى هذا جاء قوله ﷺ: «لا يبيعنَّ أحدُكم على بَيْعِ أخيه»[1]، ولا مانعَ من إرادة المعنَيَيْن هنا، فإنْ قلنا بجواز استعمال المشتَرَك في معنَيَيه مطلقًا كما قال به الشافعية، أو في النفي كما قال به ابنُ الهمام فذاك، وإلا احتجنا إلى ارتكاب عمومِ المجاز، فكأنَّه قيل: لا معاوضةَ فيه.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: مخالَّة، فهو كما قال أبو عبيدة[2] وغيرُه: مصدرُ خالَلْتُه كالخِلال، وقال الأخفش: هو جمعُ: خليل[3] كأخِلَّاء وأَخِلَّة، والمراد واحدٌ، وهو نَفْيُ أنْ يكون هناك خليلٌ يُنتَفع به، بأنْ يشفعَ له أو يُسامحه بما يفتدي به.

ويحتملُ أنْ يكون المعنى: مِن قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالَّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنَّما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى.

فعلى الأوَّل المنفيُّ البيعُ والخلالُ في الآخرة، وعلى هذا المراد نَفْيُ البيع والخلال اللذَيْن كانا في الدنيا، بمعنى نَفْي الانتفاع بهما، و«فيه» ظرفٌ للانتفاع المقدَّرِ حسبما أشرنا إليه، ولا يُشكل ما هنا مع قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٦٧] حيث أَثْبتَ فيه المخالَّة وعدمَ العداوةِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٢)، والبخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤١.

(٣) الذي في معاني القرآن ٢/ ٥٩٩، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٨: الخلال جمع خُلَّة.

بين المتَّقين؛ لأنَّ المراد هنا على ما قيل نَفْيُ المخالَّة النافعة بذاتها في تدارك ما فات، ولم يذكر في تلك الآية أنَّ المتقين يَتَدارك بعضُهم لبعض ما فات.

وقيل في التوفيق بين الآيتين: إنَّ المراد: لا مخالَّة بسبب مَيل الطبع ورغبةِ النفس، وتلك المخالَّة الواقعةُ بين المتقين في الله تعالى، مع أنَّ الاستثناء من الإثبات لا يلزمُه النفي، وإنْ سلمَ لزومه فنَفْيُ العداوة لا يلزمُ منه المخالَّة، وهو كما ترى. ومثلُه ما قيل: إنَّ الإثباتَ والنفيَ بحسَب المواطن.

والظرفُ على ما استظهره غيرُ واحدٍ متعلِّقٌ بالأمر المقدَّر، وعلَّقه بالفعل المذكور مَن رأى رَأْيَ الكِسائي ومَن معه، بل وبعضُ مَن رأى غيرَ ذلك إلا أنَّه لا يخلُو عن شيء.

وتذكيرُ إتيان ذلك اليوم على ما في «إرشاد العقل السليم» لتأكيد مضمونِ الأمر من حيث إنَّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرُّعًا، وانقطاع آثار البيع والخلالِ الواقعَين في الدنيا، وعدم الانتفاع بهما = مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تَبقَى عوائدُه وتدومُ فوائدُه من الإنفاق في سبيل الله تعالى، أو من حيث إنَّ ادِّخار المال وترك إنفاقه إنَّما يقعُ غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجْهَ لادِّخاره إلى وقت الموت. وتخصيصُ أمرِ الإنفاق بذلك التأكيدِ لميل النفوس إلى المال، وكونها مجبولةً على حُبِّه والضِّنَّةِ به. وفيه أنَّه لا يَبعدُ أنْ يكون تأكيدًا لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا، من حيث إنَّ تركها كثيرًا ما يكون للاشتغال بالبياعات والمخاللات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾[1] [الجمعة: ١١]. وأنت تعلمُ بُعدَه لفظًا بناءً على تعلُّق «سرًّا وعلانيةً» بالأمر بالإنفاق، ثم إنَّ ما ذكر من الوجهَين في الآية هو الذي ذكره بعض المحقِّقين.

واقتصر الزمخشريُّ[2] فيها على الوجه الثاني، وكلامه في تقريره ظاهرٌ في أنَّ فائدةَ التقييد الحثُّ على الإنفاق حسبما بيَّنه في «الكشف»، وفيه في تقرير الحاصل

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

أنَّ قولَه تعالى: (لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ) أي: لا انتفاعَ بهما، كنايةٌ عن الانتفاع بما يُقابلهما، وهو ما أُنفِقَ لوجه الله تعالى، فهو حثٌّ على الإنفاق لوجهه سبحانه، كأنَّه قيل: لينفقوا له من قَبل أنْ يأتيَ يومٌ ينتفعُ فيه بإنفاقهم المنفقون له، ولا ينفعُ الندمُ لمن أمسكَ. والعدول إلى ما في النَّظم الجليل ليفيدَ الحصر، وأنَّ ذلك وحدَه هو المنتَفَعُ به، وليفيدَ المضادَّةَ بين ما ينفعُ عاجليًّا وما ينفعُ آجليًّا، وذَكَرَ في آية البقرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أنَّ المعنَى: من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا تقدرون فيه على تدارُك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنَّه لا بيعَ حتى تبتاعوا ما تُنفقونه، ولا خُلَّة حتى يُسامحَكم أَخِلَّاؤكم به[1].

وبيَّن المدقِّقُ وجْهَ اختصاص كلٍّ من المعنَيين بموضعه مع صحَّة جَرَيانهما جميعًا في كلٍّ من الموضعَين، بأنَّ الأوَّل خطابٌ عامٌّ، فكان الحثُّ فيه على الإنفاق مطلقًا وتصوير أنَّ الإنفاق نفسَه هو المطلوب، فليُغْتَنم قبل أنْ يأتيَ يومٌ يفوتُ فيه ولا يُدركه الطالبُ، هو الموافقَ لمقتضَى المقام، وأنَّ الثاني لمَّا اختصَّ بالخُلَّص كان الموافقُ للمقام تحريضَهم على ما هم عليه من الإنفاق ليدوموا عليه، فقيل: دوموا عليه وتمسَّكوا به تَغْتَبطوا يوم لا ينفعُ إلا مَن دام عليه، ولو قيل: دوموا عليه قبل أنْ يفوتكم ولا تدركوه، لم يكن بتلك الوكادةِ؛ لأنَّ الأول بالحثِّ على طلب أصلِ الفعل أشبه، والثاني بطلب الدوام، فتفطَّن له. اهـ. ولا يخلو عن دغدغة.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «لا بيعَ فيه ولا خلالَ» بفتح الاسمَين[2] تنصيصًا على استغراق النفي، ودلالةُ الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو على ما قيل وقوعُه في جواب: هل فيه بيعٌ أو خلالٌ؟

ثم إنَّه لمَّا ذكر سبحانه أحوالَ الكافرين لنعمه، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لها، شرعَ جلَّ وعلا في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النِّعم العظام والمِنَن الجسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا

(١) الكشاف ١/ ٣٨٤.
(٢) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

للكفرة المخلِّين أتمَّ إخلال بها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ، وهذا أولَى مما قيل: إنَّه تعالى لمَّا أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، وكان حصولُ السعادة بمعرفة الله تعالى وصفاته، والشقاوةِ بالجهل بذلك، خَتَم الوصف بالدلائل الدالَّة على وجوده ـ جلَّ شأنه ـ وكمال علمه وقدرتِه فقال سبحانه ما قال، لظهور اعتبارِ المذكورات في حيِّز الصلة نِعَمًا لا دلائل.

والاسمُ الجليل مبتدأٌ والموصول خبره، ولا يخفَى ما في الكلام من تربيةِ المهابة والدلالة على قوَّة السلطان، والمرادُ: خلَقَ السماوات وما فيها من الأجرام العلويَّة، والأرضَ وما فيها من أنواع المخلوقات.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، وهو المطر، وسُمِّي السحابُ سماءً لعلوِّه، وكلُّ ما علاك سماءٌ، وقيل: المرادُ بالسماء الفلك المعلوم، فإنَّ المطر منه يتبدَّى إلى السحاب ومِن السحاب إلى الأرض، وعليه الكثير من المحدِّثين لظواهر الأخبار.

واستبعدَ ذلك الإمامُ لأنَّ الإنسان ربَّما كان واقفًا على قُلَّة جبلٍ عالٍ ويرَى السحاب أسفلَ منه، فإذا نَزَل رآه ماطرًا. ثمَّ قال: وإذا كان هذا أمرًا مشاهداً بالبصر كان النزاعُ فيه باطلًا[1]. وأوَّلَ بعضُهم الظواهر لذلك بأنَّ معنى نزول المطر من السماء نزولُه بأسبابٍ ناشئةٍ منها.

وأيًّا ما كان فـ «مِن» ابتدائيةٌ وهي متعلِّقةٌ بـ «أنزل» وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبتدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: أعطاه السلطان مِن خزائنه مالًا، أو لما مرَّ غيرَ مرَّة مِن التشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق مرادًا به المعنى اللغوي، وهو كلُّ ما ينتفع به، فيشمل المطعومَ والملبوس، ونصبُه على أنَّه مفعول «أخرج»، و«مِن الثمرات» بيانٌ له فهو في موضع الحال منه، وتقدُّم «مِن» البيانية على ما تُبيِّنُه قد أجازه الكثيرُ من النحاة، وقد مرَّ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٦.

الكلام في ذلك[1]. واستظهر أبو حيان المانع لذلك كون «مِن» للتبعيض، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، و«رزقًا» مفعول «أخرج» أيضًا[2].

وجوَّز أنْ تكون «من» بمعنى بعض، مفعول «أخرج»، و«رزقًا» بمعنى مرزوقًا حالًا منه، فهو بيانٌ للمراد من بعض الثمرات؛ لأنَّ منها ما يُنتفَع به فهو رزقٌ، ومنها ما ليس كذلك. ويجوز أنْ يكون «رزقًا» باقيًا على مصدريته، ونصبُه على أنَّه مفعول له، أي: أخرج به ذلك لأجل الرزقِ والانتفاع به، أو مفعول مطلق لـ «أخرج» لأنَّ: أخرج بعض الثمرات، في معنى: رَزَق، فيكون في معنى: قعدتُ جلوسًا، على المشهور، وقيل: «من» زائدة، ولا يَرَى جوازَ ذلك هنا إلا الأخفش[3]، و«لكم» صفة لـ «رزقًا» إنْ أُريد به المرزوق، ومفعول به إنْ أُريد به المصدر، كأنَّه قيل: رزقًا إياكم، والباء للسببية.

ومعنى كون الإخراج بسببه أنَّ الله تعالى أَودَع فيه قوَّةً مؤثِّرةً بإذنه في ذلك، حسبما جرَت به حكمتُه الباهرة، مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج، وهذا هو رأيُ السلف الذي رَجَع إليه الأشعريُّ كما حُقِّق في موضعه[4]، وزَعَم مَن زعم أنَّ المراد: أخرجَ عنده، والتزموا هذا التأويل في ألوفٍ من المواضع، وضلَّلوا القائلين بأنَّ الله تعالى أودَعَ في بعض الأشياء قوَّةً مؤثِّرة في شيءٍ ما، حتى قالوا: إنَّهم إلى الكفر أقربُ منهم إلى الإيمان. وأولئكَ عندي أقربُ إلى الجنون وسفاهة الرأي.

و«الثمرات» يُراد بها ما يُراد من جمع الكثرة؛ لأنَّ صِيَغَ الجموع يتعاوَرُ بعضُها موضعَ بعض، أو لأنَّه أُريدَ بالمفرد جماعةُ الثمرة التي في قولك: أكلتُ ثمرةَ بستان فلان. وقد تقدَّم[5] لك ما ينفعُك تذكُّره في هذا المقام، فتذكَّر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن، بأنْ أقدرَكم على صنعتها واستعمالها بما أَلْهمَكم كيفيَّةَ ذلك، وقيل: بأنْ جعلَها لا ترسُب في الماء. ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾

(١) ص٢٥٨ من هذا الجزء.
(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٢٧.
(٣) معاني القرآن ١/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧.
(٤) ينظر ٤/ ٣٤٦.
(٥) ٢/ ٢٢.

حيث توجَّهتُم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي نِيْطَ بها[1] كلُّ شيءٍ، وتخصيصُه بالذكر ـ على ما ذكره بعضُ المحقِّقين ـ للتنصيص على أنَّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يَتراءَى من ظاهر الحال، ويندرج في تسخير الفلك ـ كما في «البحر» ـ تسخيره[2]، وكذا تسخيرُ الرياح.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ جعلها معدَّةً لانتفاعكم حيث تشربون منها، وتتَّخذون جداولَ تسقون بها زروعَكم وجنَّاتِكم وما أشبه ذلك، هذا إذا أُريد بـ «الأنهار» المياه العظيمة الجارية في المجاري المخصوصة، وأما إذا أُريد بها نفسُ المجاري فتسخيرُها تيسيرُها لهم لتجريَ فيها المياه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: دائمَين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء عُمُر الدنيا.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشمسُ بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربَت جرَت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلعَ من مشرقها، وكذلك القمر[3]. والقولُ بجريانهما إذا غربا تحت الأرض مرويٌّ أيضًا عن الحسن البصري، وهو الذي يشهد له العقل السليم، وللأخباريِّين غير ذلك، وظاهر الآية إثباتُ الحركة لهما أنفسِهما.

---

(١) في (م): بها نيط.

(٢) في هامش (م): فيه استخدام، فلا تغفل. اهـ منه. والاستخدام: هو أن يُذكر لفظٌ له معنيان، فيراد أحدهما ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدُ معنييه، ثم بالآخر معناه الآخر، فالأول كقوله:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ ... رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء: الغيث، وبالضمير الراجع إليه من: رعيناه: النبت، والسماء يطلق عليهما.
والثاني كقوله:

فَسَقَى الغَضَى والساكنيه وإنْ هُمُ ... شَبُّوهُ بَيْنَ جوانحي وضلوعي

أراد بأحد الضميرين الراجعَين إلى (الغضى) وهو المجرور في (الساكنيه): المكانَ، وبالآخر، وهو منصوب في (شبُّوه): النار، أي: أوقدوا بين جوانحي نار الغضى، يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضى. التعريفات للجرجاني ص٣٣.

(٣) العظمة (٦٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.

والفلاسفةُ يثبتون لهما حركتَين يسمُّون إحداهما الحركة الأُولَى، وهي الحركة اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر المحدَّد لِفلكَيهما، والأُخرَى الحركة الثانية، وهي الحركة على توالي البروج من المغرب إلى المشرق الحاصلة لهما بحركة فلكيهما حركةً ذاتيةً، ولا يُثبتون لهما حركةً في ثخن الفلك على نحو حركة السمكة في الماء، لصلابة الفلك وعدم قبوله الخرقَ أصلاً عندهم.

وأثبتَ الشيخُ الأكبر قدِّسَ سرُّه في «فتوحاته»[1] حركتهما على ذلك النحو، والفلكُ عنده مثل الماء والهواء.

وذكر بعض الأخباريِّين أنَّهما وسائر الكواكب معلَّقة بسلاسلَ مِن نورٍ بأيدي ملائكة، يُسيِّرونَها كيف شاء اللهُ تعالى وحيث شاء سبحانه، والأفلاك ساكنةٌ عند هذا البعض، وكذا عند الشيخ قدِّس سرُّه على ما يقتضيه ظاهر كلامه، والأخبارُ في هذا الباب ليست بحيث تسدُّ ثغرَ الخصم، وذَكَر النسفيُّ أنَّه ليس فيها ما يعوَّل عليه.

وكلامُ الفلاسفة ما لم يكن فيه مصادمةٌ لما تحقَّق عن المُخبر الصادق ﷺ مما لا بأس به.

وفسَّر بعضُهم «دائبين» بمجدَّين تعبَيْن، وهو على التشبيه والاستعارة. وأصلُ الدأْب: العادةُ المستمرَّة، ونصبُ الاسم على الحال، وتسخيرُ هذَين الكوكَبَين العظيمَين جعلُهما منيرَين مُصلحَين ما نِيطَ بهما صلاحُه من المكوَّنات، ولَعمري أنَّ الله سبحانه جعلَهما أَجدَى مِن تفاريق العصا. وفي كتاب «المشارع والمطارحات»[2] للشيخ شهاب الدين السهروردي قتيل حلب: أنَّ تأثيرَ الشمس والقمر أظهرُ الآثار السماوية، وتأثيرُ الشمس أظهرُ من تأثير القمرِ، وأظهرُ الآثار بعد الشعاع التسخينُ الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كونٌ ولا فساد ولا استحالة، ولا ليلٌ ولا نهارٌ، ولا فصول ولا مزاج ولا حيوانات ولا غيرُها. وأطال الكلامَ في بيان ذلك وما يتعلَّق به، ولا ضررَ عندي في اعتقاد أنَّهما مؤثِّران بإذن الله تعالى كسائر الأسباب عند السلف الصالح.

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٥٤٨ وما بعدها.

(٢) المطارحات في المنطق والحكمة لابن أبي الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الحكيم المقتول سنة (٥٨٧هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧١٣، وهدية العارفين ٢/ ٥٢١.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم، وأَرجعَ بعضُ المحقِّقين التسخيرَ في المواضع الأربعة إلى معنى التصريف، وأصلُه سياقةُ الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهرًا، وذكر أنَّ في التعبير عن ذلك به من الإشعار بما في ذلك من صعوبة المأخذ، وعِزَّة المنال، والدلالة على عِظَم السلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى، والظاهرُ أنَّه في المعنى المراد به هنا مجازٌ في تلك المواضع جميعًا. ونقل أبو حيان(١) عن المتكلِّمين أنَّه مجازٌ في الأخير منها قال: لأنَّ الليل والنهار عَرَضان، والأعراضُ لا تسخَّر، وفيه قصور.

وفي إبراز كلٍّ من هذه النعم في جملة مستقلةٍ تنويهٌ لشأنها، وتنبيهٌ على رفعة مكانها، وتنصيصٌ على كون كُلٍّ نعمةً جليلة مستوجبةً للشكر.

وتأخيرُ تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدَّم من الأمور مع ما بينه وبَيْن خلق السماوات من المناسبة الظاهرة، قيل: لاستتباع ذكرِها لذكر الأرض، المستدعي لذكر إنزالِ الماء منها إليها، الموجبِ لذكر إخراجِ الرزق الذي من جملته ما يحصُلُ بواسطةِ الفُلكِ والأنهار، أو للتفادي عن توهُّم كونِ الكلِّ ـ أعني خَلْقَ السماوات والأرض وتسخيرَ الشمس والقمر ـ نعمةً واحدةً، وقد تقدَّم نظيرُه آنفًا.

وقد ذكر بعضُهم في وجه ذكر هذه المتعاطفات على هذا الأسلوب: أنَّه بدأ بخلق السماوات والأرض، لأنَّهما أصلان يتفرَّع عليهما سائرُ ما يُذكر بعدُ، وثنَّى بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به لشدَّةِ تعلُّق النفوس بالرزق، فيكونُ تقديمه من قَبيل تعجيل المسرَّةِ.

ولما كان الانتفاعُ بما ينبُتُ من الأرض إنما يكمُلُ بوجود الفُلْكِ الجواري في البحر، وذلك لأنَّه تعالى خصَّ كلَّ طَرَفٍ من أطراف الأرض بنوعٍ من ذلك، وبالنقل يكثُرُ الربحُ = ذَكَر سبحانه تسخيرَ الفلك التي يُنقَل عليها، واقتصر عليها اعتناءً بشأنها.

ولما ذكر أمْرَ الثمرات وما به يكمُلُ الانتفاع بها من حيث النقلُ ذَكَرَ تسخيرَ الأنهار العذبة التي يشربُ منها الناس في سائر الأحيان، إتمامًا لأمر الرزق، وذَكَرَ

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٨.

تسخيرَ الشمس والقمر بعدُ؛ لأنَّ الانتفاع بهما ليس بالمباشرة كالانتفاع بالفلك والانتفاع بالأنهار، وأخَّر تسخيرَ الليل والنهار؛ لأنهما عَرَضان وما تقدَّمَهما جوهرٌ، والعَرَضُ من حيث هو بعدَ الجوهر. اهـ. وليس بشيءٍ يعوَّل عليه.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئتُه التابعةُ للحكمة والمصلحة، فـ «مِن كلِّ» مفعولٌ ثانٍ لـ «آتى»، و«مِن» تبعيضيةٌ، وقال بعضُ الكاملين: إنَّ «كل» للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

واعترض على حمل «مِن» على التبعيض دون ابتداءِ الغاية بأنَّه يُفضي إلى إخلاء لفظ «كل» عن فائدةٍ زائدة، لأنَّ «ما» نصٌّ في العموم، بل يوهم إيتاء البعض من كلِّ فردٍ متعلِّق به السؤال، ولا وجْهَ له.

ودُفع بأنَّه بعد تسليم كون «ما» نصًّا في العموم، هنا عمومان، عمومُ الأفراد وعمومُ الأصناف بمعنى: كلّ صنفٍ صنف، وهما مقصودان هنا، فالمعنى: أعطاكم من جميع أفرادِ كلِّ صنفٍ سألتموه، فإنَّ الاحتياج بالذات إلى النوع والصنف لا لفردٍ بخصوصه، وفسّر «ما سألتموه» بما مِن شأنه أنْ يُسأل لاحتياج الناس إليه، سواء سئل بالفعل أم لم يُسأل، فلا ينفي إيتاء ما لا حاجة إليه مما لا يخطرُ بالبال، وجعلوا الاحتياجَ إلى الشيء سؤالًا له بلسان الحال، وهو مِن باب التمثيل، وسبيل هذا السؤال سبيلُ الجواب في رأي في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقيل: الأصل: وآتاكم من كلِّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحذف الثاني لدلالة ما أبقى على ما ألقى، و«ما» يحتمل أن تكون موصولة، والضمير المنصوب في «سألتموه» عائدٌ عليها، والتقديرُ: مِن كلِّ الذي سألتموه إياه، ومنع أبو حيان جواز أنْ يكون راجعًا إليه تعالى، ويكون العائدُ على الموصول محذوفًا مستندًا بأنَّه لو قدر متَّصلًا لزم اتِّصال ضميرَين متَّحدَي الرتبة من دون اختلاف، وهو لا يجوز ولو قدِّر منفصلًا حسبما تقتضيه القاعدةُ في مثل ذلك لزم حذفُ العائد المنفصل، وقد نصُّوا على عدم جوازه[1]. اهـ.

(١) البحر المحيط ٥/٤٢٨.

وذهب بعضُهم إلى جواز كلا التقديرَين مدَّعيًا أنَّ مَنْع اتِّصال المتَّحدَين رتبةً خاصٌّ فيما إذا ذُكرا معًا، أما إذا ذُكر أحدُهما وحُذف الآخرُ فلا منع، إذ الاتصالُ حينئذ محضُ اعتبار، وعلَّةُ المنع لا تجري فيه، وأنَّ منع حذفِ المنفصل خاصٌّ أيضًا، فيما إذا كان الانفصال لغرضٍ معنويٍّ، كالحصر في قولك: جاء الذي إياه[1] ضربت، إذ بالحذف حينئذٍ يفوتُ ذلك الغرضُ، أما إذا كان لغرضٍ لفظيٍّ كدفع اجتماع المثلَين فلا منع، إذ ليس هناك غرضٌ يفوت.

ويحتمل أنْ تكون موصوفةً، والكلام في الضمير كما تقدَّم، وأنْ تكون مصدريةً والضمير لله تعالى، والمصدر بمعنى المفعول، أي: مسؤولكم.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية: «مِن كلٍّ» بالتنوين[2]، أي: وآتاكم مِن كلِّ شيءٍ ما احتجتُم إليه وسألتموه بلسان الحال، وجوِّز على هذه القراءة أنْ تكون «ما» نافية، والمفعول الثاني «مِن كل» كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] والجملةُ المنفية في موضع الحال، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائليه، وهو إخبارٌ منه تعالى بسُبُوغ نعمته سبحانه عليهم بما لم يسألوه من النعم؛ ورُوي هذا عن الضحاك، ولا يخفى أنَّ الوجه هو الأول لِمَا أنَّ القراءة على هذا الوجه تخالف القراءةَ الأُولى، والأصلُ توافقُ القراءتَين وإنْ فهم منها إيتاء ما سألوه بطريق الأولى.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أنعم به عليكم كما هو الظاهر. وقال الواحدي: إنَّ «نعمة» هنا اسمٌ أُقيمَ مقام المصدر يقال: أنعمَ إنعامًا ونعمةً، كما يقال: أنفقتُ إنفاقًا ونفقةً، فالنعمةُ بمعنى الإنعام ولذا لم تُجمع[3]. والمعوَّل عليه ما أشرنا إليه من أنَّها اسمُ جنسٍ بمعنى المنعَم به، والمرادُ بها الجمعُ كأنه قيل: وإنْ تعدُّوا نعم الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ المفرد يُفيد

(١) في (م): أباه.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٨، وقراءة يعقوب ونافع خلاف المشهور عنهما.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٢ - ٣٣.

الاستغراق بالإضافة، وما قيل: إنَّ الاستغراق ليس مأخوذًا من الإضافة، بل من الشرط والجزاء المخصوصَين، فيه نظر؛ لأنَّ الحكم المذكور يقتضي صحةَ إرادته منه، ولولاه تنافيا. والمرادُ بـ «لا تحصوها» لا تطيقُوا حصرَها ولو إجمالًا، فإنَّها غيرُ متناهية، وأصلُ الإحصاء: العدُّ بالحصى، فإنَّ العرب كانوا يعتمدونه في العدِّ كاعتمادنا فيه على الأصابع، ولذا قال الأعشى:

ولَسْتَ بالأكثر منهم حَصًى ... وإنما العزَّةُ للكاثرِ[1]

ثم استُعمل لمطلق العدِّ، وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ أصلَه أنَّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيَّناً من عقود الأعداد وضع حصاةً ليحفظَه بها، ففيه إيذانٌ بعدم بلوغ مرتبةٍ معتدٍّ بها من مراتبها، فضلًا عن بلوغ غايتها، وهو من الحسن بمكان، إلا أنَّه ذهب إلى الأول الراغبُ[2] وغيرُه، وأَوَّل الإحصاءُ بالحصر لئلا يتنافى الشرط والجزاء، إذ أثبتَ[3] في الأوَّل العدَّ ونَفَى في الثاني، ولو أُوِّل «إنْ تَعُدُّوا» بأنْ تُريدوا العدَّ، يندفعُ السؤال على ما قيل أيضًا، والأولُ أَولَى.

وقال بعض الفضلاء: إنَّ المعنى: إنْ تشرَعُوا في عدِّ أفراد نعمةٍ من نِعَمِهِ تعالى لا تطيقوا عدَّها. وإنما أتى بـ «إنْ» وعدمُ العدِّ مقطوعٌ به نظرًا إلى توهُّم أنه يُطاق، قيل: والكلام عليه أبلغُ منه على الأول، لِمَا فيه من الإشارة إلى أنَّ النعمةَ الواحدةَ لا يُمكن عدُّ تفاصيلها، وأنت[4] تعلم أنَّ الظاهر هو الأوَّلُ.

وقد ذكر الإمام[5] مثالَين يستوضح بهما الوقوف على أنَّ نعم الله تعالى لا تُحصَى ولا يُمكن أنْ تُستقصَى فقال:

الأول: أنَّ الأطباء ذكروا أنَّ الأعصاب قسمان دماغيةٌ ونخاعيةٌ، والدماغيةُ سبعةٌ، وقد أتعبوا أنفسَهم في معرفة الحِكَم الناشئةِ مِن كلِّ واحدةٍ منها، ولا شكَّ أنَّ كلَّ واحدة تنقسمُ إلى شُعبٍ كثيرة، وكلُّ واحدةٍ من تلك الشعب تنقسم أيضًا إلى

---

(١) ديوان الأعشى ص٩٤، والمغني ص٧٤٤، وخزانة الأدب ٨/ ٢٥٠.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (حصا).

(٣) في (م): إذا ثبت.

(٤) في (م): لكن أنت.

(٥) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

شعبٍ أدقَّ من الشعر، ولكلٍّ واحدٍ منها ممرٌّ إلى الأعضاء، ولو أنَّ واحدةً اختلَّت كيفًا أو وضعًا أو نحو ذلك، لاختلَّت مصالحُ البُنْية، ولكلٍّ منها على كثرتها حِكَم مخصوصةٌ، وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كلِّ واحدٍ من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والوضع والفعل والانفعال، حتى تَرَى أقسامَ هذا الباب بحرًا لا ساحلَ له، وإذا اعتبرتَ هذا في بدن الإنسان فاعتبر في نفسه وروحه، فإنَّ عجائبَ عالم الأرواح أكثرُ من عجائب عالم الأجسام؛ وإذا اعتبرتَ أحوالَ عالم الأفلاك والكواكب، وطبقاتِ العناصر، وعجائبَ البرِّ والبحر والنبات والمعدن والحيوان، ظَهَرَ لك أنَّ عقول جميع الخلائق لو رُكِّبت وجُعلَت عقلًا واحدًا وتأمَّل به الإنسانُ في حكمة الله تعالى في أقلِّ الأشياء لما أدرك منها إلا القليل.

والثاني: أنَّه إذا أخذت لقمةً من الخبز لتضعَها في فمك فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، فأمَّا الأوَّلُ: فاعرف أنَّها لا تتمُّ إلا إذا كان هذا العالمُ بكليته قائمًا على الوجه الأصوب؛ لأنَّ الحنطةَ لابدَّ منها، ولا تنبتُ إلا بمعونة الفصول وتركُّبِ الطبائع وظهورِ الأمطار والرياح، ولا يحصُل شيءٌ من ذلك إلا بدوران الأفلاك واتِّصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة، ثم بعدَ أنْ تكون الحنطة، لابدَّ لها من آلات الطحن ونحوه، وهي لا تحصل إلا عند تولُّد الحديد في أرحام الجبال؛ ثم تأمَّل كيف تكوَّنت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلَت تلك الآلات، فانظر أنَّه لابدَّ من اجتماع العناصر حتى يُمكن الطبخ.

وأما الثاني: فتأمَّل في تركيب بدنِ الحيوان، وهو أنَّه تعالى كيف خلَقَ ذلك حتى يُمكنه الانتفاعَ بتلك اللقمة، وأنَّه كيف يتضرَّر الحيوان بالأكل؛ وفي أيِّ الأعضاء تحدُث تلك المضارُّ، فلا يمكنك أنْ تعرف القليلَ إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطبِّ على الوجه الأكمل، وأنَّى للعقول بإدراك كلِّ ذلك، فظهر بالبرهان الباهر صحة هذه الشرطية. اهـ.

وقال مولانا أبو السعود قُدِّس سرُّه بعد كلام: وإنْ رمتَ العثورَ على حقيقة الحقِّ، والوقوفَ على ما جلَّ من السرِّ ودقَّ، فاعلم أنَّ الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجودِ وما يتبعُهُ من الكمالات اللَّائقة، والمَلَكاتِ

الرَّائقة، بحيث لو انقطعَ ما بيْنَه وبين العناية الإلهية من العلاقة، لَما استقرَّ له القرار، ولا اطمأنَّت به الدارُ إلا في مطمورة العدم والبوار، ومهاوي الهلاكِ والدمار، لكن يَفيضُ عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنُه وتقدَّس في كلِّ زمان يَمضي، وكلِّ آنٍ يمرُّ وينقضي من أنواع الفيوض المتعلِّقة بذاته ووجوده وسائرِ الصفات الروحانية والنفسانيةِ والجسمانية = ما لا يُحيطُ به نطاقُ التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير.

وتوضيحُه أنَّه كما لا يستحقُّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقُّه بقاءً، وإنما ذلك من جناب المُبدِئ الأول عزَّ شأنه وجلَّ، فكما لا يُتصوَّرُ وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الأصلي، لا يُتصوَّرُ بقاؤه على الوجود بعد تحقُّقه بعلَّته ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنَّ الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبيرٌ بأنَّ ما يتوقَّفُ عليه وجوده من الأمور الوجوديَّةِ التي هي عِلَلُه وشرائطُه، وإن وَجَب كونُها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخَلَ تحت الوجود، لكنَّ الأمورَ العدميةَ التي لها دخْلٌ في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أنْ يكونَ لشيء واحد موانعُ غيرُ متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود، وارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسِها في كلِّ آنٍ من آناتِ وجودِه نِعَمٌ غيرُ متناهيةٍ حقيقةً لا ادِّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلَلِهِ وشرائطِهِ القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده(١). اهـ.

ويتراءى منه أنَّه قد ترك الإمامَ في تحقيق هذا المقام وراءه، وأنَّه لو سمع ذلك لاقتدَى به في ذكره، ولعدَّ من النعم اقتداءَه، وقريبٌ منه ما يقال في بيان عدم تناهي النعم: إنَّ الوجود نعمةٌ، وكذا كلُّ ما يتبعُه من الكمالات، وذلك موقوفٌ على وجوده تعالى في الأزمنة الموهومة الغير المتناهية، وتَحقُّقُ ما يتوقفُ عليه وجودُ النعمة نعمةٌ، فتحقُّقُهُ سبحانه في كل آنٍ من تلك الآنات نعمةٌ، فالنعم غيرُ متناهية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٤٩ ـ ٥٠.

ولك أنْ تقولَ في بيان ذلك: إنَّه ما من إنسانٍ إلا وقد دفع الله تعالى عنه من البلايا ما لا يحيطُ به نطاقُ الحصر؛ لأنَّ البلايا الداخلة تحت حيطة الإمكان غيرُ متناهية، ولا شكَّ أنَّ دفْعَ كلِّ بليَّةٍ نعمةٌ، فتكون النعم غيرَ متناهية.

ومما يُوضح عدمَ تناهي البلايا الممكنة أَنَّ أهل النار المخلَّدين فيها لازال عذابهم بازديادٍ كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] وقد ذكر غيرُ واحدٍ في ذلك أنَّهم كلَّما استغاثوا من نوعٍ من العذاب أُغيثُوا بأشدَّ من ذلك، فيكون كلُّ مرتبةٍ منه متناهياً في الشدَّة، وإنْ كانت مراتبُه غيرَ متناهيةٍ بحسب العدد والمدَّة، وعلى هذا نعم الله تعالى على المبتلَى أيضًا لا تُحصى.

وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إنَّ لله تعالى على أهل النار منَّةً، فلو شاء أنْ يُعذِّبهم بأشدَّ من النار لعذَّبهم[(١)].

ثم الظاهر أنَّ المراد بالنعمة معناها اللغويُّ، أعني الأمر الملائم لا المعنى الشرعي[(٢)]، أعني: الملائم الذي تُحمدُ عاقبتُه، إذ لا يتأتَّى عليه عمومُ الخطاب، ولا يبعُدُ إطلاقُ النعمة بذلك المعنى على نحو رفْعِ الموانع وتحقُّق العلل والشرائط حسبما ذُكِرَ سابقًا، وظاهرُ ما تقدَّم يقتضي أنَّ النعم في حدِّ ذاتها غيرُ محصورة، والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ الإنسان لا يحصرها بالعدِّ، وفَرْقٌ بين الأمرَين، فتدبَّر.

وبالجملة ليس للعبد إلا العجزُ عن الوقوف على نهاية نعمِهِ سبحانه وتعالى، وكذا العجزُ عن شكر ذلك، وما أحسن ما قال أبو الدرداء ﷺ: مَن لم يعرف نعمةَ الله تعالى عليه إلا في مَطعَمه ومَشربه، فقد قلَّ علمُه وحضَرَ عذابُه[(٣)].

وأخرج البيهقي في «الشعب» وغيرُه عن سليمان التيمي قال: إنَّ الله تعالى أنعمَ على العباد على قَدْرِهِ سبحانه، وكلَّفهم الشكر على قَدْرِهم[(٤)].

وعن طلق بنِ حبيب قال: إنَّ حقَّ الله تعالى أثقلُ من أنْ يقومَ به العبادُ، وإنَّ

---

(١) الشكر (١٨٠)، وشعب الإيمان (٤٥٧٧).
(٢) في الأصل: الأمر الشرعي، والمثبت من (م).
(٣) شعب الإيمان (٤٤٦٧).
(٤) شعب الإيمان (٤٥٧٨)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨).

نِعَم الله سبحانه أكثرُ من أنْ يُحصيَها العباد، ولكن أصبِحوا توَّابين وأمسوا توابين(١).

وأفضلُ نعمه جلَّ شأنُه على عباده على ما رُوي عن سفيان بنِ عيينة أنْ عرَّفهم أنْ لا إله إلا الله(٢).

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وغيرُه عن أبي أيوب القرشيِّ مولى بني هاشم أنَّ داود عليه السلام قال: ربِّ أخبرني ما أدنى نعمتك عليَّ؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود تنفَّسْ. فتنفس، فقال تبارك وتعالى: هذا أدنَى نعمتي عليك(٣).

واشتهر أنَّ أوَّلَ النعم المقصودة لذاتها الوجود، وأنَّه معدِنُ كلِّ كمالٍ، كما أنَّ العدمَ معدِنُ كلِّ نقصٍ. ويدلُّ على أنَّه نعمةٌ لا يكاد يقاس بها غيرُها عند كثيرٍ من الناس أنَّ الإنسان منهم يَفدي نفسَه بملك الدنيا لو كان بيده، وعَلِمَ أنَّ الفداء ممكنٌ إذا ألَمَّ به الألمُ وتحقَّق العدم.

ومن العجيب أنَّ أبا عليٍّ الشبلي البغدادي ـ وقيل: ابنُ سينا ـ لم يَعُدَّ وجودَ الإنسان نعمةً عليه، فقد قال من أبيات:

ودهرٌ ينشرُ الأعمارَ نَشْرًا ... كما للغُصن بالورقِ انتشارُ
ودنيا كلَّما وضَعَت جنينًا ... غَذَاهُ مِن نوائبها ظُؤارُ(٤)

إلى أن قال:

نُعاقَب في الظهور وما وُلِدنا ... ويُذبَح في حشا الأمِّ الحُوار(٥)
وننتظرُ البلايا والرزايا ... وبَعدُ فللوعيد لنا انتظارُ
ونخرجُ كارهينَ كما دخلنا ... خروج الضبِّ أخرجَه الوَجَار(٦)

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٦٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٣/٤٨٨.
(٢) الشكر (٩٦)، وشعب الإيمان (٤٥٠٠).
(٣) الشكر (١٤٦). وأخرجه أيضًا البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٢٣).
(٤) ظُؤَارُ: جمع (ظئر)، وهي العاطفة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم. القاموس (ظأر).
(٥) الحُوَار: بالضم وقد يكسر: ولد الناقة ساعة تضعُهُ، أو إلى أن يُفصَلَ عن أمه، وجمعه أَحوِرَة وحِيران وحُوران. القاموس (حور).
(٦) الوجار: بالكسر والفتح: جُحر الضَّبُع وغيرها، جمعه: أَوجِرَةٌ وَوُجُرٌ. القاموس (وَجَرَ).

فمـاذا الامـتـنـانُ عـلـى وجـودٍ لـغـيـر الـمـوجَـدِيـن بـه الـخـيـار
فـكـانـت أَنـعـمًّـا لـو أنَّ كـونًـا نُـخـيَّـرُ قـبـلَـهُ أو نُـسـتـشَـار
فـهـذا الـداءُ لـيـس لـهُ دواءٌ وهـذا الـكـسـرُ لـيـس لـه انـجـبـارُ(١)

إلى آخر ما قال، ولَعَمري لقد غَمِطَ نعمةَ الله تعالى عليه وظلمها.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها بالكلية، أو بوضعه في غير موضعِه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحرمان بترك الشكر.

﴿كَفَّارٞ ٣٤﴾ شديدُ الكفران والجحود، وقيل: ظلومٌ في الشدَّة يشكو ويَجزعُ، كفَّارٌ في النعمة يجمع ويمنعُ، والأولُ أنسبُ بما قبله، و«أل» في «الإنسان» للجنس، ومصداقُ الحُكم بالظلم وأخيه بعضُ من وُجِدا من أفراده فيه، ويدخل في ذلك الذين بدَّلوا نعمةَ الله تعالى كفرًا، والظاهرُ أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، وَقَع جوابًا لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: لِمَ لَم يُراعوا حقَّها؟ أو لِمَ حرمها بعضُهم؟ وقيل: إنَّها تعليلٌ لعدم تناهي النعم، لذا أتى بصيغتَي المبالغة فيها، وهو كما ترى.

هـذا وفـي الـنـحـل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل:١٨] وفرَّق أبو حيان بين الختمَين: بأنَّه هنا لمَّا تقدَّم قوله تعالى: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا) وبعده (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا) فكان ذلك نصًّا على ما فعلوا مِن القبائح مِن الظلم والكفران، ناسَبَ أنْ يَختِمَ بذمِّ مَن وَقَع ذلك منه، فخُتِمَت الآيةُ بقوله سبحانه: «إن الإنسان لظلوم كفار».

وأمَّا في النحل فلمَّا ذكر عدَّةَ تفضُّلاتٍ وأَطنبَ فيها، وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل:١٧] أي: مَن أوجدَ هذه النعمَ السابق ذكرُها، ليس كمَن لا يقدِرُ على الخَلْق، ذَكَر من تفضُّلاته تعالى اتِّصافَه بالغفران والرحمة، تحريضًا على الرجوع إليه سبحانه، وأنَّ هاتَين الصفتَين هو جلَّ وعلا متَّصفٌ بهما، كما هو متَّصفٌ بالخلق، ففي ذلك إطماعٌ لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوقِ إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى، أنَّه يغفر زَلَله السابقَ ويرحمه.

---

(١) نسبها لأبي علي الشبلي ياقوت الحموي في معجم البلدان ١٠/ ٢٣ ـ ونفى أن تكون لابن سينا ـ والكتبي في فوات الوفيات ٣/ ٣٤١.

وأيضًا فإنَّه لمَّا ذكر أنَّه تعالى هو المتفضِّلُ بالنعم على الإنسان[١] ذَكَرَ ما حصل[٢] من المُنعِم ومِن جنس المنعَم عليه، فحصَلَ من المنعِم ما يناسبُ حالةَ عطائه وهو الغفران والرحمة، إذ لولاهما لَمَا أنعمَ عليه، وحَصَل من جنس المنعَم عليه ما يناسب حالةَ الإنعام عليه ويقع معها في الجملة وهو الظلم والكفران، فكأنَّه قيل: إنْ صدَرَ من الإنسان ظلمٌ فالله تعالى غفورٌ، أو كفرانٌ فالله تعالى رحيمٌ؛ لعلمه بعَجْزِ الإنسان وقصورِه. وما نقل السخاويُّ عن عبد الرحمن بنِ زيد بنِ أسلم من أنَّ هذه الآيَةَ منسوخةٌ بآية النحل مما لا يُلتفَتُ إليه. انتهى كلامه[٣]. وفيه بحثٌ.

وقيل: إنَّما ختم سبحانه آية النحل بما ختم للإطناب هناك في ذكر النِّعم مع تقدُّم الدعوة إلى الشكر صريحًا، فكان ذلك مظنَّة التقصير فيه، ويُناسب الإطنابَ في سرد النعم أنْ يذكرَ منها[٤] ما يتعلَّق بذلك وهو الغفرانُ والرحمةُ، فتأمَّل والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه احتمالاتٌ عندهم فقيل: من ظلمات الكثرة إلى نور الوحدةِ، أو: من ظلمات صفاتِ النشأة إلى نور الفطرةِ، أو: من ظلمات حُجُب الأفعالِ والصفات إلى نور الذات، وهو المرادُ بقولهم: النورُ البَحْتُ الخالص من شَوْب المادة والمدة.

وقال جعفر: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة، ومن ظلمات النفوس إلى نور القلوب. وقال أبو بكر ابن طاهر: من ظلمات الظنِّ إلى نور الحقيقة. وقيل غير ذلك.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره بهبَةِ الاستعداد وتهيئةِ أسباب الخروج إلى الفعل ﴿إِلَىٰ

(١) في الأصل: الإحسان، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٢) في الأصل: يحصل، والمثبت من (م) والبحر المحيط.
(٣) جمال القراء ٢/ ٧٣٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٤) في الأصل: فيها.

﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يقهرُ الظُّلْمةَ بالنور ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بكمال ذاته، أو بما يَهَبُ لعبادِه المستعدِّين من الفضائل والعلوم، أو من الوجود الباقي، أو نحو ذلك ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذابُ الحرمان ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الحِسِّيةَ والصوريَّةَ ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ العقليةِ والمعنويَّةِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ المريدين ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقِهِ الموصلِ إليه سبحانه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ انحرافًا مع استقامتها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: بكلام يُناسب حالَهم واستعدادَهم وقَدْرَ عقولِهم، وإلا لَمْ يفهموا، فلا يحصُلُ البيان، وعن عمر رضي الله عنه: كلِّموا الناسَ بما يفهمون، أتريدونَ أنْ يكذَّب الله تعالى ورسولُه ﷺ[١]؟

وفي «أسرار التأويل»[٢]: لكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ اصطلاحٌ في كلام المعرفة وطريقِ المحبةِ، يُخاطَبُ به من يعرفُه من أهل السلوك، وعلى هذا لا ينبغي للصوفي أنْ يُخاطب العامَّة باصطلاحات الصوفية؛ لأنَّهم لا يعرفونه، وخطابُهم بذلك مثلُ خطاب العربيِّ بالعجمية، أو العجمَيِّ بالعربية، ومنشأ ضلالِ كثيرٍ من الناس الناظرينَ في كتب القوم جهلُهم باصطلاحاتهم، فلا ينبغي للجاهل بذلك النظر فيها؛ لأنَّها تأخذُ بيده إلى الكفر الصريح، بل توقعُهُ في هُوَّة كفرٍ، كفرُ أبي جهل إيمانٌ بالنسبة إليه، ومن هنا صدَرَ الأمر السلطاني - إذ كان الشرعُ معتنًى به - بالنهي عن مطالعة كتب الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ومَن انخرَط في سلكه.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه؛ لزوال استعدادِه بالهيئات الظلمانيَّةِ ورُسوخِها والاعتقادات الباطلةِ واستقرارِها ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه ممَّن بقي على استعداده، أو لم يرسخ فيه تلك الهيئات والاعتقادات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

---

(١) لم نقف عليه من قول عمر رضي الله عنه، وأخرج البخاري (١٢٧) نحوه من حديث علي رضي الله عنه، ومسلم (٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُهُ عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

(٢) لعله: مطالع أنوار التنزيل ومفاتح أسرار التأويل لعبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر الحنبلي توفي (٦٦١)هـ. كشف الظنون ٢/ ١٧١٥.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وهي أيامُ وِصاله سبحانه، حين كشَفَ لعباده سجفَ[١] الربوبيَّة في حضرةِ قُدسِهِ[٢]، وأدناهم إلى جنابه ومَنَّ عليهم بلذيذٍ من خطابه:

سَقيًا لها ولِطيبها ... ولحسنها وبَهائها
أيامُ لم يَلجِ النَّوى ... بَيْنَ العصا ولحائها

وما أحسن ما قيل:

وكانَتْ بالعراقِ لنا ليالٍ ... سَلَبناهنَّ من رَيْب الزمانِ
جعلناهنَّ تاريخَ الليالي ... وعنوانَ المسرَّة والأماني

وأَمَرَه عليه الصلاة والسلام بتذكير ذلك ليثور غرامهم، ويأخذَ بهم نحوَ الحبيب هيامُهم، فقد قيل:

تذكَّرَ والذكرى تَشُوقُ وذو الهوى ... يَتُوقُ ومَن يَعْلَق به الحبُّ يُصْبِهِ[٣]

وجوز أنْ يُراد بـ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى أيَّام تجلِّيه جلَّ جلاله بصفة الجلال، وتذكيرُهم بذلك ليخافوا فيمتثلوا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكلِّ مؤمنٍ بالإيمان الغيبي، إذ الصبر والشكر ـ على ما قيل ـ مقامان للسالك قبل الوصول.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال الجوزجاني: أي: لئن شكرتُم الإحسان لأزيدنَّكم المعرفةَ، ولئن شكرتُم المعرفةَ لأزيدنكم الوصلةَ، ولئن شكرتُم الوصلة لأزيدنكم القربَ، ولئن شكرتُم القرب لأزيدنكم الأُنسَ، ويعمُّ ذلك كلّه ما قيل: لئن شكرتم نعمةً لأزيدنكم نعمةً خيرًا منها، وللشكر مراتب، وأعلا مراتبه: الإقرار بالعجز عنه. وفي بعض الآثار أنَّ داودَ عليه السلام قال: يا ربِّ كيف أشكرك، والشكر من آلائك؟ فأوحى الله تعالى إليه: الآن شكرتَني يا داود[٤]. وقال حمدون: شكرُ النعمة أنْ تَرى نفسَك فيها طفيليًا.

---

(١) السَّجْف: الستر. القاموس (سجف).
(٢) في (م): قدسيةٍ.
(٣) البيت لابن خياط الدمشقي، وقد سلف ٤/ ١٥٣.
(٤) أخرجه أحمد في الزهد ص٨٨ ـ ٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤١٣).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: إنَّه سبحانه لا شكَّ فيه؛ لأنَّه الظاهرُ في الآفاق والأنفس ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ موجدِهما ومظهرِهما مِن كَتْم العدم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ليسترَ بنوره سبحانه ظلماتِ حُجُبِ صفاتكم، فلا تشكُّون فيه عند جليَّة اليقين ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى غاية يقتضيها استعدادُكم من السعادة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ منعهم ذلك عن اتِّباع الرسل عليهم السلام.

و[1] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سَلَّموا لهم المشاركةَ في الجنس وجَعلُوا الموجِبَ لاختصاصهم بالنبوَّة ما مَنَّ الله تعالى به عليهم مما يُرشِّحُهم لذلك، وكثيرًا ما يقول المنكرون في حقِّ أَجِلَّة المشايخ مثل ما قال هؤلاء الكفرة في حقِّ رُسلهم، والجوابُ نحو هذا الجواب.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جوابٌ عن قول أولئك: «فأتونا بسلطانٍ مبينٍ»، ويقال نحو ذلك للمنكرين الطالبين من الوليِّ الكرامةَ تعنُّتًا ولَجَاجًا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الإيمان يقتضي التوكُّل، وهو الخمودُ تحت الموارد، وفسَّره بعضُهم بأنَّه طرحُ القلب في الربوبية والبدنِ في العبودية، فالمتوكِّلُ لا يُريد إلا ما يريدُه الله تعالى، ومِن هنا قيل: إنَّ الكامل لا يحبُّ إظهار الكرامة، وفي المسألة تفصيلٌ عندهم.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ذكر بعضُهم أنَّ البروزَ متعدِّدٌ، فبروزٌ عند القيامة الصغرى بموت الجسد، وبروزٌ عند القيامة الوسطى بالموت الإرادي، وهو الخروجُ عن حجاب صفاتِ النفس إلى عَرْصة[2] القلب. وبروزٌ عند القيامة الكبرى، وهو الخروجُ عن حجاب الآنيَّة إلى فضاء الوحدةِ الحقيقيَّة، وأنَّ حدوث[3] التقاولِ بَيْن

(١) الواو، ليس في (م).
(٢) في الأصل: عرضة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.
(٣) في الأصل: حديث، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.

الضعفاء والمستكبرين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ إلخ فهو: بوجود المهديِّ القائم بالحقِّ، الفارقِ بين أهل الجنة والنار عند قضاء الأمر الإلهي بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء.

وفسَّروا الشيطان بالوهم، وقد يُفسِّرونه في بعض المواضع بالنفس الأمَّارة. والقولُ المقصوصُ عنه في الآية عند ظهور سلطانِ الحقِّ، وبعضُهم حمل الشيطانَ هنا على الشيطان المعروفِ عند أهلِ الشرع، وذكر أنَّ قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ دليلُ بقائه على الشرك، حيث رأى الغير في البين، وما ثَمَّ غيرُ الله تعالى.

وإلى هذا يُشيرُ كلامُ الواسطيِّ حيث قال: مَن لامَ نفسَه فقد أشرك. ويخالفه قولُ محمد بنِ حامد: النفسُ محلُّ كلِّ لائمةٍ، فمن لم يَلُم نفسَه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال، فقد أهلكَها. ويأباه ما صحَّ في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[1]. فتأمَّل.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لم يذكر من يُحيِّيهم، وقد ذكروا أنَّ منهم مَن يُحيِّيهم ربُّهم، وهم أهلُ الصفوة والقربة، ومنهم مَن يُحيِّيهم الملائكةُ، وهم أهلُ الطاعات والدرجات، وما أطيبَ سلامَ المحبوبِ على محبِّه وما ألَذَّه على قلبه:

أشارُوا بتسليمٍ فجُدْنا بأنفسٍ   تسيل[2] مِن الآماقِ والاسم[3] أدمُعُ[4]

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ إشارةٌ كما قيل إلى كلمة التوحيدِ التي غرسَها الحقُّ في أرض بساتين الأرواح، وجعل سبحانه أصلَها هناك ثابتًا بالتوفيق،

---

(١) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) في الأصل: يسيل، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) في الأصل و(م): الاسم، والمثبت من المصادر.
(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤٤، وخلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٢٠٥.

وفرعُها في سماء القربةِ، وسَقْيُها من سواقي العنايةِ، وساقُها المعرفةُ، وأغصانُها المحبة، وأوراقُها الشوقُ، وحارسُها الرعايةُ، تؤتي أكلَها في جميع الأنفاس من لطائف العبوديةِ وعرفان أنوار الربوبية.

وقال بعضُهم: الكلمةُ الطيبة: النفسُ الطيبةُ، أصلُها ثابتٌ بالاطمئنان وثباتِ الاعتقاد بالبرهان، وفرعُها في سماء الروحِ تُؤتي أكلَها من ثمرات المعارف والحِكَم والحقائق كلَّ وقتٍ بتسهيله تعالى.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إشارةٌ إلى كلمة الكفر أو النفسِ الخبيثة، وقال جعفر الصادق ﷺ: الشجرةُ الخبيثة: الشهواتُ، وأرضُها النفوسُ، وماؤها الأمل، وأوراقُها الكسل، وثمارُها المعاصي، وغايتُها النار.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال الصادق ﷺ: يُثبِّتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وفي الآخرة على صدْق جوابِ الرحمن، وجعل بعضُهم القولَ الثابت قولَه سبحانه وحكمه الأزلي، أي: يُثبِّتهم على ما فيه تبجيلُهم وتوقيرُهم في الدارَين حيث حَكَم بذلك في الأزل، وحُكمُه سبحانه الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الحياتَين لسوء استعدادِهم ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ من الهداية الأصليةِ والنورِ الفطري ﴿كُفْرًا﴾ احتجاباً وضلالاً ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ مَن تابَعَهم واقتدَى بهم في ذلك ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاكِ والحرمان ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ من متاع الدنيا ومُشتهياتها التي يُحبونها كحبِّ الله سبحانه ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ كلَّ مَن نظر إلى ذلك والتفتَ إليه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: سماواتِ الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الأجساد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماءِ عالمِ القدس ﴿مَآءً﴾ وهو ماءُ العلم ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ من أرض النفس ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهي ثمراتُ الحكم والفضائل ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ في تقوِّي القلب بها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: فلكَ العقولِ ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: بحرِ آلائه وأسرارِ مخلوقاته الدالةِ على عَظمتِه سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ

﴿ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: أنهار العلم التي تنتهي بكم إلى ذلك البحر العظيم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ﴾ شمسَ الروحِ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قمرَ القلب ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ في السير بالمكاشفة والمشاهدة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ ليلَ ظلمةِ صفاتِ النفس ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ نهارِ نورِ الروح لطلب المعاش والمعاد والراحة والاستنارة[١].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان الاستعداد، فإنَّ المسؤولَ بذلك لا يمنع ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ السابقةَ واللاحقةَ ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ لعدم تناهيها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يُنقِصُ حقَّ الله تعالى أو حقَّ نفسه بإبطال الاستعداد، أو يضعُ نورَ الاستعداد في ظلمة الطبيعة ومادَّة البقاء في محلِّ الفناء ﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النِّعَمِ التي لا تُحصَى؛ لغفلته عن المنعِم عليه بها.

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ لنفسه، حيث يَظنُّ أنَّ شكره يقابلُ نعمَه تعالى[٢]، ﴿كَفَّارٌ﴾ محجوبٌ عن رؤية الفضلِ عليه بدايةً ونهايةً، نسألُ الله تعالى أنْ يوفِّقنا لما يحبُّ ويرضى ويُكرِمَنا بالهداية والعناية.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: اذكُر ذلك الوقتَ، والمقصودُ تذكيرُ ما وقَعَ فيه على نهْج ما قيل في أمثاله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكةَ شرَّفها الله تعالى ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أَمْنٍ، فصيغةُ فاعل للنسب، كـ: لابِن وتامر؛ لأنَّ الأمنَ في الحقيقة لأهل[٣] البلد، ويجوز أنْ يكونَ الإسنادُ مجازيًّا من إسناد ما للحالِّ إلى المحلِّ، كـ: نهرٍ جارٍ، والفرقُ بين ما هنا وما في البقرة من قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٢] أنَّه عليه السلام سألَ في الأوَّل أنْ يجعلَه من جملة البلاد التي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، وفي الثاني: أنْ يُخرجَه من صفةٍ كان عليها من الخوف إلى ضدِّها من الأمن، كأنَّه قال: هو بلدٌ مخوفٌ فاجعله آمنًا، كذا في «الكشاف»[٤].

---

(١) في الأصل: الاستفادة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٢.
(٢) في الأصل: نعمة الله، والمثبت من (م).
(٣) في (م): أهل.
(٤) ٢/ ٣٧٩.

وتحقيقُه: أنَّك إذا قلتَ: اجعل هذا خاتمًا حسنًا، فقد أشرتَ إلى المادَّة طالبًا أنْ يسبكَ منها خاتم حسن، وإذا قلتَ: اجعَلْ هذا الخاتمَ حسنًا، فقد قصدْتَ الحسن دون الخاتمية، وذلك لأنَّ محطَّ الفائدة هو المفعول الثاني؛ لأنَّه بمنزلة الخبر، وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أنَّ في الأول سؤالَ أمرَين البلديةِ والأمنِ، وهاهنا سؤالُ أمرٍ واحدٍ وهو الأمنُ.

واستشكل هذا التفسيرُ بأنَّه يقتضي أنْ يكونَ سؤالُ البلدية سابقًا على السؤال المحكي في هذه السورة، وأنَّه يلزم أنْ تكونَ الدعوة الأولَى غيرَ مستجابةٍ؟

قال في «الكشف»: والتفصِّي عن ذلك إمَّا بأنَّ المسؤول أوَّلًا صلوحُه للسكنى، بأنْ يُؤمنَ فيه أهله في أكثر الأحوال على المستمرِّ في البلاد، فقد كان غيرَ صالحٍ لها بوجهٍ على ما هو المشهور في القصَّة، وثانيًا إزالةُ خوف عرض، كما يعتري البلادَ الآمنةَ أحيانًا، وإمَّا بالحمل على الاستدامة وتنزيله منزلةَ العاري عنه مبالغةً، أو بأنَّ أحدهما أمنُ الدنيا والآخر أمنُ الآخرة، أو أنَّ الدعاء الثاني صدَرَ قبل استجابةِ الأوَّل، وذكر بهذه العبارة إيماءً إلى أنَّ المسؤول الحقيقيَّ هو الأمنُ والبلدية توطئة، لا أنَّه بعد الاستجابة عراه خوفٌ، وكأنَّه بنَى الكلامَ على الترقِّي، فطلب أولًا أنْ يكونَ بلدًا آمنًا من جملة البلاد التي هي كذلك، ثم لتأكيد الطلب جعلَه مخوفًا حقيقة فطلَبَ الأمنَ؛ لأنَّ دعاء المضطر أقربُ إلى الإجابة، ولذا ذيَّلَه عليه السلام بقوله: «إني أسكنتُ» إلخ. اهـ.

وهو مبنيٌّ على تعدُّد السؤال وإنْ حُمل على وحدتِه وتكرير الحكاية كما استظهرَه بعضُهم، واستظهرَ آخرونَ الأول، لتغاير التعبير في المحلَّين، فالظاهرُ أنَّ المسؤول كلا الأمرَين وقد حُكي أولًا، واقتصر هاهنا على حكاية سؤالِ الأمن؛ لأنَّ سؤال البلديةِ قد حُكي بقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إذ المسؤولُ هويُّها إليهم للمساكنة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا للحجِّ فقط، وهو عينُ سؤال البلدية، وقد حُكي بعبارة أخرى على ما اختاره بعضُ الأجلَّة، أو لأنَّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذكْرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله على ما قيل.

وهذه الآية وما تلاها ـ أعني قصةَ إبراهيم عليه السلام ـ على ما نصَّ عليه صاحب «الكشف» واردةٌ على سبيلِ الاعتراض، مُقرِّرَةٌ لما حثَّ عليه من الشكر

بالإيمان والعمل الصالح وزجر عنه من مقابلهما مدمجًا فيها دعوةَ هؤلاء النافرين بلسان اللطف والتقريب، مؤكدةٌ لجميع ما سلف أشدَّ التأكيد.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ المرادَ منها تأكيدُ ما سلَفَ من تعجيبه ﷺ ببيان فنٍّ آخرَ من جنايات القوم، حيث كفروا بالنِّعَم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة، وعصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السلام حيث أسكنهم مكةَ ـ زادها الله تعالى شرفًا ـ لإقامة الصلاة والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى، وسأله أنْ يجعله بلدًا آمنًا، ويرزقهم من الثمرات، ويهوي قلوبَ الناس إليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيءٍ، فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا دارَ البوارِ بالبلدِ الحرامِ، وجعلوا لله تعالى أنداداً، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام[1].

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ أي: بعِّدني وإياهم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: عن عبادتها.

وقرأ الجحدريّ وعيسى الثقفي: «وأَجْنِبْني» بقطع الهمزة وكسر النون[2]، بوزن أَكْرِمني، وهما لغةُ أهل نجدٍ يقولون: جَنَبه مخفَّفًا، وأَجْنبه رباعيًا، وأما أهل الحجاز فيقولون: جنّبه، مشدَّدًا.

وأصل التجنُّب أنْ يكون الرجلُ في جانبٍ غير ما عليه غيرُه، ثم استُعمل بمعنى البعد، والمرادُ هنا ـ على ما قال الزجّاج[3] ـ طلبُ الثباتِ والدوام على ذلك، أي: ثَبِّتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملَّة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، وإلا فالأنبياء معصومون عن الكفر وعبادة غير الله تعالى.

وتعقَّب ذلك الإمام بأنَّه لمَّا كان من المعلوم أنَّه سبحانه يُثبِّت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب، فما الفائدةُ في سؤال التثبيت؟ ثم قال: والصحيحُ عندي في الجواب وجهان:

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٤بنحوه.

الأول: أنَّه عليه السلام وإنْ كان يعلمُ أنَّ الله تعالى يعصمُه من عبادة الأصنام إلا أنَّه ذكر ذلك؛ هضمًا لنفسه، وإظهارًا الحاجة والفاقة إلى فضل الله سبحانه وتعالى في كلِّ المطالب.

والثاني: أنَّ الصوفيةَ يقولون: إنَّ[1] الشرك نوعان: ظاهرٌ: وهو الذي يقول به المشركون، وخفيٌّ: وهو تعلُّق القلب بالوسائط والأسباب الظاهرة، والتوحيدُ المحضُ قطعُ النظر عما سوى الله تعالى. فيحتملُ أنْ يكون مرادُه عليه السلام من هذا الدعاء العصمةَ عن هذا الشرك[2]. انتهى.

ويرد على هذا الأخير أنَّه يعودُ السؤال عليه فيما أظنُّ؛ لأنَّ النظر إلى السِّوَى يُحاكي الشركَ الذي يقول به المشركون عند الصوفية، فقد قال قائلهم:

ولو خَطَرَتْ لي في سواك إرادةٌ على خاطِري سهوًا حكمتُ بردَّتي[3]

ولا أظنُّ أنَّهم يجوِّزون ذلك للأنبياء عليهم السلام، وحيث بنى الكلام على ما قرَّروه يقال: ما فائدةُ سؤالِ العصمةِ عن ذلك، والأنبياءُ عليهم السلام معصومون عنه؟ والجواب الصحيح عندي ما قيل: إنَّ عصمة الأنبياء عليهم السلام ليسَت لأمرٍ طبيعيٍّ فيهم، بل بمحض توفيقِ الله تعالى إياهم وتفضُّله عليهم، ولذلك صحَّ طلبُها.

وفي بعض الآثار أنَّ الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوزَ الصراطَ[4].

وأنتَ تعلمُ أنَّ المبشَّرين بالجنة على لسان الصَّادقِ المصدوق عليه الصلاة والسلام كانوا كثيرًا ما يسألون الله تعالى الجنةَ مع أنَّهم مقطوعٌ لهم بها، ولعلَّ منشأ ذلك ما قيل لموسى عليه السلام، فتدبَّر.

والمتبادر من بَنِيْهِ عليه السلام مَن كان من صُلبه، فلا يتوهَّم أنَّ الله تعالى لم

---

(١) ليس في (م).
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٢.
(٣) جاء في هامش (م): هو ابن الفارض قدس سره. اهـ، وهو في ديوانه ص٥٢، وتقدم ١/ ٣٤١.
(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص٢١٨، وقال: إنه من الإسرائيليات.

يستجب دعاءَه لعبادةِ قريش الأصنام، وهم من ذرِّيَّتهِ عليه السلام، حتى يُجاب بما قاله بعضُهم مِن أنَّ المراد كلُّ مَن كان موجودًا حال الدعاء من أبنائه، ولا شكَّ أنَّ دعوتَه عليه السلام مجابةٌ فيهم، أو بأنَّ دعاءه استُجيب في بعضٍ دون بعضٍ، ولا نقص فيه كما قال الإمام[1].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّ المراد ببنِيْه ما يشملُ جميع ذرِّيَّته عليه السلام، وزعَمَ أنَّه لم يَعبد أحدٌ من أولاد إسماعيلَ عليه السلام الصنمَ، وإنَّما كان لكلِّ قومٍ حجرٌ نصبوه وقالوا: إنَّ[2] هذا حجرٌ والبيتُ حَجَرٌ، وكانوا يدورون به ويُسمُّونه الدوار، ولهذا كره غيرُ واحدٍ أنْ يقال: دارَ بالبيت[3]، بل يقال: طافَ به، وعلى ذلك أيضًا حَمَل مجاهد البنين، وقال: لم يعبد أحدٌ من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا وإنما عَبَدَ بعضُهم الوثَنَ. وفرّق بينهما بأنَّ الصنم هو التمثال المصوَّر، والوثنَ هو: التمثال الغير المصوَّر، وليت شعري كيف ذهبت على هذَين الجليلَين ما في القرآن من قوارع تنعي على قريش عبادةَ الأصنام؟!

وقال الإمام بعد نقلِهِ كلامَ مجاهد: إنَّ هذا ليس بقويٍّ؛ لأنَّه عليه السلام لم يُرِد بهذا الدعاء إلا عبادةَ غير الله تعالى، والصنم كالوثن في ذلك[4]. ويرد مثله على ابن عيينة، ومن هنا قيل عليه: إنَّ فيما ذكره كرًّا على ما فرَّ منه؛ لأنَّ ما كانوا يصنعونه عبادة لغير الله تعالى أيضًا.

واستدلَّ بعضُ أصحابنا بالآية على أنَّ التبعيد من الكفر والتقريبَ من الإيمان ليس إلا مِن الله تعالى؛ لأنَّه عليه السلام إنما طلب التبعيد عن عبادة الأصنام منه تعالى. وحَمْلُ ذلك على الألطاف فيه ما فيه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: تَسبَّبنَ له[5] الضلال،

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.
(٢) ليس في (م).
(٣) في هامش (م): ولا يخفى أن هذا من الآداب، وإلا فقد ورد «دار» في بعض الآثار كما قال النووي. اهـ، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.
(٥) بعدها في (م): في.

فإسناد الإضلال[١] إليهنَّ مجازيٌّ؛ لأنهنَّ جمادٌ لا يُعقَلُ منهنَّ ذلك، والمضِلُّ في الحقيقة هو الله تعالى، وهذا تعليلٌ لدعائه عليه السلام السابق، وصُدِّر بالنداء؛ إظهارًا للاعتناء به، ورغبةً في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم فيما أدعو[٢] إليه من التوحيد وملَّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يحتمل أنْ تكون «مِن» تبعيضيَّةً على التشبيه، أي: فإنَّه كبعضي في عدم الانفكاكِ، ويحتمل أنْ تكون اتِّصاليةً كما في قوله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «أنتَ منِّي بمنزلة هارونَ مِن موسى»[٣] أي: فإنَّه متَّصل بي لا ينفكُّ عنِّي في أمر الدين، وتسميتُها اتِّصالية؛ لأنَّه يُفهم منها اتِّصال شيءٍ بمجرورها، وهي ابتدائيةٌ إلا أنَّ ابتدائيته باعتبار الاتصال، كذا في حواشي «شرح المفتاح» الشريفي، يعني أنَّ مجرورها ليس مبدأً أو منشأً لنفس ما قبلها بل لاتِّصاله، فإمَّا أنْ يقدَّر متعلّقها فعلًا خاصًّا كما قاله الجلالُ السيوطي في بيان الخبر من أنَّ «منِّي» فيه خبرُ المبتدأ، و«مِن» اتصاليَّة، ومتعلّقُ الخبر خاصٌّ، والباء زائدة بمعنى: أنت متَّصلٌ بي ونازلٌ مني بمنزلة هارون مِن موسى. وإمَّا أنْ يقدَّر فعلٌ عامٌّ كما ذهب إليه الشريف هناك، أي: منزلتُه بمنزلةٍ كائنةٍ وناشئةٍ منِّي كمنزلة هارونَ مِن موسى عليهما السلام، وتقديرُه خاصًّا هنا كما فعلنا على تقدير جعلها اتِّصاليةً مما يَستطيبُه الذوقُ السليم دون تقديره عامًّا.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتَّبعني، والتعبيرُ عنه بالعصيان ـ كما قيل ـ للإيذان بأنَّه عليه السلام مستمرٌّ على الدعوةِ، وأنَّ عدم اتِّباع مَن لم يتَّبعْهُ إنما هو لعصيانه لا لأنَّ الدعوة لم تبلغه.

وفي «البحر» أنَّ بين الاتِّباع والعصيان طباقًا معنويًا؛ لأنَّ الاتِّباع طاعة[٤].

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: قادرٌ على أن تغفرَ له وترحمَه، وفي الكلام على

(١) في الأصل: الضلال، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٢) في الأصل: أدعوه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥١.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٣)، والبخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.

ما أشار إليه البعضُ حذفٌ، والتقدير: ومَن عصاني فلا أدعو عليه فإنَّك.. إلخ.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الشرك يجوزُ أنْ يُغفرَ، ولا إشكالَ في ذلك بناءً على ما قال النووي في «شرح مسلم» مِن أنَّ مغفرةَ الشرك كانت في الشرائع القديمة جائزة في أممهم وإنَّما امتنعَت في شرعنا[1].

واختلفَ القائلون بأنَّ مغفرةَ الشركِ لم تكن جائزةً في شريعةٍ من الشرائع في توجيه الآية، فمنهم مَن ذهب إلى أنَّ المرادَ غفورٌ رحيمٌ بعد التوبة، ونسب ذلك إلى السدِّي.

ومنهم مَن ذهب إلى تقييد العصيان بما دون الشركِ، وغفل عما تقتضيه المعادلة، ورُوي ذلك عن مقاتل. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قال: إنَّ المعنى: ومَن عصاني بإقامته على الكفر فإنَّك قادرٌ على أنْ تغفرَ له وترحمه، بأنْ تنقلَه من الكفر إلى الإيمان والإسلام وتهديَه إلى الصواب.

ومنهم مَن قال: المعنى: ومَن لم يتَّبعني فيما أدعو إليه من التوحيد، وأقام على الشرك، فإنك قادرٌ على أن تستره[2] عليه وترحَمه بعدم معاجلته بالعذاب، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦].

ومنهم مَن قال: إنَّ الكلام على ظاهره، وكان ذلك منه عليه السلام قبل أنْ يعلمَ أنَّ الله سبحانه لا يغفرُ الشركَ، ولا نقصَ بجهل ذلك؛ لأنَّ مغفرةَ الشرك جائزةٌ عقلًا كما تقرَّر في الأصول، لكنَّ الدليل السمعيَّ مَنَع منها، ولا يلزمُ النبيَّ أنْ يعلم جميعَ الأدلَّة السمعيَّة في يوم واحدٍ.

والإمام لم يرتَضِ أكثرَ هذه الأوجه، وجعل هذا الكلامَ منه عليه السلام شفاعةً في إسقاطِ العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبةِ، وأنَّه دليلٌ لحصول ذلك لنبيِّنا ﷺ فقال: إنَّ المعصيةَ المفهومةَ من الآية إمَّا أنْ تكونَ من الصغائر، أو من الكبائر بعد التوبةِ أو قبلها، والأولُ والثاني باطلان؛ لأنَّ «مَن عصاني» مطلقٌ، فتخصيصُه عدولٌ عن الظاهر، وأيضًا الصغائرُ والكبائر بعد التوبة واجبةُ الغفران عند الخصم،

(١) شرح مسلم ١٧/ ٧٢، ونقله بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٢) في الأصل: تستره.

فلا يُمكن حملُ[1] اللفظ عليه، فثَبتَ أنَّ الآيةَ شفاعةٌ لأهل الكبائر قبل التوبة، ومتى ثبت منه عليه السلام ثبت في حقِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام لمكان: ﴿ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣] ونحوه، ولئلَّا يلزمَ النقص[2]. وهو كما تَرَى، وقد مرَّ لك ما ينفعُك في هذا المقام فتذكَّر هداك الله تعالى[3].

﴿رَّبَّنَآ﴾ قال في «البحر»: كرَّر النداء، رغبةً في الإجابة والالتجاء إليه تعالى، وأتَى بضمير الجماعة؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْره عليه السلام وذِكْرُ بَنِيْهِ في قوله: «واجْنُبْنِي وبنيَّ»[4].

وتعقِّب بأنَّ ذلك يقتضي ضميرَ الجماعة في «ربِّ إنَّهنَّ» إلخ، مع أنَّه جيء فيه بضمير الواحد؟ فالوجه أنَّ ذلك؛ لأنَّ الدعاء المصدَّر به وما هو بصدَد تمهيدِ مبادي إجابته من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ إلخ متعلِّق بذرِّيَّته، فالتعرُّضُ لوصْف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابة المسؤول، والتأكيدُ لمزيد الاعتناء فيما قصدَه من الخبر.

و«مِن» في قوله ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بمعنى بعض، وهي في تأويل المفعول به، أي: أسكنتُ بعضَ ذرِّيَّتي، ويجوز أنْ يكونَ المفعول محذوفاً، والجارُّ والمجرور صفته[5] سدَّت مسدَّه، أي: أسكنتُ ذريةً مِن ذرِّيَّتي، و«مِن» تحتملُ التبعيضَ والتبيينَ.

وزعْمُ بعضِهم أنَّ «مِن» زائدةٌ عل مذهب الأخفش[6]، لا يرتَضيه سليمُ البصيرة كما لا يخفَى.

والمرادُ بالمُسْكَن إسماعيل عليه السلام ومَن سيولد له، فإنَّ إسكانَه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمِّنٌ لإسكانهم، والداعي للتعميم على[7] ما قيل قولُه

---

(١) ليس في (م).

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٤.

(٣) ينظر ٢/ ١٥٩.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.

(٥) في الأصل: صفة، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.

(٦) معاني القرآن ١/ ٢٧٢.

(٧) في الأصل: كما.

الآتي: «ليقيموا» إلخ، ولا يخفَى أنَّ الإسكان له حقيقةٌ ولأولاده مجاز، فمَن لم يجوِّز الجمع بين الحقيقةِ والمجاز يرتكبُ لذلك عمومَ المجاز، وهذا الإسكانُ بعدما كان بينه عليه السلام وبينَ أهله ما كان، وذلك أنَّ هاجَرَ أمَّ إسماعيلَ كانت أَمَةً مِن القِبْطِ لسارةَ، فوَهَبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلما ولدَت له إسماعيلَ غارَت فلم تُقَارَّهُ على كونه معها، فأخرَجَها وابنَها إلى أرض مكة فوضَعَهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ، ووَضَع عندهما جِرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفيَ منطلقًا، فتبعَتْهُ هاجرُ فقالت: يا إبراهيم أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءَ. قالت له ذلك مرارًا، وجَعَلَ لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آلله أمرَك بهذا؟! قال: نعم[1]، قالت: إذن لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَت.

وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرَوْنَه، استقبلَ بوجهه البيتَ، وكان إذ ذاك مرتَفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وشماله، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: «ربِّ إني أسكنت» إلى: «العلهم يشكرون».

ثم إنها جعلَت تُرضِعُ ابنَها وتشربُ ممَّا في السقاء حتى إذا نَفَدَ عطِشَت وعطِشَ ابنُها، وجعلَت تنظرُ إليه يَتَلَبَّط[2]، فانطلقَت كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجَدَت الصفا أقربَ جبلٍ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَت الوادي تنظرُ هل تَرَى أحدًا، فلم تَرَ، فهَبَطت حتى إذا بلغَت الوادي رفعَت طرفَ دِرعها، ثم سعَت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوَزَتْه، ثم أَتَت المروةَ فقامت عليها ونَظَرت هل ترى أحدًا فلم تَرَ، ففعلَت ذلك سبعَ مرَّاتٍ، ولذلك سَعَى الناسُ بينهما سبعًا[3]، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَه، تريدُ نفسَها، ثم تَسمَّعَت فسمِعَت أيضًا فقالت: قد

---

(١) في هامش (م): وبهذا يبطل استدلال بعض غلاة المتصوفة بالآية على أنَّه يجوز للإنسان أن يضيع ولده وعياله في أرض مضيعة: اتكالًا. اهـ منه.

(٢) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠١: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه ضمن الحديث (٣٣٦٤) عن ابن عباس أنه قال: قال النبي ﷺ: «فذلك سعيُ الناس بينهما».

أسمعْتَ إن كان عندك غَواثٌ، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زَمزَم، فبحث بعَقِبِهِ حتى ظهر الماء، فجعلَت تُحوِّضُه وتغرف منه في سقائها وهو يفور، فشربَت وأرضعَت ولدَها، وقال لها المَلَك: لا تخافي الضيعةَ فإنَّ ها هنا بيتَ الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله سبحانه لا يُضيعُ أهلَه. ثم إنَّه مرَّت بهما رُفقة من جُرْهُم، فرأوا طائرًا عائفًا[1] فقالوا: لا طيرَ إلا على الماء، فبَعثُوا رسولَهم فنظر فإذا بالماء، فأتاهم فقصدوه وأمُّ إسماعيلَ عنده، فقالوا: أشركينا في مائك نُشركك في ألباننا؟ ففعلَت، فلمَّا أدرك إسماعيلُ عليه السلام زوَّجوه امرأةً منهم[2]، وتمامُ القصة في كتب السير.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكة شرَّفها الله تعالى، ووصفه بذلك دون غير مزروعٍ؛ للمبالغة، لأنَّ المعنى: ليس صالحًا للزرع، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨] وكان ذلك لحَجَريَّته.

قال ابنُ عطية: وإنما لم يَصفْه عليه السلام بالخلوِّ عن الماء مع أنَّه حاله[3] إذ ذاك؛ لأنَّه كان علمَ أنَّ الله تعالى لا يُضيعُ إسماعيلَ عليه السلام وأُمَّه في ذلك الوادي، وأنَّه سبحانه يَرزقُهما الماء، فنظر عليه السلام النظر البعيد[4].

وقال أبو حيان بعدَ نقله: وقد يُقال: إنَّ انتفاء كونه ذا زرعٍ مستلزمٌ لانتفاء الماء، إذ لا يمكن أنْ يُوجدَ زرعٌ إلا حيث الماء، فنفَى ما يَتسبَّبُ عن الماء، وهو الزرع، لانتفاء سببه وهو الماء[5]. اهـ.

وقال بعضهم: إنَّ طلب الماء لم يكن مهمًّا له عليه السلام لما أنَّ الوادي مظنةُ السيول، والمحتاج للماء يَدَّخِر منها ما يكفيه، وكان المهمُّ له طلبَ الثمرات،

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠٣: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٦٤) عن ابن عباس ﷺ، وجاء في البخاري: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم، بدل قوله: فقالوا: أشركينا. . . ففعلت.

(٣) في الأصل: خال، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٢٣٧.

فوصف ذلك بكونه غيرَ صالحٍ للزرع بياناً لكمال الافتقار إلى المسؤول. فتأمَّل.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ظرف لـ «أسكنتُ» كقولك: صلَّيت بمكةَ عند الركن. وزَعَمَ أبو البقاء أنَّه صفةُ «وادٍ» أو بدل منه[1]، واختارَ بعضُ الأجلَّة الأوَّلَ، إذ المقصودُ إظهارُ كونِ ذلك الإسكان مع فقدان مباديه لمحض التقرُّب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم، كما يُنبئ عنه التعرُّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزَّة الملتَجَأ وعصمتِهِ عن المكاره، فإنَّهم قالوا: معنى كونِ البيت محرَّمًا أنَّ الله تعالى حرَّم التعرُّض له والتهاونَ به، أو أنَّه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كلُّ[2] الجبابرة في كلِّ عصرٍ، أو لأنَّه منع منه الطوفان فلم يَستولِ عليه، ولذا سمِّي: عتيقًا، على ما قيل[3]، وأَبعَدَ مَن قال: إنَّه سمِّي محرَّمًا؛ لأنَّ الزائرين يُحرِّمون على أنفسهم عند زيارته أشياءَ كانت حلالًا عليهم، وسمَّاه عليه السلام بيتًا باعتبار ما كان، فإنَّه كان مبنيًّا قبل، وقيل: باعتبار ما سيكون بعدُ، وهو ينزعُ إلى اعتبار عنوان الحرمة كذلك.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لأنْ يقيموا، فاللام جارَّةٌ، والفعل منصوبٌ بـ «أَنْ» مضمرة بعدها، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أسكنتُ» المذكور، وتكريرُ النداء وتوسيطُه؛ لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنَّها عمادُ الدين، ولذا خصَّها بالذكر من بين سائر شعائره، والمعنى على ما يقتضيه كلامُ غيرِ واحدٍ على الحصر، أي: ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلْقَع الخالي من كلِّ مُرتَفَقٍ ومُرتزق إلا ليقيموا الصلاةَ عند بيتك المحرَّم، ويَعمُرُوه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبَّداتك، مُتبرِّكين بالبقعة التي شرَّفْتَها على البقاع، مُستَسْعدين بجوارك الكريم، مُتقرِّبين إليك بالعكوف عند بيتك والطوافِ به والركوعِ والسجودِ حولَه، مُستنزلين رحمتَك التي آثَرْتَ بها سكَّانَ حَرَمك.

وهذا الحصر ـ على ما ذكروا ـ مستفادٌ من السياق، فإنَّه عليه السلام لما قال: «بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ» نَفَى أنْ يكونَ إسكانُهم للزراعة، ولمَّا قال: «عندَ بيتك المحرَّم» أثْبتَ أنَّه مكانُ عبادةٍ، فلمَّا قال: «ليقيموا» أثبتَ أنَّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نَفَى

---

(١) الإملاء ٣/ ٤١٠.

(٢) ليس في (م).

(٣) في هامش (م): وقيل: العتيق: مقابل الجديد. اهـ. منه.

كونها للكسب، فجاء الحصرُ مع ما في «ربنا» من الإشارة إلى أنَّ ذلك هو المقصود. وعن مالك أنَّ التعليل يُفيد الحصرَ، فقد استدلَّ بقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] على حرمة أكلها[١].

وفي «الكشف» أنَّ استفادة الحصر من تقدير محذوفٍ مؤخَّرٍ يتعلَّق به الجارُّ والمجرور، أي: ليقوموا أَسكنتهم هذا الإسكان، أخبر أوَّلًا أنَّه أسكنَهم بوادٍ قَفْرٍ، فأدمجَ فيه حاجتهم إلى الوافدين، وذكر وجه الإيثار، لشرف الجوارِ بقوله: «عند بيتك المحرَّم»، ثم صرَّح ثانيًا بأنَّه إنَّما آثر ذلك ليعمُرُوا حَرَمَك المحرَّم، وبنى عليه الدعاء الآتي، ومن الدليل على أنَّه غيرُ متعلِّق بالمذكور تخلُّلُ «ربَّنا» ثانيًا بين الفعل ومتعلَّقه، وهذا بَيِّنٌ، ولا وجهَ لاستفادة ذلك من تكرير «ربَّنا» إلا مِن هذا الوجه. اهـ.

واختار بعضُهم ما ذكرناه أوَّلًا في وجه الاستفادة، وقال: إنَّه معنًى لطيفٌ، ولا يُنافيه الفصل بالنداء؛ لأنَّه اعتراضٌ لتأكيد الأول وتذكيره، فهو كالمنبَّه عليه، فلا حاجةَ إلى تعلُّق الجارِّ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ واستفادةِ الحصر من ذلك، وهو الذي ينبغي أنْ يُعوَّل عليه، وبجَعْلِ النداء مؤكِّدًا للأوَّل يندفعُ ما قيل: إنَّ النداء له صدرُ الكلام فلا يتعلَّق ما بعده بما قبله، فلابدَّ من تقدير متعلَّق، ووجْهُ الاندفاع ظاهرٌ.

وقيل: اللامُ لام الأمر، والفعلُ مجزومٌ بها، والمرادُ هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة، كأنَّه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أنْ يُوفِّقهم لها، ولا يخفى بُعده، وأبعدُ منه ما قاله أبو الفرج ابنُ الجوزي: إنَّ اللام متعلِّقةٌ بقوله: «واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام»[٢]. وفي قوله: «ليقيموا» بضمير الجمع على ما في «البحر» دلالة على أنَّ الله تعالى أعلَمه بأنَّ ولدَه إسماعيلَ عليه السلام سيعقب هنالك ويكونُ له نسلٌ[٣].

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: أفئدةً من أفئدتهم ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا، فـ«من» للتبعيض، ولذا قيل: لو قال عليه السلام: أفئدة الناس، لازدحمَتْ عليهم فارسُ والرومُ، وهو مبنيٌّ على الظاهر من إجابة دعائه

(١) الموطأ ٢/ ٤٩٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٢.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

عليه السلام، وكونِ الجمع المضاف يُفيد الاستغراق. وروي عن ابن جبير أنَّه قال: لو قال عليه السلام: أفئدةَ الناس، لحجَّت البيتَ اليهودُ والنصارى.

وتعقِّب بأنَّه غيرُ مناسبٍ للمقام، إذ المسؤول توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحجِّ، وإلا لقيل: تهوي إليه، فإنَّه عينُ الدعاء بالبلدية قد حُكي بعبارةٍ أخرى. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه لا منافاةَ بين الشرطيَّة في المرويّ وكون المسؤول توجيهَ القلوب إليهم للمساكنة معهم، وقد جاء نحو تلك الشرطيَّة عن ابن عباس ومجاهد كما في «الدر المنثور» وغيره[1]، على أنَّ بعضهم جعل هذا دعاءً بتوجيه القلوب إلى البيت، فقد أخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن الحكم قال: سألتُ عكرمةَ وطاوسًا وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية «فاجعل».. إلى آخره، فقالوا: البيت تَهوي إليه قلوبُهم: يأتونه[2]. وفي لفظٍ قالوا: هواهم إلى مكة: أنْ يحجُّوا[3]. نعم هو خلافُ الظاهر.

وجوّز أنْ تكون «من» للابتداء كما في قولك: القلب منه سقيم، تريدُ قلبَه، فكأنَّه قيل: أفئدةَ ناسٍ، واعترضَه أبو حيان بأنَّه لا يظهرُ كونُها للابتداء، لأنَّه لا فعلَ هنا يُبتَدَأُ فيه لغايةٍ ينتهي إليها، إذ لا يصحُّ ابتداءُ جعل أفئدة من الناس[4].

وتعقبه بعضُ الأجلَّة بقوله: وفيه بحثٌ، فإنَّ فعل الهويِّ للأفئدة يُبتَدأُ به لغايةٍ ينتهي إليها، ألا يرى إلى قوله: «إليهم». وفيه تأمُّل. اهـ.

وكأنَّ فيه إشارةً إلى ما قيل: من أنَّ الابتداء في «مِن» الابتدائية إنما هو من متعلّقها لا مطلقاً، وإن جعلناها متعلِّقةً بـ «تهوي» لا يظهرُ لتأخيره ولتوسيط الجارِّ فائدةٌ.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١١١، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٩٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٣) الطبري ١٣/ ٦٩٩، والجعديات (٢٤٩)، والدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

وذكر مولانا الشهابُ في توجيه الابتداء وترجيحِهِ على التبعيض كلامًا لا يخلو عن بحثٍ، فقال: اعلم أنَّه قال في «الإيضاح»: إنَّه قد يكونُ القصدُ إلى الابتداء دونَ أنْ يقصد انتهاء مخصوص إذا كان المعنَى لا يقتضي إلا المبتدأ منه، ك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وزيدٌ أفضلُ من عمرٍو. وقد قيل: إنَّ جميع معاني «مِن» دائرةٌ على الابتداء، والتبعيضُ هنا لا يظهرُ فيه فائدةٌ كما في قوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] فإنَّ كون قلب الشخص وعظمه بعضًا منه معنًى مكشوف غير مقصودٍ بالإفادة، فلذا جعلت للابتداء، والظرفُ مستقرٌّ للتفخيم، كأنَّ ميلَ القلب نَشَأ من جملته، مع أنَّ ميلَ جملة كلِّ شخصٍ من جهة قلبه، كما أنَّ سقم قلبِ العاشق نَشَأ منه، مع أنَّه إذا صَلُح صَلُح البدنُ كلُّه، وإلى هذا نَحَا المحقِّقون من شرَّاح «الكشاف»، لكنَّه معنًى غامضٌ، فتدبَّره(١).

والأفئدةُ مفعولٌ أوَّل لـ «اجعل»، وهو جمعُ: فؤادٍ، وفسَّروه على ما في «البحر» وغيره بالقلب، لكنْ يقال له(٢): فؤاد، إذا اعتُبر فيه معنى التفؤُّد، أي: التوقُّد، يقال: فأدْتُ اللحمَ، أي: شويتُه، ولحمٌ فئيدٌ، أي: مشويٌّ، وقيل: الأفئدة هنا: القِطَعُ من الناس، بلغة قريش، وإليه ذهب ابنُ بحر. والمفعولُ الثاني جملة «تهوي»، وأصلُ الهويِّ: الهبوطُ بسرعةٍ، وفي كلام بعضهم السرعةُ، وكان حقُّه أنْ يُعدَّى باللام كما في قوله:

حتى إذا ما هَوَتْ كفُّ الوليدِ لها ... طارَتْ وفي كفِّه مِن رِيشها بِتَكُ(٣)

وإنما عُدِّي بـ «إلى» لتضمينه معنى الميل كما في قوله:

تَهويْ إلى مكةَ تبغي الهدَى ... ما مؤمنُ الجنِّ كأنجاسها(٤)

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣.

(٢) ليس في الأصل.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح ديوانه ص١٧٥، واللسان (كفف)، ووقع في (م): تبك، بدل: بتك. وبتك: قطع، واحدها: بتكة، شرح ثعلب.

(٤) البيت من هواتف الجانِّ، هُتف به لسواد بن قارب ﷺ، وأخرج قصة إسلامه مع الشِّعر أبو نعيم في الدلائل (٦٢)، وذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٢٩٥، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٥٦٣ وما بعد، وابن حجر في الإصابة ٤/ ٢٩٤، وعجز البيت يُروى بعدَّة روايات متقاربة، ينظر البداية والنهاية. وأصل القصة أخرجها البخاري (٣٨٦٦).

ولما كان ما تقدَّم كالمبادي لإجابة دعائه عليه السلام وإعطاء مسؤوله جاء بالفاء في قوله: «فاجعل» إلى آخره.

وقرأ هشام: «أَفئِيدَة» بياءٍ بعد الهمزةِ، نصَّ عليه الحُلواني عنه(١)، وخُرِّج ذلك على الإشباع كما في قوله:

أعــوذُ بــالله مِــن الــعَــقْــرابِ الــشــائــلاتِ عُــقَــدَ الأذنــابِ(٢)

ولمَّا كان ذلك لا يكونُ إلا في ضرورة الشعر عند بعضهم قالوا: إنَّ هشامًا قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبَّر عنها الراوي بالياء، فظنَّ مَن أخطأ فهمه أنَّها بياءٍ بعد الهمزة، والمرادُ بياء عوضًا من الهمزة. وتعقَّب ذلك الحافظُ أبو عمرو الداني: بأنَّ النقَلَةَ عن هشام كانوا مِن أعلم الناس بالقراءة ووجوهها، فهم أجلُّ مِن أنْ يُعتَقَد فيهم مثل ذلك(٣).

وقرئ: «آفدة» على وَزْن: ضاربة(٤)، وفيه احتمالان: أحدُهما: أنْ يكون قُدِّمَت فيه الهمزةُ على الفاء فاجتمع همزتان(٥)، ثانيتُهما ساكنةٌ فقُلبت ألفًا، فوزْنُه: أَعْفِلة، كما قيل في «أَدْوُر» جمع «دار»، قُلِبَت فيه الواوُ المضمومةُ همزةً، ثم قُدِّمت وقُلبت ألفًا فصار: آدُر.

وثانيهما: إنَّه اسم فاعلٍ من: أَفِدَ يأفَدُ، بمعنى: قَرُبَ وَدَنا، ويكون بمعنى عَجِلَ وهو صفةٌ لمحذوف، أي: جماعة أو جماعات آفِدة.

وقرئ: «أَفِدة» بفتح الهمزة من غير مدٍّ، وكسر الفاء بعدها دال(٦)، وهو إمَّا صفة

---

(١) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) البيت في الجمل للفراهيدي ص٢٤٤، وضرائر الشعر ص٣٣، ورسالة الملائكة ص٢١٣، والمغني ص٤٨٧، واللسان (سبسب)، وتاج العروس (عقرب)، واللباب ١١/ ٣٩٧ دون نسبة.

(٣) ينظر النشر ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لابن كثير، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣، والكلام الآتي منه أيضًا.

(٥) قبلها في الأصل: فيه.

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لعيسى بن عمر، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

من أَفِد بوزن: خشنة، فيكونُ بمعنى آفدة في القراءة الأُخرَى، أو أصلُه أفئدة، فنُقلَت حركةُ الهمزة إلى ما قبلها ثم طُرِحَت، وهو وجهٌ مشهورٌ عند الصرفيين والقرَّاء.

قال الأوَّلون: إذا تحرَّكت الهمزةُ بعد ساكنٍ صحيح تبقى، أو تنقل حركتها إلى ما قبلها وتحذف، ولا يجوزُ جعلُها بَيْنَ بَيْن؛ لما فيه من شبه التقاء الساكنَين، وقال صاحب «النشر» من الآخرين: الهمزةُ المتحركة بعد حرفٍ صحيح ساكنٍ كـ: مسؤولًا وأفئدة وقرآن وظمآن، فيها وجهٌ واحدٌ وهو النقلُ، وحُكي فيه وجهٌ ثانٍ وهو بَيْنَ بَيْن، وهو ضعيفٌ جدًّا، وكذا قال غيرُه منهم[1]، فما قيل: إنَّ الوجه إخراجُها بَيْنَ بَيْنٍ، ليس بالوجه.

وقرأت أمُّ الهيثم: «أفوِدة» بالواو المكسورة بدل الهمزة، قال صاحب «اللوامح»: وهو جمعُ: وَفْد، والقراءة حسنة، لكنِّي لا أعرفُ هذه المرأة، بل ذكرها أبو حاتم[2]. اهـ.

وقال أبو حيان[3]: يحتمل أنَّه أبدل الهمزةَ في فؤاد، ثم جُمع وأُقرَّت الواو في الجمع إقرارَها في المفرد، أو هو جَمع وَفْد كما قال صاحب «اللوامح» وقُلب، إذ الأصلُ: أوفدة، وجَمْعُ فَعْل على أَفْعِلَة شاذٌّ، نحو نجد وأنجدة، ووَهْي وأَوهية، وأمُّ الهيثم: امرأةٌ نُقِل عنها شيءٌ من لغات العرب. وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «إفادَة» على وزن إمَارَة[4]، ويظهرُ أنَّ الهمزة بدلٌ من الواو المكسورة كما قالوا: إشَاح في وِشاح، فالوزن: فِعالة، أي: فاجعل ذوي وِفادة، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدر أَفاد إفادةً، أي: ذوي إفادة، وهم الناس الذين يُفيدون ويُنتَفَع بهم.

وقرأ مسلمةُ بنُ عبد الله: «تُهوَى» بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول[5]، من أهوى المنقول بهمزة التعدية من هَوِي اللازم، كأنه قيل: يسرع[6] بها إليهم.

---

(١) ينظر النشر ١/ ٤٠٨ و٤٣٣، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

(٦) في الأصل: تسرع، والمثبت من (م) والبحر المحيط.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وجماعة من أهله ومجاهد: «تَهوى» مضارع هَوي[1]، بمعنى: أحبَّ، وعدِّي بـ : «إلى»؛ لما تقدَّم.

﴿وَٱرۡزُقۡهُم﴾ أي: ذرِّيَّتي الذين أسكنتُهم هناك، وجوّز أن يريدَهم والذين ينحازون إليهم من الناس، وإنما لم يخصَّ عليه السلام الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: ١٢٦] اكتفاءً ـ على ما قيل ـ بذكر إقامة الصلاة.

﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواعها، بأن تجعلَ بقربهم قُرًى يحصلُ فيها ذلك، أو تُجبَى إليهم من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلا الأمرَين، حتى إنَّه يجتمعُ في مكة المكرمةَ البواكير[2] والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعيَّة والصيفيَّة والخريفيَّة في يومٍ واحد.

أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن محمد بنِ مسلم الطائفي أنَّ الطائف كانت من أرض فلسطينَ، فلمَّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة رَفَعها الله تعالى ووَضَعها حيث وضعها رزقًا للحرم[3]. وفي رواية: أنَّ جبريل عليه السلام اقتلعها فجاء وطافَ بها حولَ البيت سبعًا، ولذا سُمِّيت الطائف ثم وَضَعها قريبَ مكة[4]. وروي نحو ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الزهري أنَّ الله تعالى نَقَل قريةً من قُرَى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام[5].

والظاهر أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يكن مقصودُه من هذا الدعاءِ نقلَ أرضٍ مُنبتةٍ من فلسطينَ أو قريةٍ من قُرَى الشام، وإنَّما مقصودُه عليه السلام أنْ يرزقَهم سبحانه من الثمرات، وهو لا يتوقَّف على النقل، فليُنْظَر ما وجهُ الحكمة فيه، وأنا لستُ على يقينٍ من صحَّته ولا أُنكر ـ والعياذ بالله تعالى ـ أنَّ الله جلَّ وعلا على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وأنه سبحانه يفعلُ ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٤، والبحر ٥/ ٤٣٣.
(٢) في الأصل: البوكير، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٣) الطبري ١٣/ ٧٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديَّة، واستدلَّ به على أنَّ تحصيلَ منافع الدنيا إنما هي ليُستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات، ولا يخفَى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسنِ الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعَرْض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولذا مَنَّ عليه بحُسن القَبول وإعطاء المسؤول، ولا بِدْعَ في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ من الحاجات وغيرها، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن إبراهيمَ النخعي أنَّ مرادَه[1] عليه السلام ما نُخفي من حبِّ إسماعيلَ وأُمِّه، وما نُعلنُ لسارةَ من الجفاء لهما[2]. وقيل: ما نُخفي من الوَجْد لما وقَعَ بيننا من الفرقة، وما نعلنُ من البكاء والدعاء، وقيل: ما نُخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جَرَى بيننا وبين هاجرَ عند الوداع من قولها: إلى مَن تَكِلُنا؟ وقولي لها: إلى الله تعالى. و«ما» في جميع هذه الأقوال موصولةٌ، والعائدُ محذوف، والظاهرُ العموم، وهو المختار.

والمرادُ بـ«ما نُخفي» على ما قيل ما يقابل «ما نعلن» سواء تعلَّقَ به الإخفاءُ أو لا، أي: تعلم ما نُظهرُه وما لا نظهرُه، فإنَّ علمه تعالى متعلِّقٌ بما لا يخطُر بباله عليه السلام من الأحوال الخفيَّة، وتقديمُ «ما نُخفي» على «ما نُعلنُ» لتحقيق المساواة بينهما في تعلُّق العلم على أبلغ وجهٍ، فكأنَّ تعلُّقه بما يُخفي أقدمُ منه بما يُعلن، أو لأنَّ مرتبةَ السرِّ والخفاء متقدِّمةٌ على مرتبة العَلَن، إذ ما مِن شيءٍ يُعلَن إلا وهو قبل ذلك خفيٌّ، فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأولى أقدمُ من تعلُّقه بحالته الثانية.

وجعل بعضُهم «ما» مصدريةً، والتقديمُ والتأخيرُ؛ لتحقيق المساواة أيضاً، ومن هنا قيل: أي: تعلمُ سرَّنا كما تعلم علننا.

والمقصودُ من فحوى كلامه عليه السلام أنَّ إظهار هذه الحاجاتِ وما هو من مباديها وتَتمَّاتها ليس لكونها غيرَ معلومةٍ لك، بل إنَّما هو لإظهار العبودية،

(١) في الأصل: أنه مرادة.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والتخشُّع لعظمتك، والتذلُّل لعزَّتك، وعَرْض الافتقار لما عندك، والاستعجال لنيل أيادِيْك.

وقيل: أراد عليه السلام أنَّك أعلمُ بأحوالنا ومصالحنا وأرحمُ بنا من أنفسنا فلا حاجةَ لنا إلى الطلب، لكنْ ندعوك لإظهار العبوديَّة.. إلى آخره، وقد أشار السهروردي إلى أنَّ ظهورَ الحال يُغني عن السؤال بقوله:

ويَمنعُني الشكوى إلى الناس أنَّني عليلٌ ومَن أشكو إليه عليلُ
ويَمنعُني الشكوى إلى الله أنَّه عليمٌ بما أشكوه قبل أقولُ[1]

وتكريرُ النداء؛ للمبالغة في الضراعة والابتهال، وضميرُ الجماعة ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لأنَّ المراد ليس مجرَّدَ علمه تعالى بما يُخفي وما يُعلن، بل بجميع خفايا الملك والملكوت، وقد حقَّقه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ لما أنَّ عِلْمَه تعالى ذاتيٌّ فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلومٌ دون معلوم.

وقال أبو حيَّان: لا يظهرُ تفاوتٌ بين إضافة «ربَّ» إلى ياء المتكلِّم وبين إضافته إلى جمع المتكلِّم[2]. اهـ. ومما نقلنا يُعلَم وجهُ إضافة «ربَّ» هنا إلى ضمير الجمع، ولا أدري ماذا أراد أبو حيان بكلامه هذا، وما يرد عليه أظهرُ مِن أنْ يخفَى، وإنما قال عليه السلام: «وما يخفَى» إلى آخره، دون أن يقول: ويعلم ما في السماوات والأرض؛ تحقيقاً لما عناه بقوله: «تعلمُ ما نُخفي» من أنَّ علمه تعالى بذلك ليس على وجهٍ يكونُ فيه شائبةُ خفاءٍ بالنسبة إلى علمه تعالى، كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمةُ «في» متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «شيء» أي: لشيءٍ كائنٍ فيهما أعمُّ من أنْ يكونَ ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيَّة منهما، وجوِّز أنْ تتعلَّق بـ «يَخفَى» وهو كما ترى.

---

(١) البيتان للأمير تميم بن المعز كما في زهر الآداب ١/ ٤٣٤بنحوهما، وهما بتمامهما في حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣ ـ٢٧٤ دون نسبة.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

وتقديمُ «الأرض» على «السماء» مع توسيط «لا» بينهما باعتبار القُرب والبعد مِنَّا المستعدَّين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا. والمراد من «السماء» ما يشمل السماوات كلَّها، ولو أُريد من «الأرض» جهةُ السفل، ومن «السماء» جهةُ العلوِّ كما قيل، جاز[1].

والالتفاتُ من الخطاب إلى الاسم الجليل؛ للإشعار بعلَّة الحكم والإيذان بعمومه؛ لأنَّه ليس بشأنٍ يختصُّ به أو بمَنْ يتعلَّق به، بل شاملٌ لجميع الأشياء، فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوانٍ مُصَحِّح لمبدئيَّة الكُلِّ.

وعن الجبَّائي أنَّ هذا من كلام الله تعالى شأنه واردٌ بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] والأكثرون على الأوَّل. و«مِن» على الوجْهَين؛ للاستغراق.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَرِ سِنِّي ويأسي عن الولد، فـ «على» بمعنى «مع» كما في قوله:

إنِّي على ما تَرَيْنَ من كِبَرِي أعرفُ مِن أينَ تُؤكلُ الكتفُ[2]

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، والتقييد بذلك؛ استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها، ويصحُّ جعل «على» بمعناها الأصلي، والاستعلاء مجازيٌّ كما في «البحر»[3]، ومعنى استعلائه على الكِبَر أنَّه وَصَل غايتَه، فكأنَّه تجاوَزَه وعلا ظهرَه، كما يقال: على رأس السنة، وفيه من المبالغة ما لا يخفَى.

وقال بعضُهم: لو كانت للاستعلاء لكان الأنسبُ جَعْل الكِبَر مستعلياً عليه، كما في قولهم: عليَّ دَيْنٌ، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] بل الكبر أولى بالاستعلاء منهما حيث يَظهرُ أثرهُ في الرأس: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] نعم يُمكن أنْ تَجري على حقيقتها بجعلها متعلِّقةً بالتمكُّن والاستمرار، أي: متمكِّناً

---

(١) في هامش (م): قيل: وهو أوفق بإفراد السماء. اهـ منه.

(٢) كتاب الأمثال ص١٠٠، وفصل المقال ص١٤٢، وتفسير الرازي ١٩/ ١٣٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

مستمرًّا على الكبر، وهو الأنسبُ لإظهار ما في الهيئة من الآية حيث لم يكُن في أوَّل الكبر. اهـ. وفيه غفلةٌ عمَّا ذكرنا.

﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه وُهِبَ له إسماعيل وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، ووُهِبَ له إسحاق وهو ابنُ مئةٍ واثنتَي عشرةَ سنة، وفي روايةٍ أنَّه ولد له إسماعيل لأربعٍ وستِّين، وإسحاق لسبعين، وعن ابن جبير: لم يُولد لإبراهيم عليه السلام إلا بعد مئةٍ وسبعَ عشرةَ سنة.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لَمجِيْبُه، فالسمع بمعنى القَبول، والإجابةُ مجازٌ كما في: «سمع الله لمن حمده»[1]، وقولهم: سمع المَلِكُ كلامَه: إذا اعتدَّ به وقَبِلَه، وهو فَعيلٌ من أمثلة المبالغة، وأعمَلَه سيبويه[2] وخالفَ في ذلك جمهورَ البصريِّين، وخالفَ الكوفيُّون فيه[3] وفي إعمال سائر أمثلتها، وهو ـ إذا قلنا بجواز عملِهِ ـ مضافٌ لمفعولِهِ إنْ أُريدَ به المستقبل، وقيل: إنَّه غيرُ عاملٍ؛ لأنَّه قصد به الماضي أو الاستمرار.

وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكونَ مضافاً لفاعله المجازيِّ، فالأصلُ: سميعٌ دعاؤُه، بجعل الدعاءِ نفسِه سامعاً، والمراد أنَّ المدعوَّ ـ وهو الله تعالى ـ سامعٌ[4].

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه بعيدٌ؛ لاستلزامه أنْ يكونَ من باب الصفة المشبَّهة، وهو متعدٍّ، ولا يجوزُ ذلك إلا عند الفارسيِّ حيث لا يكونُ لَبْسٌ، نحو: زيدٌ ظالم العبيد، إذا عُلِمَ أنَّ له عبيداً ظالمين، وها هنا فيه إلباس؛ لظهور أنَّه من إضافة المثال للمفعول[5]. انتهى، وهو كلامٌ متينٌ.

والقولُ بأنَّ اللَّبْسَ منتفٍ؛ لأنَّ المعنَى على الإسناد المجازيِّ، كلامٌ واهٍ؛ لأنَّ المجاز خلافُ الظاهر، فاللَّبس فيه أشدُّ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وتقدم ٢/ ٣١٧.

(٢) الكتاب١/ ١١٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

(٣) في الأصل: في ذلك، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨١، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤، وكلام الفارسي منه.

ومثلُه القول بأنَّ عدم اللَّبس إنَّما يُشترط في إضافته إلى فاعله على القطع، وهذا كما قال بعضُ الأجلَّة مع كونه من تَتِمَّة الحمد والشكر، لما فيه من وَصْفه تعالى بأنَّ قبولَ الدعاء عادتُه سبحانه المستمرَّةُ تعليلٌ على طريق التذييل للهبة المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمةِ فيها حيث وقعَت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فاقترنَت الهبةُ بقَبول الدعوة.

وذكر بعضُهم أنَّ موقع قوله: «الحمد لله» وتذييله موقع الاعتراض بين أدعيته عليه السلام في هذا المكانِ تأكيداً للطلب بتذكير ما عَهِدَ من الإجابة، يتوسَّل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه، كأنَّه عليه السلام يقول: اللهمَّ استجب دعائي في حقِّ ذرِّيَّتي في هذا المقام، فإنَّك لم تزل سميعَ الدعاء، وقد دعوتُك على الكبر أنْ تهَبَ لي ولداً فأجبتَ دعائي ووهبتَ(١) لي إسماعيل وإسحاق، ولا يخفَى أنَّ إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعائه عليه السلام السابق، فالوجهُ أنْ لا يجعل ذلك اعتراضاً، بل يحمل على أنَّ الله تعالى حكى جُملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحايينَ مختلفةٍ تشتركُ كلُّها فيما سيقَ له الكلامُ من كونه عليه السلام على الإيمان والعمل الصالح وطلب ذلك لذرِّيَّته وأنَّ ولده الحقيقيَّ من تَبِعَه على ذلك، فترَكَ العنادَ والكفرَ، وقد ذكر هذا صاحبُ «الكشف».

ومما يعضدُه ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) إلخ: قال هذا بعد ذلك بحين(٢).

ووحَّد عليه السلام الضميرَ في «رب» وإنْ كان عقيب ذكر الولَدين؛ لما أنَّ نعمة الهبةِ فائضةٌ عليه عليه السلام خاصَّةً، وهما من النعم لا مِن المُنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معدِّلاً لها، فهو مجازٌ من: أقمتُ العودَ: إذا قَوَّمتَه، فأراد(٣) بهذا الدعاء الديمومةَ على ذلك، وجوَّز بعضُهم أنْ يكون المعنى مواظباً عليها، وبعضُ عظماء العلماء أخذَ الأمرَين في تفسير ذلك على أنَّ الثاني قيدٌ

(١) في (م): وهبت. والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٥/ ٢٧٤.
(٢) عزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.
(٣) في (م): وأراد.

للأوَّل، مأخوذٌ من صيغة الاسم والعدول عن الفعل، كما أنَّ الأوَّل مأخوذٌ من موضوعه على ما قيل، فلا يلزمُ استعمالُ اللفظِ في معنَيين مجازيَّيْن.

وتوحيدُ ضمير المتكلِّم مع شمول دعوته عليه السلام لذرِّيَّته أيضاً حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للإشعار بأنَّه المقتدَى في ذلك، وذرِّيَّته أتباعٌ له[1]، فإنَّ ذِكرَهم بطريق الاستطراد، «ومِن» للتبعيض، والعطفُ كما قال أبو البقاء على مفعول «اجعل» الأول، أي: ومِن ذرِّيَّتي مقيمَ الصلاة[2].

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: أنَّ الجارَّ والمجرور في الحقيقة صفةٌ للمعطوف على ذلك، أي: وبعضاً مِن ذرِّيَّتي، ولولا هذا التقديرُ كان ركيكاً[3]، وإنَّما خصَّ عليه السلام هذا الدعاء ببعض ذرِّيَّته؛ لعلمه من جهته تعالى أنَّ بعضاً منهم لا يكونُ مقيمَ الصلاة، بأنْ يكونَ كافراً أو مؤمناً لا يصلِّي.

وجوِّز أنْ يكونَ عَلِمَ من استقرائه عادةَ الله تعالى في الأمم الماضيةِ أنْ يكونَ في ذرِّيَّته مَن لا يُقيمُها، وهذا كقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ ظاهرُه: دعائي هذا المتعلِّق بجَعْلي وجَعْل بعضِ ذرِّيَّتي مقيمي الصلاة، ولذلك جيء بضمير الجماعة، وقيل: الدعاء بمعنى العبادة، أي: تقبَّل عبادتي. وتعقِّب بأنَّ الأنسبَ أنْ يُقال فيه: دعاءَنا حينئذ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وهبيرة عن حفص: «دعائي» بياء ساكنة في الوصل[4]، وفي رواية البزِّيِّ عن ابن كثير أنَّه يصلُ ويقفُ بياء[5]، وقال قنبل: إنَّه يشمُّ الياء في الوصل ولا يُثبتُها ويقفُ عليها بالألف[6].

---

(١) في الأصل: تبع، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) الإملاء ٣/ ٤١١.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.
(٤) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة ورش وأبي جعفر، وقراءة هبيرة عن حفص في جامع البيان للداني ٢/ ٢٣٥، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وهي خلاف المشهور عن حفص.
(٥) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة يعقوب أيضاً.
(٦) مجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وعنه نقل المصنِّف القراءات.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ أي[1]: ما فرط منِّي ممَّا أعدُّه ذنباً ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: لأمِّي وأبي، وكانت أمُّه على ما روي عن الحسن مؤمنةً، فلا إشكال في الاستغفار لها. وأما استغفارُه لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه إنَّه كان قبل أنْ يَتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله سبحانه، والله تعالى قد حَكَى ما قاله عليه السلام في أحايينَ مختلفة، وقيل: إنَّه عليه السلام نَوَى شرطيَّةَ الإسلام والتوبة، وإليه ذهب ابن الخازن[2]. وقيل: أرادَ بوالده نوحاً عليه السلام، وقيل: أراد بوالده آدمَ وبوالدته[3] حوَّاءَ عليهما السلام، وإليه ذهب بعضُ مَن قال بكفر أُمِّه، والوجْهُ ما تقدَّم.

وقالت الشيعة: إنَّ والديه عليه السلام كانا مؤمنَين، ولذا دعا لهما، وأمَّا الكافر فأبوه، والمرادُ به عمُّه أو جدُّه لأُمِّه، واستدلُّوا على إيمان أبويه بهذه الآية، ولم يرضوا ما قيل فيها حتى القول الأولَ؛ بناءً على زعمهم أنَّ هذا الدعاءَ كان بعد الكِبَر وهِبَةِ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام له، وقد كان تبيَّن له في ذلك الوقت عداوة أبيه الكافر لله تعالى.

وقرأ الحسن بنُ عليٍّ رضي الله عنهما وأبو جعفر محمد وزيد ابنا عليٍّ وابنُ يعمر والزهريُّ والنخعيُّ: «ولولَدَي» بغير ألف وبفتح اللام، تثنية: ولد، يعني بهما إسماعيل وإسحاق، وأنكر عاصم الجحدريُّ هذه القراءة ونقل أنَّ في مصحف أبيٍّ: «ولأبوَي»، وفي بعض المصاحف: «ولذريتي»[4]، وعن يحيى بنِ يعمر: «ولوُلْدي» بضمِّ الواو وسكون اللام[5]، فاحتمل أنْ يكون جمعَ ولدٍ ك: أُسْدٍ في أَسَد، ويكون قد دعا عليه السلام لذرِّيَّته، وأنْ يكونَ لغةً في الولد كما في قول الشاعر:

فليتَ زياداً كان في بطن أُمِّه ... وليت زياداً كان وُلْدَ حمارِ[6]

---

(١) قوله: أي: ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٥٠.
(٣) في الأصل: والدته، والمثبت من(م).
(٤) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٢/ ٣٨٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٥) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٦) اللسان (ولد)، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

ومثل ذلك العَدَمُ والعُدْمُ، وقرأ ابنُ جبير: «ولوالدِيْ» بإسكان الياء(١) على الإفراد كقوله: واغفر لأبي. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافَّةً من ذرِّيَّته وغيرِهم، ومِن هنا قال الشعبي فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم: ما يسرُّني بنصيبي من دعوة نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حُمرُ النَّعَم(٢). وللإيذان باشتراك الكلِّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يثبُت ويتحقَّق، واستعمال القيام فيما ذكر إمَّا مجازٌ مرسلٌ أو استعارةٌ، ومن ذلك: قامت الحربُ والسوقُ، وجوّز أنْ يكونَ قد شبَّه الحساب برجل قائمٍ على الاستعارة المكنيَّة، وأثبتَ له القيام على التخييل، وأنْ يكون المرادُ: يقومُ أهلُ الحساب، فحذفَ المضاف، أو أسندَ إلى الحساب ما لأهله مجازاً. وجعل ذلك العلَّامة الثاني في شرح «التلخيص» مثل: ضَرَبَه التأديبَ، مما فيه الإسنادُ إلى السبب الغائيِّ، أي: يقومُ أهلُه لأجله. وذكر السيالكوتي إنَّه إنما قال مثله؛ لأنَّ الحساب ليس ما لأجله القيام حقيقةً، لكنَّه شبيهٌ به في ترتُّبه عليه، وفيه بحث.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطابٌ لكلِّ مَن توهَّم غفلته تعالى، وقيل: للنبيِّ ﷺ كما هو المتبادر، والمرادُ مِن النهي تثبيتُه عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه من عدم ظنٍّ أنَّ الغفلة تصدرُ منه عزَّ شأنُه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨١] أي: دُمْ على ذلك، وهو مجازٌ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء:١٣٦] وفيه إيذانٌ بكون ذلك الحسبانِ واجب الاحترازِ عنه في الغاية حتى نَهَى عنه مَن لا يُمكن تعاطيه.

وجوّز أنْ يكونَ المرادُ من ذلك على طريق الكناية أو المجاز بمرتبَتَين الوعيدِ والتهديدِ، والمعنى: لا تحسبنَّ الله تعالى يترُكُ عقابَهم لِلُطْفِهِ وكَرمِهِ، بل هو معاقبُهم على القليل والكثير.

وأنْ يكونَ ذلك استعارةً تمثيليَّة، أي: لا تحسبنَّه تعالى يُعاملُهم معاملةَ الغافل

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

عمَّا يعملون، ولكن معاملة الرقيبِ المحاسِبِ على النقير والقِطْمير، وإلى هذه الأوجه أشار الزمخشري[١].

وتُعقِّبَ الوجهُ الأولُ بأنَّه غيرُ مناسبٍ لمقام النبوَّة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لا يُتوهَّمُ منه عدمُ الدوام على ما هو عليه من عدم الحسبانِ ليُثبَّت، وفيه نظر.

وفي «الكشف» الوجْهُ هو الأوَّل؛ لأنَّ في إطلاق الغافل عليه سبحانه ـ وإنْ كان على المجاز ـ رِكَّةً يُصانُ كلام الله تعالى عنها، وفي الكناية النظرُ إلى المجموع، فلم يَجْسُر العاقل عليه تعالى عنه، ويجوز أنْ يكون الأوَّلُ مجازاً في المرتبة الثانية بجَعْل عدم الغفلةِ مجازاً عن العلم، ثم جَعْلُه مجازاً عن الوعيد غيرُ سديدٍ؛ لعدم منافاة إرادةِ الحقيقة.

والأسلم من القيل والقال ما ذكرناه أوَّلاً من كون الخطابِ لكلِّ مَن تَوهَّم غفلتَه سبحانه وتعالى فهو[٢] لغير معيَّن، وهو الذي اختاره أبو حيَّان[٣]، وعن ابن عيينة: أنَّ هذا تسليةٌ للمظلوم[٤] وتهديدٌ للظالم، فقيل له: مَن قال هذا؟ فغضب، وقال: إنَّما قاله مَن علمه. وقد نقل ذلك في «الكشاف»[٥]، فاستظهر صاحب «الكشف» كونه تأييداً لكون الخطابِ لغير مُعيَّن.

وجوّز أنْ يكون جارياً على الأوجه، إذ على تقدير اختصاصِ الخطاب به عليه الصلاة والسلام أيضاً لا يخلو عن التسلية للطائفتَين، فتأمَّل.

والمرادُ بالظالمين: أهلُ مكة الذين عُدَّتْ مساويهم فيما سبق، أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون دخولاً أوليًّا، والآيةُ على ما قال الطيبي: مردودةٌ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ و﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾، واختارَ جعلَها تسليةً له عليه الصلاة والسلام وتهديداً للظالمين على سبيل العموم.

وقرأ طلحة: «ولا تَحْسَبِ» بغير نون التوكيد[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٢.

(٢) قوله: فهو، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٤) في هامش (م): وروي نحوه عن ميمون بن مهران. ا هـ منه.

(٥) ٢/ ٣٨٢.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يُمهلُهم متمتِّعين بالحظوظ الدنيوية ولا يُعجِّلُ عقوبتَهم، وهو استئنافٌ وقع تعليلاً للنهي السابق، أي: لا تحسبنَّ الله تعالى غافلاً عن عقوبة أعمالهم لما تَرَى من التأخير، إنما ذلك لأجل هذه الحكمة، وإيقاعُ التأخيرِ عليهم مع أنَّ المؤخَّرَ إنما هو عذابُهم، قيل: لتهويل الخطْبِ وتَفظيعِ الحال ببيان أنَّهم متوجِّهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما، لا أنَّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنَّ حقَّهم من العذاب هو الاستئصالُ بالمرَّة، وأنْ لا يبقَى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنَّ المؤخَّر ليس من جملة العذابِ وعنوانه، ولو قيل: إنَّما يُؤخِّرُ عذابَهم، لَمَا فُهم ذلك.

وقرأ السلميُّ والحسنُ والأعرجُ والمفضل عن عاصم ويونسُ بنُ حبيب عن أبي عمرو وغيرُهم: «نُؤخِّرهم» بنون العظمة[(١)]، وفيه التفات.

﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ترتفعُ أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الظالمون المعهودون دخولاً أوليًّا، أي: تبقَى مفتوحةً لا تَطرِفُ - كما قال الراغب[(٢)] - مِن هَول ما يَرَونه، وفي «البحر»: شَخَصَ البصر، : أحدَّ النظر ولم يَستقرَّ مكانه[(٣)]، والظاهرُ أنَّ اعتبار عدم الاستقرار لجعْلِ الصيغة مِن: شَخَصَ الرجلُ من بلده: إذا خَرَج منها، فإنَّه يلزمُه عدم القرارِ فيها، أو من: شُخِصَ بفلان: إذا وَرَد عليه ما يُقْلِقُه، كما في «الأساس»[(٤)].

وحمل بعضُهم الألف واللام على العهد، أي: أبصارُهم؛ لأنَّه المناسب لما بعده، والظاهرُ لِمَا[(٥)] روي عن قتادة، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وغيرُه عنه أنَّه قال في الآية: شَخَصَت[(٦)] فيه والله أبصارُهم فلا ترتدُّ إليهم[(٧)].

واختار بعضُهم حَمْلَ «أل» على العموم، قال: لأنَّه أبلغُ في التهويل، ولا يلزم

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٢) مفردات الراغب (شخص).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٤) أساس البلاغة (شخص).
(٥) في (م): مما، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.
(٦) في الأصل: تشخصت، والمثبت من (م) والمصدر.
(٧) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٤.

عليه التكريرُ مع بعض الصفات الآتية، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما قيل فيه.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعينَ إلى الداعي، قاله ابنُ جبير وقتادة، وقيَّده في «البحر» بقوله: بذلَّةٍ واستكانةٍ كإسراع الأسيرِ والخائفِ(١). وقال الأخفشُ: مقبلين للإصغاء، وأنشد:

بدجلةَ دارهم ولقد أراهم بدجلةَ مُهطعين إلى السماع(٢)

وقال مجاهد: مُديْمِينَ النظرَ لا يَطرِفُون، وقال أحمدُ بنُ يحيَى: المهطع: الذي ينظرُ في ذُلٍّ وخشوعٍ لا يقلع بصره(٣). وروَى ابنُ الأنباري أنَّ الإهطاع: التجميح، وهو: قبضُ الرجلِ ما بين عينَيه(٤)، وقيل: إنَّ الإهطاعَ: مدُّ العُنُقِ، والهَطْعُ: طولُ العنق، وذكر بعضُهم أنَّ أَهْطَعَ وهَطَع بمعنىً، وأنَّ كلَّ المعاني تدورُ على الإقبال.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفاتٍ إلى شيءٍ، قاله ابنُ عرفة والقتيبي(٥).

وأنشد الزجَّاج قولَ الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً تَرْعَى أعلا الشجر:

يُباكِرْنَ العِضاهَ بمُقْنَعَاتٍ نَواجِذُهنَّ كالحَدَأ الوَقيعِ(٦)

وأنشدَه الجوهريُّ لكون الإقناعِ انعطافَ الأسنان إلى داخل الفم، يقال: فمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُهُ إلى داخله، وهو الظاهر(٧). وفسَّر ابنُ عباس ﵄ المُقْنِع بالرافع رأسَه أيضاً، وأنشدَ له قولَ زهير:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠، وفيه: أهلها، بدل: دارهم.
(٣) قال أحمد بن يحيى ثعلب في مجالسه ص٢٠: المهطع: الذي يرفع رأسه في ذلٍّ.
(٤) إيضاح الوقف والابتداء ص٦٦ ـ ٦٧، والدر المنثور ٤/ ٨٨.
(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣، ونقله عنه بواسطه البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٦، والبيت في ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص٢٢٠، وفيهما: يبادرن، بدل: يباكرن.
(٧) الصحاح (قنع).

هـجـانٌ وحـمـرٌ مـقـنـعـات رؤوسُـهـا وأصـفـرُ مـشـمـولٌ مـن الـزهـر فـاقـعُ[1]

ويقال: أَقْنَعَ رأسَه: نكسه وطَأْطَأه، فهو من الأضداد. قال المبرِّدُ: وكونُه بمعنى رَفَع أعرف في اللغة[2]. اهـ. وقيل: ومِن المعنى الأول: قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِي بما هو فيه، كأنَّه رَفَع رأسه عن السؤال، وقد يقال: إنَّه من الثاني، كأنَّه طأطأ رأسه ولم يَرفعْه للسؤال ولم يستشرف إلى غير ما عنده.

ونصبُ الوصفَين على أنَّهما حالان من مضافٍ محذوفٍ، أي: أصحابُ الأبصارِ، بناءً على أنَّه يقال: شَخَصَ زيدٌ ببصره، أو: الأبصار تدلُّ على أصحابها فجاءت الحالُ من المدلول عليه، ذكر ذلك أبو البقاء[3]، وجوَّز أنْ يكون «مُهطعين» منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: تبصرُهم مهطعين، و«مُقْنعي رؤوسِهم» على هذا قيل: حالٌ من المستتر في «مُهطعين» فهي حالٌ متداخلة، وإضافته غير حقيقيةٍ فلذا وَقَع حالاً.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ في اعتبار الحاليةِ من أصحاب، حسبما ذُكر أوَّلاً ما لا يخفى من البعد والتكلُّف.

والأَوْلَى ـ والله تعالى أعلم ـ جعْلُ ذلك حالاً مقدَّرةً من مفعول «يُؤخِّرُهم» وقوله سبحانه: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بيانُ حالِ عمومِ الخلائق، ولذلك أُوثِرَ فيه الجملة الفعلية، فإنَّ المؤمنين المخلصين لا يستمرُّون على تلك الحال، بخلاف الكفار حيث يستمرُّون عليها، ولذلك عبَّر عن حالهم بما يدلُّ على الدوام والثبات، فلا يَرِدُ على هذا توهُّم التكرارِ بين «مُهطعين» و«تشخصُ فيه الأبصار» على بعض التفاسير، وبنحو ذلك دفع[4] التكرار بَيْن الأوَّل وقولِه تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بمعنى لا يرجعُ إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجعُ إليهم كلَّ لحظةٍ، فالطَّرْفُ باقٍ على أصل معناه، وهو: تحريكُ الجفن، والكلامُ كنايةٌ عن بقاء العينِ مفتوحةً على حالها.

---

(١) لم نقف عليه في ديوانه، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٨ إلى ولده كعب، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً، وهو في مسائل نافع ص١٦٥.

(٢) الكامل ٢/ ١٠٢٧.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.

(٤) في(م): رفع.

وجوّز أنْ يُراد بالطَّرْف نفسُ الجفن مجازاً؛ لأنَّه يكون فيه ذلك، أي: لا ترجعُ إليهم أجفانُهم التي يكونُ فيها الطرفُ، وقال الجوهري: الطَّرْفُ: العينُ، ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، فيكون واحداً ويكون جمعاً، وذَكَر الآية[1]، وفسَّره بذلك أبو حيَّان أيضاً، وأنشد قولَ الشاعر:

وأغضُّ طَرْفي ما بدَتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها[2]

وليس ما ذكر مُتعيّناً فيه، وهو معنىً مجازيٌّ له وكذا النظر، وجوّز إرادته على معنى: لا يرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلاً عن شيءٍ آخر، بل يبقون مبهوتين، ولا ينبغي كما في «الكشف» أنْ يتُخيَّل تعلُّق «إليهم» بما بعده، على معنى: لا يرجِعُ نظرُهم إلى أنفسهم، أي: لا يكون منهم نظرٌ كذلك؛ لأنَّ صلة المصدر لا تتقدَّم، والمسألة في مثل ما نحن فيه خلافيَّة، ودعوى عدمِ الجمع ادَّعاها جمعٌ، وادَّعى أبو البقاء أنَّه قد جاء مجموعاً[3].

هذا، وأنت خبيرٌ بأنَّ لزوم التكرار بين «مهطعين» و«لا يَرتدُّ إليهم طرفُهم» على بعض التفاسير متحقِّقٌ، ولا يدفعُه اعتبار الحاليَّة من مفعول «يُؤخِّرهم» على أنَّ بذلك لا يندفعُ عرقُ التكرار رأساً بين «تَشْخصُ فيه الأبصارُ» وكلٍّ من الأمرَين المذكورَين كما لا يخفى على مَن صحَّت عينُ بصيرته.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ جملةَ «لا يَرتدُّ» إلخ حالٌ، أو بدلٌ من «مُقنعي» إلخ، أو استئنافٌ، والمعنى: لا يزولُ ما اعتراهم من شخوص الأبصار، وتأخيرُه عمَّا هو من تَتِمَّته من الإهطاع والإقناع، مع ما بينه وبين الشخوصِ المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى[4].

وكأنَّه أرادَ بذلك دفع التكرار، وفي انفهامِ لا يزول.. إلخ من ظاهر التركيب خفاءٌ.

---

(١) الصحاح (طرف).
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٠، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٧٦.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.
(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

واعتبر بعضُهم عدمَ الاستقرار في الشخوص وعدم الطرف هنا، فاعترض عليه بلزوم المنافاة.

وأُجيبَ بأنَّ الثاني بيانُ حالٍ آخرَ، وأنَّ أولئك الظالمين تارةً لا تقرُّ أعينُهم، وتارةً يبهتون فلا تطرفُ أبصارُهم، وقد جعل الحالتان المتنافيتان لعدم الفاصل كأنَّهما في حالٍ واحدٍ، كقول امرئ القيس:

مِكَرٌّ مِفَرٌّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كجلمودِ صَخْرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ[(١)]

وهذا يحتاجُ إليه على تقدير اعتبار ما ذكر، سواءٌ اعتُبر كونُ الشخوص وما بعدَه من أحوال الظالمين بخصوصهم أم لا، والأولى أنْ لا يُعتَبر في الآية ما يحوجُ لهذا الجواب، وأنْ يختار من التفاسير ما لا يلزمه صريحُ التكرار، وأنْ يجعل شخوص الأبصارِ حال عمومِ الخلائق، وما بعدَه حال الظالمين المؤخَّرين، فتأمَّل.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خالية من العقل[(٢)] والفَهْم؛ لفرط الحيرة والدَّهشةِ، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبه هواء، أي: لا قوَّة ولا رَأْيَ فيه، ومن ذلك قول زهير:

كأنَّ الرَّحلَ مِنها فوقَ صَعْلٍ من الظِّلْمانِ جُؤجُؤهُ هواءُ[(٣)]

وقول حسان:

ألا بلِّغ أبا سُفيانَ عنِّي فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ[(٤)]

وروي معنى ذلك عن أبي عبيدة[(٥)] وسفيان، وقال ابنُ جريج: صفرٌ من الخير

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٩.

(٢) في الأصل: عن العقل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

(٣) ديوان زهير ص٦٣، قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة، فوق صعل: فوق ظليمٍ دقيق العنق صغير الرأس، جؤجؤه: صدره، هواء: لا مخّ فيه. قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٧٦: يصف ناقته بالسرعة في السير، وتشبيهها بالنعام وهو يوصف بالجبن والخوف وسرعة المشي، فإذا خاف كان أسرع وأجدَّ في السير.

(٤) ديوان حسان ص٩.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٤٤.

خاليةٌ منه. وتُعقِّب بأنَّه لا يناسبُ المقام. وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر عن ابن جبير أنَّه قال: أي: تمورُ في أجوافهم إلى حلوقهم ليس لها مكانٌ تستقرُّ فيه[١]. والجملةُ في موضع الحال أيضاً، والعامل فيها إمَّا «يرتَدُّ» أو ما قبلَه من العوامل الصالحة للعمل. وجوَّز أنْ تكونَ جملةً مستقلةً.

وإلى الأوَّل ذهب أبو البقاء وفسَّر «هواء» بفارغة، وذَكَرَ أنَّه إنَّما أُفردَ مع كونه خبراً لجمع؛ لأنَّه بمعنى فارغة، وهو يكون خبراً عن جمع كما يقال: أفئدة فارغة؛ لأنَّ[٢] تاء التأنيث فيه يدلُّ على تأنيث الجمع الذي في «أفئدتهم»، ومثل ذلك: أحوالٌ صعبة، وأفعالٌ فاسدة[٣].

وقال مولانا الشهاب: الهواء مصدرٌ، ولذا أُفرِدَ[٤]. وتفسيرُه باسم الفاعل كالخالي بيانٌ للمعنى المرادِ منه المصحِّح للحمل، فلا يُنافي المبالغة في جَعْل ذلك عينَ الخلاء.

والمتبادرُ من كلام غيرِ واحدٍ أنَّ الهواء ليس بمعنى الخلاء، بل بالمعنى الذي يَهبُّ على الذِّهن من غير إعمال مروحة الفكر، ففي «البحر» بعد سرد أقوالٍ لا[٥] يقضي ظاهرُها بالمصدرية: أنَّ الكلامَ تشبيهٌ محضٌ؛ لأنَّ الأفئدةَ ليست بهواءٍ حقيقةً. ويحتمل أن يكونَ التشبيهُ في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة، وأنْ يكونَ في اضطراب أفئدتهم وجَيَشَانها في الصدور وأنَّها تجيء وتذهب وتبلغ الحناجر[٦]. وهذا في معنى ما رُوي آنفاً عن ابن جبير.

وذكر في «إرشاد العقل السليم» ما هو ظاهر في أنَّ الكلامَ على التشبيه أيضاً حيث قال بعدَ تفسير ذلك بما ذكرنا أوَّلاً: كأنَّها نفسُ الهواء الخالي عن كلِّ شاغلٍ[٧].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٨.
(٢) في الأصل: لأنه، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٥) في الأصل: لما، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٧) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

هذا، ثمَّ إنَّهم اختلفوا في وقت حدوث تلك الأحوال؛ فقيل عند المحاسبة، بدليل ذِكْرِها عقيبَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور. وقيل: عند ذهابِ السُّعداء إلى الجنة والأشقياءِ إلى النار، فتذكَّر ولا تغفل.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ بعد إعلامه أنَّ تأخيرَ عذابهم لماذا؟ وأَمْرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه، فالمرادُ بالناس الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهرُ إتيان العذاب، وإلى ذلك ذهبَ أبو حيان[1] وغيرُه. ونكتَةُ العدول إليه مِن الإضمار على ما قاله شيخ الإسلام الإشعارُ بأنَّ المرادَ بالإنذار هو الزجرُ عمَّا هم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسبُ عدمُ ذكرهم بعنوان الظلم[2].

وقال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: المرادُ بالناس ما يَشملُ أولئك الظالمين وغيرَهم من المكلَّفين، والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس:٨] والإتيان يعمُّ الفريقَين من كونهما في الموقف، وإنْ كان لحوقُه بالكفار خاصَّةً.

وأيّاً ما كان فـ «الناس» مفعولٌ أوَّل لـ «أَنْذِر»، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مفعولُه الثاني على معنى: أَنذرهم هولَه وما فيه. فالإيقاعُ عليه مجازيٌّ، أو هو بتقدير مضافٍ، ولا يجوزُ أنْ يكون ظرفاً للإنذار؛ لأنَّه في الدنيا، والمرادُ بهذا اليوم اليومُ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِفَ بما يُذهل الألبابَ وهو يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسَّكَرات ولقاء الملائكة عليهم السلام بلا بُشْرَى. وروي ذلك عن أبي مسلم، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وتُعقِّب بأنَّه يأباه القصرُ السابق، وأُجيبَ بما فيه ما فيه.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدولُ عنه إلى ما في النظم الجليل، للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلِّيَّته لِمَا ينالُهم من الشدَّة المُنبِئ عنها القولُ،

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

وفي العدولُ عن الظالمين المتكفِّل بما ذكر مع اختصاره وسبق الوصف به؛ للإيذان على ما قيل بأنَّ الظلم في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما أفضَوا إليه من غير حاجةٍ إلى الاستمرار عليه كما يُنبئُ عنه صيغةُ اسم الفاعل.

والمعنى على ما قال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: الذين ظلموا منهم وهم الكفَّار، وقيل: يقولُ كلُّ مَن ظَلَم بالشرك والتكذيب من المنذَرين وغيرُهم من الأمم الخالية: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ أي: عن العذاب، أو: أخِّر عذابنا، ففي الكلام تقديرُ مضافٍ، أو تجوُّزٌ في النسبة. قال الضحاك ومجاهد: إنَّهم طلبوا الردَّ إلى الدنيا والإمهال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: أَمَدٍ وحدٌّ من الزمان قريب، وقيل: إنَّهم طلبوا رفْعَ العذابِ والرجوعَ إلى حال التكليف مدَّةً يسيرةً يعملون فيها ما يُرضيه سبحانه. والمعنى على ما روي عن أبي مسلم: أخِّر آجالَنا وأبقنا أياماً ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليك وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل عليهم السلام، ففيه إيماءٌ إلى أنَّهم صدَّقوهم في أنَّهم رُسلُ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾فيما جاؤوا به، أي: نتدارك ما فرَّطنا به من إجابة الدعوة واتِّباع الرسل عليهم السلام، ولا يخلو ذكرُ الجملتَين عن تأكيدٍ، والمقام حريٌّ به، وجمع إمَّا باعتبار اتِّفاق الجميع على التوحيد وكونِ عصيانهم للرسول ﷺ عصياناً لهم جميعاً عليهم السلام، وإمَّا باعتبار أنَّ المحكيَّ كلامُ ظالمي الأمم جميعاً، والمقصودُ بيانُ وَعْدِ كلِّ أمةٍ بالتوحيد واتِّباع رسولها، على ما قيل[1].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على تقدير القول معطوفاً على «فيقول» والمعطوفُ عليه هذه الجملة، أي: فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تُؤَخَّروا في الدنيا ولم تكونوا حلفتُم إذ ذاك بألسنتكُم بَطَراً وأَشَراً وسَفَهاً وجَهْلاً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾﴾ مما أنتم عليه من التمتُّع بالحظوظ الدنياويَّة، أو بألسنة الحال ودلالةِ الأفعال حيث بَنيتُم مَشِيداً وأَمَّلتُم بعيداً، ولم تُحدِّثوا أنفسَكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال، وفيه إشعارٌ بامتداد زمانِ التأخير وبُعدِ مداه، أو مالكم من زوالٍ وانتقالٍ من دار الدنيا إلى دارٍ أُخرَى للجزاء كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨] وروي هذا عن مجاهد.

---

(١) في الأصل: كما قيل.

وأيًّا ما كان، فـ «ما لكم» إلخ جوابُ القَسَم، و«مِن» صلةٌ لتأكيد النفي، وصيغةُ الخطاب فيه لمراعاة حالِ الخطاب في «أقسمتُم» كما في: حَلَفَ بالله تعالى ليخرجَنَّ، وهو أدخلُ في التوبيخ مِن أنْ يُقال: مالنا، مراعاةً لحال المحكيِّ الواقع في جواب قَسَمهم، وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ مِن قِبَلِ الله تعالى جواباً لقولهم: «ربَّنا أخِّرنا» أي: مالكم مِن زوالٍ عن هذه الحال، وجواب القَسَم: لا يبعثُ الله مَن في القبور، محذوفاً، وهو خلافُ المتبادر، وهذا أحدُ أجوبةٍ يُجابُ بها أهلُ النار على ما في بعض الآثار، فقد ذكر البيهقيُّ عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: لأهل النار خمسُ دعواتٍ يُجيبُهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيجيبُهم الله عزَّ وجل: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبُهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الآية [السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبُهم تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم جلَّ جلاله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبُهم جلَّ وعلا: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلَّمون بعدها، إنْ هو إلا زفيرٌ وشهيقٌ، وعند ذلك انقطعَ رجاؤهم وأقبلَ بعضُهم ينبح في وجه بعض، وأطبقَت عليهم جهنَّم(١).

اللهم إنَّا نعوذُ بك من غضبك، ونلوذُ بكَنَفك من عذابك، ونسألُك التوفيقَ للعمل الصالح في يومنا لغدنا، والتقرُّبَ إليك بما يُرضيك قبل أنْ يخرُجَ الأمرُ من يدنا.

---

(١) البعث والنشور (٦٦٠)، وأخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ١١٩ ـ ١٢٠.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ من السُّكنَى بمعنى التبوُّء والاستيطان، وهو بهذا المعنى مما يتعدَّى بنفسه تقول: سكنْتُ الدار واستوطنتُها، إلا أنَّه عُدِّي هنا بـ «في» حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ جَرْياً على أصل معناه، فإنَّه منقول عن سَكَنَ بمعنى قَرَّ وثبت[1]، وحقُّ ذلك التعديةُ بـ «في».

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: وقررتُم في مساكنهم مُطمئنِّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غيرَ مُحدِّثين أنفسَكم بما لَقُوا بسبب ما اجترحُوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعدَ إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأَنَّ غائلةَ الظلم آيلةٌ إلى صاحبه، والمرادُ بهم ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ إمَّا جميعُ مَن تقدَّم من الأُمم المهلَكَةِ على تقدير اختصاصِ الاستمهال والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمَّا أوائلُهم مِن قوم نوحٍ وهودٍ على تقدير عمومهما[2] للكلِّ، وهذا الخطابُ وما يتلُوه باعتبار حال أواخرهم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ أي: ظهر لكم على أتمِّ وجهٍ بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد.

وفاعل «تبيَّنَ» مضمرٌ يعود على ما دلَّ عليه الكلامُ، أي: فعلُنا العجيب[3] بهم، أو حالهم، أو خبرهم، أو نحو ذلك، و«كيف» في محلِّ نصب بـ «فعلنا»، وجملةُ الاستفهام ليسَت معمولةً لـ «تبيّن» لأنَّه لا يعلَّق، وقيل: الجملةُ فاعل «تبيَّن» بناءً على جواز كونه جملةً، وهو قولٌ ضعيفٌ للكوفيين.

وذهب أبو حيان[4] إلى ما ذهب إليه الجماعةُ، ثم ذكر أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الفاعل «كيف» لأنَّه لا يعملُ فيها ما قبلَها إلا ما[5] شذَّ من قولهم: على كيفَ تبيعُ الأحمرَين؟ وقولهم: انظر إلى كيف تَصنَع؟

(١) في الأصل: واثبت، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٢) في (م): عمومها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٣) في (م): العجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦.
(٥) في (م): فيما، والمثبت من الأصل والبحر.

وقرأ السُّلمي فيما حكاه عنه أبو عمرو الداني: «ونُبيِّنُ» بنون العظمة ورَفْعِ الفعل، وحكى ذلك أيضاً صاحب «اللوامح» عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وذلك على إضمار مبتدأ، أي: ونحن نُبيِّنُ، والجملة حاليَّة، وقال المهدوي عن السُّلَمي أنَّه قرأ بنون العظمة إلا أنَّه جَزَم الفعلَ عطفاً على «تكونوا» أي: أَوَلم نُبيِّنْ لكم[1].

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ أي: في القرآن العظيم على تقدير اختصاصِ الخطابِ بالمنذرينِ، أو على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تقدير عمومِهِ لجميع الظالمين ﴿ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فُعِلَ بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لِتَعْتَبروا وتقيسُوا أعمالَكم على أعمالهم ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلُوا من حلول العذابِ العاجل إلى العذاب الآجلِ، فَتَرْتَدِعُوا[2] عمَّا كنتُم فيه من الكفر والمعاصي.

وجوَّز أنْ يُراد من «الأمثال» ما هو جمعُ: مِثْل، بمعنى الشبيه، أي: بيَّنَّا لكم أنَّهم مِثْلُهم في الكفر واستحقاق العذاب، وروي هذا عن مجاهد.

والجملُ الثلاث في موقع الحال من ضمير «أقسمتُم»، أي: أقسمتُم أنْ ليس لكم زوالٌ والحال أنَّكم سكنتُم في مساكن المهلَكين بظلمهم وتَبيَّن لكم فعلُنا العجيبُ بهم، ونبَّهناكم على جَليَّة الحال بضَرْب الأمثال.

وقولُه سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حالٌ من الضمير الأوَّل في «فعلْنا بهم»، أو من الثاني، أو منهما جميعاً، وقُدِّم عليه قولُه تعالى: «وضربنا لكم الأمثال» لشدَّة ارْتباطِهِ على ما قيل بما قبلَه، أي: فَعَلنا بهم ما فعلنا والحالُ أنَّهم قد مكروا في إبطال الحقِّ وتقريرِ الباطل مكْرَهم العظيمَ الذي استفرغُوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلَّ حدٍّ معهودٍ، بحيث لا يقدرُ عليه غيرُهم، والمرادُ بيانُ تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٣٦، وقراءة السلمي بالرفع في القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥.

(٢) في الأصل و(م): فتردعوا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨ والكلام منه.

أو: وَقَد مكروا مكْرَهم المذكورَ في ترتيب مبادئ البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصودُ إظهار عجزِهم واضمِحْلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه. قاله شيخ الإسلام[١].

وهو ظاهرٌ في أنَّ هذا مِن تتمَّة ما يُقال لأولئك الذين ظلمُوا، وهو المرويُّ عن محمد بنِ كعب القرظي، فقد أخرج عنه ابنُ جرير أنَّه قال: بلغَني أنَّ أهلَ النار ينادُون: (رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ) إلخ فيردُّ عليهم بقوله سبحانه: (أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم) إلى قوله تعالى: (لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ)[٢]. وذكره ابنُ عطيَّة[٣] احتمالاً، وقيل غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً.

وظاهرُ كلام غيرِ واحدٍ أنَّ استفادةَ المبالغة في «مَكَرُوا مكْرَهم» من الإضافة.

وفي «الحواشي الشهابيَّة» أنَّ «مكْرَهم» منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ؛ لأنَّه لازمٌ، فدلالتُه على المبالغة لقوله تعالى الآتي: «وإنْ كان مكرهم» إلخ، لا[٤] لأنَّ إضافةَ المصدر تُفيدُ العمومَ، أي: أظهروا كلَّ مكرٍ لهم، أو لأنَّ إضافتَه ـ وأصلُه التنكير ـ لإفادة أنَّهم معروفون بذلك[٥]، وللبحث فيه مجالٌ.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاءُ مكرهم، على أنَّ الكلام على حذفِ مضافٍ، وجوِّز أنْ لا يكون هناك مضافٌ محذوفٌ. والمعنى: مكتوبٌ عنده تعالى مكرُهم ومعلومٌ له سبحانه، وذلك كناية عن مُجازاته تعالى لهم عليه.

وأيّاً ما كان فإضافة «مكر» إلى الفاعل وهو الظاهرُ المتبادر، وقيل: إنَّه مضافٌ إلى مفعوله على معنى: عنده تعالى مكرُهم الذي يمكرُهم به.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المحفوظَ أنَّ «مَكَرَ» لازمٌ ولم يُسمَع مُتعدِّياً[٦].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٧١٦.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.
(٤) قوله: لا، ساقط من الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

وأُجيبَ بأنَّه يجوزُ أنْ يكون المكرُ مُتجوَّزاً به أو مضمَّناً معنى الكيد أو الجزاء[١]، والكلام في نسبة المكر إليه تعالى وأنَّه إمَّا باعتبار المشاكلة أو الاستعارة مشهورٌ.

وذكر بعض المحقِّقين أنَّ المرادَ بهذا المكرِ ما أفادَه قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ لا أنَّه وعيدٌ مستأنفٌ.

والجملة حالٌ من الضمير في «مكروا» أي: مكروا مكرَهم وعند الله تعالى جزاؤه، أو ما هو أعظم[٢] منه. والمقصودُ بيانُ فسادِ رأيهم حيث باشروا فعلاً مع تحقُّق ما يُوجبُ تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وإنْ كان مكرُهم في غاية الشدَّةِ والمتانة، وعبَّر عن ذلك بكونه معدّاً لإزالة الجبال عن مُقارِّها؛ لكونه مَثَلاً في ذلك. «وإنْ» شرطيَّةٌ، وصليَّةٌ عند جمع، والمرادُ أنَّه سبحانه مُجازيهم على مكرهم ومُبطلُه إنْ لم يكن في هذه الشدَّة وإنْ كان فيها، ولابدَّ على هذا الوجه من ملاحظة الإبطال، وإلا فالجزاءُ المجرَّدُ عن ذلك لا يكاد يتأتَّى معه النكتةُ التي يدورُ عليها ما في «إنْ» الوصليَّة من التأكيد المعنوي.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى أنَّه تعالى يُقابلُهم بمكرهم، ولا يمنَعُ من ذلك كونُ مكرِهم في غاية الشدَّةِ، فهو سبحانه وتعالى أشدُّ مكراً، ولا حاجةَ حينئذٍ إلى ملاحظة الإبطال، فتدبَّر.

وعن الحسن وجماعة أنَّ «إنْ» نافية واللام لام الجحودُ و«كان» تامَّةٌ، والمرادُ بـ «الجبال» آياتُ الله تعالى وشرائعُه ومعجزاتُه الظاهرةُ على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات، والقصدُ إلى تحقير مكرهم وأنَّه ما كان لِتزولَ منه الآياتُ والنبوَّاتُ.

وجوِّز أنْ تكون «كان» ناقصةً، وخبرُها إما محذوفٌ، أو الفعل الذي دخلَت

---

(١) في الأصل: ومضمناً معنى الكيد والجزاء، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/٢٧٧.
(٢) في (م): أو هو ما أعظم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/٥٨.

عليه اللام، على الخلاف الذي بين البصريين والكوفيين، وأُيِّدَ هذا الوجْهُ بما روي عن ابن مسعود من أنَّه قرأ: «وما كان» بـ «ما» النافية[١].

وتُعقِّبَ بأنَّ فيه معارضة للقراءة الدالَّة على عِظَمِ مكرهم كقراءة الجمهور.

وأُجيبَ بأنَّ الجبال في تلك القراءة يُشار بها إلى ما رامُوا إبطالَه من الحقِّ كما أشرنا إليه، وفي هذه على حقيقتها، فلا تعارضَ، إذ لم يتواردا على محلٍّ واحدٍ نفياً وإثباتاً.

ورُدَّ بأنَّه إذا جعل الحقُّ شبيهاً بالجبال في الثبات كان مثلَها بل أدونَ منها في هذا المعنى، فإذا نَفَى إزالتَه إيَّاه انتفى إزالته جبال الدنيا، وحينئذٍ يجيءُ الإشكال.

وتعقَّبه الشهابُ بأنَّ هذا غيرُ واردٍ؛ لأنَّ المشبَّه لا يلزمُ أنْ يكونَ أدونَ من المشبَّه به في وجه الشبه، بل قد يكونُ بخلافه، ولو سلم فقد يقدرُ على إزالة الأقوَى دونَ الآخر لمانع، كالشجاع يَقدِرُ على قتل أسدٍ ولا يقدِرُ على قَتْل رجلٍ مشبَّهٍ به لامتناعه بعدَّةٍ أو حِصْنٍ، ولا حِصنَ أَحصنُ وأَحمَى من تأييد الله تعالى شأنه للحقِّ، بحيث تزولُ الجبال يومَ تُنسَفُ نسفاً ولا يزول[٢]. انتهى.

وإلى تفسير «الجبال» على هذه القراءة بما ذكرنا ذهب شيخُ الإسلام، ثم قال: وأمَّا كونُها عبارةً عن أمر النبيِّ ﷺ وأمْرِ القرآن العظيم ـ كما قيل ـ فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا السَّاكنون في مساكنهم من المخاطَبين، وإنْ خصَّ الخطاب بالمنذَرين[٣]. وسيظهرُ لك قريباً إنْ شاء الله تعالى جوازُ ذلك على بعض الأقوال في الآية.

والجملةُ حالٌ من الضمير في «مَكَرُوا» لا مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، وجوَّز أبو البقاء[٤] وغيرُه أنْ تكونَ «إنْ»[٥] مخففةً من الثقيلة، والمعنى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.

(٤) الإملاء ٣/ ٤١٤.

(٥) ليس في (م).

إنْ كان مكرُهم ليزَول منه ما هو كالجبال في الثبات من الآيات والشرائعِ والمعجزاتِ، والجملةُ أيضاً حالٌ من الضمير المذكور، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ وإنَّ الشأن كان مكرهم لإزالة الحقِّ من الآيات والشرائع على معنى أنَّه لم يكُن يصِحُّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك وكان شأنُ الحقِّ مانعاً من مباشرةِ المكر لإزالتِهِ.

وقرأ ابنُ عباس ومجاهد وابن وثاب والكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورَفْعِ الفعل[1]، فـ «إنْ» على ذلك عند البصريين مخفَّفةٌ واللامُ هي الفارقة، وعند الكوفيين نافية[2] واللام بمعنى «إلا»، والقصدُ إلى تعظيم مكرهم، فالجملةُ حالٌ من قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكر بهم، والحالُ أنَّ مكرَهم بحيث تزولُ منه الجبال، أي: في غاية الشدَّة.

وقرئ: «لَتزولَ» بالفتح والنصب[3]، وخُرِّجَ ذلك على لغةٍ جاءت في فتح لام «كي».

وقرأ عمرُ وعليٌّ وأبيٌّ وعبدُ الله وأبو سلمة بنُ عبد الرحمن وأبو إسحاق السَّبيعيّ وزيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهم ورحمهم: «وإنْ كاد» بِدالٍ مكان النون، و«لَتزولُ» بالفتح والرفع[4]، وهي روايةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما[5]، ونَقَل أبو حاتم عن أُبيٍّ رضي الله عنه أنَّه قرأ: «ولولا كلمةُ الله لزالَ مِن مكرهم الجبال»[6]. وحمل ذلك بعضهم على التفسير؛ لمخالفته لسواد[7] المصحف مخالفة ظاهرة.

---

(١) قراءة الكسائي في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠٠، وباقي القراءات الآتية في المحتسب ١/ ٣٦٥، والطبري ١٣/ ٧٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) في الأصل: هي نافية، والمثبت من (م).

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٤) المحتسب ١/ ٤٦٥، والطبري ١٣/ ٧١٩ وما بعدها، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٧) في الأصل: سواد، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

هذا ومن الناس من قال: إنَّ الضميرَ في «مكروا» للمنذَرين، والمرادُ بمكرهم ما أَفادَه قولُه عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وغيرُه من أنواع مكرهم برسول الله ﷺ.

قال شيخُ الإسلام: ولعلَّ الوجْهَ حينئذٍ أنْ يكونَ قولُه تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا۟) إلخ حالاً من القول المقدَّر، أي: فيُقال لهم ما يقال والحال أنَّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور مع[1] ما ينافيه قد مكروا مكْرَهم العظيمَ، أي: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام الذي وُبِّخُوا به، بل اجترؤوا على مثل هذه العظيمة. وقوله سبحانه: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) حالٌ من ضمير «مكروا» حسبما ذُكِرَ مِن[2] قبل. وقوله تعالى: (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ) إلى آخره مسوقٌ لبيان عدم تفاوتِ الحال في تحقيق الجزاء بَيْنَ كونِ مكرهم قويًّا أو ضعيفاً كما مرَّت الإشارةُ إليه، وعلى تقدير كونِ «إنْ» نافيةً فهو حالٌ من ضمير «مكروا»، و«الجبال» عبارةٌ من أَمْرِ النبيِّ ﷺ، أي: وقد مكروا والحال أنَّ مكْرَهم ما كان لِتزولَ منه هاتيك الشرائعُ والآياتُ التي هي كالجبال في القوَّة، وعلى تقدير كونها مخفَّفةً من الثقيلة واللام مكسورة يكونُ حالاً منه أيضاً، على معنى: أنَّ ذلك المكرَ العظيمَ منهم كان لهذا الغرض، والقصدُ إلى أنَّه لم يصِحَّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك لِمَا أنَّ شأنَ الشرائع أعظمُ مِن أنْ يُمكَرَ بها، وعلى تقدير فَتْحِ اللام فهو حالٌ من قوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) كما ذُكِرَ سابقاً[3]. اهـ.

ويجوز أنْ يُراد بـ «مكرهم» شركُهم كما أخرجَه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس[4]، والجبالُ على حقيقتها، وأَمْرُ الجملة على ما قال.

وحاصلُ المعنى: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام مع ما يُنافيه بل اجترؤوا على الشِّرْك ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٠] وقد رُوي عن الضحاك أنَّه صرَّح بأنَّ ما نحنُ فيه كهذه الآية.

(١) قوله: مع، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٢) قوله: من، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٤) الطبري ١٣/ ٧٢٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

ثمَّ إنَّ القولَ بجَعْل الضميرِ للمنذَرين قولٌ بعدمِ دخولِ هذا الكلامِ في حيِّز ما يقال، وهو الظاهرُ كما قيل، وكذا حَمْل «الجبال» على معناها الحقيقي.

وفي «البحر»: الذي يَظهرُ أنَّ زوالَ الجبال مجازٌ ضُربَ مثلاً لمكر قريش وعِظَمه[١]، والجبالُ لا تزولُ، وفيه من المبالغة في ذمِّ مكرهم ما لا يخفى.

وأمَّا ما رُوي[٢] أنَّ جبلاً زال بحَلِفِ امرأةٍ اتَّهمَها زوجُها، وكان ذلك الجبلُ مَن حَلَفَ عليه كاذباً مات، فحَمَلَها للحَلِف، فمَكَرت بأنْ رَمَت نفسَها من الدابة، وكانت وعدَت مَن اتُّهِمَت به أنْ يكون في المكان الذي وقَعَت فيه من الدابة، فأركبها زوجُها وذلك الرجل، وحلفَت على الجبل أنَّها ما مسَّها غيرُهما، فنزلَت سالمةً وأصبح الجبل قد انْدَكَّ، وكانت المرأةُ من عدنان.

وما رُوي من قصة نمروذ بنِ كوش بنِ كنعان أو بُخْتُ نصَّر واتخاذِ الأنْسُر وصعودِهما إلى قُرب السماء في قصة طويلةٍ مشهورة، وما فعل بعضُهم من حمل الجبال على دين الإسلام والقرآنِ، وحملِ المكر على اختلافهم فيه مِن قولهم: هذا سحرٌ، هذا شعرٌ، هذا إفكٌ = فأقوال يَنبُو عنها ظاهرُ اللفظ، وبعيدٌ جدًّا قصة الأَنْسُر[٣]. اهـ.

واستبعدَ ذلك أيضاً ـ كما نَقَل الإمامُ ـ القاضي، وقال: إنَّ الخطر في ذلك عظيمٌ ولا يكاد العاقلُ يُقدِمُ عليه. وما جاء خبرٌ صحيحٌ مُعتمَدٌ، ولا حاجةَ في تأويل الآية إليه[٤].

ونِعْمَ ما قال في خَبر النسور، فإنَّه وإنْ جاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وعن مجاهدٍ وابنِ جبير وأبي عبيدة والسديِّ وغيرِهم إلا أنَّ في الأسانيد ما لا يخفَى على مَن نَقَّر، وقد شاعَ ذلك من أخبار القصَّاص، وخبرُهم واقعٌ عن درجة القبولِ ولو

(١) في الأصل: عظمته، والمثبت من (م) والبحر.
(٢) في الأصل: وما روي، والمثبت من (م) والبحر المحيط، وجاء في هامش الأصل كلمة غير واضحة، ولعلَّها ضُربَ عليها.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨، وخبر النمروذ واتخاذه الأنسر ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٩٨ ـ ٩٩، والطبري ١٣/ ٧١٩-٧٢١، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩-٩٠.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٤٤.

طارُوا إلى النسر الطائر، ومِثْلُ ذلك فيما أرى خبرُ المتَّهمَةِ. فافهم والله تعالى أعلم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ تثبيتٌ له ﷺ على ما هو عليه من الثقة بالله سبحانه والتيقُّنِ بإنجاز وعدِه تعالى بتعذيبِ الظالمين المقرُونِ بالأمر بإنذارهم، كما يُفصحُ عنه الفاء، وقال الطيبي: واستحسَنَه التلميذُ أنَّه يجوزُ أنْ يُحملَ الوعدُ على المفاد بقوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) وقد جعلَه وجهاً آخرَ لِمَا ذَكَره الزمخشريُّ من تفسيره له بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1] [المجادلة: ٢١] وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا اختصاصَ لذلك ـ كما قيل ـ بالتعذيب لا سيَّما الأخرويّ، وإضافةُ «مُخلفَ» إلى الوعد عند الجمهور من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول الثاني كقولهم: هذا معطي درهمٍ زيداً، وهو لمَّا كان يتعدَّى إلى اثنين جازَت إضافته إلى كلٍّ منهما فينصبُ ما تأخَّر، وأنشَد بعضُهم نظيراً لذلك قوله:

تَرَى الثورَ فيها مُدْخِلَ الظلِّ رأسَه وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أَجْمَعُ[2]

وذكر أبو البقاء أنَّ هذا قريبٌ من قولهم:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار[3]

وفي «الكشاف»: أنَّ تقديمَ الوعدِ ليُعلم أنَّه تعالى لا يُخلِف الوعدَ أصلاً كقوله سبحانه: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال جلَّ شأنه: (رُسُلَهُۥٓ) ليُؤذنَ أنَّه إذا لم يُخلِف وعدَه أحداً، وليس مِن شأنه إخلافُ المواعيدِ، كيف يُخلِفُ رسلَه الذينَ هم خيرتُه وصفوتُه[4]؟!.

ونظر فيه ابنُ المنيِّر بأنَّ الفعلَ إذا تقيَّد بمفعولٍ انقطَعَ احتمالُ إطلاقه، وهو

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٢) الكتاب ١/ ١٨١، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والبيان للأنباري ٢/ ٦٢.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٥، والرجز في الكتاب ١/ ١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٧٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٥، وخزانة الأدب ٣/ ١٠٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

هنا[1] كذلك، فليس تقديمُ الوعدِ دالًّا على إطلاقِ الوعد، بل على العناية والاهتمامِ به؛ لأنَّ الآيةَ سيقَت لتهديد الظالمين بما وَعَد سبحانه على ألسنة رسلِهِ عليهم السلام، فالمهمُّ ذكرُ الوعدِ، وكونُه على ألسنة الرسل عليهم السلام لا يتوقَّف عليه التهديدُ[2] والتخويفُ[3].

وقال صاحب «الإنصاف»: إنَّ هذا النظر قويٌّ، إلا أنَّ ما اعترض عليه هو القاعدةُ عند أهل البيان، كما قال الشيخُ عبدُ القاهر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]: أنَّه قدَّم «شركاء»؛ للإيذان بأنَّه لا يَنبغي أنْ يُتَّخذ لله تعالى شركاءُ[4] مطلقاً، ثم ذكر «الجنَّ» تحقيراً، أي: إذا لم يُتَّخذ مِن غيرِ الجنِّ، فالجنُّ أحقُّ بأنْ[5] لا يُتَّخذُوا[6].

وتُعقِّب بأنَّه لا يدفع السؤال بل يُؤيِّده، وكذا ما ذكره الفاضلُ الطيبي فإنَّه مع تطويله لم يأتِ بطائل، فالوجْهُ ما في «الكشف» من أنَّ ذلك الإعلام إنما نشأ من جعل الاهتمام بشأن الوعدِ، فهو ما سيقَ له الكلامُ وما عداه تَبعٌ، وإفادةُ هذا الأسلوب الترقِّي كإفادة: ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] الإجمالَ والتفصيلَ. نعم إنَّ الظاهر من حال صاحب «الكشاف» أنَّه أضمرَ ـ فيما قرَّره ـ اعتزالاً، وهذه مسألةٌ أخرَى.

وقيل: «مخلف» هنا متعدٍّ إلى واحدٍ كقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] فأُضيف إليه، وانتصبَ «رُسُلَه» بـ «وعده» إذ هو مصدرٌ يَنحلُّ إلى «أنْ» والفعل، وقرأت فرقةٌ: «مخلِفَ وعدَه رسلِه» بنصب «وعده» وإضافة «مُخلِفَ» إلى «رسله»[7] ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهذه القراءة تُؤيِّدُ إعرابَ الجمهور في القراءة الأولى، وأنَّه مما يتعدَّى «مخلِف» هنا إلى مفعولَين.

---

(١) في الأصل: هناك، والمثبت من (م).
(٢) قوله: عليه التهديد، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٣) الانتصاف ٢/ ٣٨٤ بنحوه.
(٤) في الأصل: شريكاً، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٥) في الأصل: أن، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٦) دلائل الإعجاز ص٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجَّاج ٣/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يماكَرُ، وقادرٌ لا يُقادَرُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ من أعدائه لأوليائه، فالجملةُ تعليلٌ للنهي المذكور وتذييلٌ له، وحيث كان الوعدُ عبارةً عن تعذيبهم خاصَّةً كما مرَّت إليه الإشارة، لم يذيَّل ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ بأنْ يقال: إنَّ الله لا يُخلف الميعاد، بل تعرَّض لوصف العزِّ والانتقام المشعرَين بذلك، والمرادُ بالانتقام ما أُشيرَ إليه[١] بالفعل، وعبِّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لمضمَرٍ مُستأنَفٍ ينسحبُ عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه يوم. . . إلى آخره، أو معطوف عليه نحو: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ﴾ [الدخان: ١٠] إلى آخره[٢]، وجعَلَه بعضُ الفضلاء معمولاً لـ «اذكر» محذوفاً كما قيل في شأن نظائره، وقيل: ظرفٌ للانتقام، وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه، ولكنْ له أحوالٌ جمَّةٌ يُذكَرُ كلَّ مرَّةٍ بعنوانٍ مخصوصٍ، والتقييدُ مع عموم انتقامه سبحانه للأوقات كلِّها للإفصاح عمَّا هو المقصود[٣] من تعذيب الكفرةِ المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمةِ المقتضيةِ له.

وجوَّز أبو البقاء تعلُّقَه بلا يُخلفُ الوعدَ مقدَّراً[٤] بقرينة السابق، وفيه الوجهُ قبلَه من الحاجة إلى الاعتذار.

وقال الحوفي: هو متعلِّقٌ بـ «مُخلِفَ»، و«إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقام» جملةٌ اعتراضيةٌ، وفيه ردٌّ لما قيل: لا يجوزُ تعلُّقه بذلك؛ لأنَّ ما قبل «إنَّ» لا يعملُ فيما بعدَها، لأنَّ لها الصدارة، ووجهُهُ أنَّها لكونها وما بعدها اعتراضاً لا يُبالَى بها فاصلاً.

وجوَّز الزمخشريُّ انتصابَه على البدليَّة من «يوم يأتيهم»[٥]، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، وتَبِعَه بعضُ مَن مَنَع تعلُّقه بـ «مُخلِفَ» لمكان ما لَه الصدرُ. والعجبُ أنَّ العامل فيه حينئذٍ «أَنذِر» فيلزمُ عليه ما لَزِمَ القائلَ بتعلُّقه بما ذكر، فكأنَّه ذهب إلى أنَّ البدلَ له عاملٌ مقدَّرٌ، وهو ضعيف.

---

(١) في الأصل: عنه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٢) قوله: إلى آخره، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٣) قوله: المقصود، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطف على المرفوع، أي: وتُبدَّلُ السماواتُ غيرَ السماوات، والتبديلُ قد يكونُ في الذات كما في: بَدَّلْتُ الدراهمَ دنانيرَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقد يكونُ في الصفات كما في قولك: بَدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً، إذا غيَّرتَ شكلَها، ومنه قوله سبحانه: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، والآية الكريمةُ ليست بنصٍّ في أحدِ الوجْهَين، فعن[1] ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: تبدلُ الأرض: يُزادُ فيها ويُنقَصُ منها وتذهبُ آكامها وجبالُها وأوديتُها وشجرُها وما فيها، وتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، وتصيرُ مستويةً لا تَرَى فيها عوجاً ولا أَمْتاً. وتبدلُ السماواتِ: بذهابِ شمسِها وقمرِها ونجومِها[2]. وحاصلُه: يُغيَّرُ كلٌّ عمَّا هو عليه في الدنيا، وأنشدَ:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتُهُم ... ولا الدارُ بالدار التي كنتُ أعلمُ[3]

وقال ابنُ الأنباري: تبدل السماوات بطيِّها وجعلِها مَرَّةً كالمُهْل ومَرَّةً وردةً كالدهان[4].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وابنُ جرير وغيرُهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: تُبدَّل الأرضُ من فضةٍ، والسماءُ من ذهب[5].

وأخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال[6]: تكونُ الأرضُ كالفضة والسماواتُ كذلك[7]. وصحَّ عن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ أرضاً بيضاءَ كأنَّها

---

(١) في (م): نص.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١، وعزاه للبيهقي في البعث.

(٣) نسبه العباسي في معاهد التنصيص ٤/ ٦ للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو في مجالس ثعلب ١/ ٤٩، والكشاف ٢/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩، والذي في مجالس ثعلب وجمهرة الأمثال: تعرف، بدل: أعلم، وفي باقي المصادر: تعلم.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

(٥) الطبري ١٣/ ٧٣٤، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٦٢)، وأورده السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) ليس في (م).

(٧) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٢.

سبيكةُ فضَّةٍ لم يُسفَك فيها دمٌ حرامٌ ولم يُعمَل فيها خطيئة. وروي ذلك مرفوعاً أيضاً(١)، والموقوف ـ على ما قال البيهقي(٢) ـ أصحُّ. وقد يحمل قول الإمام(٣) كرَّم الله تعالى وجهه على التشبيه.

وقال الإمام: لا يبعدُ أنْ يقال: المرادُ بتَبْديل الأرضِ جعلُها جهنَّم، وبتبديل السماوات جعلُها الجنةَ(٤).

وتُعقِّبَ بأنَّه بعيدٌ؛ لأنَّه يلزمُ أنْ تكونَ الجنةُ والنارُ غيرَ مخلوقَتَين الآن، والثابتُ في الكلام والحديثِ(٥) خلافُهُ.

وأُجيبَ بأنَّ الثابت خَلْقُهما مطلقاً لا خَلْق كليهما(٦)، فيجوزُ أنْ يكونَ الموجودُ الآن بعضَهما ثم تصيرُ السماواتُ والأرضُ بعضاً منهما، وفيه أنَّ هذا ـ وإنْ صحَّحه ـ لا يقرّ به، والاستدلالُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧] في غاية الغرابة مِن الإمام، فإنَّ في إشعار ذلك بالمقصود نظراً، فضلاً عن كونه دالًّا عليه.

نعم جاء في بعض الآثار ما يؤيِّدُ ما قاله، فقد أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم

---

(١) أخرجه موقوفاً الطبري ١٣/ ٧٢٩ ـ ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والطبراني (٩٠٠١)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٧٠ وصحح إسناده.
وأخرجه مرفوعاً البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧، وابن عساكر ٤٦/ ٤٠٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥: وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمع على ضعفه.
(٢) استدراكات البعث والنشور (٨٢).
(٣) في الأصل: كلام الأمير، والمثبت من (م).
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٠.
(٥) جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٨) عن عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اطَّلعتُ في الجنةِ فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلها النساء»، وينظر البخاري كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، والبعث والنشور للبيهقي باب: ما يستدل على أن الجنة والنار قد خلقتا وأعدَّتا لأهلهما.
(٦) في الأصل و(م): كلهما، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.

عن أُبيّ بنِ كعب أنَّه قال في الآية: تصيرُ السماواتُ جناناً، ويصيرُ مكان البحر ناراً، وتُبدَّلُ الأرضُ غيرَها[١].

وأخرج ابنُ جرير عن ابن مسعود أنَّه قال: الأرضُ كلُّها نارٌ يوم القيامة[٢].

وجاء في تبديل الأرض روايات أُخر، فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن جُبير أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ خبزةً بيضاءَ، فيأكلُ المؤمنُ من تحت قدمَيه. وأَخرجَ عن محمد بنِ كعب القرظي مثله[٣]. وأخرجَ البيهقيُّ في «البعث» عن عكرمة كذلك[٤].

وأَخرجَ ابنُ مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب أنَّ رجلاً من يهود سأل النبيَّ ﷺ فقال: ما الذي تُبدَّلُ به الأرضُ؟ فقال: «خُبزةٌ». فقال اليهوديُّ: درمكة بأبي أنت. فضَحِكَ ﷺ ثم قال: «قاتل الله تعالى يهودَ هل تَدْرُونَ ما الدَّرمكةُ؟ لبابُ الخبز»[٥].

وقد تقدَّم خبرُ أنَّ الأرضَ تكونُ يومَ القيامة خُبزةً واحدةً يتكفَّؤُها الجبَّارُ بيده كما يتكفَّأُ أحدُكم خُبزَتَه في السفر نُزُلاً لأهل الجنة، وهو في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدْري مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[٦].

وحكى بعضُهم أنَّ التبديلَ يقعُ في الأرض ولكن[٧] تُبدَّلُ لكلِّ فريقٍ بما يقتضيه حالُه، ففريقٌ من المؤمنين يكونون على خبزٍ يأكلونَ منه، وفريقٌ يكونون على فضَّةٍ، وفريقُ الكفرةِ يكونون على نارٍ، وليس تبديلُها بأيِّ شيءٍ كان بأعظمَ من خلقها بعدَ أنْ لم تكُن.

---

(١) عزاه للطبري ولابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١ والكلام منه، وعزاه ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧٦ لتفسير الربيع بن أنس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٠ عن كعب، وكذا ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) الطبري ١٣/ ٧٣٣.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٥.

(٤) استدراكات البعث والنشور (٨٣).

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) صحيح البخاري (٦٥٢٠)، وصحيح مسلم (٢٧٩٢)، وتقدم ص٣٣ من هذا الجزء.

(٧) في الأصل: لكن، والمثبت من (م).

وذكر بعضهم أنَّها تُبدَّلُ أوَّلاً صفتُها على النحو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم تُبدَّلُ ذاتُها، ويكونُ هذا الأخيرُ بعدَ أنْ تُحدِّثَ أخبارَها، ولا مانعَ من أنْ يكونَ هنا تبديلاتٌ على أنحاء شتَّى.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً أنَّ الناس يومَ تُبدَّلُ على الصراط[1]. وفيه من حديث ثوبان أنَّ يهوديًّا سألَ رسول الله ﷺ: أين الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم في الظُّلْمةِ دونَ الجسر»[2]، ولعلَّ المرادَ من هذا التبديل نحوٌ خاصٌّ منه، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال. وتقديمُ تبديلِ الأرض؛ لقربها منَّا، ولكون تبديلها أعظم أمراً بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائقُ أو الظالمون المدلولُ عليهم بمعونة السياق كما قيل، والمرادُ بُروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض.

وجوّز أنْ يكونَ المرادُ ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعمون أنَّها لا تظهرُ، أو يعملون عملَ مَنْ يَزعُمُ ذلك، ووجهُ إسنادِ البروزِ إليهم ـ مع أنَّه على هذا لأعمالهم ـ بأنَّه للإيذان بتشكُّلهم بأشكالٍ تناسبُها، وأنت تعلم أنَّ الظاهر ظهورُهم من أجداثهم، والعطفُ على «تُبدَّلُ» والعدولُ[3] إلى صيغة الماضي، للدلالة على تحقُّق الوقوع.

وجوَّز أبو البقاء أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً وأنْ تكونَ حالاً من «الأرض» بتقدير «قد»[4]، والرابط[5] الواو.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «وبُرِّزُوا» بضمِّ الباء وكسر الراء مشدَّدةً[6]، جعلَه مبنيًّا للمفعول على سبيل التكثير باعتبار المفعولِ لكثرة المخرَجين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لحُكْمِهِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٠٦٩).
(٢) صحيح مسلم (٣١٥)، والجسر: هو الصراط، كما في إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣.
(٣) في الأصل: المعدول، والمثبت من (م).
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) في الأصل: الروابط، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

سبحانه ومجازاته ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ الذي لا شريكَ له ﴿ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ الغالبِ على كلِّ شيءٍ، والتعرُّضُ للوصفَين؛ لتهويل الخطْب وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا واقفين[1] عندَ مَلِكٍ عظيم قهَّارٍ لا يُشاركُه غيرُه كانوا على خَطَرٍ، إذ لا مقاومَ له ولا مُغيثَ سواه، وفي ذلك أيضاً تحقيقُ إتيان العذابِ الموعود على[2] تقدير كونِ «يومَ تُبدَّلُ» بدلاً مِن «يومَ يأتيهم العذابُ».

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على «بَرزُوا» والعدولُ إلى صيغة المضارع؛ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على الاستمرار، وأما البروزُ فهو دفعيٌّ لا استمرارَ فيه، وعلى تقدير حالية «بَرزُوا» فهو معطوف على «تُبدَّلُ» وجوَّزَ عطفَهُ على عامل الظرف المقدَّم على تقدير كونه يُنجِزه مثلاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ برزوا لله[3] تعالى، أو يومَ إذ تُبدَّلُ الأرضُ، أو يومَ إذ يُنجِزُ وعدَه، والرؤيةُ إذا كانت بصريةً ف «المجرمين» مفعولها وقولُه تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالٌ منه، وإنْ كانت عِلْميةً ف «المجرمين» مفعولُها الأوَّل، و«مقرَّنين»[4] مفعولُها الثاني.

والمرادُ قَرْنُ بعضِهم مع بعضٍ، وضمُّ كلٍّ لمشاركه في كفره وعمله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] على قول، وفي المثل: إنَّ الطيورَ على أشباهها تقَعُ[5].

أو قُرِنُوا مع الشياطين الذين أغووهم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم:٦٨] إلخ.

أو قُرِنُوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغةِ والملكات الرديئةِ والأعمالِ السيئة غِبَّ تَصوُّرها وتشكُّلها بما يُناسبُها من الصُّور الموحشةِ والأشكالِ الهائلةِ.

أو قُرنوا مع جزاء ذلك أو كتابه، فلا حاجةَ إلى حديثِ التصوُّر بالصُّورِ.

---

(١) في الأصل: واقعين. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٢) في الأصل: وعلى، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٣) في الأصل: يرون الله، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٤) في (م): مقرنين.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ٤٤٢ بلفظ: الطيورُ على أُلَّافها تقَعُ.

أو قُرنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم، وجاء ذلك في بعض الآثار[١]، والظاهرُ أنَّه على حقيقته.

ويحتمل ـ على ما قيل ـ أنْ يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفَته أيديهم وأرجلُهم، وأصلُ المقرَّن ـ بالتشديد ـ مَن جُمِع في قَرَنٍ ـ بالتحريك ـ وهو الوَثاق الذي يُربط به.

﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ جمعُ: صَفَد، ويقال فيه: صِفَادُ، وهو: القيدُ الذي يُوضَع في الرِّجْل، أو الغلُّ الذي يكون في اليد والعنق، أو ما يُضمُّ به اليدُ والرِّجْلُ إلى العنق، ويسمَّى هذا جامعة[٢]، ومِن هذا قول سلامة بنِ جندل:

وزَيدُ الخيلِ قد لاقى صفاداً ... يَعضُّ بساعِدٍ وبعظْم ساقِ[٣]

وجاء: صَفَد بالتخفيف وصَفَّد بالتشديد للتكثير، وتقول: أصفدْتُه، إذا أعطيتَه، فتأتي بالهمزة في هذا المعنى، وقيل: صَفَد وأَصْفَد معاً في القيد والإعطاء، ويُسمَّى العطاء صَفداً؛ لأنَّه يُقيِّد:

ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تقَيَّدا[٤]

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «مقرَّنين» أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من ضميره، أي: مُصَفَّدين، وجوَّز أبو حيان كونَه في موضع الصفة لـ «مقرنين»[٥].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصانُهم، جمع: سِرْبال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو: ما يُحلَبُ من شَجَر الإبْهلِ[٦] فيُطبَخ وتُهنَأ به الإبل الجربَى، فيحرقُ الجربَ بما فيه من الحدَّة

---

(١) أورده الرازي في تفسيره ١٧/ ١٤٨ عن زيد بن أرقم حيث قال: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال.

(٢) في (م): جامعه. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والكشاف ٢/ ٣٨٥، والبيضاوي ٥/ ٢٧٩.

(٤) عجز بيتٍ لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ١٥، وصدره:
وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحبَّةً

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

(٦) الأبْهُل أو الإبْهِل: هو صنف من العرار أو هو نفسه، منه صغير الورق كالطرفاء، وكبير كالسرو، ويقارب النبق في الحجم، أحمر اللون فإذا تمَّ استواؤه اسودَّ. تذكرة أولي الألباب ١/ ٣٥.

الشديدة، وقد تصلُ حرارتُه إلى الجوف، وهو أسودُ منتنٌ يسرعُ فيه اشتعالُ النار حتى قيل: إنَّه أسرَعُ الأشياء اشتعالاً.

وفي «التذكرة»: أنَّه نوعان غليظٌ برَّاقٌ حادُّ الرائحة ويُعرَف بالبرقي، ورقيقٌ كَمِد ويُعرَفُ بالسائل، والأولُ من الشربين[١] خاصَّة، والثاني من الأرز والسدر ونحوهما، والأوَّلُ أجودُ، وهو حارٌّ يابسٌ في الثالثة أو الثانية[٢]، وذَكَرَ في الزفت أنَّه من أشجار كالأرز وغيره، وأنَّه إنْ سالَ بنفسه يقال: زفت، وإنْ كان[٣] بالصناعة فقَطران[٤].

ويقال فيه: قَطْران بوزن سَكْران، وروي عن عمرَ وعليٍّ رضي الله عنهما أنَّهما قرأا به[٥]، وقِطْرَان بوزن سِرْحَان ولم نقف على مَن قرأ بذلك[٦].

والجملة من المبتدأ والخبر في موضع النصب على الحالية من «المجرمين»، أو من ضميرهم في «مقرَّنين»، أو من «مقرَّنين» نفسِه على ما قيل رابطُها الضميرُ فقط كما في: كلمتُه فوه إلى فيَّ، أو مستأنفة.

وأيًّا ما كان ففي «سَرابيلهم» تشبيهٌ بليغٌ، وذلك أنَّ المقصودَ أنَّه تُطلَى جلودُ أهلِ النار بالقَطِرَان حتى يعودَ طلاؤه كالسرابيل، وكأنَّ ذلك ليجتمعَ عليهم الألوانُ الأربعةُ من العذاب، لذعُهُ وحرقهُ وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحشُ والنَّتنُ، على أنَّ التفاوتَ بين ذلك القَطِرَان وما نشاهدُه كالتفاوت بين النارَين، فكأنَّ ما نشاهدُه منهما أسماءُ مُسمَّياتها في الآخرة، فبكرمِهِ العميم نعوذُ، وبكنفه الواسع نلوذُ.

---

(١) الشربين: شجر كالسرو إلا أنه أشدُّ حمرةً وأزكى رائحةً وأعرض أوراقاً وأصغر ثمراً، ومنه القطران الجيد المعروف بالبرقي، وما استخرج من غيره كالأرز فضعيف، والشربين شجرٌ يدوم وجودُه وتبقى شجرتُه نحو خمسين سنة. تذكرة أولي الألباب ١/ ٢١١.
(٢) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٢٦١.
(٣) قوله: كان، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٤) تذكرة أولي الألباب ١/ ١٧٨.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.
(٦) عزاها الطبري ١٣/ ٧٤٢ إلى عيسى بن عمر.

وجوّز أنْ يكونَ في الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ بأنْ تُشبَّه النفسُ المتلبِّسةُ بالملكاتِ الرديئةِ كالكفر والجهلِ والعنادِ والغباوةِ بشخصٍ لَبِسَ ثياباً من زفتٍ وقَطِرَان، ووَجْهُ الشبه تَحلِّي كلٍّ منهما بأمرٍ قبيح مؤذٍ لصاحبه يستكره عند مشاهدتِهِ، ويُستعارُ لفظُ أحدهما للآخر. ولا يخفَى ما في توجيه الاستعارةِ التمثيلية بهذا من المساهلة، وهو ظاهر، على أنَّ القول بهذه الاستعارة هنا أقربُ ما يكون إلى كلام الصوفية.

وقال بعضُهم: يحتمل أنْ يكونَ القطرانُ المذكور عينَ ما لابَسُوهُ في هذه النشأة، وجعلوه شعاراً لهم من العقائد الباطلة والأعمالِ السيئة المستجلِبَةِ لفنون العذاب، قد تجسَّدَت في النشأة الآخرة بتلك الصورةِ المستتبعةِ لاشتداد العذاب، عصمنا الله تعالى من ذلك بلطفه وكرمه. وأنت تعلم أنَّ التشبيهَ البليغَ على هذا على حاله.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابنُ عباس وأبو هريرة وعكرمةُ وقتادة وجماعة من: «قَطِرٍ آنٍ»[1] على أنَّهما كلمتان منوَّنتان، أولاهما «قَطِرٍ» بفتح القاف وكسر الطاء، وهي النحاس مطلقاً أو المذاب منه، وثانيتُهما «آنٍ» بوزن: عانٍ، بمعنى شديد الحرارة. قال الحسن: قد سُعِّرَت عليه جهنَّم منذ خُلقَت فتناهى حرُّه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ أي: تعلوها وتحيطُ بها النارُ التي تُسعَّر بأجسادهم المسربلة بالقطران، وتخصيصُ الوجوهِ بالحكم المذكورِ مع عمومه لسائر أعضائهم؛ لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] ولكونها مَجمَعَ الحواسِّ والمشاعرِ التي لم يستعملوها فيما خُلقَت له من إدراك الحقِّ وتدبُّره، وهذا كما تَطَّلِعُ على أفئدتهم، لأنَّها أشرفُ الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفةِ وقد ملؤوها بالجهالات، أو لخلوِّها كما قيل: عن القطران المغني عن ذكر غِشْيان النار، ووجهُ تَخْليتها عنه بأنَّ ذلك لعلَّه ليتعارفوا عند انكشاف اللَّهَب أحياناً ويتضاعفَ عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

وقرئ برفع الوجوه ونصب «النارَ»[١] كأنَّه جعَلَ ورودَ الوجوهِ على النار غشْياناً لها مجازاً.

وقرئ: «تَغَشَّى» أي: تَتَغَشَّى بحذف إحدَى التاءَين[٢]، والجملة ـ كما قال أبو البقاء[٣] ـ نصبٌ على الحال كالجملة السابقة.

وفي «الكشف»: وأفاد العلَّامةُ الطيبيّ أنَّ «مقرَّنين»، «سَرابيلُهم من قَطِرَان»، «تَغْشَى»: أحوالٌ من مفعول «وترَى» جيء بها كذلك للترقِّي، ولهذا جيء بالثانية جملةً اسميَّةً؛ لأنَّ سَرابيلَ القَطِرَان الجامعة بين الأنواع الأربعة أفظعُ من الصفد، وأما «تَغْشى» فلتجديد الاستحضار المقصودِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى﴾ لأنَّ الثاني أهولُ، والظاهرُ أنَّ الثانِيَيْن مُنقطعان مِن حكمِ الرؤيةِ؛ لأنَّ الأوَّل في بيان حالهم في الموقف إلى أنْ يُكَبَّ بهم في النار، والأخيرَين لبيان حالهم بعد دخولها، وكأنَّ الأوَّل حرَّك من السامع أنْ يقول: وإذا كان هذا شأنُهم وهم في الموقف، فكيف بهم وهم في جهنَّمَ خالدون؟! فأجيبَ بقوله سبحانه: «سرابيلهم من قطران»، وأُوثِرَ الفعلُ المضارع في الثانية، لاستحضار الحال وتجدُّد الغِشْيان حالاً فحالاً، وأكثرُ المعربين على عدم الانقطاع.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ متعلِّقٌ بمضمَرٍ، أي: يفعلُ بهم[٤] ذلك ليجزيَ سبحانه ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي: مُجرِمةٍ بقرينة المقام ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاءً وفاقاً، وفيه إيذانٌ بأنَّ جزاءَهم مناسبٌ لأعمالهم، وجوِّز على هذا الوجه كونُ النفس أعمَّ من المجرمة والمطيعةِ، لأنَّه إذا خُصَّ المجرمون بالعقاب عُلِمَ اختصاصُ المطيعين بالثواب، مع أنَّ عقاب المجرمين وهم أعداؤهم جزاء لهم أيضاً كما قيل:

مَـــنْ عـــاشَ بـــعـــدَ عـــدوِّهِ يـــومـــاً فـــقـــد بَـــلَـــغ الـــمُـــنَـــا[٥]

---

(١) عزاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ إلى عبد الله بن مسعود، وهي في البحر ٥/ ٤٤٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٦.
(٤) قوله: بهم، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

ويجوزُ على اعتبار العموم تعلُّق اللام بـ «بَرَزُوا» على تقدير كونه معطوفاً على «تُبدَّلُ» والضميرُ للخلق، ويكونُ ما بينهما اعتراضاً، فلا اعتراض، أي: برزوا للحساب ليجزيَ الله تعالى كلَّ نفسٍ مطيعةٍ أو عاصيةٍ ما كسَبت من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ لأنَّه لا يشغلُه سبحانه فيه تأمُّلٌ وتتبُّعٌ، ولا يمنعُهُ حسابٌ عن حسابٍ، حتى يَستريحَ بعضُهم عند الاشتغال بمحاسبةِ الآخرين، فيتأخَّر عنهم العذابُ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المرادَ سريعُ الانتقام، وذكر المرتضَى في «دُرَرِه»[1] وجوهاً أُخَر في ذلك.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ أي: ما ذُكِرَ من قوله سبحانه: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا) إلى هنا، وجوّز أنْ يكونَ الإشارةُ إلى القرآن، وهو المرويُّ عن ابن زيد، أو إلى السورة، والتذكيرُ باعتبار الخبر وهو «بلاغٌ»، والكلامُ على الأوَّل أبلغُ، فكأنَّه قيل: هذا المذكورُ آنفاً كفاية في العِظةِ والتذكير من غير حاجةٍ إلى ما انطوَى عليه السورةُ الكريمةُ أو كلُّ القرآن المجيدِ من فنون العظاتِ والقوارع، وأصلُ البلاغ مصدرٌ بمعنى التبليغ، وبهذا فسَّره الراغبُ[2] في الآية، وذكر مجيئَه بمعنى الكفاية في آيةٍ أخرَى.

﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفَّار خاصَّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أو لهم وللمؤمنين كافَّةً على تقدير شمولهم أيضاً، وإنْ كان ما شُرِحَ مختصًّا بالظالمين على ما قيل.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، أي: ليُنْصَحوا، أو لينذروا به، أو نحو ذلك، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ، وتقديره: ولينذروا[3] به أُنزِلَ أو تُليَ، وقال الماوردي: الواو زائدةٌ، وعن المبرِّد: هو عطفُ مفردٍ على مفردٍ، أي: هذا بلاغٌ وإنذارٌ[4]، ولعلَّه تفسيرُ معنًى لا إعراب.

---

(١) غرر الفوائد ودرر القلائد المشهور بأمالي المرتضى ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩١.
(٢) مفردات الراغب (بلغ).
(٣) في الأصل: لينذروا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وقال ابنُ عطية: أي: هذا بلاغٌ للناس وهو لينذروا به[1]، فجعَلَ ذلك خبراً لـ «هو» محذوفاً.

وقيل اللام لام الأمر، قال بعضُهم: وهو حَسَنٌ، لولا قوله سبحانه: (وَلِيَذَّكَّرَ) فإنَّه منصوبٌ لا غير، وارتَضَى ذلك أبو حيان وقال: إنَّ ما ذُكِرَ لا يخدشه، إذ لا يتعيَّنُ عطفُ «ليذكرَ» على الأمر، بل يجوزُ أنْ يُضمَرَ له فعلٌ يتعلَّق به[2]. ولا يخفَى أنَّه تكلُّفٌ.

وقرأ يحيى بنُ عمارة الذراع عن أبيه، وأحمدُ بنُ يزيد السُّلمي: «وليَنذَروا» بفتح الياء والذال[3] مضارع نَذِرَ بالشيء: إذا عَلِمَ به فاستعدَّ له، قالوا: ولم يُعرَف لـ : نَذِرَ بمعنى عَلِمَ مصدرٌ، فهو كـ : عسى وغيرها من الأفعال التي لا مصادِرَ لها، وقيل: إنَّهم استغنَوا بـ «أنْ» والفعل عن صريح المصدر.

وفي «القاموس»: نَذِرَ بالشيء كفَرِحَ: عَلِمَه فحَذِرَه، وأَنذَرَه بالأمر إنذاراً ونَذْراً ونَذِيراً: أَعلَمَهُ وحَذَّرَه[4].

وقرأ مجاهد وحميد بتاءٍ مضمومةٍ وكسر الذال[5].

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ بالنظر والتأمُّل بما فيه من الدلائل الواضحةِ التي هي إهلاكُ الأمم وإسكانُ آخرينَ مساكنهم وغيرُهما مما تضمَّنه ما أشار إليه ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له أصلاً، وتقديمُ الإنذار، لأنَّه داعٍ إلى التأمُّل المستتبعِ للعلم المذكور.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: ليتذكَّروا شؤونَ الله تعالى ومعاملتَه مع عباده ونحوَ ذلك، فيرتدعوا عمَّا يُردِيهم من الصفات التي يتَّصف بها الكفارُ، ويتَدَرَّعوا بما يُحظيهم لديه عزَّ وجلَّ من العقائد الحقَّة والأعمال الصالحة. وفي تخصيص التذكُّر بأولي الألباب إعلاءٌ لشأنهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٤) القاموس المحيط (نذر).
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّ في ذلك تلويحاً لاختصاص العلم بالكفار ودلالةً على أنَّ المشارَ إليه بهذا القوارعُ المسوقةُ لشأنهم لا كلُّ السورة المشتملةِ عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضاً، فإنَّ فيه ما يُفيدُهم فائدةً جديدة، وللبحث فيه مجال، وفيه أيضاً أنَّه حيث كان ما يفيدُه البلاغ من التوحيد وما يترتَّبُ عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً، وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك، عبَّر عن الأوَّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكُّر، ورُوعي ترتيبُ الوجود مع ما فيه من الخَتْم بالحسنَى(١).

وذكر القاضي - بيَّض الله تعالى غرَّةَ أحواله - أنَّه سبحانه ذكر لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكتبِ: تكميلُ الرسل عليهم السلام للناسِ المشار إليه بالإنذار، واستكمالُهم القوَّةَ النظريَّة التي منتهى كمالها ما يتعلَّق بمعرفةِ الله تعالى المشار إليه بالعلم، واستصلاحُ القوَّةِ العمليَّةِ التي هي التدرُّعُ بلباسِ التقوى المشار إليه بالتذكُّر(٢).

والظاهرُ أنَّ المرادَ بـ «أُولي الألباب» أصحابُ العقولِ الخالصة من شوائبِ الوهْمِ مُطلقاً، ولا يقدحُ في ذلك ما قيل: إنَّ الآيةَ نزلَت في أبي بكر ﷺ.

وقد ناسَبَ مُختَتَمُ هذه السورةِ مُفْتَتَحَها، وكثيراً ما جاء ذلك في سُوَر القرآن حتى زَعَم بعضُهم أنَّ قوله تعالى: (وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ) معطوفٌ على قوله سبحانه: (لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ) وهو من البعد بمكان.

نسألُه سبحانه عزَّ وجل أنْ يمنَّ علينا بشآبيب العفو والغفران.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ قال ابنُ عطاء: أرادَ عليه السلام أنْ يجعلَ سبحانَه قلبَه آمناً مِن الفراق والحجابِ، وقيل: اجعلْ بلَدَ قلبي ذا أمنٍ بكَ عنكَ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ من المرغوبات الدنيَّةِ والمشتهيات الحسِّيَّة.

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.

(٢) تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

وقال جعفر ﷺ: أرادَ عليه السلام: لا تردَّني إلى مشاهدةِ الخلَّة، ولا تردَّ أولادي إلى مشاهدةِ النبوَّة، وعنه أنَّه قال: أصنامُ الخلَّة خطراتُ الغفلة ولحظاتُ المحبة، وفي رواية أخرى أنَّه عليه السلام كان آمناً من عبادة الأصنام في كِبَرِه وقد كَسَرَها في صِغَرِه، لكنَّه عَلِمَ أنَّ هوى كلِّ إنسانٍ صنمُه، فاستعاذ من ذلك.

وقال الجنيد قدِّسَ سِرُّه: أي: امنَعْني وبنيَّ أنْ نَرَى لأنفسنا وسيلةً إليكَ[1] غيرَ الافتقار. وقيل: كلُّ ما وقف العارفُ عليه غير الحقِّ سبحانه فهو صَنَمُه، وجاء: النفس هو الصنم الأكبر.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ بالتعلُّق بها والانجذابِ إليها والاحتجابِ بها عنك سبحانك ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في طريق المجاهدةِ والخلَّة ببذل الروح بين يديك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ طينتُه من طينتي، وقَلبُه من قلبي، ورُوحُه من روحي، وسرُّه من سرِّي، ومَشْرَبُه في[2] الخلَّة مِن مَشرَبي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وفعل ما يقتضي الحجابَ عنك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا أدعو عليه، وأفوِّضُ أمرَه إليك. قيل: إنَّ هذا منه عليه السلام دعاءٌ للعاصي بستر ظُلمتِهِ بنورِه تعالى ورحمتِه جلَّ شأنه إياه بإفاضةِ الكمال عليه بعد المغفرة. ومن كلام نبيِّنا ﷺ: «اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[3].

وفي «أسرار التأويل»: أنَّه عليه السلام أشارَ بقوله[4]: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ إلى مقام الجمْعِ، ولذا لم يَقُل: ومَن عصاك، ويجوزُ أنْ يقال: إنَّما أضافَ عصيانهم إلى نفسه؛ لأنَّ عصيانَ الخلقِ للخالق غيرُ ممكنٍ، وما من دابةٍ إلا وربِّي[5]

---

(١) في الأصل: إليك وسيلة، والمثبت من (م).
(٢) قوله: في، ليس في الأصل. والمثبت من (م).
(٣) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ١٦١، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٦٢/ ٢٤٧، من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً، والديلمي في مسند الفردوس (٥٣٢٦) عن أبي هريرة عن سيدنا نوح عليه السلام، وأحمد في الزهد ص٦٦ عن عبيد بن عمير عن نوح عليه السلام، وقال السهيلي في الروض الأنف ٢/ ١٧٠: وقد ذكرها ابن إسحاق رواها عنه بعض رواة الكتاب.
وأخرجه أحمد (٣٦١١)، والبخاري (٣٤٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً بلفظ: «اللهم اغفر لقومي...».
(٤) ليس في الأصل.
(٥) في الأصل: ربي، والمثبت من (م).

آخذٌ بناصيتها، فَهُمْ في كلٍّ أحوالهم مجيبونَ لداعي ألسنةِ مشيئتِهِ سبحانه وإرادته القديمة.

وسئل عبدُ العزيز المكي: لِمَ لَمْ يقُل الخليلُ: ومن[1] عصاك؟ فقال: لأنَّه عظَّمَ ربَّه عزَّ وجل وأجلَّه مِن أنْ يثبِتَ أنَّ أحداً يَجترئ على معصيته سبحانه، وكذا أجلَّه سبحانه مِن أنْ يبلُغَ أحدٌ مبلغَ ما يليقُ بشأنه عزَّ شأنه من طاعته حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ قيل: إنَّ من عادة الله تعالى أنْ يَبْتليَ خليلَه بالعظائم لِينزِعَه عن نَفسه وعن جميع الخليقةِ؛ لئلا يَبقَى بينه وبينه حجابٌ من الحَدَثان، فلذا أَمَر جلَّ شأنُه هذا الخليلَ أنْ يُسكِنَ من ذرِّيته في وادي الحرم بلا ماءٍ ولا زادٍ لينقطعَ إليه ولا يعتمدَ إلا عليه عزَّ وجلَّ، وناداه باسم الربِّ؛ طمعاً في تربية عياله وأهلِهِ بألطافه وإيوائهم إلى جوار كرامته.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي يصلُ العبدُ بها إليك ويكونُ مرآة تجلِّيكَ ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تميل بوصف الإرادة والمحبةِ ليسلِّكوهم إليك ويدلُّوهم عليك، قال[2] ابنُ عطاء: من انقطع عن الخلق بالكليَّة، صرفَ الله تعالى إليه وجوهَ الخلقِ وجعَلَ مودَّته في صدورهم ومحبَّتَه في قلوبهم، وذلك مِن دعاء الخليلِ عليه السلام، لمَّا قطَعَ أهلَه عن الخلق والأسباب قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: أي: ثمراتِ طاعتك، وهي المقامات الرفيعة والدرجات الشريفة.

وقال الواسطي: ثمرات القلب[3]، وهي أنواعُ الحكمةِ، ورئيسُ الحكمة رؤيةُ المنَّةِ والعجزُ عن الشكر على النعمة، وهو الشكرُ الحقيقيُّ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ أي: يعلمون أنَّه لا يتهيَّأ لأحد أنْ يقومَ بشكرك، وثمرةُ الحكمة تُزيلُ الأمراضَ عن القلوب كما أنَّ ثمرةَ الأشجار تُزيلُ أمراضَ النفوس. وقيل: أي: ارزُقهم الأولاد الأنبياء والصلحاء، وفيه إشارةٌ إلى دعوته بسيِّد المرسلين ﷺ المعنيُّ

(١) قوله: ومن، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: وقال، والمثبت من (م).
(٣) في (م): القلوب.

له بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [البقرة:١٢٩] وأيُّ الثمراتِ أشهَى من أصفَى الأصفياء وأتقَى الأتقياء وأفضلِ أهل الأرضِ والسماءِ وحبيبِ ذي العظمةِ والكبرياءِ، فهو عليه الصلاة والسلام ثمرةُ الشجرة الإبراهيميَّة، وزهرةُ رياضِ الدعوةِ الخليليَّة، بل هو ﷺ ثمرةُ شجرةِ الوجود، ونورُ حديقة الكرم والجود، ونورُ حَدَقةِ[1] كلِّ موجودٍ ﷺ إلى اليوم المشهود.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال الخوَّاص: ما نُخفي من حُبِّك وما نُعلنُ من شكرك. وقال ابنُ عطاء: ما نُخفي من الأحوال وما نُعلنُ من الآداب. وقيل: ما نُخفي من التضرُّع في عبوديتك وما نُعلنُ من ظاهر طاعتك في شريعتك. وأيضاً: ما نُخفي من أسرار معرفتك وما نُعلنُ من وظائف عبادتك. وأيضاً ما نخفي من حقائق الشوقِ إليك في قلوبنا وما نُعلنُ في غلبة مواجيدنا بإجراء العبَرات وتصعيدِ الزفرات:

وارحمتا للعاشقين تكلَّفُوا ... سَتْرَ المحبةِ والهوَى فضَّاحُ
بالسرِّ إنْ باحوا تُباحُ دماؤهم ... وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإنْ هُمُ كَتَمُوا تحدَّثَ عنهمُ ... عند الوشاةِ المدمعُ السحَّاحُ[2]

وقال السَّيِّد علي البندنيجي قدِّس سرُّه:

كَتمتُ هَوَى حُبِّيهِ خوفَ إذاعةٍ ... فلِلَّه كم صبٌّ أَضرَّ بهِ الذَّيعُ
ولكنْ بَدَت آثارُه مِن تأوُّهي ... إذا فاحَ مسكٌ كيف يَخفَى له ضَوعُ[3]

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيعلم ما خَفِيَ وما علن.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ قيل: الظالم من تجاوزَ طورَه وتَبختَرَ على بساط الأنانية زاعماً أنَّه قد تضلَّع مِن ماء زمزمِ المحبةِ، واستغرقَ في لُجيِّ بحر الفناء، وتوعَّدَه الله تعالى بتأخير فضيحتِهِ إلى يومٍ تشخَصُ فيه أبصارُ سُكارَى المعرفةِ والتوحيد، وهو يومُ

---

(١) في الأصل: حديقة، والمثبت من (م).
(٢) الأبيات لشهاب الدين السهروردي القتيل كما في معجم الأدباء ١٩/٣١٧.
(٣) لم نقف عليهما.

الكشف الأكبر حين تبدو أنوارُ سَطواتِ العزَّةِ، فيستغرقون في عظمته، بحيث لا يقدرُون على الالتفات إلى غيره، فهناك يتبيَّن الصادقُ من الكاذب:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ مَن بكَى ممَّن تباكَى[1]

وقوله سبحانه: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ شرحٌ لأحوال أصحابِ الأبصار الشاخصة، وهم سكارَى المحبَّةِ على الحقيقة، قال ابنُ عطاء في «وأفئدتُهم هواء»: هذه صفةُ قلوبِ أهلِ الحقِّ متعلِّقةٌ بالله تعالى لا تقرُّ إلا معه سبحانه ولا تَسكُن إلا إليه، وليس فيها محلٌّ لغيره.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ طلبوا تداركَ ما فات، وذلك بتهذيب الباطنِ والظاهرِ والانتظامِ في سلوك الصادقين وهيهات ثمَّ هيهات، ثم أُجيبُوا بما يَقصِمُ الظهرَ ويَفصِمُ عُرَى الصبر وهو قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وذلك عند انكشافِ أنوارِ حقيقة الوجودِ، فيظهر هلاكُ كلِّ شيءٍ إلا وجهه.

وقيل: الإشارةُ في الآية إلى تَبدُّل أرضِ قلوبِ العارفين من صفات البشريَّة إلى الصفات الروحانيَّة المقدَّسةِ بنور شهودِ جمالِ الحقِّ، وتبدُّلِ سماواتِ الأرواح من عَجْزِ صفاتِ الحدوث وضَعْفِها عن أنوار العظمة بإفاضة الصفات الحقَّة.

وقيل: تبدّل أرض الطبيعة بأرض النفسِ عند الوصول إلى مقام القلبِ، وسماء القلب بسماء السرِّ، وكذا تبدّل أرض النفس بأرض القلبِ، وسماء السرِّ بسماء الروح، وكذا كلُّ مقامٍ يَعبُرُه السالك يتبدَّلُ ما فوقَه وما تحتَه كتبدُّل سماء التوكل في توحيد الأفعال بسماء الرضا في توحيد الصفات، ثم سماءُ الرضا بسماء التوحيد عند كشف الذات.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ بسلاسل الشهواتِ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو قَطِرانُ أعمالهم النتنة ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ وتستر ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ في جهنَّم الحرمان وسعيرِ الإذلال والاحتجاب عن ربِّ الأرباب.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٣٢.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهم علماء الحقيقةِ وأساطينُ المعرفةِ وعشَّاقُ الحضرة وأمناءُ خزائنِ المملكةِ، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن ذُكِّرَ فتذَكَّر، وتحقَّق في مقرِّ التوحيد وتقرَّر بمنِّه سبحانه وكرمه.